

الأجزاء العشرة الأولى

الطبعة التاسعة
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
الطبعة العاشرة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
الطبعة الحادية عشرة
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
الطبعة الثانية عشرة
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

الإمام الأكبر

محمود شلتوت

تفسير



الأجزاء العشرة الأولى

دار
الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء: ٩، ١٠].

صدق الله العظيم

مقدمـــة

عناية المسلمين بالقرآن

عُنى المسلمون منذ فجر الإسلام، وانبثاق نور الهداية الإلهية على ربوع العالم بالقرآن الكريم، مصدر تلك الهداية، ومنبع ذلك الإشراق، عناية كبرى شملت جميع نواحيه، وأحاطت بكل ما يتصل به، وكان لها آثارها المباركة الطيبة فى حياة الإنسان عامة، والمسلمين خاصة، أفاد منها العلم، وأفاد منها العقل، وأفاد منها الدين، وأفاد منها الفن، وأفاد منها القانون والتشريع، وأفادت منها الفلسفة والأخلاق، وأفادت منها السياسة والحكم، وأفاد منها الاقتصاد والمال، وأفاد منها كل مظهر من مظاهر النشاط الفكرى والعملى عرفه الناس فى حياتهم المادية والروحية.

ولقد زخرت المكتبة الإسلامية من آثار هذا النشاط العظيم، بل زخرت مكتبات أخرى فى لغات أخرى وأمم أخرى بكنوز رائعة يقف العقل أمامها حائراً مشدوهًا، يخالجه مزيج من الإعجاب والمهابة، ويملكه معنى عميق من معانى الخشوع أمام هذه العظمة، التى لا كفاء لها إلا الإقرار بالعجز والخضوع!.

ولكى ندرك مدى هذه العناية الكبرى التى تلقى بها المسلمون القرآن الكريم فى جميع عصورهم ومراحل حياتهم، وعلى أيدى علمائهم وملوكهم ووزرائهم وأمرائهم وأغنيائهم وأرباب الفن فيهم، وأهل الإحسان فى كل ناحية من نواحى الإحسان - لكى ندرك مدى هذه العناية الكبرى علينا أن نلتفت إلى ما سجله التاريخ الفكرى للمسلمين.

اشتغالهم بالعلوم المختلفة لخدمة القرآن:

لا نكاد نعرف علمًا من العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى تاريخهم الطويل إلا كان الباعث عليه هو خدمة القرآن الكريم من ناحية ذلك العلم؛ فالنحو الذى يقوِّم اللسان

ويعصمه من الخطأ، أريد به خدمة النطق الصحيح للقرآن؛ وعلوم البلاغة التى تبرز خصائص اللغة العربية وجمالها، أريد بها بيان نواحى الإعجاز فى القرآن، والكشف عن أسراره الأدبية وتتبع مفردات اللغة، والتماس شواردها وشواهدها وضبط ألفاظها، وتحديد معانيها، أريد بها صيانة ألفاظ القرآن ومعانيه أن تعدو عليها عوامل التحريف أو الغموض؛ والتجويد والقراءات لضبط أداء القرآن وحفظ لهجاته، والتفسير لبيان معانيه، والكشف عن مراميه؛ والفقه لاستنباط أحكامه؛ والأصول لبيان قواعد تشريعه العام وطريقة الاستنباط منه؛ وعلم الكلام لبيان ما جاء به من العقائد وأسلوبه فى الاستدلال عليها. وقل مثل هذا فى التاريخ الذى يشتغل به المسلمون تحقيقًا لما أوحى به الكتاب الكريم فى مثل قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾. ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ وقل مثل هذا أيضًا فى علوم تقويم البلدان وتخطيط الأقاليم، الذى يوحى به مثل قوله تعالى: ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾. ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾. وفى علوم الكائنات التى يوحى بها مثل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وهكذا علوم الفلك والنجوم والطب، وعلوم الحيوان والنبات وغير ذلك من علوم الإنسان، لا يخلو علم منها أن يكون الاشتغال به - فى نظر من اشتغل به من المسلمين - مقصودًا به خدمة القرآن، أو تحقيق إيحاء أوحى به القرآن. . حتى الشعر إنما اشتغلوا به ترقية لأذواقهم، وتربية لملكاتهم، وإعدادًا لها كى تفهم القرآن وتدرك جمال القرآن، وحتى العروض كان من أسباب عنايتهم به أنه وسيلة لمعرفة بطلان قول المشركين: إن محمدًا شاعر، وإن ما جاء به شعر.

اختلاف التفاسير باختلاف ثقافة المفسر:

وتبعًا لهذه الأنحاء المختلفة فى نظر المسلمين إلى القرآن واشتغالهم به، نرى التفاسير ذات ألوان متنوعة، فمنها ما يغلب عليه تطبيق قواعد النحو وبيان إعراب الكلمات وبنائها، ومنها ما يغلب عليه بيان نواحى البلاغة والإعجاز، ومنها ما يهتم بالفقه والتشريع وبيان أصول الأحكام وهكذا.

ولعل مما يدلنا أيضًا على مدى هذه العناية أن الذين فاتتهم القدرة على معالجة القرآن من هذه النواحى العلمية، لم يفتهم أن يضربوا بسهم فى نواح أخرى، جعلوها مظهرًا من مظاهر عنايتهم، وسبيلا إلى نيل حظهم من رضا الله وثوابه، فهذا يكتب القرآن بخط جميل، وهذا يزخرف صفحاته وأوائل سوره، وهذا يرقم آياته، وهذا يطرز سجله وغلافه، وهذا يرصد الأموال لتحفيظه، والمكافأة على التبريز فيه، وما زالت المساجد إلى يومنا هذا محتفظة بمظهر من هذه المظاهر هو تلك المقارئ التى يجتمع فيها القراء يتبادلون فيها قراءته وتجويده والاستماع إليه.

لهذا كله أعتقد أنى لا أتجاوز حد القصد والاعتدال إذا قلت: إنه لم يظفر كتاب من الكتب سماويًا كان أو أرضيًا فى أية أمة من الأمم قديمها وحديثها بمثل ما ظفر به القرآن على أيدى المسلمين، ومن شارك فى علوم المسلمين. ولعل هذا يفسر لنا جانبًا من الرعاية الإلهية لهذا الكتاب الكريم الذى تكفل الله بحفظه وتخليده فى قوله: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ فما كان الحفظ والتخليد بمجرد بقاء ألفاظه وكلماته مكتوبة فى المصاحف، مقروءة بالألسنة، متعبدًا بها فى المساجد والمحاريب، إنما الحفظ والخلود بهذه العظمة التى شغلت الناس، وملأت الدنيا، وكانت مثارًا لأكبر حركة فكرية اجتماعية عرفها البشر! ومن فضل الله علينا فى هذا العصر، أن الركب سائر لم يقف ولم يفتر، وأن هذا الروح الكريم ما يزال يسيطر على المسلمين، وينتقل فيهم من جيل إلى جيل يورثه الآباء للأبناء وسيظل كذلك - إن شاء الله - حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وهؤلاء هم المسلمون، على تفرقهم فى البلاد والأقاليم، وتفرقهم فى السلطان والنفوذ، وضعفهم المادى أمام دول الغرب، وبالرغم مما غمروا به وغزوا من علوم متنوعة، وثقافات متعددة ذات ألوان مادية، وأدبية، واجتماعية، وتشريعية، لا يزالون

يعتصمون بالقرآن، ويدينون بقدسية القرآن، ويتآزرون على خدمة القرآن. وإنهم ليستشرفون جميعًا لمطلع ذلك اليوم الذى يعود فيه سلطان القرآن فيكون التشريع تشريع القرآن، والأخلاق أخلاق القرآن، والهدى هدى القرآن، ونرجو أن يكون قريبًا.

ناحيتان يجب تنزيه التفسير عنهما:

وإذا كان المسلمون قد تلقوا كتاب الله بهذه العناية، واشتغلوا به على هذا النحو الذى أفادت منه العلوم والفنون، فإن هناك - مع الأسف الشديد - ناحيتين كان من الخير أن يظل القرآن بعيدًا عنهما، احتفاظًا بقدسيته وجلاله، هاتان الناحيتان هما: ناحية استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق والخلافات المذهبية، وناحية استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة منه، وأحب أن أثبت هنا - بين يدى ما سأكتبه من التفسير - رأيى فى هاتين الناحيتين واضحًا، فأقول:

تأويل القرآن وفق المذاهب:

أما الناحية الأولى: فإنه لما حدثت بدعة الفرق، والتطاحن المذهبى، والتشاحن الطائفى، وأخذ أرباب المذاهب، وحاملوا رايات الفرق المختلفة، يتنافسون فى العصبيات المذهبية والسياسية، وامتدت أيديهم إلى القرآن، فأخذوا يوجهون العقول فى فهمه وجهات تتفق وما يريدون، وبذلك تعددت وجهات النظر فى القرآن، واختلفت مسالك الناس فى فهمه وتفسيره، وظهرت فى أثناء ذلك ظاهرة خطيرة، هى تفسير القرآن بالروايات الغريبة، والإسرائيليات الموضوعة التى تلقفها الرواة من أهل الكتاب، وجعلوها بيانًا لمجمل القرآن وتفصيلا لآياته، ومنهم من عنى بتنزيل القرآن على مذهبه أو عقيدته الخاصة، وبذلك وجدت تحكمات الفقهاء والمتكلمين وغلاة المتصوفة وغيرهم ممن يروجون لمذاهبهم، ويستبيحون فى سبيل تأييدها والدعاية لها أن يقتحموا حمى القرآن، فأصبحنا نرى من يؤول الآيات لتوافق مذهب فلان، ومن يخرجها عن بيانها الواضح، وعرضها المسوقة له، لكيلا تصلح لمذهب فلان، وبهذا أصبح القرآن تابعًا بعد أن كان متبوعًا، ومحكومًا عليه بعد أن كان حاكما!

كانت هذه ثورة! ثورة غير منظمة، عقدت حول القرآن غبارًا كثيفًا حجب عن العقول

ما فيه من نور الإرشاد والهداية ، وكان من سوء الحظ أن صادفت هذه الثورة عهد التدوين ، فحفظ ودون كثير من الآراء الباطلة فى بطون الكتب ، وأخذت بحكم الأقدمية ومرور الزمن نوعًا من القداسة التى يخضع لها الناس ، فتلقاها المسلمون فى عصور الضعف الفكرى ، والانحلال السياسى كقضايا مسلمة ، وعقائد موروثة لا يسوغ لهم التحلل منها ولا الاعتداء عليها ولا التشكيك فيها .

قيّد هذا التراث العقول والأفكار بقيود جنت على الفكر الإسلامى فيما يختص بفهم القرآن ، والانتفاع بهداية القرآن ، فجمد الناس على تقليد هذه الكتب واتخذوها حكما بينهم ، واعتقدوا كل ما فيها من غير تمييز بين حق وباطل ، ونافع وضار ، واعتقدوا أنه لا يصح لمؤمن أن ينكر شيئًا منها ، وقالوا : هذا شىء درج عليه السابقون المتقدمون ودونوه فى كتبهم ، وشرحوا به كتاب الله ، وتلقته الأمة بالقبول ، وما كان لنا - ولسنا بأعلم منهم بالدين ، ولا بأبعد نظرًا فى فهم أساليب القرآن ، وتخريج الأحكام - أن نحيد عما تلقيناه منهم قيد شعرة ، ولا أن نخالفه فى قليل ولا كثير ، وبذلك أسلموا عقولهم إلى غيرهم ، وجنوا على أنفسهم بحرمانها لذة التفكير ، وجنوا على دينهم باعتقاد أن هذه الأوهام من الدين ، وقعدوا عن النظر فى القرآن ، وامتلأت أذهانهم بألوان من الأوهام الفاسدة عن التشريع والعقيدة ، وما يحل وما يحرم ، وصار كثير من المسلمين يعتقد أن الحلال ما أحله فلان فى كتاب كذا ، وأن الحرام ما حرمه فى كتاب كذا ، بل وصل الأمر ببعض أهل العلم إلى أن يقول : إن هذا الشىء ثابت فى القرآن لأن فلانًا وفلانًا حملوا عليه بعض آيات الكتاب الحكيم .

تفسير القرآن على مقتضى النظريات العلمية:

وأما الناحية الثانية : فإن طائفة أخرى هى طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث ، وتلقنوا ، أو تلقفوا شيئًا من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها ، أخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة ، ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها .

نظروا فى القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا فى القرآن فتحًا جديدًا ، ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة ، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية ،

وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن، ويرفعون من شأن الإسلام، ويدعون له أبلغ دعاية فى الأوساط العلمية والثقافية.

نظروا فى القرآن على هذا الأساس، فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن، وأفضى بهم إلى صور من التفكير لا يريدها القرآن، ولا تتفق مع الغرض الذى من أجله أنزله الله، فإذا مرت بهم آية فيها ذكر للمطر، أو وصف للسحاب، أو حديث عن الرعد أو البرق، تهللوا واستبشروا وقالوا: هذا هو القرآن يتحدث إلى العلماء الكونيين، ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب وكيف ينشأ وكيف تسوقه الرياح. وإذا رأوا القرآن يذكر الجبال أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شىء، قالوا: هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة وأسرار الطبيعة، وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم، قالوا: هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب علمى دقيق!

ومن عجيب ما رأينا من هذا النوع أن يفسر بعض الناظرين فى القرآن قوله تعالى: ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ بما ظهر فى هذا العصر من الغازات السامة، والغازات الخانقة التى أنتجها العقل البشرى فيما أنتج من وسائل التخريب والتدمير، يفسرون الآية بهذا ويغفلون عن قوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ** ﴾.

روى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود وقال له: تركت فى المسجد رجلا يفسر القرآن برأيه، يفسر قوله تعالى: ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ** ﴾ بأن الناس يوم القيامة يأتيهم دخان فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام، فقال ابن مسعود: من علم علمًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، إنما كان هذا لأن قريشًا استعصوا على النبى - ﷺ -، فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد.

وأغرب من هذا وأعجب أن يفسر بعض هؤلاء المفسرين الحديثين شأنًا غيبيًا من شئون الله الخالصة، لم ينزل بتفصيله وحى، ولم يطلع الله على حقيقته أحدًا من خلقه، ببعض الظواهر الحاضرة التى اكتشفها العلم واهتدى إليها بنو الإنسان، يفسر: «الكتاب المبين» و«الإمام المبين» الذى تحصى فيه الحسنات والسيئات ويعرض على أصحابها يوم القيامة،

بالتسجيل الهوائى للأصوات، ويقول: أظهر العلم ذلك بالمخترعات البشرية، واستخدمه الإنسان فيما يختص بالأصوات. ولا يبعد أن يستخدمه فيما يختص بحفظ الحركات والسكنات والخواطر النفسية، والله القادر خلق الكون على هذه السنن لغاية أسمى من ذلك هى محاسبة الناس يوم القيامة، وعرض أعمالهم عليهم، كشريط مسجل يضم جميع حركات الناس وسكناتهم وخواطرهم وأقوالهم، وما قدموا من عمل.

يقولون هذا ويفسرون به قوله تعالى: ﴿ **عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا** ﴾ ويهجمون على الغيب بما لم يأذن به الله، ويجدون من العلماء من يؤيدهم ويشجعهم ويزكيهم ويتمنى أن يكثر الله من أمثالهم!

إن هؤلاء فى عصرنا الحديث لمن بقايا قوم سالفين فكروا مثل هذا التفكير ولكن على حسب ما كانت توحى به إليهم أحوال زمانهم، فحاولوا أن يخضعوا القرآن لما كان عندهم من نظريات علمية أو فلسفية أو سياسية.

ولسنا نستبعد - إذا راجت عند الناس فى يوم ما نظرية داروين مثلا - أن يأتى إلينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول: إن نظرية داروين قد قال بها القرآن منذ مئات السنين!

جوانب الخطأ فى هذا الاتجاه:

هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك، لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتابًا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف.

وهى خاطئة من غير شك؛ لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلا متكلفًا يتنافى مع الإعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم.

وهى خاطئة، لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم فى كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأى الأخير، فقد يصح اليوم فى نظر العلم ما يصبح غدًا من الخرافات.

فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة. لعرضناه للتقلب معها وتحمل تبعات الخطأ فيها، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفًا حرجًا فى الدفاع عنه.

فلندع للقرآن عظمته وجلالته، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر، ليزداد الناس إيمانًا مع إيمانهم.

وحسبنا أن القرآن لم يصادم - ولن يصادم - حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول.

قيل: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، لا يكون على حالة واحدة؟ فنزل قوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾.

وإنك لتجد هذا في سؤالهم عن الروح حيث يقول الله عز وجل: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ أليس فى هذا دلالة واضحة على أن القرآن ليس كتابًا يريد الله به شرح حقائق الكون، وإنما هو كتاب هداية وإصلاح وتشريع؟

وإنى لأرجو أن أوفق فيما أعرض له من تفسير آيات القرآن الكريم إلى الخطة المثلى التى يجب أن يستقبل بها المسلمون كتاب الله ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا** ﴾.

محمود شلتوت

سورة الفاتحة

سـورة الفاتحـة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ﴾

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

جملتان: تعرف أولاهما في لسان الشرع، وعند المسلمين «بالاستعاذة» وتعرف الثانية «بالبسملة» أو «التسمية».

الاستعاذة:

وقد أمر الله بالاستعاذة عند أول كل قراءة. فقال في سورة النحل المكية: ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ وأمر بها في كل موضع يتوجس فيه الإنسان شيئًا من المخاوف أو الوساوس التي تدفع به - في مجرى العادة - إلى الشر. قال تعالى في سورة الأعراف المكية أيضًا: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ وأمر رسوله على وجه العموم أن يستعيذ به، وأن يلجأ إليه، وأن يتحصن به من كل شر ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ** ﴾ ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ**

الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ .

وإنما خصت القراءة بطلب الاستعاذة، مع أنه قد أمر بها على وجه العموم فى جميع الشئون؛ لأن القرآن مصدر الهداية، والشيطان مصدر الضلال، فهو يقف للإنسان بالمرصاد فى هذا الشأن على وجه خاص، فيثير أمامه ألوانا من الشكوك فيما يقرأ، وفيما يفيد من قراءته، وفيما يقصد بها، فيفوت عليه الانتفاع بهدى الله وآياته، فعلَّمنا الله أن نتَّقى ذلك كله بهذه الاستعاذة التى هى فى الواقع عنوان صادق، وتعبير حق عن امتلاء قلب المؤمن بمعنى اللجوء إلى الله، وقوة عزيمته فى طرد الوساوس والشكوك، واستقبال الهداية بقلب طاهر، وعقل واع، وإيمان ثابت.

وقد أجمع المسلمون على أن جملة الاستعاذة ليست من نصوص القرآن، وإنما هى تنفيذ لأوامر القرآن التى ذكرناها، وتبعًا لهذا لم يجر خلاف فى أنها تقرأ مع الفاتحة فى الصلاة أولا تقرأ، على النحو الذى جرى فى البسملة.

البسملة:

أما البسملة فقد نقل عن كثير من العلماء أنها لم تعرف بتمامها عند المسلمين إلا بعد أن نزلت سورة «النمل» وأنهم كانوا يقولون أولا: «باسمك اللهم» ثم قالوا: «بسم الله» ولما نزل قوله تعالى: **﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾** قالوا: «بسم الله الرحمن» ولما نزلت سورة النمل، قالوا: «بسم الله الرحمن الرحيم» تبعًا لما جاء فى السورة من قوله تعالى: **﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾** .

وسواء أصح هذا التدرج أم لم يصح، فقد صار من المقرر الثابت عند المسلمين جميعًا أن الشرع أمر بها، وندب إليها فى أول كل فعل ذى بال، وصح فى ذلك بعض الأحاديث.

الرأى الذى نختاره فى البسملة:

وقد أجمع العلماء على أن «البسملة» جزء من سورة النمل، أما أنها جزء فى أول كل سورة، أو فى أول الفاتحة فقط، أو أنها آية مستقلة نزلت للفصل بين السور مرة واحدة، فتلك أقوال ليس من سبيلنا الآن أن نعنى ببحثها، ولا بعرض استدلالاتها. وحسبنا فى ذلك: أن الذى يترجح عندنا أنها لم تكن من القرآن إلا فى قوله تعالى من سورة النمل: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾. وقد تبع الخلاف فى أنها جزء من الفاتحة أو ليست جزءا منها: اختلافهم فى وجوب قراءتها أو عدمه فى الصلاة. والجهر بها أو الإسرار إذا قرئت.

وقد تكلم المفسرون كثيرا فى معنى البسملة، وفى علاقة بعض ألفاظها ببعض، وفى المقصود منها أول السور، وقد راقنا فى هذا المقام ما قاله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضى الله عنه:

ويتلخص فى أنها تعبير يقصد به الفاعل إعلان تجرده من نسبة الفعل إليه. وأنه لولا من يُعَنْوَنُ الفعل باسمه لما فعل، فهو له، وبأمره، وإقداره وتمكينه، فمعنى افعل كذا باسم فلان: افعله معنونًا باسمه ولولاه لما فعلته، قال الأستاذ: وهذا الاستعمال المعروف مألوف فى كل اللغات، وأقربه اليوم ما يرى فى المحاكم النظامية حيث يبتدئون الأحكام قولا وكتابة باسم السلطان أو الخديو فلان.

تحقيق المقصود من التسمية فى أول السور:

ولعل هذا يرشدنا إلى أن القصد منها فى أوائل السور ليس هو مجرد التبرك أو الاستعانة كما يقولون، وإنما القصد منها أولا وبالذات، لفت أرباب العقول بادئ ذى بدء إلى أن هذه السور وما يتلى فيها من آيات، وما تدل عليه من أحكام وقصص، إنما هى لله ومن الله، وليس لأحد من خلقه شيء فيها، فليست من قول محمد، ولا من تعليم بشر، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾، ألا وإن مجيئها على هذا الأسلوب المألوف فى إفادة هذا المعنى الجامع لوصفين كريمين لم يعهد عندهم أحدهما، كما لم يعرف اجتماعهما وهما الرحمن الرحيم، لمما يشعر بأن هذا القرآن قد جاء على غير ما يألفون من كلام الملوك والزعماء والشعراء. وفى هذا إضعاف لروح المعارضة التى

يعلم الله أن فريقًا من الخصوم سيقوم بترويجها ضد القرآن وضد نبي القرآن، هذا، ولا يبعد أن يكون انحطاط ما أثر عنهم فى معارضة القرآن، حتى عن مألوف كلامهم أثراً من روعة هذا الشعار الإلهى القوى العظيم: بسم الله الرحمن الرحيم.

التسمية شعار المسلمين:

هذا هو معنى البسملة فى أوائل السور، وقد صارت بعد شعاراً للمسلمين يقصد به إظهار التبرى من الحول والقوة، وليس معنى هذا أن الإنسان يتجرد من كل حوله وقوته، ويلقى بنفسه فى أحضان القضاء المجهول أو المصادفات الباغتة دون تفكير ولا عمل ولا جهد، كما يطيب لبعض ذوى الأغراض الفاسدة أن يتصوروا أثر الاستعانة واللجوء إلى الله على هذا النحو، ويجعلون ذلك سبيلا إلى القول بأن الإسلام يربى فى متبعيه بمثل هذه الأساليب روح الاستكانة والضعف والاعتماد على القوى الغيبية المجهولة، وقد أخطئوا فى ذلك، وضلوا وأضلوا، فما كان الإنسان فى نظر الدين إلا خليفة فى الأرض، يعمل ويكدح وينظم ويتصرف، ويكلف ويحاسب، ولا ريب أن كل ذلك ينفى عن الإسلام تهمة إهمال القوى الإنسانية وتعطيلها اعتماداً على اللجوء إلى الله.

على أن التعبير فى «بسم الله الرحمن الرحيم» ينفى هذه التهمة، فهو صريح فى أن للعبد عملا أساسيًا، وأنه إنما يعمله بأمر الله، ولولا الله لما فعله ولما قدر عليه، فالله هو الذى خلقه وهو الذى أودع فيه قوى التفكير والعمل، وهو الذى أمدها برحمته، ولو تخلت رحمته عنها طرفة عين، لما كانت، ولما كان الإنسان.

فأين هذا مما يصوره الظالمون؟

إن الإنسان فى هذه الحياة، وفى كل ما يزاوله من أعمال، لفى حاجة إلى قوتين يباشر بإحداهما عمله، ويقوى بالأخرى روحه المعنوية، فإن للروح المعنوية قيمتها وآثارها فى العمل والإنتاج، فإذا اتجه الإنسان إلى ربه القوى القاهر، وتمثل عظمته ورحمته، وجبروته وغضبه، كان ذلك أدعى إلى أن يقدم على ما يريد قوى النفس، ثابت العزم، غير متزلزل الإرادة، ثقة بأنه يأوى إلى ركن شديد، وكان ذلك فى الوقت نفسه أدعى أيضًا إلى تحرى ما يرضى ربه، والبعد عما يغضبه، فهو لا يعنون عمله باسم الله إلا حيث يعلم أن ذلك العمل يرضى الله، وإلا كان هازئا بربه، ساخراً بمولاه.

وبهذا تتجلى فائدة البسملة فى الناحيتين: فى تقوية الروح على عمل الخير، وفى صرف النفس عن عمل الشر، وهذا أسمى ما يتصور من شعار يتخذ عنوانًا لأمة من الأمم:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

هذه أول آية من سورة الفاتحة، وأصح ما قيل فى سورة الفاتحة أنها مكية نزلت قبل الهجرة، وجاء فى بعض الروايات أنها أول سورة كاملة نزلت من القرآن، ولهذا، ولأنه يبدأ بها المصحف كتابة، والقرآن حفظًا وقراءة، سميت: «فاتحة الكتاب» وقد سميت أيضًا بأسماء أخرى لمعان مناسبة، كتسميتها «أم الكتاب» أو «السبع المثانى» أو «سورة الحمد»... إلخ.

﴿ الْحَمْدُ ﴾ هو الثناء بالجميل على واهب الجميل، و﴿ اللَّهِ ﴾ علم الذات الأقدس واجب الوجود ذى الجلال والجمال، و﴿ الرَّبِّ ﴾ المولى السيد المالك المربى، و﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ جمع عالم، أريد به جميع الكائنات من كل ما سوى الله عز وجل.

تقرر هذه الآية ثبوت الثناء المطلق الذى لا يحد لله سبحانه. وتقرر اختصاصه الأقوى به. فليس لأحد أن ينازعه إياه: وليس لأحد أن ينال منه ذرة إلا ولله مرجعها. ومنه مبدؤها. وتقرر أن هذا الاستحقاق العام الشامل للثناء المطلق إنما كان؛ لأنه سبحانه هو رب العالمين.

فليس شىء من الكائنات سماويها وأرضيها. مجردها وماديها. روحانيها وجسمانيها، إلا والتربية الإلهية شملته فى جميع أطواره، ومن جميع نواحيه، ذاته وخواصه، فى وجوده وبقائه، فى تمكنه ونفعه والانتفاع به.

تربية الله للعالم:

عمت تربيته جميع الكائنات. وأعطى كل شىء نهاية ما يطلبه استعداده ومركزه فى مراتب الوجود. وهذا هو الإنسان الذى جعله الله فى أقصى درجات الوجود المادى: ومنحه مركز الخلافة فى الأرض. قد رباه فوق هذه التربية الجسمية الكونية العامة تربية نفسية وعقلية. ثم رباه تربية تشريعية سبيلها الوحى وبعث الرسل. وكما أنه لا شريك له سبحانه فى تربية الخلق والتكوين، فلا شريك له فى تربية الوحى والتشريع. وكما أنه ليس

لأحد أن يزعم لنفسه نصيبًا فى الخلق أو حقًا فيه، فليس لأحد أن يزعم لنفسه نصيبًا فى التشريع، والتحليل والتحريم.

ومن هنا كان لله في خلقه عامة تربيتان: تربية خلقية وأخرى تشريعية. وقد انتظمهما قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وفى ذلك إيحاء قوى إلى أن يعمل الإنسان عقله فى هذا العالم ليدرك نواحى هاتين التربيتين اللتين جعلتا مناط استحقاق الله للحمد، واختصاصه بالثناء. فعلى الإنسان لذلك أن يبحث أسرار الله فى نفسه، وفى الحيوان، وفى النبات، وفى الجماد، وفى السماء، وفى الأرض وفى الماء، وفى الهواء، وفى كل ما خلق الله من شيء. وعليه أن يبحث فى طبيعة العقل البشرى. وما يعرض له من وجوه الزلل إذا استقل بالنظر إلى الأشياء والآراء والأفهام. وما هو بحاجة إليه من تشريع إلهى يعصمه ويؤازره فى إدراك الحق والعمل بالحق.

وقد صرح القرآن الكريم بهذا الإيحاء فى هذه الآيات الكثيرة التى تحث على النظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء؛ كى يدرك الإنسان جهات هذه التربية. ويؤمن عن عمل وبرهان أن الله سبحانه هو رب العالمين. وأنه المستحق للحمد والثناء ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾. ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

سور الحمد فى القرآن:

وفى القرآن غير الفاتحة سور أربع بدئت بالحمد لله. هى: سورة الأنعام. وسورة الكهف. وسورة سبأ. وسورة فاطر. وبذلك تكون سور الحمد خمسًا.

ومما تجدر ملاحظته أن هذه السور الخمس قد دارت حول بيان ربوبية الله للعالم من ناحيتها: الخلقية والتشريعية. وأن سورة الفاتحة تختص من بينها بأن أجملت ذكر هذه الربوبية من الجانبين. وأن السور الأخرى جاءت كتفصيل لهذا الإجمال. وافتتحت كل سورة منها بعد الحمد لله بما يشعر بنوع التربية التى فصلتها.

فبينما تبدأ الفاتحة بـ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فتعم تربية الخلق والتشريع. وتتبعه بما يؤكد هذا المعنى فى الجانبين. نرى أن سورة الأنعام تبدأ بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ فتذكر شأن الخلق والإيجاد، وتذكر

أعراض الكائنات من الظلمات والنور، وخلق الإنسان من طين، والقرون الذين مكنهم الله فى الأرض، والسماء والأنهار، وما سكن فى الليل والنهار ومفاتح الغيب التى لا يعلمها إلا هو. واستدلال إبراهيم على الله بظواهر الشمس والقمر والنجوم، إلى غير ذلك مما تغلب عليه ناحية الخلق والتدبير.

ونرى سورة الكهف تبدأ بقوله تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا** ﴾.

ثم تمضى فى بيان هذه الناحية من ربوبية الله المتصلة ببيان الأمور الغيبية التى لا يعلمها إلا الله، ولفت نظر الإنسان إلى ما فيها من عبر، فيذكر قصة أهل الكهف، ويذكر تصريفه فى هذا القرآن للناس من كل مثل، وأنه ما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين. ويذكر قصة موسى وفتاه والعبد الصالح، وما كان فيها من عبر. إلى غير ذلك مما تغلب عليه روح التربية الإلهية عن طريق الوحى وإنزال الكتب. ثم تختم بقوله تقريرا لبشرية الرسول. وإمداده بوحى الله: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾.

ونرى سورة سبأ تبدأ بقوله تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ** ﴾ فتذكر جانب التربية الخلقية كما ذكرته سورة الأنعام ولكن على نحو آخر. فتذكر أن جميع ما فى السموات والأرض لله علمًا وتصريفًا. وتعرض للساعة وعلم الغيب على صور شتى. ثم تعرض لقصص بعض الأنبياء من جهة ما مكن الله لهم فى الأرض من تسخير بعض الكائنات لداود وسليمان. وتذكر سبأ ومساكنهم وما كان لهم من متاع، وما أصابهم حين أعرضوا عن دعوة الحق. وتعرض للرزق فى مواضع متعددة، ثم تختم ببيان عاقبة من ضلوا عن الصراط المستقيم، ولم يعملوا عقولهم فى تلك الآيات الكونية ﴿ **وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ** ﴾.

ونرى سورة فاطر تبدأ بقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾. فتجمع كما جمعت سورة الفاتحة نوعى التربية ولكن على تفصيل، فتذكر خلق السموات والأرض، وتذكر رسل الوحى من الملائكة، وأن الله مصدر الرحمة، بيده إمساكها وإرسالها: رحمة بالخلق، ورحمة بالتشريع، ثم تسير فى ذكر بعض ظواهر الكائنات، من إرسال الريح، وإثارة السحاب، وخلق الإنسان من تراب، وتصريف الله لليل والنهار، والشمس والقمر، واختلاف الناس والدواب فى الألوان، ثم تذكر الذين يتلون كتاب الله وينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية، وتبين أن ما أوحى الله به إلى محمد هو الحق المصدق لما بين يديه، وأنه تعالى يورث الكتاب من اصطفاهم من عباده، وهكذا تتردد بين التربية الخلقية والتشريعية تفصيلا بعد تفصيل.

هذه سور الحمد فى القرآن، وهذا هو أسلوبها وهى كلها مكية نزلت فى وقت تأسيس الدعوة إلى التوحيد، واعتقاد أن الله هو مصدر كل خير يصيب الإنسان من جهة حياته المادية وحياته الروحية، وكان ذلك بمثابة تمهيد يغرس فى النفوس الإقبال على الإيمان، ويهيئها لاستقبال ما سينزل من التشريع بعد فى رضاً واطمئنان وطاعة وخضوع، وقد أجملت الفاتحة ـ كما قلنا ـ جميع ما فصل فى هذه السور بكلمة ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾:

هذه هى الآية الثانية من آيات سورة الفاتحة، تشتمل على اسمين كريمين من أسماء الله الحسنى: الرحمن الرحيم. وقد كثرت أقوال المفسرين فى العلاقة بين هذين الاسمين، فبينما يرى فريق أن الرحمن هو المنعم بجلائل النعم، وأن الرحيم هو المنعم بدقائقها؛ يرى فريق آخر أن الرحمن هو المنعم على جميع الخلق، وأن الرحيم هو المنعم على المؤمنين خاصة، ويرى فريق ثالث أن الوصفين بمعنى واحد، وأن الثانى تأكيد للأول.

ورأى بعض المتأخرين أن الوصفين متغايران تمام التغاير، فالرحمن صفة ذاتية هى مبدأ الرحمة والإحسان، والرحيم صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعديهما إلى المنعم عليه، ويدل على هذا أن الرحمن لم تذكر فى القرآن إلا مُجرًى عليها الصفات

كما هو شأن أسماء الذات. ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وهكذا.

أما الرحيم، فقد كثر في القرآن استعمالها وصفًا فعليًا، وجاءت بأسلوب التعدية والتعلق بالمنعم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ كما جاءت الرحمة كثيرًا على هذا الأسلوب ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ ولم يرد في القرآن تعبير ما «برحمانية الله».

وهذا الرأي في نظرنا هو أقوى الآراء مما ذكرنا ومما لم نذكر، فإن تخصيص أحد الوصفين بدقائق النعم أو ببعض المنعم عليهم لا دليل عليه، كما أنه ليس مستساغًا أن يقال في القرآن: إن كلمة ذكرت بعد أخرى لمجرد تأكيد المعنى المستفاد منها.

وللإتيان بهذين الاسمين الكريمين بعد ذكر ربوبية الله للعالمين مغزى عظيم، ذلك بأن الله بين بهما أن ربوبيته وملكه للعالم ليس مصدرها جبروته وقهره وهو القهار الجبار، ولكن مصدرها عموم رحمته وشمول إحسانه لجميع خلقه؛ فإنهم بالرحمة يوجدون، وبالرحمة يتصرفون، وبالرحمة يرزقون، وعلى الرحمة يعتمدون، وبالرحمة يوم القيامة يبعثون ويسألون، فإذا استقر هذا المعنى في نفوس العباد، وأن الله يتحبب إليهم بصفة الرحمة والإحسان، كان ذلك أبعث لإقبالهم عليه بصدور مطمئنة، وقلوب مؤمنة. ونحن إذا تتبعنا آيات القرآن وجدنا أن رحمة الله بعباده لها مظهران: مظهر التربية الخلقية ومظهر التربية التشريعية، والحياة كلها تقوم على المادة والروح، وبهذا يتبين معنى قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وإذا كان الحمد لله، والثناء عليه، مرجعهما وأساسهما هو تربيته للعالم، وإحسانه إليه، فما أجدر المؤمن أن يتخلق بخلق الله، وأن يلتمس الحمد والثناء والرضى من الله عن هذا السبيل الكريم. فمن آتاه الله حق التربية، وحمله مسئوليتها من إمام، أو أب، أو معلم، أو زوجة، أو كذا أو كذا. وكلكم راع ومسئول عن رعيته. فإن عليه أن ينظر إلى ما كلف رعايته على أنه أمانة عنده من المربي الأعظم، استخلفه في القيام بها والإحسان فيها، وليمض فيها على سنن الرحمة والإحسان لا الجبروت والطغيان، فإن ذلك أدنى

إلى أن يصلح الله به، ويصلح له، وأقرب أن تناله رحمة الله وإحسانه «الراحمون يرحمهم الرحمن». «ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء». ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

تفرد الله بالملك والملك فى يوم الجزاء:

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ أو ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾.

قراءتان يدل مجموعهما على أن الملك والمُلك فى هذا اليوم العظيم - يوم الدين والجزاء والحساب - لله وحده، وقد جاء فى القرآن: ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ وجاء: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ وقد خوّل الله فى الدنيا لبعض خلقه شيئًا من مظاهر الملك أو المُلك تنفيذًا لحكمته ونظامه الذى أراده لهذا الكون، ورسم لهم حدود ما يرضيه وما يغضبه، وأوجب على الناس فى هذه الحدود طاعة الملوك والمالكين، وانفرد فى يوم الدين بالملك والحكم والإدانة والجزاء، لا يشاركه فى ذلك أحد ممن خلق، ولا يشفع أحد إلا لمن ارتضى، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، يومئذ توضع موازين الدنيا، وترفع موازين الآخرة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾.

وفى هذا تربية أخرى للعبد، فإنه إذا آمن بأن هناك يوما يظهر فيه إحسان المحسن، وإساءة المسيء، وينال كل منهما جزاءه دون محاباة ولا ظلم، وأن زمام الحكم فى ذلك اليوم العظيم بيد العليم الخبير الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، تكوّن عنده خلق المراقبة، وتوقع المحاسبة، فكان ذلك أعظم سبيل لصلاحه وصلاح كل ما يعمل.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾:

كان ما تقدم من الآيات الثلاث تقريراً للحقيقة فى جانب الربوبية، وعظمتها وعموم سلطانها، وسعة رحمتها، تقريراً لطرفى المبدأ والمعاد، وأن ربوبية الله قد شملتهما وانفردت بالرحمة والرحمانية فيهما، وقد جاءت هذه الآية تقريراً لجانب العبودية والاستعانة، وبينت أن الذى يجدر بالعباد أن يتجهوا إليه وحده بالخضوع والخشوع

والاعتراف بالحاجة إليه هو ذلك الذي تجلت أوصافه، ووضحت عظمته، وصار ظاهراً في كل شيء حتى لكأنه يرى ويتوجه إليه بالخطاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وبذلك يتجلى - مع ما تقدم من الصفات - معنى جديد هو: معنى قرب الله لعباده، وشهوده كل أحوالهم، وأنه أقرب إليهم من حبل الوريد ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

معنى العبادة:

ومعنى العبادة خضوع لا يحد لعظمة لا تحد، وهي تدل على أقصى غايات التذليل القلبي، والحب النفسي، والفناء في جلال المعبود وجماله فناء لا يدانيه فناء، وقد يحب الإنسان ويتفانى في عشق محبوبه، ويخضع ويتفانى في الخضوع ويستعذب العذاب في سبيل هذا المحبوب، ولكنه مهما بلغ لا يسمى عمله «عبادة» فإن العبادة هي ما كانت أثراً لشعور بسلطان لا يحد، ولا يدرك كنهه، ولا تحصى نعمته.

إن صورة العبادات متى خلت عن هذا الروح، ولم تكن مبنية على ذلك الشعور، لم تكن واقعة موقعها، ولا مقبولة عند الله، ولا مثمرة ثمرتها من رضى الله.

وإذا كانت العبادة هي الفناء في الله وحده، فهو صاحب الحق الأوحد في رسم صورها، وتشريع أحكامها.

وليس لأحد من العابدين أن يضع أو يزيد أو ينقص فيما رسم الله، كما أنه لا ينبغي لأحد أن يتوجه بما رسم الله لعبادته إلى أحد من خلقه. فلا ركوع إلا لله، ولا سجود إلا لله، ولا طواف ببيت إلا لله، ولا نذر إلا لله، ولا خضوع ولا تذلل إلا لله.

والاستعانة: طلب المعونة بعد بذل الوسع في العمل. والعاقل لا يطلب المعونة إلا من القادر عليها، والله هو القادر، وقدرته شاملة لا يعجزه شيء، ولا يخرج عن سلطانه شيء، فهو الذي يهيئ الأسباب وهو الذي يزيل الموانع وهو الذي يعطي إن شاء ويمنع إن شاء.

ذلك سمو بالمؤمنين عن مواطن الذلة والاحتياج لبشر أمثالهم، أرباب قوى مستعارة محدودة، وهم فى قواهم محتاجون كاحتياجهم، مستعينون كاستعانتهم، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾. ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾.

التعاون ليس استعانة بغير الله:

وليس فى هذا ما ينافى التعاون بين الناس، وقد طلبه الله سبحانه وتعالى فى آيات كثيرة ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ فإن هذا التعاون فى دائرة الحدود البشرية لا يخرج عنها، ولهذا لا يأمر الدين ولا يرضى بطلب المعونة إلا ممن يملكها، فلا يرضى بالتوجه فى طلب الحاجات إلى الأموات، ولا يرضى باستكشاف الغيب ممن يدعون علم الغيب، ولا يجعل بين خالقه وبينه وسطاء فى طلب المغفرة والرضوان.

هذا هو التوحيد الخالص، وهو سبيل المؤمنين كما رسم الله. فهؤلاء الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم، وتيسير أمورهم، وشفاء أمراضهم، ونماء حرثهم وزرعهم، وهلاك أعدائهم، وغير ذلك من المصالح، عن سبيل التوحيد ناكبون، وعن ذكر الله معرضون.

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾.

الصراط المستقيم: هو الطريق الذى لا عوج فيه ولا انحراف، وقد كثر كلام المفسرين فى المراد بالصراط المستقيم الذى جعل الله طلب الهداية إليه فى هذه السورة أول دعوة علمها الإنسان. وأجمع ما نرى فى ذلك أن الصراط هو جملة ما يوصل الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام من جهتى العلم والعمل، وهو سبيل الإسلام الذى ختم الله به الرسالات السماوية، وجعل القرآن دستوره الشامل، ووكل إلى محمد - ﷺ - تبليغه وبيانه.

الإسلام هو الصراط المستقيم:

وحسب القارئ فى معرفة أن الإسلام هو الصراط المستقيم، وأنه لذلك كان الشريعة

الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان، أن يتتبع حالة العالم في عصوره المتتابعة قبله، فإنه سيجد أن العالم كان يتردد بين طرفين من إفراط وتفريط، وكان ذلك شأنه في كل شيء: في العقائد، في الأخلاق، في صلة الإنسان بالحياة، في علاقة الفرد بالمجتمع، في علاقة الأمم بعضها ببعض، في طريقة التشريع، إلى غير ذلك من سائر الشئون. وقد جاء الإسلام فأدرك أن العالم لا يصلح بواحدة من هاتين الخطتين، وأنهما منافيتان للفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية، منافيتان لسنن الاجتماع التي تقضي بالوقوف عند الحد الوسط في كل شيء لضمان البقاء والصلاح، وعدم التعرض للانحلال والفساد، وأدرك الإسلام ذلك فجاءت شريعته وسطا لا إفراط فيها ولا تفريط، ووقعت أحكامها ومبادئها مهما تنوعت وتشعبت في هذه الدائرة التي رسمها كتاب الله عز وجل ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾. ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾.

هي في العقيدة وسط بين الذين ينكرون الإله، ويزعمون أن هذه الحياة الدنيا ليست إلا وليدة المصادفات والتفاعلات المادية ﴿ **مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ** ﴾ وبين الذين يقولون بالتعدد، ويتخذون مع الله أندادًا: تقرر في صراحة وجلاء، أن الله إله واحد، وأنه المعبود الذي لا يعبد سواه، ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾، ﴿ **وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾، ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾.

وهي في الأخلاق وسط بين الذين يتحللون من كل الفضائل والذين يشتطون في تصور الفضيلة والتزام طرف التشديد فيها: تقرر أن الفضيلة وسط بين الرذيلتين: لا جبن ولا تهور؛ ولا بخل ولا تبذير، لا استكبار ولا استخذاء، لا جزع ولا استكانة. وأساس ذلك كله قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾، ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾.

وهي في صلة الإنسان بالحياة وسط بين المادة البحتة، التي لا تعرف شيئًا وراء ما يقع عليه الحس من طعام وشراب، ولذات وشهوات، وغلبة وبطش، وجمع للأموال،

وتكاثر وتفاخر، والروحية البحتة التى تزهد فى الحياة وتعرض عنها إعراضًا تامًا، فلا زواج، ولاسعى، ولا عمل، ولكن تبتل مطلق وإهمال للأسباب، يقرر الإسلام فى ذلك الوسط أيضًا فيقول: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾، ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾، ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾.

وهى فى طريقة التشريع ووضع قوانين الحياة وسط: لم تدع الناس يشرعون لأنفسهم فى كل شىء، ولم تقيدهم بتشريع من عندها فى كل شىء، بل نصت وفوضت: نصت فيما لا تستقل العقول بإدراكه، كالعبادات زمانا ومكانا، وكيفية ونحو ذلك، وفيما لا تختلف المصلحة فيه باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، كالمواريث وأصول المعاملات من بيع وشراء وتحريم لأكل أموال الناس بالباطل ونحو ذلك، وفوضت فيما يدرك العقل الخير فيه، وتختلف المصلحة فيه بتغير الأزمنة والأمكنة والأشخاص، ومن هنا وجد الاجتهاد، وكان من أركان الشريعة الإسلامية، وحفظ الله به للعقل الإنسانى كرامته.

وهى فى تحديد علاقة الفرد بالجماعة وسط أيضًا: لم تترك الفرد طليقًا يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء، ولم تدعه كالوحش فى الفلاة يجرى ويمرح ويعبث، ويفترس ما يقدر عليه، ويتحكم فيه الأقوى منه، ولم تلغ شخصيته، وتنس استقلاله، وتضيعه فى غمار الجماعة لا يعمل إلا لها، ولا يفكر إلا فيها، ولا يعرف لنفسه وجودًا غير وجودها، كأنه جزء من آلة يتحرك بحركتها ويسكن بسكونها: ولكنها اعتبرته ذا شخصية مستقلة، وفى الوقت نفسه اعتبرته لبنة فى بناء المجتمع فأثبتت له، بالاعتبار الأول، حق الملكية لماله ودمه والهيمنة على نفسه وولده، ومنحته فى هذه الدائرة حق التصرف بما يراه خيرًا له وسبيلا لسعادته فى حياته، وأوجبت عليه، بالاعتبار الثانى، حقًا فى نفسه بالخروج للغزو والجهاد فى سبيل رد العدوان عن الوطن، وحقًا فى ماله بالبذل والإنفاق فى سبيل الله، وأوجبت عليه إرشاد الأمة، وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، وأوجبت عليه أن يعمل لإنجاب النسل الصالح وتكثير سواد الأمة به، فيختار الولود ذات الدين والخلق؛ لتقوى بذلك الأمة ويعلو شأنها.

وفى مقابل هذه الحقوق التى قررتها الشريعة على الفرد للجماعة، أوجبت على

الجماعة للفرد حقوقًا لاسعادة إلا بها : كفلت له حفظ دمه وماله وعرضه ، وشرعت لحمايته حق القصاص وحق الحد والتعزير ، وجعلت له حقًا فى أن تعينه بمالها إذا افتقر ، وبذلك تبادل الفرد والمجتمع الحقوق والواجبات ، وجعلت سعادة الحياة منوطة بالتعادل بين الجانبين ، وعدم طغيان أحدهما على الآخر : فلو ضن الفرد بنفسه أو ماله أو لسانه على المجتمع ساءت حالته وأدركه الضعف والانحلال . ولو ضن المجتمع بقوته على الفرد فلم يكفل له سعادته ، ولم يحفظه فى ماله ونفسه وعرضه ، ولم يعنه فى حال فقره أو ضعفه ، أشقاه وعرضه للهلاك ، وبهذا وذاك تصبح الحياة عبئًا ثقيلاً لا يحتمل ، بل جحيمًا لا تطاق !

وكذلك كان شأن الشريعة الإسلامية فى تحديد علاقة الأمة بغيرها من الأمم : لم ترض للمسلمين بحياة الضعف والذلة ؛ وأن يكونوا عزلا من القوة ينتظرون حظهم ؛ ويترقبون مصيرهم وما تقرره الأمم الأخرى فى شأنهم ؛ ولم ترض لهم كذلك بحياة الظلم والاستبداد ؛ والفتك بالضعفاء ؛ والاعتداء على الآمنين فى أوطانهم وأموالهم ؛ ولكنها أمرت المسلمين بالاستعداد والتقوى بالعدد والعدة ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ وأمرتهم أن يدعوا إلى الله بالحجة والبرهان لا بالإلجاء والقهر ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ ﴿ **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ .

ونظرت إلى الحرب وأسبابها الداعية إليها والمفضية إلى شب نيرانها نظرة تتفق وغايتها من الصلاح العام والمساواة بين الناس والسير فيهم على سنن العدل والرحمة . فحصرت أسبابها فى دائرة معقولة . تتناسب وكونها ضرورة من الضرورات هى دفع الظلم والعدوان ، وإقرار حرية التدين ، والدفاع عن الأوطان ، وإن القرآن الكريم ليرشد إلى ذلك فى عدة مواضع إذ يقول :

﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** ﴾

وأساس الدستور العام فى ذلك هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

وقد أباحت الشريعة الإسلامية للمسلمين أن ينشئوا ما شاءوا من العلاقات بينهم وبين الذين لم يعتدوا عليهم فى الدين أو الوطن من كل ما يرونه عونًا لهم على حياتهم فى شئون التجارة والصناعة والعلم والسياسة والثقافة، ينظمون ذلك كله على الوجه الذى يتبين صلاحه، والذى تقضى به سنن الاجتماع والفطرة، والذى لا يتعارض مع دستورهم الخاص، وقد أجازت الشريعة أن تصل هذه العلاقات إلى حد البر بهم والإحسان إليهم.

وأساس الدستور العام فى ذلك هو قوله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾.

هذا هو الصراط المستقيم، والمبدأ الوسط الذى تسير عليه الشريعة الإسلامية فى جميع أحكامها، والذى صلحت به لكل زمان ومكان، فاستحقت به الخلود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وقد أكمل الله نعمته على عباده - بعد نعمة العقل التى يميز بها المرء بين الخير والشر، والنافع والضار - بهذه الهداية التشريعية التى من شأنها أن تشد أزر العقل وأن تحمله على الجادة حتى لا يتأثر فى أعماله وأفكاره بشهوة ولا رغبة، فتسلم عقائد الناس من الضلال، وتصلح أعمالهم وتبرأ من الفساد.

وقد وصف الله هذا الصراط المستقيم بقوله:

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾.

فكان ذلك من ناحية العاملين به، المستقيمين عليه، الذين حازوا رضا الله وتجنبوا غضبه، وحُفظوا من الضلال، وفى هذا من الإغراء به والإطماع فيه ما يدفع الناس إلى تلمسه والاستقامة عليه.

وكما بينه الله من هذه الناحية فى ذاته بما بثه فى القرآن الكريم من آيات العقائد، والعبادات والأخلاق والمعاملات، وبذلك ظهر الصراط المستقيم من ناحيتيه، وتحدد من جانبيه، وتمت بذلك نعمة الله على عباده.

طوائف الناس أمام الحق:

هذا، وقد اختلفت أقوال المفسرين في بيان معنى المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالين، والذي نراه أن الناس أمام الحق والهداية الإلهية - كما بين الله في صدر سورة البقرة التي تلي هذه السورة في الترتيب القرآني - أصناف ثلاثة، وهو شأن طبيعي في الجماعة البشرية في كل وقت، وفي كل مكان.

الصنف الأول: المؤمنون: ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ وهؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم ورضي عنهم.

والصنف الثاني: الكافرون: ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾. وهؤلاء المغضوب عليهم.

والصنف الثالث: هم المنافقون الحائرون، المترددون بين إيمانهم الظاهر وكفرهم الباطن ﴿ **مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ** ﴾. ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾. ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾. وهؤلاء هم الضالون المتحيرون.

كمال الإنسان بكمال قوتيه:

هذه سورة الفاتحة، ونحن إذا ألقينا إلى ما سبق نظرة إجمالية وجدنا هذه السورة الكريمة قد استوعبت ما يتوقف عليه كمال الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة: ذلك بأن كمال الإنسان إنما هو باستكمال قوتين: قوة النظر والعلم، وقوة الكسب والعمل، فبالأولى يدرك الحق ويؤمن به، ويغذي به نفسه وعقله، وبالثانية يسلك طريق الخير والفلاح، والهدى والرشاد.

والفاتحة تكفل نصفها الأول ببيان الحقيقة التى هى أساس هذا الوجود، وأصل السعادة المطلقة بتقرير ربوبية الله للعالمين، ورحمته ورحمانيته، وتفرده بالسلطان فى يوم الدين والجزاء، وهذا هو الحق الذى بإدراكه تكمل قوة العلم والمعرفة.

وتكفل نصفها الثانى، ببيان أساس الخطة العملية فى الحياة سواء فى العبادات أو فى المعاملات، فالعبادة لله، والاستعانة بالله، والهداية من الله وبالتزام طريق الله، والبعد عن طريق الجاحدين المستكبرين، والضالين المتحيرين.

وإن المتتبع للقرآن جميعه، الواقف على مقاصده ومعارفه، يرى أنه جاء تفصيلا لما أجملته هذه السورة وحددته من طريقى الكمال الإنسانى فى قوتيه.

بهذا كانت هذه السورة «فاتحة الكتاب»، وكانت «أم القرآن»، وكانت هى السورة الوحيدة التى طلب من المؤمنين أن يقرءوها فى كل صلاة، وفى جميع الركعات. وفى كل الأوقات، ويسرت على لسان كل مؤمن، وأصبحت فى الإسلام كأنها «مجمع أشعة» تنير بضوئها كل شىء، وتبسطه على كل شىء.

* * *

سورة البقرة

- قصة ذبح البقرة ومناهج الناس فى فهم القصص القرآنى.
- عرض لمقاصد السورة.
- الأحرف المقطعة فى أوائل السورة.
- طوائف الناس أمام هداية القرآن.
- أصول الدين عند الله.
- واسطة العقد من السورة «آية البر».

(٢) سورة البقرة مدنية
وآياتها ست وثمانون ومائتان

سبب هذه التسمية:

سورة البقرة أطول سورة فى القرآن الكريم، فقد استغرقت جزأين ونصف جزء من ثلاثين جزءًا قسم إليها القرآن، وهى من أوائل ما نزل بالمدينة. وسميت بهذا الاسم؛ لأنها انفردت بذكر حادثة قتل وقعت فى بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السلام، وكان للبقرة - وهى الحيوان المعروف الذى اتخذ بنو إسرائيل من نوعه إلها فى وقت ما يعبدونه من دون الله - شأن إلهى عجيب فى هذه الحادثة: وقعت الجناية، وقتل القتيل، واختلف أهل الحى - الذى لوثت أرضه بدم الجناية - فى القاتل: من هو؟ وأخذ كل يدفع الجناية عن نفسه ويتهم بها غيره، وفيهم من يعلم عين الجانى ويكتم أمره ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ وترافع القوم إلى موسى عليه السلام ليحكم فى هذه الجناية التى خفى مرتكبها، فأمرهم - صلوات الله وسلامه عليه - عن ربه جل وعلا أن يذبحوا بقرة، وأن يضربوا القتيل ببعضها فيحيا بإذن الله ويخبر بقاتله، ولما طبع عليه بنو إسرائيل من العناد فى تنفيذ الأوامر، وقفوا كالساخرين أو الهازئين من الأمر بذبح البقرة فى هذا المقام، حتى لقد قالوا لموسى: أتتخذنا هزوا؟ وما كان لنبى الله أن يسخر أو يهزأ، ولكنها القلوب الملتوية تنصرف عن الحق وتعاند فى قبوله، فسألوا عن البقرة: ﴿ **قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ** ﴾. ﴿ **ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا** ﴾. ﴿ **ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا** ﴾ أكثروا من السؤال وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم جزاء تنطعهم وتلكئهم فى تنفيذ الأمر، شأنه فى كل متشدد متنطع، وحددها لهم فى دائرة ضيقة من السن والأوصاف والعمل: ﴿ **قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ** ﴾.

﴿ **إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ** ﴾ ، ﴿ **إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا** ﴾ وأخيراً وبعد حيرة ومشقة عثروا عليها ﴿ **فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ ثم ضربوا القتيل بجزء منها فأحياه الله وأنبأهم بالمجرم الجانى ﴿ **كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ .

انفردت هذه السورة بذكر تلك القصة ومن أجلها سميت «سورة البقرة» .

مناهج الناس فى فهم القصص القرآنى:

ويجدر بنا أن نقف هنا وقفة نبين فيها مناهج الناس فى شأن مهم يتعلق بفهم القصص القرآنى ، فإن مما قيل فى هذا القصص : إن كثيراً مما قصه القرآن لم يكن معروفًا من قبل ، لا فى الكتب الإلهية ، ولا فى الآثار التاريخية ، وقد قيل هذا فى تلك القصة بالذات :

رأى الشيخ محمد عبده فى قصة البقرة:

وقد خرج الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده هذه القصة على أنها نوع من التشريع الذى كان موجوداً فى زمن بنى إسرائيل لغرض الوصول إلى معرفة القاتل المجهول فى مثل هذه الحادثة ، وشد أزره فى ذلك الأستاذ الشيخ رشيد رضا ، حيث ساق نصوص التوراة الواردة فى هذا التشريع الذى يشير إليه .

قال الأستاذ الإمام : يقول أهل الشبهات فى القرآن : إن بنى إسرائيل لا يعرفون هذه القصة ، إذ لا وجود لها فى التوراة فمن أين جاء بها القرآن؟ ونقول : إن القرآن جاء بها من عند الله الذى يقول فى بنى إسرائيل المتأخرين إنهم نسوا حظًا مما ذكروا به ، وإنهم لم يؤتوا إلا نصيبًا من الكتاب ، على أن هذا الحكم منصوص فى التوراة ، وهو أنه إذا قتل قتيل ولم يعرف قاتله فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول فى واد دائم السيلان ، ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل أيديهم على العجلة التى كسر عنقها فى الوادى ، ثم يقولون : إن أيدينا لم تسفك هذا الدم ، اغفر لشعبك إسرائيل . ويتمتمون دعوات يبرأ بها من يدخل فى هذا العمل من دم القتيل ، ومن لم يفعل يتبين أنه القاتل ، ويراد بذلك حقن الدماء ، فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة أو كانت هى السبب فيه .

رأى الشيخ رشيد رضا:

ويقول الأستاذ رشيد رضا: إن ما أشار إليه الأستاذ من حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة هو فى أول الفصل الحادى والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ونصه:

١ - إذا وجد قتيل فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقفًا فى الحقل لا يعلم من قتله.

٢ - يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التى حول القتيل.

٣ - فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها، لم تجر بالنير.

٤ - وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة فى الوادى.

٥ - ثم يتقدم الكهنة بنولاوى لأنه إياهم اختار الأب إلهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب، وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة.

٦ - ويغسل جميع الشيوخ فى تلك المدينة القريبون من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق فى الوادى.

٧ - ويصرخون ويقولون: أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر.

٨ - اغفر لشعبك إسرائيل الذى فديت يارب، ولا تجعل دم برىء فى وسط شعبك إسرائيل فيغفر لهم الدم، اهـ.

ثم قال الشيخ رشيد: والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل فى الدماء عند التنازع فى القتال إذا وجد القتيل قرب بلد، ولم يعرف قاتله ليعرف الجانى من غيره، فمن غسل يديه وفعل ما رسم لذلك فى الشريعة برئ من الدم، ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية، ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التى كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف فى قتل تلك النفس، أى يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ وقوله: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى فى الآيتين، ثم قال: ﴿ **وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ** ﴾

بما يفصل بها فى الخصومات، ويزيل من أسباب الفتن والعداوات، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ وأكثر ما يستعمل هذا التعبير فى آيات الله فى خلقه الدالة على صدق رسله. وليس عندى شىء عن شيخنا فى تفسير هذه الجملة، ولكنه قال فى تعليلها ما يرجح القول الأول، وهو: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة، فلا تتوهموا أن ما وقع مختص بهذه الواقعة فى هذا الوقت، بل يجب أن تتلقوا أمر الله فى كل وقت بالقبول من غير تعنت.

والذى حمل الأستاذ الإمام على هذا فيما نظن هو رغبته فى التخلص من الاعتراض الذى ذكره بعض المستشرقين مع وجود النص التشريعى الذى أشار إليه الشيخ بمعناه ونقله الشيخ رشيد بنصه.

تأويل الشيخين لا تساعد عليه اللغة والسياق:

هذا صنيعهما، وبذلك يتبين أنهما توافقا على أن الآيات مسوقة لبيان حكم تشريعى لا لبيان حادث تاريخى، ولكننا إذا نظرنا إلى النص فى هذه الآيات وما ذيل الكلام به من قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ وجدنا هذا النص إن لم يمنع من الحمل على إرادة الحكم التشريعى فلا أقل من أن يبعده إبعاداً، وذلك بأن كلمة ﴿اضْرِبُوهُ﴾ واضحة فى أن يضرب المقتول ببعض البقرة المذبوحة، وليس فى الكلام إشارة تتعلق بالقاتل الخفى، ولا إشارة إلى غسل أيدى أهل الحى من دماء البقرة، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ يدل على الإحياء المشبه به - وهو الإحياء فى هذا المقام - إحياء حقيقى بعد موت تسلب فيه الروح، وليس إحياء حكمياً يحصل بمعرفة القاتل والاقتصاص منه حتى يكون بمثابة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ كما يريد الشيخان، ولو كان الأمر كما يقرران لما صح تقرير إحياء الموتى للبعث والجزاء بهذا النوع من الإحياء الحكمى المجازى، ولو أن قائلا قال: إن الله يحيى النفوس الجاهلة بالعلم، وكذلك يحيى الموتى من قبورهم لما كان مثل هذا التشبيه والقياس سائغاً. وإن قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ لواضح فى الإراءة البصرية للآيات الكونية، لا فى الإراءة العقلية للأحكام

الشرعية حتى يكون من قبيل ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾، وإن قوله بعد ذلك: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ ليدل على أنهم رأوا حالة مادية من شأنها أن تؤثر فى النفوس، ومن شأن القلوب أن ترق لها وأن تتجرد من القسوة والعناد عندها، ومع ذلك لقد قسوا واشتدت قسوتهم وكانت قلوبهم كالحجارة أو أشد، وكل هذا لا يتفق وما يريده الشيخان من حمل الآية على المعنى التشريعى، فهذا الحمل تأويل منهما، لكنه تأويل لا تساعد عليه اللغة وما هو المعهود من كلام العرب.

منهج المؤولين للقصص ورأينا فيه:

هذا أحد المناهج التى عرفناها للناس فى فهم القصص القرآنى، وهو «صرف الكلام عن مدلوله اللغوى إلى معنى آخر دون ما يدعو إلى هذا التأويل» وصاحبه قد يحكم فيه مجرد الاستبعاد لما يؤديه الكلام من المعنى الظاهر، وكثيراً ما يقصده بعض الباحثين دفعًا لما يثيره خصوم القرآن على القرآن، ويدخل فى هذا القسم تأويل إحياء الموتى المنسوب لعيسى بالإحياء الروحى، وحمل النمل فى قصة سليمان على أنه قبيلة ضعيفة، وتأويل الكواكب فى قصة إبراهيم بأنه جواهر نورانية نورها عقلى لا حسى، وما نقله البيضاوى عن بعض الصوفية فى معنى المائدة التى أنزلها الله حيث يقول: «وعن بعض الصوفية: المائدة ههنا عبارة عن حقائق المعارف؛ فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن، وعلى هذا فلعل الحال أنهم رغبوا فى حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها فقال لهم عيسى: إن كنتم حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها، فلم يكفوا عن السؤال وألحوا فيه فسأل لأجل اقتراحهم، فبين الله تعالى أن إنزاله إياها سهل ولكن فيه خطر وخوف عاقبة، فإن السالك إذا انكشفت له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمله ولا يستقر به فيضل به ضلالا بعيداً».

وهذا المنهج هو من طريقة التأويل التى أسسها الباطنية فى القرآن الكريم عرفوه بها عن دلالته العربية، وفيه احتفاظ بمدلول للكلام وواقع يدل عليه ولكنه صرف للفظ عن معناه الوضعى إلى هذا المعنى الواقعى الذى يزعمه المؤول مدلولا للكلام.

والرأى فى هذه الطريقة أنه يجب أن يطبق عليها قانون التأويل الذى يتلخص فى أنه إذا كان التأويل لا يقضى على أصل دينى ولا يمس عقيدة ثابتة، وهو فى الوقت نفسه يحتفظ

للعبارة القرآنية بواقع تعبر عنه تعبيرًا صادقًا، وكانت اللغة تسمح به، فإنه يكون مقبولا من الوجهتين الدينية واللغوية، وإذا لم تسمح به اللغة فهو مرفوض من هذه الجهة، صادر عن جهل من صاحبه بقانون التأويل، ومرفوض أيضًا من جهة ما يلزمه من الحكم بصدور التلبيس من الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، أما إذا كان يقضى على أصل دينى أو يمس عقيدة فإنه يكون مرفوضًا أيضًا من الوجهة الدينية.

منهج القائلين بالتخييل:

أما المنهج الثانى من المناهج التى عرفناها للناس فى فهم القصص القرآنى فهو يتفق مع المنهج الأول فى ناحية ويخالفه فى ناحية؛ إذ هو صرف للألفاظ عن معانيها الحقيقية كما فى المنهج الأول، ولكن لا إلى واقع يزعم ويدعى أنه مراد، وإنما إلى تخييل ما ليس بواقع واقعًا، فلا يلزم فيه الصدق ولا أن يكون إخبارًا بما حصل، وإنما هو ضرب من القول شبيه بما يوضع من حكايات بين أشخاص مفروضين، أو على ألسنة الطيور والحيوان، للإيحاء فقط بمغزى الحكايات من الإرشاد إلى فضيلة، والحث عليها، أو التحذير من رذيلة والتنفير منها.

وقد حكى ابن تيمية فى أول كتابه (بيان موافقه صريح المعقول الصحيح المنقول) أن من جماعة الفلاسفة فرقة جعلت ما رأته بعقولها أصلا لما جاءت به الأنبياء، فما وافق قانونهم هذا قبلوه، وما خالفه رفضوه: قال: «ومنهم أهل الوهم والتخييل الذين يقولون: إن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر، وعن الجنة والنار والملائكة بأمور غير مطابقة للأمر فى نفسه، لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون ويتوهمون من أن الأبدان تعاد، وأن لهم نعيما محسوسًا، وعقابًا محسوسًا، وإن كان الأمر ليس كذلك فى نفس الأمر، لأن من مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يتوهمون ويتخيلون من أن الأمر هكذا، وإن كان هذا كذبًا فهو كذب لمصلحة الجمهور، إذ كانت دعوتهم ومصلحتهم لا تمكن إلا بهذه الطريقة».

ولا شك أن القرآن إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخبط والادعاء، فقد اقتحمت قدسيته، وزالت عن النفوس روعة الحق فيه، وتزلزلت قضاياه فى كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار.

وشبيه بهذا ما فعله قوم زعموا أن ما جاء فى الكتاب الكريم من الآيات الدالة على أن

الله يعلم جزئيات الأشياء وتفاصيلها، لا يراد به معناه الظاهر ولا معنى آخر، وإنما سيق ليورث رغبة ورهبة فى قلوب الناس، وفى هؤلاء يقول الإمام الغزالى: «وهم معترفون بأن هذا ليس من التأويل ولكن قالوا: لما كان صلاح الخلق فى أن يعتقدوا أن الله عالم بما يجرى عليهم ورقيب عليهم جاز للرسول أن يفهمهم ذلك، وليس بكاذب من أصلح غيره فقال ما فيه صلاحه، وإن لم يكن كما قاله، وهذا القول باطل قطعا؛ لأنه تصريح بالتكذيب وطلب للعذر فى أنه لم يكذب، ويجب إجلال منصب النبوة - ونقول نحن: وأولى مقام الألوهية - عن هذه الرذيلة، ففى الصدق وإصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب».

منهج المسرفين فى قبول الروايات:

أما المنهج الثالث، فهو منهج جمهور المفسرين، ويقوم على الإفراط فى تحكيم الروايات الواردة من طرق مختلفة فى فهم القصة القرآنية، واعتبار كل ما ورد متصلا بالقصة بيانا وتفصيلا لما جاء فى القرآن، كما اتخذ الفقهاء الأحاديث المتصلة بآيات التشريع بيانا وتفصيلا أو تكميلا لما ورد فى الآيات من أحكام. وكما اعتبر الفقهاء الأحاديث مصدراً ثانيًا للتشريع اعتبر هؤلاء الروايات الواردة فى القصة مصدراً ثانيًا للقصة بعد القرآن الكريم.

والرأى السليم أنه إذا صح اتخاذ الأحاديث التشريعية مصدراً ثانيًا للأحكام مبينًا أو مفصلا أو مكملا، لأن العلماء بحثوها وميزوا صحيحها من ضعيفها، فلا يصح ذلك فى الروايات القصصية لأنها لم تبحث كما بحثت هذه، فهذا المنهج فيه إفراط أى إفراط، وذلك يتمثل فى كثير من كتب التفسير حينما تصل إلى قصص الأنبياء مع أممهم، كما نراه فى حالة بنى إسرائيل فى التيه، وكما نراه فى وصف المائدة التى أنزلها الله. ولنضرب تفسير أبى السعود - وقد يكون من المقلين فى الرواية - مثلا فى هذا، إذ يقول فى وصف المائدة وما عليها من طعام:

«والصحيح الذى عليه جماهير الأمة ومشاهير الأئمة أنها قد نزلت، روى أنه عليه السلام لما دعا بما دعا وأجيب بما أجيب إذا بسفرة حمراء نزلت بين غمامتين، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها، وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى - عليه

الصلاة والسلام - وقال: «اللهم اجعلنى من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة للعالمين ولا تجعلها مثلة وعقوبة، ثم قام وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك، تسيل دسمًا وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكرات، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثانى عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون رأس الحواريين: يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال ليس منهما ولكنه شيء اخترعه الله تعالى بالقدرة العالية، كلوا ماسألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله، فقالوا: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى؟ فقال: يا سمكة احيى بإذن الله، فاضطربت ثم قال لها: عودى كما كنت فعادت مشوية، ثم طارت المائدة، ثم عصوا فمسخوا قردة وخنازير، وقيل: كانت تأتيهم أربعين يوما غبا يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون، حتى إذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون فى ظلها، ولم يأكل منها فقير إلا غنى مدة عمره، ولا مريض إلا برئ ولم يمرض أبداً، ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى - عليه الصلاة والسلام - أن اجعل مائدتى للفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء، فاضطرب الناس لذلك فمسخ منهم من مسخ فأصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات ويأكلون العذرة فى الحشوش، فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى عليه السلام وبكوا على الممسوخين، فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل يدعوهم بأسمائهم واحدا بعد واحد فيبكون ويشيرون برءوسهم ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا.

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن عيسى عليه السلام قال لهم: صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ما شئتم يعطكم فصاموا فلما فرغوا قالوا: إنا لو عملنا لأحد فقضينا لأطعمنا، وسألوا الله تعالى المائدة فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحونة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم، قال كعب: نزلت منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل الطعام إلا اللحم. وقال قتادة: كان عليها ثمر من ثمار الجنة. وقال عطية العوفى: نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شيء. وقال الكلبى ومقاتل: نزلت سمكة وخمسة أرغفة فأكلوا ما شاء الله تعالى والناس ألف ونيف، فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا الحديث ضحك منهم من لم يشهد وقالوا: ويحكم إنما سحر أعينكم. فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرة ومن

أراد فتنته رجع إلى كفره فمسخوا خنازير فمكثوا كذلك ثلاثة أيام، ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا، وكذلك كل ممسوخ».

المنهج الذى نختاره:

هذه المناهج الثلاثة مترددة بين إفراط وتفريط فى شأن القصص القرآنى، وما ينبغى أن يستقبل به حتى يحقق الغاية المقصودة من قصه على الناس بالعبرة والموعظة، وحتى يحدث التسلية للدعاة والمصلحين، وحتى يتبين للناس أنه القصص الحق المطابق للواقع الذى لا مرية فيه ولا تزيد ولا تخييل.

وعلى أساس أن الحق وسط بين باطلين نقرر المنهج الرابع الذى يجب استقبال القصص القرآنى على أساسه، وهو المنهج السليم والصراط المستقيم إن شاء الله، وخلاصته: الوقوف عندما ورد فى القرآن الكريم، مع الاحتفاظ بدلالة الألفاظ اللغوية على معانيها وإفادتها لواقع هى تعبير صحيح عنه، دون تزيد عليه بما لم يرد فيه اعتماداً على روايات لا سند لها كما صنع المفرطون، ودون تحيف لمعانيها، باعتبار أن الكلام تخييل لا يعبر عن واقع كما فعل المفرّطون، ودون صرف للألفاظ عن معانيها الوضعية إلى معان أخرى، من غير صارف يمنع إجراء الكلام على ظاهره، كما فعل أهل التأويل، الذين حرفوا كثيراً من القرآن عن مواضعه، وتنكبوا قانون العربية التى نزل بها.

مقاصد السورة:

وسورة البقرة من أجمع سور القرآن، فقد احتوت على أصل العقيدة، وعلى كثير من أدلة التوحيد، كما ذكرت مبدأ خلق الإنسان، ثم وجهت عنايتها إلى أمرين اقتضت الإفاضة فيهما حالة المسلمين التى صاروا إليها بالهجرة من مكة إلى المدينة:

أحدهما: أن المسلمين تركزوا جماعة مستقلة لأول دخولهم المدينة، فبنى النبى مسجده ليؤدى فيه مع المؤمنين الصلوات المفروضة، وليكون بمثابة ندوة جامعة لهم، فيها يتعلمون، وفيها يتشاورون، وفيها يتحاكمون. وآخى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الوقت نفسه بين المهاجرين والأنصار، وصاروا جبهة واحدة تؤمن بالله وتدعو إلى الخير والفضيلة، وتحتاج إلى تشريع تنظم به شئونها.

ثانيهما : أنه قد صار لهم جوار في المدينة غير جوارهم في مكة : جاوروا أهل الكتاب من اليهود والنصارى بعد جوارهم للمشركين في مكة .

غرضان أساسيان لسورة البقرة:

وبهذين الأمرين نجد السورة تهدف في جملتها إلى غرضين هما :

توجيه الدعوة إلى بني إسرائيل ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة المحمدية من تشكيكات وشبه ، وفي سبيل ذلك أخذت تذكرهم بنعم الله على أسلافهم ، وبما انتاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقي دعوة الحق من أنبيائهم السابقين ، وارتكبوا ما ارتكبوا من صنوف العناد والتكذيب والمخالفة ، واقرأ في ذلك من قوله تعالى في السورة : ﴿ **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾ إلى آخر آية البر في منتصف السورة تقريباً ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ** ﴾ .

وهذا هو الغرض الأول الذي استدعاه جوار المسلمين لأهل الكتاب .

أما الغرض الثاني فهو التشريع الذي اقتضاه تكوُّن المسلمين جماعة متميزة عن غيرها في عبادتها ومعاملاتها وعاداتها .

وقد ذكرت السورة من ذلك القصاص في القتل العمد العدوان ، وذكرت الصيام ، والوصية ، والاعتكاف ، والتحذير من أكل أموال الناس بالباطل ، وذكرت الأهلة ، وأنها جعلت ليعتمد الناس عليها في معرفة أوقات العبادة والزراعة وغيرها ، وذكرت الحج والعمرة ، وذكرت القتال وسببه الذي يدعو إليه ، وغايته التي ينتمي إليها ، وذكرت الخمر والميسر واليتامى ، وحكم مصاهرة المشركين ، وذكرت حيض النساء والتطهر منه ، والطلاق والعدة والخلع والرضاع ، وذكرت الأيمان وكفارة الحنث فيها ، وذكرت الإنفاق في سبيل الله والربا والبيع ، وذكرت طرق الاستيثاق في الديون بالكتابة والاستشهاد والرهن .

ويبدأ هذا السياق من قوله تعالى بعد آية البر : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى** ﴾ إلى قبل آخر السورة ، وكان يتخلل كل ذلك ـ على طريقة القرآن ـ ما

يدعو المؤمنين إلى التزام هذه الأحكام وعدم الاعتداء فيها، من قصص ووعد ووعيد، وإرشاد إلى سنن الله فى الكون والجماعات، ثم تختم ببيان عقيدة المؤمنين على نحو ما بدأت فى بيان أوصاف المتقين ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾.

وبذلك يؤكد آخرها أولها، ويؤسس أولها لآخرها، وتصير السورة كتلة واحدة، ينتفع المسلمون الذين يهتدون بالكتاب بأحد غرضيها فى معاملة من يخالطون من أهل الملل الأخرى، وينتفعون بالغرض الآخر فى تنظيم أحوالهم من عبادة ومعاملة. ويأتى الغرضان فى آية البر مجملين «ليس» و«لكن» فتنفى «ليس» أن يكون البر شيئًا مما درج عليه الحرفيون أصحاب المظاهر الجوفاء، الذين يتمسكون بمثل تولية الوجوه قبل المشرق أو المغرب، وتثبت «لكن» أصول الإيمان الحق والعمل الصالح على أنها هى البر الصحيح، والواقع العملى للتقوى والمتقين ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾.

ثم يكون الختام الأخير تعليم المؤمنين دعاء من شأنه أن يغرس فى نفوسهم سنة الله فى التشريع لهم، وبناء أحكامه وتكاليفه على اليسر والوسع ودفع الحرج، ومن شأنه متى أخلصوا فيه أن يأخذ بأيديهم إلى حياة سعيدة سهلة ميسرة، وييسر لهم وسائل المغفرة والنصرة ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾.

الأحرف المقطعة فى فواتح السور وآراء العلماء فيها:

بدئت «سورة البقرة» بحروف ثلاثة تقرأ مقطعة هكذا: ألف. لام. ميم، وشاركها فى البدء بالحروف على هذا النحو كثير من سور القرآن، ليس فيها من المدنى سوى السورة التى تليها، وهى سورة «آل عمران». ﴿ الم (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ

عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أما باقى السور فمكى.

وقد جاءت الحروف المقطعة التى بدئت بها هذه السور كلها، على أنواع: منها ما هو ذو حرف واحد، مثل ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿ق والقرآن المجيد﴾ ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ومنها ما هو ذو حرفين، مثل ﴿طه ① مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ ﴿يسٓ ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿حمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ومنها ما هو ذو ثلاثة أو أكثر، مثل «الم» و«المص» و«المر» و«كهيعص» و«حم عسق». . . إلخ.

افتتحت هذه السور بالحروف على هذا النحو، ولم يكن هذا الأسلوب معروفًا عند العرب من قبل، ولم يكن لهذه الحروف معان فى اللغة العربية تدل عليها سوى مسمياتها كحروف هجائية يلتئم منها الكلام، ولم يصح عن الرسول ـ ﷺ ـ بيان المراد منها، وقد كان الناس ـ لذلك ـ أمامها فريقين: فريق يرى أنها مما استأثر الله بعلمه، فلا يصل أحد إلى معرفة المراد منها، ويروى فى ذلك عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه: «إن لكل كتاب سر، وسر القرآن فى أوائل السور» وعن على رضى الله عنه: «إن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى»، وقد سئل الشعبى عن هذه الحروف فقال: «سر الله فلا تطلبوه» وهكذا ورد عن كثير من الصحابة والتابعين.

والفريق الآخر ينكر أن يكون فى كتاب الله ما ليس مفهوما للخلق، ويرى أن هذا المبدأ يتنافى مع الأوصاف التى وصف الله بها القرآن من أنه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، وأنه نزل ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وأنه ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ ونحو ذلك من الأوصاف، ويقولون: لو أن فيه ما لا يفهم لما صح فيه وصف من هذه الأوصاف، إلى أدلة أخرى من هذا الوادى. وقد نسب هذا القول إلى المتكلمين، وأثر عنهم فى بيان المراد بهذه الأحرف أقوال كثيرة، منها: أنها أسماء للسور التى بدئت بها، ومنها أنها رموز لبعض أسماء الله تعالى أو صفاته، فالألف مثلا إشارة إلى أنه تعالى «أحد، أول، آخر، أبدى أزلى» واللام مثلا إشارة إلى أنه «لطيف» والميم إلى أنه «ملك، مجيد، منان» والعين إلى أنه «عزيز، عدل» وروى عن ابن عباس أنه قال فى «الم»: أنا الله أعلم، وفى «الر»: أنا الله أرى.. إلى غير ذلك مما يروون. ومنها وهو أشهرها ومختار المحققين منهم كما يقولون: أنها حروف أنزلت للتنبيه على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف التى عرفوها وألفوا كلامهم منها وهم قادرون

عا يه، وعارفون بقوانين فصاحتها وبلاغتها، فلم يكن القرآن بمادته التى يتألف منها غريبًا عليهم، وقد تحداهم الرسول بمثل هذا القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة، فعجزوا، فلو كان من عند غير الله - ومادته معروفة لهم - لاستطاعوا أن ينفوا عن أنفسهم العجز والخزى، ولما جوبهوا بالعجز الدائم المستمر فى مستقبل لا يعلم مداه إلا الله ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ .

هل فى كتاب الله مالا يفهم؟

وردت هذه الأقوال وغيرها عن المتكلمين الذين يرون أن القرآن لا يمكن أن يحتوى على ما لا يفهم الناس، ونحن نرى بادئ ذى بدء أن القول بأنها رموز للأسماء أو الصفات أو لقضايا وصفية لله سبحانه، قول لا يكاد قلب يطمئن إليه، إذ لا مستند له يعتمد عليه، ولا قانون يرجع إليه، فلكل ناظر أن يختار ما يخطر على باله من أسماء أو صفات أو قضايا، ويجعل الحروف رمزًا له.

ونرى أيضًا أن القول: بأنها أسماء السور يرده اشتهار السور بأسماء أخرى غير هذه الحروف، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة الأعراف وسورة مريم، وما إليها فلو كانت أسماء للسور كما يقولون لتواترت على ألسنة أصحاب رسول الله - ﷺ -، وعلى ألسنة المؤمنين جيلا بعد جيل.

ونرى أن القول الذى نسبوه إلى المحققين من أصحاب هذا الرأى - وهو التنبيه على أن هذا القرآن من مادة الكلام الذى ألفوه وقد عجزوا مع ذلك عنه، قول يعتمد على قضيتين تصيدهما القائلون به من الواقع التاريخى لموقف العرب من القرآن، ومن طبيعة هذه الحروف: إحداهما أن هذه من حروف التهجى المعروفة عند العرب، التى يتركب منها كلامهم، وأن القرآن مؤلف منها، والأخرى أنهم مع ذلك قد عجزوا عن الإتيان بمثله وما كان للعرب أن يجهلوا، أو يغفلوا، عن أن القرآن الذى يتلوه عليهم محمد - ﷺ - هو من هذه الحروف، أما عجزهم عن الإتيان بمثله فهو أمر يعرفونه من أنفسهم، ويعرفه التاريخ عنهم، وقد سجله القرآن عليهم بالعبارة الواضحة البينة، فليس الأمر فى القضيتين بمحتاج إلى استخدام رمز كهذا الرمز البعيد الذى لا يستند إلى نقل صحيح، ولا فهم واضح.

استئثار الله ببعض الأسرار سنة قائمة فى خلقه وأمره:

هذا، وقد نوقش المتكلمون فيما استدلوا به على المبدأ الذى بنوا عليه أقوالهم فى معانى أوائل السور، وهو أنه لا يمكن أن يكون فى القرآن ما لا يفهم، فقيل لهم: إن وصف القرآن بما وصف به أنه هدى وتبيان ونحو ذلك لا يبطله أن تجيء فى أوائل بعض سوره مثل هذه الحروف التى لم يتعلق بها تكليف أو إرشاد، وأنه ما دام واضحًا فى جملته وفيما قصد به، فلا بأس من أن يرد فيه بعض ما استأثر الله بعلمه، تنبيهًا على القدرة التامة فى جانب الربوبية، والقصور فى جانب العبودية، وتلك سنة الله فى خلقه وتكاليفه، فكم له فى الكون من أسرار تنقضى الدنيا ولا تدرك وكم له فى التكاليف من أسرار لا يملك العبد أمامها إلا أن يمتثل، وما هذه المكتشفات التى تتجدد للبشر يومًا بعد يوم، وتنكشف للعلماء جيلا بعد جيل، إلا قطرة أو قطرات من بحر خلق الله الذى لا يعرف مداه سواه ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** ﴾، ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾.

وإن فى قوله تعالى وهو بصدد الحديث عن الإسراء بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴿ **لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا** ﴾ وقوله وهو بصدد الحديث عن الإيحاء إليه ﴿ **لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ لتنبيها لقلوب المؤمنين إلى أن فى مكنون هذا الكون، وفى باطن خلق الله ما لا تدركه العقول، ولا تصل إليه الأفهام، ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾.
وإذا كانت هذه لمحة ترشدنا إلى أن فى الخلق أسرارًا لا تدرك للعباد، فإن فى الصلاة من جهة أعداد ركعاتها وأوقاتها وكثير من وسائلها وكيفياتها، وفى الزكاة والكفارات وسائر المقادير المشروعة المطلوبة، للمحات أخرى واضحة جلية فى أن الله أيضًا فى تكاليفه ما يعجز البشر عن إدراك أسراره، وما عليهم إلا أن يؤمنوا ويمتثلوا، فتصدق فيهم العبودية، ويخلص منهم الإيمان، وما كان القرآن إلا شأنا من شئون الله، جرب فيه سنته من الخلق والتكليف، فلم يخل من حروف استأثر بها علم الله ثبت بها قصور البشر دون أن يمس ذلك مقاصد القرآن، أو ينقص من وضوح القرآن وبيان القرآن.

وعلى هذا فنحن نؤمن بأن فى القرآن سراً لا يدركه البشر، هو معانى هذه الأحرف التى جاءت فى فواتح السور، ولكن لا ينبغى أن نتوسع فنطرد هذا المبدأ فيما وضحت

دلالته العربية، وثبت عن الرسول -ﷺ- بيانه، فنزعم كما زعم أناس من قبل أن للقرآن ظاهرا يدل عليه ويفهمه العامة، ويكلفون به، وباطنًا لا يفهمه إلا الخواص من عباد الله وهم مكلفون به، فتلك نزعة فرقت المسلمين، وضرب بعضهم بها رقاب بعض.

المتشابه فى القرآن:

ولعل قائلا يقول: كيف لا يكون فى القرآن سر غير مدرك للبشر سوى معانى هذه الأحرف التى نتحدث عنها، وقد استفاض الحديث وامتلأت الكتب فى الأولين والآخرين بأن فى القرآن محكما ومتشابها، وأن المحكم ما فهمه الناس، وعرفوا دلالته ومعناه، وأن المتشابه ما لم يفهمه الناس ولم يعرفوا دلالته ومعناه، وأن العلماء كانوا أمام هذا المتشابه فريقين: فريق السلف يرى التفويض وعدم الخوض فى معناه، وفريق الخلف يرى التأويل وصرف اللفظ عن دلالته المعروفة إلى معنى يتفق مع ما دل عليه المحكم، ويعتبرون من ذلك أمثال قوله تعالى: ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾، ﴿ **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾، ﴿ **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ** ﴾ ﴿ **وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾. فهل كل ذلك لا يكفى فى أن فى القرآن ما لا يعرف معناه وراء فواتح السور؟

اختلاف العلماء فى معنى المتشابه:

ونقول أولا: نعم كان كل ذلك، وقرأناه عن السلف والخلف، ولكن يفوت هذا القائل أن العلماء قد اختلفوا فيما بينهم فى معنى المتشابه الذى قوبل بالمحكم فى قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** ﴾ وكان لهم فى ذلك أقوال كثيرة ينسب بعضها للمتكلمين، وبعضها للأصوليين، وبعضها لغير هؤلاء وهؤلاء، وقد اشتهر من بين هذه الأقوال قولان: أحدهما ما يلمح القائل إليه، وخلاصته أن المتشابه هو ما يوهم ظاهره معنى لا يليق بجلال الله ولا يتفق مع دلالة المحكم فى تنزيه الله عن صفات الحوادث، فإما أن يؤمن به المسلم على وجه لا يتنافى مع التنزيه، ولا يجنح إلى تعيين المراد منه بالتأويل، فيبقى له سره محفوظًا فى الغيب الذى لا يعلم حقيقته إلا الله، وإما أن يصرفه عن ظاهره، ويعين له معنى يدل عليه ويؤمن به على هذا الوجه، وذلك كأن يقال كما قالوا: الاستواء بمعنى الاستيلاء، واليد بمعنى القدرة،

واليمين بمعنى القوة، وبسط اليد بمعنى كثرة المنح والعطاء، إلى غير ذلك، وعلى هذا الوجه لا يكون من المتشابه، بمعنى ما استأثر الله بعلمه، وإنما هو من المتشابه الذى يحتاج فى معرفة معناه إلى الرجوع للمحكم فيعلمه أرباب القدرة على هذا، وهم الراسخون فى العلم، والأمر على هذا الرأى الأخير واضح فى أن القرآن ليس فيه متشابه بمعنى ما استأثر الله بعلمه.

وبينما يرى بعض العلماء هذا الرأى فى معنى المتشابه، يرى غيرهم أن المتشابه المقابل للمحكم هو ما تعددت جهات دلالته، وكان موضعًا لخلاف العلماء، ومحلا لاجتهادهم، وذلك يرجع إما إلى الاختلاف فى معنى مفرد ورد فى الآية، كالقرء فى الحيض أو الطهر، أو فى معنى تركيب كما نرى فى قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وإما إلى تحكيم حديث صح عند الفقيه فى معنى الآية بينما غيره لم يحكمه فى معناها لسبب من الأسباب التى يراها، وأمثلة ذلك كثيرة مبسوطة فى كتب الخلاف يعرفها أهل العلم بالفقه، وهى المقصودة «بالأمور المشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس»، وعلى هذا يكون المتشابه بعيداً عن دائرة ما استأثر الله بعلمه وليس مما نتكلم فيه.

وكما وجدنا المتشابه بهذا المعنى فى القضايا الفقهية، نجده أيضًا فى قضايا أخرى لا تتعلق بصفات الله وتنزيهه، ولا بعقيدة ما، وذلك كما فى المسائل العلمية التى عرض لها المتكلمون، واختلفت فيها فرقهم، مثل خلق الأفعال، ورؤية البارى وحقيقة الميزان والصراط، وزيادة الصفات على الذات وما إلى ذلك من المسائل التى أثر فيها الخلاف بين فريقى المعتزلة، وأهل السنة، وكان لكل فريق - من القرآن - على ما رأى حجته ومستنده، ولا ريب أن خلاف المتكلمين فى مثل هذه القضايا هو كخلاف الفقهاء فى مذاهبهم وآرائهم، ففى النوعين لم يرد الله أن يكلف عباده بقضية معينة، بل فتح باب الاجتهاد للعقل البشرى ليسلكه الإنسان، ويحقق نعمة الله عليه فى الإدراك والفهم، والكل فى ذلك مؤمن ناج مرضى عند الله أخطأ أم أصاب، وهذا جانب تكفينا منه فى هذا المقام تلك الإشارة، وأرجو أن يكون فيها بلاغ لقوم اتخذوا اختلاف العلماء فى المسائل الكلامية - التى هى وراء العقائد - سبيلا للطعن والتجريح فى الإيمان والعقيدة، وما كان الله ليرضى عن الطعن والتجريح لرأى رآه الناظر فى موضوع وضعه الله موضع النظر والاجتهاد.

الرأى الذى نختاره فى معنى المتشابه:

وبعد، فلنا أن نختار فى معنى المتشابه ذلك الرأى الذى يرجع إلى اختلاف الدلالة واحتمال المعانى المختلفة فى آيات الأحكام، أو آيات المعارف، على النحو الذى أشرنا إليه، ولنا أن نختار رأى الخلف من المتكلمين الذين يصرفون اللفظ عن ظاهره إلى معنى يليق بجلال الله وتنزيهه، وعلى هذا وذاك يبقى لنا ما قلناه من أنه ليس فى القرآن ما استأثر الله بعلمه سوى فواتح السور.

على أن بين المتشابه فى رأى المفوضين، وبين فواتح السور فرقًا كبيرًا، ذلك أن المتشابه ورد فى قضايا ذات محمول وموضوع وإثبات ونفى، ومفردات تلك القضايا لها دلالات حقيقية معروفة لأرباب اللغة، وقد تستعمل فى معان مجازية تصرف إليها بالقرائن، ولا كذلك فواتح السور التى هى أحرف مقطعة، ليست قضايا ذات موضوع ومحمول، وليست مفردات ذات معان مفيدة على نحو «استوى» فى قوله: ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ مثلا، وقد جاءت هذه القضايا أوصافًا لله، واعتقد الجميع ثبوت محمولها لموضوعها، على وجه يقضى به الإيمان، ولا كذلك أيضًا فواتح السور التى نتحدث عنها.

ولعلنا بعد هذا كله نستطيع أن نتلمس ما يزيل الشبهة التى أشرنا إليها فى صدر هذا الاستطراد.

الحكمة فى بدء السور بالحروف المقطعة:

ونعود بعد هذا إلى موضوعنا فنقول:

وكما أن هذه الحروف من حيث معانيها المرادة لله سر استأثر الله بعلمه، فإن فى الإتيان بها على هذا الترتيب الذى جاءت به، وتنوعت به فواتح السور، وفى اختيار بعض الحروف دون بعض - وهو صنع الحكيم الخبير الذى لا يضع أمرًا على محض المصادفة - لسرًا آخر تقصر دون إدراكه العقول.

ولعل من الخير للناس بعد الذى قررناه فى هذا المقام أن يوفروا على أنفسهم عناء البحث فى معانى هذه الحروف، وأسرار ترتيبها واختيارها على هذا النحو، وأن يكفوا عن الخوض فيما لا سبيل إلى علمه، ولم يكلفهم الله به، ولم يربط به شيئًا من أحكامه أو

تكاليفه، وحسبهم أن يعرفوا أن الإتيان بهذه الفواتح على هذا الأسلوب الذى لم يكن مألوفا فى الكلام، ولا معروفا عند العرب، كان قرعا لأسماع أولئك الجاحدين الذين تواصوا فيما بينهم ألا يسمعوا لهذا القرآن، وأن يلغوا فيه لعلهم يغلبون. كان هزاً لقلوبهم، ودفعا بهم إلى إلقاء السمع، وتدبر ما يلقى، وقد جاء بعد هذه الحروف فى الأعم الأغلب نبأ ذلك الشأن العظيم، وهو كتاب الله الذى أنزله على محمد ﷺ. وختم به رسالته إلى خلقه وبين فيه شريعته وسننه فى كونه، وكان لنبيه معجزة خالدة، تنطق بأنه رسول الله رب العالمين، اقرأ إن شئت ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، ﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾، ﴿الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾، ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، ﴿طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

اقرأ ذلك إن شئت تجد هذه السور كلها تتحدث عن القرآن وتنزيل القرآن أو إنزاله،

وهو الكتاب الذى كان موضع الأخذ والرد فيما بينهم وبين الرسول، وهو الكتاب الذى جاء ليصرفهم عما هم فيه من ضلال وبغى، وهو الكتاب الذى وقفوا منه موقف المكابرة والعناد، وهو الكتاب الذى رموه بأنه أساطير الأولين، وبأنه حديث مفترى، وبأنهم لو شاءوا لقالوا مثله، إلى غير ذلك مما كانوا يحاولون به صرف الناس عن القرآن والصد عنه، فبدئت هذه السورة بهذا الأسلوب تأثيراً فى قلوبهم، ولفتاً لأنظارهم، ولا يخفى أن المفاجأة بالغريب الذى لم يؤلف، لها فى إرهاف الأسماع، وتنبيه الأذهان ما لا يحتاج إلى بيان، وفى هذا ما يكشف عن السر فى أن جميع هذه السور - ما عدا سورتين اثنتين - كان مما نزل بمكة حيث المعارضة فى أوج شدتها وعنفها، حتى السورتان المدنيتان كانتا فى إبان اشتداد المجادلة والمناقشة بين المسلمين وغيرهم من اليهود والنصارى، ومن شاء فليقرأ النصف الأول فى كل من السورتين ليرى كيف انصرفت كل منهما فيه إلى الحجاج عن الحق، والمجادلة عن دعوة القرآن على نحو شبيه بما كان من شأن القرآن مع المشركين.

ولا ينبغى أن يقال إن كثيرا من السور بدئ بالتحدث عن إنزال القرآن الكريم، ومع ذلك لم تبدأ بهذه الفواتح، وذلك كسورة الكهف ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا** ﴾ وسورة الفرقان: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ وسورة الزمر: ﴿ **تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾ وسورة القدر: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ﴾ فإنما جاء ذلك على سياق آخر قضى بذكر الحمد على إنزال الكتاب، أو التمجيد لمنزل الكتاب، أو التنويه بشأن الكتاب نفسه، ولم تسق هذه السور مساق التنبيه وقرع الأسماع على النحو الذى جاءت به السور التى ذكرنا، ولكل مقام مقال.

بقى أن يقال: إن أربعا من السور التى بدئت بهذه الحروف لم يجئ بعد الحروف فيها ذكر القرآن وتنزيله كما جاء فى غيرها، وهى: سورة مريم ﴿ **كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا** ﴾، وسورة العنكبوت: ﴿ **الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ** ﴾ وسورة الروم: ﴿ **الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ** ﴾، وسورة القلم: ﴿ **ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾. فنقول: نعم لم يأت بعد الحروف فى أوائل هذه السور الأربع ذكر القرآن ولا تنزيله، ولكن جاء بعدها ما يشارك القرآن فى أنه كان على غير السنن المألوفة للناس، فقصة زكريا ونداؤه لربه أن يهب له على

الكبر وليًا، واستجابة الله لهذا النداء وتبشيره إياه بيحيى، أمر جدير بأن تقرع له الأسماع، وتنبه له القلوب، وكذلك شأن سورة الروم التى أخبرت بغيب يحدث فى المستقبل لا يشهد له الواقع الحاضر، فكان مما يحسن فى هذا المقام أن يوجه الناس إلى نبأ هذا الغيب بمثل هذا الأسلوب، وسورة العنكبوت جاءت فاتحتها لتخلع الناس من شأن جرت عادتهم بالاستنامة إليه، والانصراف عن الحق، ذلك هو الاكتفاء بظاهر الإيمان دون تحمل أعباء الجهاد فى سبيله، والقيام بالتكاليف الإلهية التى يقتضيها، ولا ريب أن هذا أمر ألفت النفوس أن تركن إليه، وأنه يؤدى بالناس إلى فساد فى حياتهم ودينهم، ويجعل الرسالات الإلهية قليلة الجدوى فى الإصلاح والإسعاد، فكان من الحكمة أن يلفت الناس لفتًا قويًا يغرس فى قلوبهم أن سنة الله جرت بالاختبار والابتلاء تمحيصًا للقلوب، وتمييزًا للخبيث من الطيب ﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾، ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾. أما سورة القلم فمهمتها لفت الأنظار إلى ما يوحى به القلم من العلم والحكمة، اللذين هما أساس هذا الدين وهدف ذلك الكتاب العظيم.

هذا هو الأثر الذى يقترن بسماع هذه الحروف فى فواتح السور، أما معناها فلا أستطيع أن أقول فيه سوى هذه الكلمة المأثورة التى تعبر عن إيمان سلف صالح يؤمن حق الإيمان بعظمة الله وكتاب الله: «الله أعلم بمراده».

طوائف الناس أمام هداية القرآن:

بعد أن قرع الله الأسماع، ونبه القلوب بهذه الأحرف المقطعة التى بدأ بها السورة وهى قوله تعالى: «ألف. لام. ميم» أشار إلى القرآن الكريم الذى أنزله على نبيه محمد - ﷺ - ﴿ **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ** ﴾ أى هذا هو الكتاب الذى تفرد بالسمو من بين الكتب، وتنزه من جميع نواحيه عن أن يكون محلا للشك، أو يدانيه الشك، فهو حق لا ريب فيه، نزل بالحق من عند الله، وبين الحق الذى يرضاه الله، وأخبر بالحق الذى يعلمه الله.

ثم بين بعد ذلك أن الانتفاع بالحق لا يكفى فيه مجرد أنه حق وأنه مبرأ من العيب والشك، بل لا بد فى الانتفاع به من استعداد ظاهر يتقبل به ذلك الحق، ويندفع الناس معه إلى طريق النظر فيه، وبذلك كان الناس أمام القرآن وما أنزل الله فيه من هدايه طوائف ثلاثا:

الطائفة الأولى «المتقون»:

طائفة المتقين، وهم الذين حافظوا على فطرهم التى خلقهم الله عليها، فاتقوا ما يفسدها، ويحول بينها وبين إشراق الحق، فلم تعبث مظاهر المادة باستعدادهم لإدراك ما غاب عن أبصارهم وحواسهم من الحق الثابت فى نشأة العالم، وإبداعه، وتدبيره، ولا بما يجب عليهم من وصل قلوبهم وأرواحهم بالله الذى خلقهم، وأنعم عليهم بالمحافظة على وسائل المراقبة، واستشعار العظمة الدائمة على الوجه الذى ينمى الصلة بين العبد وربه، ولا بما ينبغى من معونة الإنسان لأخيه الإنسان والجود بقسط من المال فى سبيل تخفيف أعباء الحياة عنه: ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾.

وكما لم تعبث مظاهر المادة باستعدادهم لهذا الإدراك، ولم تمنعهم العصبية الفاسدة لما ورثوا أو عرفوا من قبل، أن يتقبلوا الحق الذى يصدق ما عندهم وإن بزغت شمسه من غير سمائهم: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾.

من سلمت فطرته من هاتين العلتين: تسلط المادة والعصبية الفاسدة، هم المتقون، وهم الذين ينتفعون بالكتاب، وهم الذين يهتدون به، ويصلون إلى أقصى درجات الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة، وفيهم يقول الله عز وجل فى هذه السورة: ﴿ **أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ ويقول فى غيرها: ﴿ **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾، ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾، ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾، ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ** ﴾، ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾.

وهكذا يبين الله فى كثير من آيات القرآن خلال الطائفة التى تنتفع بالقرآن وتنتظر الخير والفلاح بهدى القرآن.

الطائفة الثانية «الكافرون»:

أما الذين فسدت فطرتهم بموروثاتهم الفاسدة، وأوهامهم الضالة، وعصبيتهم الغاشمة، وطمس استعدادهم لإدراك الحق بالمادة المظلمة، فلم يعرفوه، ولم يؤمنوا به،

وطغوا وبغوا، وعاندوا ولجوا فى العناد، وأخذوا يحاربون الله ورسوله والمتقين فى السر وفى العلن ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ فالقرآن عليهم عمى وأولئك هم الكافرون، وفيهم يقول الله عز وجل فى سورة البقرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾. ويقول فى غيرها: ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾، ﴿ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾، ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾، ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾.

وهكذا يبين الله فى كثير من آيات القرآن أوصاف هذه الطائفة التى لا ينتظر منها الإيمان بالقرآن، ولا يرجى لها أن تنتفع بشىء من هدى القرآن، وقد جرت سنة القرآن فى التعبير عن هذه الطائفة بالكافرين، والفاسقين، والخاسرين، والضالين، والمجرمين، وقد كانت هذه الأوصاف التى اكتسبوها لأنفسهم بمحض اختيارهم، وبحكم اندفاعهم فى أهواء البيئات الفاسدة، وقصر عقولهم على مُحَسَّاتهم أساسًا لهذا المصير الذى صورته تلك الآيات، وصورت فيه انسداد مسالك الفهم والإدراك بالختم على القلوب، وبالأكنة فيها القلوب، وبالأغلال فى الأعناق، وبالإقماح، وبالسد من بين أيديهم ومن خلفهم، وغير ذلك من كل ما يصور انزلاقهم وبعدهم عن الحق، واضطرابهم الذى جنوه على أنفسهم. وما أدق وما أروع تعبيره بقوله: ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾.

هاتان طائفتان: طائفة المتقين الذين سلمت قلوبهم من مفسدات الإدراك والعلم والنظر، وطائفة الكافرين الذين سدت عليهم منافذ الخير وسبل الهداية، وأعلنوا الكفر والعناد.

وهاتان الطائفتان كثيراً ما تحدث القرآن عنهما فى مكيه ومدنيه، فإن الدعوى لم تخل مرحلة من مراحلها عن مؤمن بها، مصدق لها، وعن كافر بها، جاحد لآياتها.

ويرى بعض الناظرين فى القرآن أن الله يتحدث فى هذه الآيات عن الطرفين الكاملين من الفريقين، فهو حين يصف المؤمنين بهذه الأوصاف يريدأرباب الإيمان الكامل الذين لم يلبسوا إيمانهم بشيء ما من المخالفات والعصيان، كما أنه حين يتحدث عن الكافرين يريد الذين فسدت فطرتهم تماما فلم يعرفوا الخير فى صورة ما من صوره، وأن هذا لا ينافى أن من المؤمنين فريقًا لم تكمل فيه تلك الصفات، وهم يتراوحون فى درجات الإيمان المتفاوتة، وهؤلاء ليسوا من الذين يقول الله فيهم: ﴿ **أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ فإن ذلك خاص بالكاملين.

والذى أراه أن القرآن لم يجعل الاتصاف بهذه الأوصاف عنوانًا على العصمة من الذنوب أو المخالفة فى لون ما من ألوانها، والحكَم فى هذا هو الآيات الواردة فى سورة آل عمران وهى قوله تعالى: ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾.

فقد جعل مما تتناوله كلمة (المتقين) ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** ﴾ فسوى بين هؤلاء وبين من كملت فيهم أوصاف الإيمان من جهتين: من جهة اندراجهما معًا فى المتقين، ومن جهة الجزاء المعد لهم ﴿ **أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾.

نعم، بقى فريق ثالث. هو الذى يزعم لنفسه أنه مصدق بالله وباليوم الآخر، وهويفعل الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا يذكر الله فيستغفر لذنبه، بل يستمر طول حياته غافلا عن ربه غير ذاكر لعظمته، اللهم إلا تلك الكلمة التى يجريها على لسانه، ليعلن بها تصديقه وإيمانه دون أن يكون لهذا الإيمان وذلك التصديق ما يدل على انطباعه فى نفس، وتمكنه من القلب، وهذا فى رأينا ليس من فريق المتقين المؤمنين، وليست هناك منزلة بين الذين سعدوا والذين شقوا، وفريق الجنة وفريق السعير.

الطائفة الثالثة «المنافقون»:

وقد رأينا القرآن الكريم يتحدث فى المدنى خاصة عن طائفة ثالثة أطلق عليها اسم «المنافقين» وهم الذين فسد باطنهم كالكافرين، ولكنهم ظهروا بين المسلمين كالمسلمين: قالوا كلمة التوحيد كما يقولون، وصلوا كما يصلون، وظنوا أنهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين.

ولم تظهر هذه الطائفة إلا فى المدينة حيث تكوّن المسلمون، وقويت شوكتهم، وأخافوا غيرهم، فضعفت طائفة عن المجاهرة بالكفر والعناد فكتموه فى نفوسهم. وفى هؤلاء تقول السورة: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾.

هؤلاء هم المنافقون الذين أعد الله لهم ما شاء من عذاب مقيم، وجعلهم فى الدرك الأسفل من النار، يزعمون أنهم مصدر الخير والصلاح، وهم مبعث الشر والفساد: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ** ﴾.

اتخذوا لأنفسهم وجهين: يقابلون هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه ﴿ **مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ** ﴾، ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴾.

وما ابتلى المسلمون فى أي زمان ومكان بشر من هذه الطائفة: تدبر المكائد، وتروج الأكاذيب، وتزعزع المؤمنين، وتفسد روابط المحبين، وتنفث سموم الشر والفتن، وقد اهتم القرآن بالحديث عنهم، والتحذير منهم، حتى لا نكاد نجد سورة من سور القرآن المدنية تخلو من ذكرهم، ولفت الأنظار إلى أوصافهم، وقد نزلت فيهم سورة كاملة سميت باسمهم.

ساقت سورة البقرة فى هذا المقام ثلاث عشرة آية بينت بها حقيقتهم وخواصهم وخطتهم فى الحياة، وضربت لحيرتهم واضطرابهم بين ما يظهرون من إيمان، ويبطنون من كفر، مثلين واضحين فى تصوير حالهم، وسوء عاقبتهم: ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**

فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾، أو كمثل قوم نزل بهم صيب «مطر» من السماء **﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

هذا وذاك مثلان للمنافقين: ظهر لهم الحق فالتوت عنه قلوبهم، وبزغ عليهم نور الهداية فغشيتهم الشهوات والأهواء.

هذه الطوائف الثلاث هى صنوف الناس بالنسبة للانتفاع بالقرآن، بينها الله لنبيه وهو شأن لابد من معرفته لكل داع إلى الحق. لابد أن يعرف المعانى التى تقابل بها دعوته فيتخذ لها أهبته، ويعامل كل طائفة بما يناسب نزعتها فيطمئن إلى المتقين الذين سلمت قلوبهم، ويريح نفسه من الذين أعلنوا خصومة الحق، ويحترس من المنافقين فلا يولى وجهه شطرهم، ولا يغتر بظواهرهم. ولا ينخدع بأكاذيبهم، وبذلك تستقيم دعوته، ويستقر سلطانه، وتصل أمته إلى أقصى درجات الخير والفلاح.

أصول الدين عند الله:

وجهت السورة بعد هذا نداء عامًا إلى الطوائف كلها بوصف الإنسانية العام **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾** الذى جعل عنوانًا فى الخلق والتقدير على العقل والنظر والتدبر، رجاء التخلص مما يفسد عليهم إنسانيتهم التى تقضى باعتناق الحق والعمل بمقتضاه، والتمتع بلذته والاهتداء بهديه ونوره.

أجملت فى هذا النداء دعوة القرآن التى هى عناصر الحق وأصول الدين عند الله وهى:

(١) التوجه إلى الله وحده بالعبادة.

(٢) الإيمان برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

(٣) الإيمان بدار البعث والجزاء.

كان القوم ـ مع اعترافهم بأن الله هو الذى خلق الأرض والسموات، وأنه هو الذى

خلقهم ورباهم - يتجهون فى العبادة والتقدير إلى غير الله، يتقربون إليهم ويستعينون بهم، وكانوا إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فأمروا بعبادة الله وحده، وأرشدهم فى سبيل ذلك إلى أن الله ربهم هو الذى خلقهم، وخلق من كان قبلهم من الآباء والأجداد، وأن نسبة آبائهم وأجدادهم إليه سبحانه كنسبتهم إليه؛ فهو رب الكل، وخالق الكل، والمنعم على الكل. فليس الحق بالنسبة للجميع إلا ما أمر الله به، وليس ما سواه إلا الباطل، وإن درج عليه الآباء والأجداد ﴿ **اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾.

ثم بعد أن أرشدهم إلى دلائل التوحيد القائمة بأنفسهم، أرشدهم إلى الدلائل المحيطة بهم فى أرضه وسمائه، والتى أنعم عليهم فيها بوسائل الحياة وموارد الرزق، فجعل لهم الأرض فراشًا، صالحة للسكنى والسعى والإنبات، وجعل لهم السماء بناء تشرق عليهم شمسه، وتضىء كواكبه، وبذلك صاروا بين نعمتى الأرض والسماء يتمتعون بما تنزل السماء عليهم من ماء، وبما تخرج الأرض لهم من طيبات وأرزاق: كل ذلك فى نظام محكم، وصنع دقيق لا خلل فيه ولا اعوجاج ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ** ﴾ وإذ قد تبينتم الدلائل، وعرفتم مصدر تربيتكم والإنعام عليكم، وأنه لا شأن لغير الله فى الخلق والإنعام، فلتتجهوا إليه وحده بالعبادة والتقديس، واحذروا كما هو قضية العقل والإنسانية البريئة أن تشركوا به شيئًا ﴿ **فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾.

وكان القوم ينكرون على محمد - ﷺ - رسالته، وينكرون عليه أن القرآن وحى من عند الله، فحاكمتهم هذه الآيات إلى أنفسهم، وتلطفت معهم أولا فى المحاكمة: طلبت منهم إن كانوا فى ريب من أن الله أنزل القرآن على عبده وكانوا صادقين فى أنه من عند محمد - ومحمد بشر مثلهم نشأ فى جوهم، وفيما بينهم - أن يأتوا من عند أنفسهم بحديث مثل هذا القرآن، يجمع إلى البلاغة التى خرت لها الجباه، وإلى الإخبار بالغيوب النفسية والكونية والماضية والمستقبلة، قوانين الأخلاق، ونظم الاجتماع، وسنن الكون، وأصول التشريع التى لا ينقضها علم، ولا تنبو عنها حياة وطالبتهم بهذا وطالبتهم أن يستعينوا فيه بما لهم من شهداء وأعوان وأنصار ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾.

ثم انتقلت بهم من الملاطفة إلى التحدى والتحذير ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

سجلت عليهم العجز الدائم المستمر عن الإتيان بمثل القرآن لأنه هو سبحانه الذى أنزل القرآن، وهو الذى خلقهم ومنحهم القُدَر التى لا تقدر بطبيعتها على الإتيان بمثل هذا القرآن الذى هو من صنعه وتفصيله، ولا ريب أن تسجيل العجز الدائم فى وقت المعارضة والإنكار هو من أقوى الدلائل على الوثوق بالحق من جانب صاحب الدعوة، وليس بعد هذا النوع من التحدى سوى الإذعان بأن القرآن وحى من عند الله؛ وأن محمداً رسول الله، وأن إنكار شىء من ذلك لا يكون إلا عن محض العناد، وبدافع الاستكبار.

وفى هذا السياق تحذرهم الآيات - إن استمروا على الكفر - ناراً وقودها الناس والحجارة أعدها الله لمن أعرضوا من الحق وكفروا بآياته، وتبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجرى من تحتها الأنهار. وبذلك أقامت الآيات الحجة عليهم من أنفسهم ومن الآفاق فى لزوم وتوحيد الله بالعبادة، وفى لزوم الإيمان برسالة محمد - ﷺ -، وفى لزوم الإيمان بدار البعث والجزاء.

وهذه الثلاثة هى أصول الدين عند الله، بعث بها كل نبى، وطلبها فى كل كتاب، وأرسل محمداً يجددها فى القلوب، ويحييها فى النفوس فيحيا الناس بها فى الدنيا حياة طيبة، وينعمون بها فى الآخرة بلذة خالدة.

ثم قفت السورة على هذه الأصول بلفت الأنظار إلى بعض نواحى الأدلة الكونية الدالة على أحقية هذه الدعوى، واستبعاد أن يكفر إنسان ذو عقل بها بعد تبينها فى الأنفس والآفاق ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

واسطة العقد من سورة البقرة:

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ .

تقع هذه الآية الكريمة من سورة البقرة فى مكان هو واسطة عقد ينتظم هَدَفَيْهَا، تصور لنا حبات أحد جانبيه الدعوة إلى بنى إسرائيل فى سياق يبدأ من قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ثم تأخذ فى تذكيرهم بنعم الله على أسلافهم، فتذكرهم بالإنجاء من آل فرعون، وبفرق البحر بهم، وبميقات موسى لاستلام التوراة، ثم بعفو الله عنهم بعد أن نكثوا عهد موسى واتخذوا العجل من بعده، ثم بتظليل الغمام عليهم وإكرامهم بإنزال المن والسلوى، وبتلبية موسى فى استسقائه ربه لهم، وبتمكينهم مما طلبوا من أنواع الأطعمة، إلى آخر تلك النعم التى قصتها السورة علينا من هذا الجانب، ثم تذكرهم بلون آخر يرجع إلى ما ارتكبه أسلافهم من أنواع العناد والمكابرة، وألوان الشبه التى كانوا يضعونها عقبات للحيلولة بين الناس وبين الإيمان بمحمد ـ ﷺ ـ، فتذكرهم باعتدائهم فى يوم السبت، وعقاب الله لهم على هذا الاعتداء، وموقفهم من موسى فى ذبح البقرة التى أمروا بذبحها كشفًا لجريمة القتل التى وقعت فيما بينهم وجهل فاعلها، ثم بتحريفهم كلام الله من بعد ما عقلوه، واشترائهم بآيات الله ثمنًا قليلا، وبزعم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وباعتدائهم على الأنبياء بالقتل والتكذيب بعد أن أخذ الله عليهم العهود والمواثيق، وبإعراضهم عن الإيمان بمحمد بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وببيان خطئهم فى زعمهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وهكذا إلى أن بينت موقفهم من إبراهيم وأنهم بعيدون عن الحق الذى دعا إليه إبراهيم، ووصى به بنيه، كما وصى به يعقوب من بعد: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ .

تحويل القبلة وما ثار حوله من جدل:

ثم جاءت هذه الآية الكريمة إثر بيان الحق فى موقفهم من الرسول فى مسألة القبلة، واهتمامهم بشأن التوجه إلى ناحية دون ناحية، واعتبارهم أن ذلك عنوان الحق، وآية التدين، وأساس الإيمان والإخلاص فى عبادة الله، وذلك حيث تقول السورة: ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾.

ويتلخص شأن هذه المسألة فى أن المسلمين كانوا يتجهون أولا فى صلاتهم إلى بيت المقدس، ثم أمرهم الله بالتوجه إلى الكعبة لحكم وشئون يوحى بها قوله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ﴾.

اتجه المسلمون إلى الكعبة كما أمرهم الله، وكان ذلك مثاراً لثورة فكرية جدلية فى أحضان النبوة، وفى أوائل عهدهم بالمدينة، وشغلت بذلك جميع الطوائف من مسلمين وأهل كتاب حتى كادوا ينصرفون بها عن إدراك الحق الذى يريده الله، وعن طريق البر الواضح الذى رسمه الله، والذى يجب أن تنصرف إليه الأنظار وتتوجه إليه القلوب.

جاءت هذه الآية تنبه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه إلى أن ثورة هؤلاء فى هذا الشأن ليست ثورة طلاب الحق، وإنما هى ثورة العناد والمكابرة، وتلمس معاذير الإعراض والنفور ﴿ **وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴾.

موقع آية البر مما قبلها وما بعدها:

جاءت تلك الآيات التى تلوناها تكشف لمحمد وأصحابه عن نوايا هؤلاء، والدوافع

النفسية التى دعتهم إلى هذا الموقف من مسألة القبلة، كما جاءت آية البر تعين لجميع الطوائف أن موقف المتحدثين فى هذا الشأن ليس ما يتفق مع حقيقة البر الذى يجب أن تمتلئ بها القلوب الصافية، وأن قول من قال: لو كان محمد على حق لما اتجه يومًا إلى بيت المقدس ويومًا إلى المسجد الحرام، وقول من قال: قد رجع محمد إلى قبلة العرب وسيرجع إلى دينهم - كلاهما بعيد عن الجادة لم يقصد به إلا تلبيس الحق بالباطل، وإطفاء ذلك النور الذى جاء به محمد، وأخذت القلوب تتفتح له، والعيون ترنو إليه.

هذا هو أحد الجانبين اللذين تصورهما سورة البقرة، فيما قبل هذه الآية: آية البر.

وتصور لنا حيات الجانب الآخر بعد هذه الآية ما يجب على المؤمنين أن يتخذوه أساسًا فى البر بأنفسهم وأمتهم ومجتمعهم، فى جناياتهم وعباداتهم، وفى علاقتهم بمن يخالفهم فى الدين، وفى نظام الأسرة بينهم، وفيما يوجبه عليهم تضامنهم الاجتماعى، وفيما يطهر مجتمعهم من مساوئ الطغيان المالى، وفيما يجب أن يتخذوه من وسائل الاستيثاق فى الحقوق المدنية، ويبدأ هذا السياق من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى**﴾ إلى قبيل آخر السورة، فتذكر القصاص والعفو عن القصاص، وتذكر الوصية، وتذكر الصوم، والاعتكاف، وتحذر من أكل أموال الناس بالباطل، وتذكر الأهلة، وأنها هى التى يعتمد عليها فى المواقيت الدينية للناس، كالصيام والحج وعدة النساء ومدة الإيلاء، وتذكر بواعث القتال والغاية التى ينتهى عندها القتال، وتذكر الحج والعمرة، وتذكر الخمر والميسر، واليتامى وإصلاحهم، وحكم مصاهرة المشركين أو الإصهار إليهم، وتذكر حكم المحيض، ووجوب توقى أذاه، وتذكر الإيمان والإيلاء من النساء، وتذكر الطلاق والعدة، والخلع، والرضاع، وتذكر الإنفاق فى سبيل الله، وتضرب لجزائه الأمثال فى المضاعفة، وتذكر أدبه، وتحذر من الرياء فيه، وتضرب له الأمثال، وتذكر الربا وخطأ الناس فى إلحاقه بالبيع، وتتوعد عليه بالمحق، وتعلن حرب الله على من اتخذه أساسًا فى الحياة، وتختم ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ**﴾ ثم تذكر كتابة الديون، وإملاءها والإشهاد عليها، وتبين حكمة ذلك بما يرجع إلى تحقيق العدل بين الناس وحفظ الحقوق، كما تذكر الرهن إذا لم تتيسر الكتابة، ثم تحذر كتمان الشهادة ﴿**وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**﴾ ثم تختم السورة ببيان الدعوة المحمدية بقوله تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ**﴾

مع بيان سنة الله فى تكليف عباده وفى مؤاخذتهم ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ وبذلك يلتقى - كما قلنا سابقًا - آخر السورة مع أولها .

هذه حبات جانبى العقد الذى ينتظم موضوعات سورة البقرة والتى جاءت آية البر واسطة لها ، نسردها على هذا النحو بين يدى تفسيرنا لهذه الآية الكريمة ، التى اخترناها نموذجا للتفسير .

وقد سلكنا بهذا الصنيع سبيلا غير التى ألفها الناس فى التفسير ، لنضع بين يدى القارئ الموضوعات التى عرضت لها السورة فيما قبل هذه الآية ، والموضوعات التى عرضت لها فيما بعدها ، فى سلك واحد يجمع بين حبات كل جانب ، ويعطى للناظر إليه صورة كاملة لجميع ما احتوت عليه تلك السورة الكريمة ، وتعينه على الرجوع بكل مسألة فيها إلى نوعها وغرضها التى ترتبط فيها مع زميلاتها .

ولعل القراء يلمسون من هذا الصنيع أيضًا ، ذلك المعنى الذى يوحى به اهتمام السورة فى الجانب الأول من جانبيها اللذين تحدثنا عنهما بتتبع أنباء بنى إسرائيل القيمة ، وتقصيها على هذا النحو العجيب ، المؤذن بأن هذا الكتاب صادر من الله العليم الحكيم الذى يعلم غيب السموات والأرض ، فهو ينبئهم بتفاصيل تاريخهم ودقائق أحوالهم ، ويصور لهم ذات صدورهم ، مما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويشعرون معه بأن هذا الكتاب حق ، وأن هذا النبى حق ، كما يوحى اهتمام السورة فى جانبها الآخر بعظمة هذا الدين ، وكونه منهاجًا واضحًا وصراطًا مستقيمًا يهدى للتى هى أقوم ، ويرسم للناس طريق السعادة ، ويهيئ للأمة حياة هانئة مستقرة ونظامًا قويًا يعيشون فى ظلاله آمنين مطمئنين .

وإذ تمهد لنا ذلك ، فلنأخذ فى تفسير الآية الكريمة فنقول :

كلمة (البر) فى القرآن ومدلولها:

وردت كلمة «البر» فى مواضع متعددة من القرآن الكريم : منها هذه الآية ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا

تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ وقد وصف الله عز وجل نفسه بأنه ﴿هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ ووصف الملائكة بأنهم ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ ووصف العباد المتقين بأنهم أبرار، والفاسقين بأنهم فجار ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وجعل كتاب الأبرار فى مقابلة كتاب الفجار، هذا فى «سجين» وذاك فى «عليين».

ومن هذا يتبين أن «البر» بالنسبة للعبد هو جماع الخير الذى يشمل المعانى النفسية، والأخلاق الحسنة، وما ينشأ عنهما من أعمال صالحة طيبة يتقرب بها العبد إلى ربه، وأما بالنسبة إلى الله فهو الثواب والرضا والمحبة الإلهية.

وقد كان العرب يفهمون معنى البر على هذا الوجه، ويدركون أن كل عمل صالح، أو نية طيبة، أو خلق مرضى، شعبة من شعب البر، غير أنهم كانوا يخطئون التطبيق أحيانًا، إما لاشتباه فى شىء هل هو من البر أو من الإثم؟ كما اشتبه السائل الذى جاء يسأل النبى - صلى الله عليه وسلم - عن البر والإثم، فقال له: استفت قلبك. البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

قد يسأل إنسان فقيها من الفقهاء عما يخرجه من زكاة أمواله، أو عما صدر منه من تطليق زوجته، أو عما قضى له به قاض من مال خصمه، أو عما افتدت به زوجته من مال الخلع وقد ضارها وأساء إليها وألجأها إلى هذا الافتداء، يسأل عن هذا ونحوه فيسمع من المفتى أن شرط الزكاة أن يحول الحول والمال ملكه، فإذا وهبه ولو لحظة لأحد من الناس ثم استرده، لم يتم شرط الحول، فلا تجب الزكاة، وأن هذا الطلاق قد صدر على امرأة لم يعقد عليها ولى شرعى، فلم تثبت زوجيتها حتى يقع عليها الطلاق، وأن القاضى قد حكم فللمحكوم له أن يستحل المال، وأن مال الخلع حق مشروع للزوج لا جناح عليه أن يتمتع به، وهنا يقع السائل بين وحى الضمير، وفتوى المفتى: بين الحقيقة يحسها من نفسه، وبين الظاهر الذى حكم له بمقتضاه، فالرسول يرشده إلى ترجيح حكم الضمير والوجدان وإن أفتاه المفتون.

وقد يخطئون التطبيق لهوى فى النفس، وتمسك بالتقاليد والعصبيات، كالمشركين

الذين كانوا يرون إتيان البيوت من ظهورها حال الإحرام بالحج براً يرضى الله، ونسكا يتقرب به إليه، أو كهؤلاء الذين أفاضوا فى حديث القبلة عند الأمر بالتحول إلى الكعبة حتى شغلهم عن كل ما سواه من المعانى الفاضلة والأعمال الصالحة، وقد قال الله للأولين: ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وقال للآخرين: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾. أى أن الاتجاه فى العبادة إلى الجهات ليس إلا رمزاً للاتجاه القلبى إلى الله تعالى، وليس ركنًا أساسيًا فى العبادة فيتبع فيه الأمر.

البر لا يتعلق بالمظاهر والأشكال:

وهذه الآية هى أجمع الآيات فى تحديد معنى البر من النواحى الواقعية، فهى ترشد إلى أن البر لا يرتبط بشىء من المظاهر والصور والأشكال، وإنما يرتبط بالحقائق ولب الأمور وروح التكاليف، وترشد إلى أن البر أنواع ثلاثة جامعة لكل خير: بر فى العقيدة، وبر فى العمل، وبر فى الخلق.

البر فى العقيدة:

فالبر فى العقيدة بينته الآية فى قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ أمور خمسة: الإيمان بالله فى ربوبيته، فى عبادته، فى وحدانيته، فى اعتقاد أنه هو وحده النافع الضار، الرافع الخافض، المعز المذل، القابض الباسط، القاهر فوق عباده، الذى لا تعنو الوجوه إلا له، ولا تتجه القلوب إلا إليه، هذا الإيمان بالإله وعظمة الإله هو الذى يرفع النفوس إلى مكانة التكريم والسمو التى أراها للإنسان، هو الذى يصون المرء عن الذلة والاستكانة لشىء ما، هو الذى يعصمه عن التورط والزلل، هو الذى يجعل من نفسه عليه رقيبًا لايغيب ولا يخادع ولا يجهل، هو نبراس الهداية فى جميع نواحى الحياة.

والإيمان باليوم الآخر، يوم الجزاء على الأعمال، يوم المحاسبة على ما فى القلوب والضمائر، يوم النعيم الدائم أو الشقاء الدائم، هو معنى يغرس فى النفوس محبة الخير والحرص على إسداء المعروف، وكراهة الشر، وتجنب الأذى والإفساد فى الأرض، وقد

عنى القرآن عناية عظمى بتقرير الإيمان باليوم الآخر، وناقش فيه وأقام عليه الحجج والبراهين، وضرب له الأمثال وأقسم عليه، وسفه أحلام المنكرين له، المتعجبين من وقوعه بعد تمزق الجسم كل ممزق، وصيرورته عظامًا ورفاتا ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر هما الإيمان بالمبدأ والمعاد، والإيمان بهما على الوجه الحق ـ وهما من الغيب المطلق ـ لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه مستقلا، ولا أن يعرف بنفسه مستلزماته من الواجبات والأحكام التشريعية، فإن العقل البشرى ذو استعداد محدود، ويحيط به مع ذلك الهوى والشهوة، فلا بد أن يهدى من مصدر لا يحد علمه، ولا ترقى إليه الأهواء والنزعات، هو الله الذى لا يعزب عن علمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو الحكيم الخبير.

إذن لا بد من واسطة بين هذا المصدر وبين الخلق، هى طريق المعرفة لواجب الإيمان بالله واليوم الآخر: هذه الواسطة تتكون من ثلاثة عناصر: عنصر فى الطرف الأعلى، له بحسب تكوينه وخلقه استعداد يمكنه من التلقى عن الله مباشرة، وهم الملائكة، والإيمان بهم أصل الإيمان بالوحى فيلزم من إنكارهم إنكار الوحى وهو يستلزم إنكار النبوة وإنكار الدار الآخرة، وعنصر فى الطرف القريب من الناس هو منهم بمقتضى بشريته، وله صلة بالملأ الأعلى بمقتضى روحانيته وهم الأنبياء، يتصلون بالملائكة الذين هم سفراء الله أو سفرته كما عبر القرآن، فيتلقون عنهم ما أمر الله به، ويتصلون بالخلق فيبلغونهم ما أمروا به من أحكام وتشريعات، والعنصر الثالث هو نفس الرسالة والوحى، وقد عبر عنهما فى الآية بالكتاب، والتعبير بالكتاب دون الكتب إشارة إلى وحدة الدين عند الله، وأن الإيمان بكتاب ما من الكتب السماوية إيمان بالكل.

هذه هى العناصر الثلاثة للسفارة الإلهية: طرفان ووسط، لا بد من الإيمان بها ولا يتحقق البر مع إنكار شىء منها، كالإيمان بالله واليوم الآخر، وبهذا تمت الأمور الخمسة

التى هى البر فى العقيدة ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ .

البر فى العمل:

أما البر فى العمل فله شعب كثيرة ترجع كلها مهما تنوعت إلى بذل النفس والمال ابتغاء مرضاة الله، وهناءة خلق الله، والعمل هو مدد العقيدة، وفى نفس الوقت هو ثمرتها، يحفظها، وينميها، ويدل عليها، وقد ذكرت الآية بذل النفس فى أعظم مظهر من مظاهر بذل النفس، ذلك هو إقامة الصلاة، الصلاة هى عماد الدين، الصلاة هى الفارق بين المؤمن وغير المؤمن، الصلاة هى مناجاة العبد لربه، الصلاة هى الناهية عن الفحشاء والمنكر، الصلاة هى العاصمة من الهلع والجزع: يقف المرء بين يدى ربه، وقد خلع نفسه من كل شىء فى دنياه، فلا مال ولا جاه ولا ولد ولا طعام ولا شراب ولا كلام، ولكن تسليم لله، أوله: «الله أكبر» هو الذى تخضع له الرقاب، وتطمئن له القلوب، وتبذل فى سبيل مرضاته المهج والنفوس، فهى عهد بين العبد وربه على بذل النفس والتضحية بها فى كل موطن بحيث لا يفقده فى موضع يطلبه، ولا يراه حيث ينهاه، أما الصلاة التى تجردت من هذه الروح، وخلت إلا من الحركات والكلمات، فليست هى عنوان البذل والتضحية وليست هى من البر فى شىء، بل إنها وبال على صاحبها ومردودة عليه ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ وليس السهو فى الصلاة هو نسيانها، وإنما هو الغفلة عما توحى به من المعانى الفاضلة وأعمال البر والتقوى.

وذكرت الآية بعد ذلك بذل المال فى صورتين، إحداهما قوله تعالى: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ والأخرى قوله تعالى: ﴿ وآتى الزكاة ﴾ ويجب أن يفهم هنا بمقتضى هذا الوضع القرآنى الكريم أن الزكاة شىء، وأن إيتاء المال على حبه هؤلاء الأصناف شىء آخر لا يندرج فى الزكاة ولا تغنى عنه الزكاة.

فهؤلاء الأغنياء والقادرون الذين يكتفون بالزكاة، ولا يمدون يد المساعد لسدة حاجة المحتاجين، ودفع ضرورة المضطرين، والقيام بمصالح المسلمين، ليسوا على البر الذى يريده الله من عباده.

وهذا أصل عظيم فى تنظيم الحياة الاجتماعية يباح به للحاكم أن يشرع ألوانا من الضرائب العادلة وراء الزكاة إذا لم تفِ الزكاة بحاجة الأفراد والمجتمع.

وفى الآية مما ينبغي أن نلتفت إليه أمور:

أولا: جاء التعبير بقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أى على حب المال أو على حب الله، كما فى الرأيين المعروفين، والمال إذا أنفق على حبه ومع الحاجة إليه كان فيه معنى الإيثار، وكان لذلك أظهر فى معنى التضحية والبر، ولذلك ورد عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان» وكذلك إذا أنفق على حب الله وابتغاء مرضاته، لا طلبا لسمعة ولا رئاء الناس. ومما يرشح المعنى الأول وروده فى آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وما ورد فى وصف الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ثانيًا: وردت الآية بذكر أصناف الذين ينفق عليهم المال على حبه، وليس القصد إلى الاستيعاب والحصر، ولكنها أمثلة خصت بالذكر لبروز حاجتها إلى المال، وحاجة المجتمع إلى سد عوزها.

ثالثًا: ابن السبيل يشمل المسافرين لطلب العلم، والراحلين للكشف عما ينفع الناس، والوفود التى يناط بها تبليغ الأحكام ونشر الدين وتوثيق عرى المحبة والإخاء بين المسلمين، ونحو ذلك.

رابعًا: قوله وفى الرقاب: معناه تخليص الرقاب من الرق، وإذا كان الرق قد زال فإن فى معناه تخليص الأسرى من الأسر، وتخليص المدينين العاجزين من ذلك الدين ورقه.

هذا، وقد عنى القرآن الكريم بالفقراء والمساكين، وجميع أصناف المحتاجين، حتى لا تكاد سورة من سوره تخلو من الحث على الإنفاق عليهم والبذل فى سبيلهم، وفى هذا تقليم لأظافر الشر، واقتلاع لبذور الفساد التى دلت تواريخ الأمم على أنها شر ما يعمل فى هدم الأمم وأنظمتها وأخلاقها.

وبذلك تم الكلام فى بر العمل.

البر فى الخلق:

أما البر فى الخلق فقد ذكرته الآية فى مبدأين: مبدأ القيام بالواجب، وقد عبرت عنه الآية بقولها: ﴿ **وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا** ﴾ ومبدأ مقاومة الطوارئ والتغلب على عقبات الحياة، وقد عبرت عنه الآية بقولها: ﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ** ﴾ والعهد لفظ شامل يجمع ألوانًا من الارتباطات والالتزامات لا غنى للناس عنها، ولا استقامة للحياة بدونها، وهى على كثرتها ترجع إلى عهد بين العبد وربه، أو عهد بين الإنسان والإنسان، أو عهد بين الدولة والدولة، وعهود الله مع عباده كثيرة. منها العام، ومنها الخاص: ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ** ﴾. ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾. وحظ الناس اليوم من هذا العهد هو ترابط المصلحين وتكافلهم على مبدأ الخير والإصلاح، وألا يهدم بعضهم بعضًا، ولا يضرب بعضهم فى نحور بعض، وأن يؤيد اللاحق منهم السابق، ويمهد السابق منهم للاحق. وليس من الوفاء لهذا العهد أن يكون كل مصلح أمةً فى نفسه، وحزبًا برأسه، فإن ذلك مفسدة للرأى، ومضيعة للخير، وتخذيل عن الهدى والرشاد.

أما عهود العباد بعضهم مع بعض فهى تتمثل فيما يحدث بينهم من عقود والتزامات مالية أو غير مالية، وكذلك فيما يحدث بين الأمة والأمة فى تحديد الحقوق والالتزامات، وكلها يجب الوفاء بها ما لم تكن فى معصية الله بتضييع حق أو إلحاق أذى بالفرد أو الأمة. وقد عنى القرآن بالحث على الوفاء بالعهد وشبه ناقض العهد بالمرأة الخرقاء ﴿ **كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا** ﴾. وطلب أن تكون العهود قائمة على الصراحة والوضوح، لا على الغش والخداع، واصطناع الاحتيال ﴿ **وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾. وألا يستغل فيها قوة أو ضعف ﴿ **أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ** ﴾ أى أكثر منها عددًا أو عدة. وهكذا يضع القرآن أصول العهود والمواثيق العادلة، ويجعل الوفاء بها من البر الذى يسمو بالإنسان فى دنياه، ويسعده فى أخراه.

أما مبدأ المقاومة فقد ذكرته الآية كما قلنا بقولها: ﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ** ﴾ والصبر عدة النجاح فى الحياة ومصدر جميع الفضائل الإنسانية، والسبيل الوحيد للتغلب على جميع الصعاب، وليس الصبر هو الخضوع والاستكانة من غير مقاومة ولا عمل، وإنما الصبر جهاد ومحاولة، مع الاحتفاظ برباطة الجأش والثقة بحسن العاقبة، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى حالات ثلاثا هى أبرز ما يظهر فيه هلع الهالعين، وجزع الجازعين: البأساء، والضراء، وحين البأس. فالبأس من البؤس: وهو الشدة والفقر، والضراء: ما يضر الإنسان من مرض أو فقد محبوب: مال أو أهل أو ولد، والبأس: اشتداد الحرب. وقد عنى القرآن بالحث على الصبر فى المواطن كلها، وقرنه بالصلاة وجعلهما مستعان المرء فى المهمات والشدائد، وملجأه عند النوازل ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ** ﴾. وجاء فى كلام الرسول أن الصبر نصف الإيمان، وقد أنبأنا الله أنه مع الصابرين.

هذه عناصر البر فى العقيدة والعمل والخلق، وهى دستور خلق متين ترقى به الأمم إلى أوج العزة والكرامة، وتنأى به عن الشرور ومفسدات الأمن والطمأنينة، ومنغصات السعادة والهناءة، وحسبنا فى ذلك أن الآية بعد ذكر هذه العناصر قد حصرت الصدق والتقوى فى أصحابها المؤمنين بها، العاملين عليها، المحققين لثمارها: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ صدقوا فى إيمانهم، صدقوا فى أعمالهم، صدقوا فى أخلاقهم، وهم الذين يصدق عليهم أنهم هم المتقون على الإطلاق، الذين يعملون لكل ما يصلحهم ويصلح الناس، ويتجنبون كل ما يضرهم ويضر الناس.

ســــورة آل عمــــران

- الهدفان الأساسيان للسورة.
- قضية الألوهية والمسرفون فى شأن عيسى.
- عبرة النصر فى بدر والهزيمة فى أحد.
- النداءات الإلهية لجماعة المؤمنين.
- تحريم الربا قليله وكثيره.

(٣) سورة آل عمران مدنية
وآياتها مائتان

سبب هذه التسمية:

هذه السورة هي السورة الثالثة من سور القرآن الكريم في ترتيب المصحف، وهي معروفة بسورة «آل عمران» ويجدر بنا قبل أن نتناول مقاصدها أن نذكر كلمة عن تسميتها بسورة آل عمران.

جاء ذكر «عمران» في هذه السورة مرتين في آيتين متتاليتين: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ فذهب فريق من المفسرين إلى أن عمران الذى سميت السورة بآله والذى ذكر في الآية الأولى هو عمران أبو موسى وهارون، وليس أبا مريم، وكان بين العمرانين فيما يقول الرواة أمد طويل.

ونحن إذا تتبعنا أسماء السور في القرآن الكريم نجدها تشير إلى أهم أو أغرب ما اشتملت عليه السورة، فسورة البقرة سميت بهذا الاسم لقصة عجيبة الشأن تتعلق ببقرة أمر بنو إسرائيل بذبحها، وكان ذلك سبيلا لمعرفة الجانى في حادثة قتل لم يعرف مرتكبها، وسورة المائدة سميت بذلك لقصة المائدة التى طلب الحواريون إنزالها من السماء، وسورة النساء سميت بذلك لأن أهم ما عرضت له هو الأحكام التى أراد الله بها تنظيم أحوال النساء، وحفظ حقوقهن، وعدم الإضرار بهن. وهكذا.

وإذا عرف هذا، وهو أساس عام في شأن تسمية السور، فلنرجع إلى تسمية السورة الثالثة من القرآن بسورة «آل عمران». ونحن إذا قرأنا السورة من أولها إلى آخرها لا نجد فيها شيئا غريبا أو مهما يتعلق بخصوص موسى وهارون، ولكن أبرز ما فيها وأغرب

شئونها هو ما عنيت بتفصيله من شأن عيسى وأمه، وهذا يدعونا إلى موافقة فريق آخر من المفسرين يرى أن عمران الذى سميت السورة بآله، وذكر فى الآية الأولى، هو عمران المذكور فى الآية الثانية، وهو أبو مريم لا أبو موسى وهارون، فالسورة تذكر طبقات من اصطفاهم من آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران، لتبين للقوم من أول الأمر أن اصطفاء الله آل عمران من عيسى وأمه، ليس إلا كاصطفائه لغيرهما ممن اصطفى، وأن ما ظهر على يد عيسى من خوارق العادات التى يتخذونها دليلا على ألوهيته أو بنوته أو حلول الله فيه، لم يكن إلا أثرا من آثار التكريم الذى جرت به سنة الله فيمن يصطفى من الأنبياء والمرسلين، ويقوى هذا أن الله يقول عقب هذه الآية بيانا لاصطفاء آل عمران: ﴿ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا** ﴾ وأنه يقول فى جانب مريم: ﴿ **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ** ﴾ وهكذا تجد أن اصطفاء آل عمران ذكر أولا مجملا ضمن من اصطفى الله، ثم بين باصطفاء مريم أم عيسى، ومن هذا يتبين أن عمران الذى سميت السورة بآله هو أبو مريم لا أبو موسى وهارون.

مقاصد السورة:

نسير بعد هذا مع السورة لنتعرف مقاصدها وما بنيت عليه.

هذه السورة مدنية، وليست من أوائل ما نزل بالمدينة، ولكنها نزلت بعد فترة طويلة من حياة المسلمين، تقلبت فيها عليهم أحوال من النصر والهزيمة فى غزوات متعددة، واختلطوا على صورة واضحة بأهل الكتاب من يهود ونصارى، وجرى بينهم كثير من الحجاج والنقاش فيما يتصل بالدعوة المحمدية وفروعها.

وقد ذكر منها غزوات بدر، وأحد، وحمراء الأسد، وبدر الأخيرة، وكانت هذه فى شهر شعبان من السنة الرابعة. وقد نزلت بعد سورة الأنفال التى تكفلت بالكلام على بدر، ونزلت بعد سورة الأحزاب التى حصلت فى آخر السنة الخامسة.

العناية بأمرين عظيمين:

ونحن إذ نقرأ السورة نجدها قد برزت فيها العناية بأمرين عظيمين لهما خطرهما فى

سعادة الأمم وشقائها: أحدهما تقرير الحق فى قضية العالم الكبرى: وهى مسألة الألوهية، وإنزال الكتب وما يتعلق بها من أمر الدين والوحى والرسالة. والثانى تقرير العلة التى من أجلها ينصرف الناس فى كل زمان ومكان على التوجه إلى معرفة الحق والعمل على إدراكه والتمسك به.

الأمر الأول: قضية الألوهية وتقرير الحق فيها:

وقد بدأت السورة بتقرير الأمر الأول، فذكرت وحدانية الله، وأنه وحده هو الحى الذى لا يدركه الفناء، والقيوم الذى له الهيمنة والتدبير والقيام على شئون الخلق بالإيجاد والتربية الجسمية والعقلية والإعزاز والإذلال، وقررت فى سبيل ذلك علمه المحيط وقدرته النافذة القاهرة ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ** ﴾. ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾. ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾.

تقرر السورة هذا فى كثير من أمثال هذه الآيات، ثم تقرر اصطفاء الله لبعض خلقه ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ يعرفون مهمتهم التى كلفهم الله إياها، وهى دعوة الخلق إلى الحق، وأنهم أعقل وأحكم من أن يقولوا للناس ـ وقد آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة ـ إلا ما طلب الله منهم أن يقولوه، وأنه قد أخذ عليهم جميعا العهد والميثاق أن يصدق بعضهم بعضا فى الحق ودعوة الناس إليه ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴾. ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾.

وهذا هو العهد الذى حفظه عيسى عليه السلام وتوفى عليه وسيجيب به ربه يوم القيامة، ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

نعود إلى السورة فنجدها تبرز مع هذا فى وضوح وحدة الدين عند الله وعلى لسان رسله جميعا ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ .. ﴾ ، ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ . وتقرر أن هذا هو الدين عند الله ، وأن من يبتغ غيره دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين .

ثم بعد أن تركز السورة فى هذا الشأن الخطير على شهادة الله بما أودع كونه من آيات وعبر ، وشهادة الملائكة ، وشهادة أولى العلم ، تتجه إلى الذين غلبت عليهم شقوتهم فحاربوا الله فى دينه ، وأعرضوا عن رسله ، وأخذوا يناوئون الحق على وضوحه ؛ فتذكر كثيرا من أساليب إضلالهم ، وألوان شبههم التى كانوا يعززون بها مراكزهم ، ويحاولون بها فتنة المؤمنين عن دينهم حسدا وبغيا ، لا طلبا للحق ولا التماسا للهدى .

المسرفون فى شأن عيسى:

وقد خصت السورة جماعة المسرفين فى شأن عيسى ، الزاعمين له ما ليس له من ألوهية أو بنوة أو حلول ، فذكرت أن عيسى لم يكن إلا من آل عمران الذين اصطفاهم بين من اصطفى ، وأن ولادته لم تكن إلا تنفيذا لإرادة الله الذى يصور الناس فى الأرحام كيف يشاء ، والذى له سنن عرف منها ما عرف وجهل ما جهل ، والذى إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ، شأنه فى خلق السموات والأرض عامة ، وفى خلق آدم وفى خلق يحيى بن زكريا خاصة ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، ﴿ إِنَّ

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

هذا الذى ذكره الله فى شأن خلق السموات والأرض، وخلق آدم ويحيى، وهو عين ما ذكره فى شأن خلق عيسى : وجدت السموات والأرض إنشاء وإبداعا، ووجد آدم من غير أب وأم، ووجد يحيى على كبر من أبيه، ويأس من أمه، وبشرت الملائكة زكريا بيحيى، وتعجب زكريا من هذه البشارة مع حالته، فرده الله إلى مشيئته ﴿ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ وهكذا كان شأن عيسى : وجد من غير أب بمشيئة الله، وبشرت الملائكة به أمه بأمر الله، وعجبت مريم لهذه البشارة ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ فردها الله إلى مشيئته ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

ثم تعرض السورة بعد هذا إلى أن الخوارق التى ظهرت على يد عيسى لم تكن إلا من سنة الله فى تأييد رسله بالمعجزات الدالة على أنهم عباد علمهم الله الكتاب والحكمة، وأن الله أرسله إلى بنى إسرائيل بآيات من ربه ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

دعوة إلى أهل الكتاب:

وبعد أن تكشف السور لهؤلاء - الذين أسرفوا فى شأن عيسى - شبهتهم التى ضلوا بها عن حقيقة التوحيد، وعن الدين عند الله، تسلك معهم سبيلا آخر فتأمر الرسول محمدا - ﷺ - بأن يتقدم إليهم فى ثقة بنفسه واطمئنان إلى دعوته، فيدعوهم إلى المباهلة : وهى أن يجتمعوا جميعا مع محمد - ﷺ - وجماعته فى صعيد واحد، ويستمطر الكل لعنة

الله على الكاذب من الفريقين، ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾. تزلزلت أقدامهم واضطربت أعصابهم وعلموا أنهم إذا قبلوا الدعوة إلى هذه المباهلة فهو الفناء للوالد وما ولد، وهو المحق الذى لا يبقى ولا يذر، فتولوا وانقطعوا عن الحجاج.

وهكذا، كما تحدى القرآن المشركين أن يأتوا بمثله وهم أرباب اللسان والبيان، تحدى المسرفين فى شأن عيسى بهذه المباهلة السهلة الهينة لو كانوا صادقين، فلم يقدروا عليها، ثم تحدى التاريخ فى كل ما قصه فى شأن عيسى بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

بعد هذا تتجه السورة إلى النبى - ﷺ - فتأمره أن يوجه إليهم جميعا دعوة المنتصر فى حقه، القوى فى برهانه، الحريص على خير خصمه وسعادته، مناشدا إياهم بما يقربهم إليه، ويخفف من غطرستهم وغلوائهم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

هذا هو مجمل ما عرضت له السورة من الحجاج الخاص بالشبه التى أثارتها عند القوم ولادة عيسى وخوارقه.

تفنن أهل الكتاب فى إضلال المؤمنين:

وقد كانت لهم فنون فى الحيل، وألوان من الشبه، قصدوا بها على وجه عام إضلال المؤمنين، وفتنتهم عن دينهم، وقصدوا بها تبرير استمرارهم على العناد والمكابرة، ومنع من يريدون الإيمان من أتباعهم بمحمد ورسالته.

فمن فنون حيلهم:

١ - أنهم كانوا يعمدون إلى الحق الذى جاء به الأنبياء ونزلت به الكتب فيخلطونه بالباطل الذى ألحقه به أحبارهم ورهبانهم عن طريق تأويلهم الفاسد لمتشابه الكتاب، دون أن

يردوه إلى المحكم الذى يبين به الحق فى أصول الدين، ثم يجعلونه دينا يجب اتباعه ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله.

٢ ـ ومنها إذاعتهم أن إبراهيم كان على دينهم، ومحاولة صرف الناس عن محمد بذلك، وفى هذا تقول السورة: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾.

٣ ـ ومنها أن بعضهم كان يوحى إلى بعض أن يظهروا الإيمان بمحمد وما أنزل عليه فى وقت، ثم يظهروا العدول عنه والكفر به فى وقت آخر، ليقول الناس إنه لو كان حقا ما رجع عنه هؤلاء بعد أن آمنوا به.

وفى ذلك كله تقول السورة: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾.

وتقول: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

وبينما تفضح السورة هذا النوع من فنون حيلهم وكيدهم تتناول من جانب آخر شبههم التى يخلعون عليها لونا من التمويه.

فمن ذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هؤلاء على ملة إبراهيم والنبيين من بعده ـ كما يزعمون ـ لما أحلوا ما كان محرما من حيوان أو طعام، ولاتجهوا فى صلاتهم إلى قبلة الأنبياء جميعا وهى بيت المقدس، فترد عليهم السورة فى هاتين الشبهتين بتكذيبهم فى الأولى، وببيان صلة الكعبة بإبراهيم فى الثانية، فتقول:

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ .

وقد سمعوا من قبل فى هذا الشأن من سورة البقرة: ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** .

فهذا شأن الطعام: كان حلا لبنى إسرائيل، هذا دين إبراهيم: كان هو الإسلام، وهذه هى الكعبة: رفع إبراهيم قواعدها وإسماعيل، وطهراها للطائفين والعاكفين والركع السجود، وهذا محمد بن عبدالله: هو دعوة أبيه إبراهيم ﴿ **وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾** .

هذا ما تناولته السورة فى المقصد الأول، ومعالجة أفانين حيلهم وشبههم فيه.

بيان العلة التى تحول بين الناس وبين اعتناق الحق:

وبينما كانت السورة تقرر هذا المقصد على النحو الذى شرحنا، كانت تعرض فى الأثناء إلى بيان العلة التى تستحوذ على قلوب الناس، وتستولى على عقولهم فتحول بينهم وبين اعتناق الحق والعمل بالحق، وهذا هو المقصد الثانى للسورة، ترده إلى شىء واحد هو الغرور بما لهم من أموال وأولاد، وسلطان وجاه، فقد كانوا يتصورون أن فى إيمانهم بصاحب الدعوة الجديدة زلزلة لما لهم من جاه وسلطان، وأنهم فى غنى عن هذه الدعوة بما لهم من أموال وأولاد، ويظنون أن ذلك كان لهم عن استحقاق ذاتى، وأنه دائم لا يزول، ولا يؤثر فيه إيمانٌ ولا كفر. وكثيراً ما حدثنا القرآن عن مثل هذا الوهم الفاسد الذى خدع كثيراً من الناس فأضلهم وأعمى أبصارهم: ﴿ **وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾** . ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ**

الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

وعلى هذا الأساس الذى أرشدنا الله إليه فى كثير من كتابه أخذت سورة آل عمران تضرب على هذه العلة التى يتوارثها الجبارون بعضهم عن بعض، وترشد إلى أن حب المال والغرور بمتاع هذه الحياة هما علة العلل، وهما الحائل بين الناس وبين الحياة الطيبة والإيمان الصادق، وفى ذلك تقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ .

ثم تضرب لهم مثلين، أحدهما من الماضى البعيد، والآخر من الماضى القريب: تضرب لهم مثلا بآل فرعون والذين من قبلهم، وتضرب مثلا بفئتى المؤمنين والمشركين فى بدر وتقول: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ .

ثم تعود السورة تؤكد أن أموال هؤلاء لا ترد عنهم من بأس الله شيئًا، ولا تنقذهم من العذاب الأليم الذى أعد لهم جزاء نكوصهم عن الحق، ومناوأتهم لهدى المرسلين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ[1] أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

وإنه ليجدر بأمثال هؤلاء ـ وهم موجودون فى كل زمان ومكان ـ أن يلتفتوا إلى أن

---

(١) البرد الشديد.

الأموال التى ينفقونها فى لذاتهم وشهواتهم وبسط سلطانهم على الناس بغير حق، لا بد أن تفسد عليهم فى نهاية الأمر أخلاقهم وعقولهم، وتهدم ما بنوا من حضارات، وشيدوا من قصور، وابتكروا من وسائل الهدم والتخريب، ستقضى أموالهم هذه على حرثهم الذى له يعملون، وفى سبيل بقائه ينفقون، ولا أجد مصداقًا لهذه الآية الكريمة أقرب ولا أوضح من هذه الحروب الطاحنة التى تقضى بين الفترة والفترة على كل ما لهم مما يزرعون ويحرثون.

وبينما تعرض السورة أثر الافتتان وسوء عاقبة الغرور بالأموال والأولاد على هذا النحو، نراها تقرر الحق فى شأن حب الناس للأموال ومظاهر هذه الحياة، وتقول: إنه شىء قد فطروا عليه، ولكنه ليس هو المقصد الأسمى من هذه الحياة، وإنما هو متاع وزينة، وهو فى الوقت نفسه سبيل - إذا أحسن استعماله، وأديت حقوقه - للحصول على المتاع الخالد فى الحياة الخالدة، سبيل لمتاع خير وأسمى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾.

ثم تصف هؤلاء الذين اتقوا والذين لهم ذلك الجزاء، بأنهم هم الذين أدركوا الحق وأنفقوا ما آتاهم الله من مال ابتغاء مرضاة الله، وصبروا على ما انتابهم من بلايا ومحن، ورجعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار ﴿ **الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾ ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾.

توجيه لجماعة المؤمنين:

وبعد أن تركز السورة هذين المقصدين: المقصد الأول الذى يتعلق بالألوهية وبيان الحق فى الدين والرسالة، والمقصد الثانى فى بيان العلة التى أعمت من أعمت، وأصمت من أصمت عن قبول الحق والاستجابة لدعوته، وهى علة الغرور بالمال والولد، وتستنفد فى هذين أكثر من نصفها، تتجه إلى جماعة المؤمنين الذين جمعهم الحق وتكونوا على أساس

الرحمة بالخلق، فتحذرهم أن يتأثروا لشيء من خطة هؤلاء المعاندين فى أفانين حيلهم وباطل شبههم والاغترار بمتاع الحياة، وتطلب إليهم أن يعتصموا بحبل الله وأن يذكروا الأخوة التى ربطت بين عواطفهم، ثم تأمرهم بوسيلة ذلك كله، وهو التضامن الاجتماعى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى تدوم لهم وحدتهم وتستقر دولتهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾.

ثم تضع السورة لهم فى جانب ذلك ما ينبغى أن يسلكوه فى علاقتهم بغير المؤمنين، ما يباح منها وما لا يباح: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

نسير بعد ذلك مع السورة فنراها تركز هذه الأصول عند المؤمنين، وتلفت أنظارهم فى سبيل ذلك إلى حادثتين عظيمتين من حوادثهم الخاصة، لهم فى كل حادثة منهما أكبر العظات فيما قررته السورة من مقصديها العظيمين: الصدق فى الإيمان، وعدم الاغترار بزخارف هذه الحياة.

سر النصر فى بدر والهزيمة فى أحد:

تلفتهم إلى واقعة بدر وكيف انتصروا فيها بالإيمان والصبر والتقوى مع قلتهم وضعفهم فى المال والعدة، ومع كثرة أعدائهم ووفرة ما لهم وقوة عددهم: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا

يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾.

وتلفتهم إلى واقعة أحد، وفيها اعتمد المسلمون على قوتهم وكثرتهم، وخطف أبصارهم شيء من زخارف الدنيا، وفيها انهزموا لسبب مخالفة الرماة أوامر القيادة الحكيمة، وفيها أرجف الأعداء بموت الرسول، فتزلزلت أعصاب كثير من المؤمنين، وفيها أفصح المنافقون عن نياتهم، وفي ذلك كله تقول السورة: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ إلخ، وفيها تقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ وفيها تقول: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وفيها تقول عن المنافقين الذين رجعوا: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾. ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وأخذت تشرح لهم في شأن هذه الواقعة إلى أن تقول بيانًا لواقع الأمر عند الله ﴿ إِن

يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

ثم لا يفوت السورة - وهى تحدثهم عما أصابهم من هزيمة فى أحد - أن تبين لهم أن هذا إنما هو ابتلاء من الله وتمحيص للمؤمنين، والعاقبة لهم على كل حال: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ .

وتقول فى شأن مكانة الذين قتلوا فى سبيل الله عند الله، تحريضًا لغيرهم على الاستشهاد، وعلى الإخلاص: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهكذا تشرح السورة لهم بمناسبة هذه الواقعة ما يجب أن يتحلى به المؤمنون من الاعتماد على النفس، والثبات والإخلاص، وعدم التأثر بالأراجيف، وتبين لهم أن الجيش له حياة مستقلة عن حياة شخص القائد، وأنه لا ارتباط بين موقفه وما يصيب القيادة، إلى غير ذلك من أنواع التعليم والتأديب التى لا غنى عنها لجيش يريد العزة والحياة الطيبة.

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى النهى عن مظهر من مظاهر الاغترار بالمال وهو البخل به عن الإنفاق فى سبيل الله: ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

ثم تنبههم إلى أن الشأن فى أرباب الحق أن ينالهم من نصراء الباطل كثير من الأذى بالقول والعمل، وأن واجب المؤمنين أن يتلقوا كل ذلك بالصبر والاحتمال ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ .

بعد هذا كله تختم السورة بأمرين عظيمين:

أحدهما: رسم الطريق الذى يصل به الإنسان إلى معرفة الحق والإيمان به: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.

والثاني: هذه النصحية الغالية التى ما تمسكت بها أمة إلا تركزت وسمت وعزت، وما تخلت عنها أمة إلا أصيبت بالضعف والانحلال، والتدهور والانحطاط، والذل والهوان:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

عود إلى أول السورة:

قلنا: إن السورة برزت فيها العناية بأمرين عظيمين هما: تقرير الحق فى مسألة الألوهية، وإنزال الكتب وما يتعلق بهما من أمر الدين والوحى والرسالة، وتقرير العلة التى من شأنها ـ إذا انحرفت إليها النفوس، وتعلقت بها القلوب، وصارت الهدف الذى لا يعرف غيره فى الحياة ـ أن تصرف الناس عن معرفة الحق، والخضوع لسلطانه، والعمل بمقتضاه، وأن تملك عليهم حواسهم ومشاعرهم، وتصرف قلوبهم عن التدبر والتفكر فى كنه هذا العالم وما يقوم عليه من أعمال وصلات، وما يصير إليه من حساب وجزاء، هذه العلة هى الحرص على زخارف هذه الحياة، والوقوف عند ظاهرها الذى لا يمت إلى فضيلة، ولا يوحى بخير أو صلاح.

تناولت السورة هذين الأمرين، وركزت أولهما على آيات جاءت فى أولها، فبدأت ببيان أن الكتب السماوية والعقل الذى منحه الله الإنسان ليفرق به بين الحق والباطل، ويستعين به على معرفة الهدى من الضلال، أنزلهما الله لغاية واحدة هى هداية الناس للحق ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ ثم قررت خاصة الألوهية الحق من العلم المحيط، والقدرة التامة، والحكمة فى التدبير والتقدير ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ

﴿ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وأردفت هذا وذاك بالإشارة إلى منشأ الشبهة التى تعلق بها النصارى فى ألوهية عيسى فأضلتهم عن الحق، مع تزييف هذه الشبهة بما لا يدع أثرًا فى النفوس التى خلص استعدادها لمعرفة الحق والإيمان به، وكان ذلك فى قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾.

المحكمات والمتشابهات:

يجدر بنا فى هذا المقام أن نعلم أن ما تضمنته هذه الآية ليس خاصًا بقضية الألوهية وما يتصل بها من أمر عيسى والنصارى، وإنما هو قاعدة كلية فى تعرف منشأ الشبهات التى تميل بالناس عن الحق فى أصول الدين وفروعه، وتجعلهم شيعًا وأحزابًا يكفر بعضهم بعضًا، ويضرب بعضهم رقاب بعض، فإذا قال الله: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ توسع بعضهم فى تحميل لفظ ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ما لا توحى به حقيقته التى يبينها ويوضحها محكم الكتاب فى كثير من الآيات الصريحة التى تجعل الأمر كله لله: يتوسعون بذكر أشياء لا محل لذكرها، ويغفلون أو يعرضون عن مثل قوله تعالى: ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾. ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾. ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾. ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾. ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾. ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً ﴾. وغير ذلك من الآيات المحكمات.

وإذا قال الله: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ ونحوها من الآيات التى يفهم ظاهرها أن أمر الهداية والضلال ليس مبنيًا على اختيار العبد، وإنما هو منح وفيض من الله يعطى منهما ما شاء لمن شاء، وجدنا الفرق قد شهرت أسلحتها، واشتبكت فى حرب مظلمة من الجدل العقيم، الذى إن تصورنا له غاية فليست سوى إخفاء الحق، وتشويه معالمه، ومحاولة كل أن يظهر على خصمه، ويعرضون عن بداهة

القضية التى يبنى عليها التكليف من الحكيم العادل، والآيات التى لا تعد ولا تحصى فى تقرير أن الجزاء بالعمل والكسب، وأن الله ﴿ **لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ .

وحسبنا فى التطبيق على هذا المبدأ - الذى استطردنا بذكره، وبادرنا بلفت نظر المسلمين إليه - ما ذكرنا من هاتين المسألتين اللتين تتصلان بخلاف، كثيرا ما شغل الناس، وأوقع بينهم العداوة والبغضاء دون مبرر، ومن السهل أن يتتبع الدارس مواضع المحكم والمتشابه، ويعرف ما كان ينبغى أن يسلك فيها بحمل المتشابه على المحكم، والإيمان بهما على أنهما جميعًا حق جاءنا بهما الوحى ونزل بهما الكتاب ﴿ **آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾ .

ونرجو أن تتاح لنا - إن شاء الله - فرصة إشباع هذا الموضوع بحثًا وتطبيقًا فى الأصول والفروع، وبيان أن الوقوف على الحقيقة فيه هو أساس النصفة بين المسلمين، وردهم إلى الحق الواضح، الذى يلتقون عنده على كلمة سواء كما التقى عنده أسلافهم من قبل .

متاع الحياة الدنيا:

نعود بعد الاستطراد ونقول : إن ثانى الأمرين اللذين برزت بهما عناية هذه السورة، وهو السبب الحقيقى فى الانصراف عن الحق، والإعراض عن دعوة محمد - ﷺ -، وقد ركزته السورة على بيان حقيقة ما أنعم الله به على الناس من النعم المادية، وأنه ليس إلا متاعا من متاع هذه الحياة، وأن الاعتماد عليه وحده، وتسخير الحياة فى سبيله، لا يغنى من الحق شيئًا، وأن ما عند الله خير وأبقى، وذلك هو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ** ﴾ وقوله : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ .

بدأت السورة بهذا وذاك، وركزتهما على ما ذكرناه من الآيات، وأخذت تؤيدهما بالإرشادات والمثل الواقعية فيما يرون وفيما يروى لهم من عبر الأولين، وكان من ذلك أن ضربت مثلين من حوادث المؤمنين فى عهد الرسالة، لمسوا فيهما أن النصر والسعادة ليسا منوطين فقط بكثرة الأموال، ولا بقوة العدد، ولا بوفرة العدد، وإنما هما منوطان بعد ذلك أو قبل ذلك، بالصدق فى الإيمان، والقيام بالحق، والإخلاص فى العمل، والاحتفاظ بالوحدة، والصبر على المكاره .

هذان المثلان هما: ما كان من نصر المؤمنين ببدر مع قلة المال والرجال والعدد، وما أصابهم فى غزوة أحد بالتنازع والفشل والطمع فى مظاهر الحياة الدنيا: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾. ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وكان من ذلك أنها أجملت عبر الأولين فى قوله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾. وفى قوله: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾.

خمسة نداءات إلهية لجماعة المؤمنين

وفى هذا الجو الذى هيأته السورة، وبعثت به استعداد المؤمنين للسمع والطاعة، وسلوك سبيل الحياة الطيبة، والتلقى عن الله ورسوله، بثت عدة «نداءات إلهية» قوية للمؤمنين بعنوان الإيمان الذى اتصفوا به، كان من أبرزها خمسة تدور حول أساس واحد هو تركيز وحدتهم، وصيانة كتلتهم، والاحتفاظ بشخصيتهم كأمة متماسكة لا تختلف ولا تتفرق، ولا تسمح لعوامل الضعف والانحلال أن تتسرب إليها من داخلها أو خارجها.

هذه النداءات الإلهية الخمسة هى قوله تعالى:

(١) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

(٢) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

(٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ .

(٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

(٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

هذه النداءات الخمسة التى ذكرنا أنها ترمى إلى هدف واحد فى تركيز الأمة الإسلامية، وصيانتها من عوامل الضعف الداخلية والخارجية، جدير بنا ـ وبخاصة فى هذا الوقت الذى انحلت فيه عرى الوحدة الإسلامية، وتمكنت فيه عوامل الإفساد داخلية وخارجية من قلوب المسلمين، فقطعت أواصرهم، وجعلتهم طعمة لأعدائهم، ووقفت بهم عن بلوغ الغاية السامية التى رشحتهم لها العناية الإلهية بما أمدتهم به من دين صالح، وهداية قويمة، وأخلاق متينة، وهى قيادة العالم إلى سواء السبيل، والوصول به إلى الحياة الطيبة

السعيدة - جدير بنا أن نقف عندها وقفة يتجلى لنا فيها ما تنطوى عليه من أسرار، وما أرشدت إليه من سنن، وما هدت إليه من سبيل.

ولكننا بين يدى هذه الوقفة، نقدم كلمة عن النداءات الإلهية الواردة فى القرآن الكريم، نراها مفيدة فى استجلاء ناحية مهمة من أسلوب ذلك الكتاب الحكيم فى التكاليف والإرشادات.

دلالة النداء من الله:

لله سبحانه وتعالى نداءات كثيرة فى القرآن الكريم، وللنداء عامة دلالته على كمال العناية، وعظيم الاهتمام بالمطلوب وبالمنادى، وأمر ذلك فى جميع اللغات معروف مشهور.

نداء من إله قوى قاهر، حكيم مدبر، يعلم سر العالم وباطنه، إلى عباد مؤمنين بربوبيته وألوهيته، يتلاشى حولهم وقوتهم أمام حوله وقوته، ويتلاشى علمهم وتدبيرهم أمام علمه وتدبيره - جدير بأن يهز القلوب، ويصفى النفوس، ويخلع الناس من التفكير فيما بين أيديهم وما خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، وأن يجذب قلوبهم ووعيهم وانتباههم إلى الاستماع إليه، وتدبر ما يلقيه، وحق لابن مسعود أن يقول تلك الكلمة التى تعبر عن شعور المؤمن حينما يسمع نداء الله بأحب الأوصاف التى يصف بها عباده، وهو وصف الإيمان: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك»

وقد نادى الله الأشخاص والطوائف والشعوب، ونادى الناس جميعًا، ونادى أشياء مما خلق.

ونداؤه للعقلاء أفرادًا أو جماعات نداء تكليفى يتضمن أمرًا يطلب فعلا، أو نهيًا يطلب تركًا. أما نداؤه لغير العقلاء مما خلق، فهو نداء تكوينى تصور به مطاوعة الكائنات لخالقها، وخضوعها لسنته، كما يخضع المنادى حين ينادى ممن فوقه، ومن هذا النوع الأخير ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾.

وقد جاء نداؤه للعقلاء على أنواع:

نداء الأشخاص فى القرآن:

(١) نداء لأشخاص بأسمائهم، وهذا النوع قد قصه الله علينا فى كتابه بالنسبة لبعض

الأنبياء السابقين، ناداهم بأسمائهم استنهاضًا أو تنبيهًا إلى خطر ما كلفوا به واصطفوا لأجله، أو تهدئة لروعهم، وتسكينا لأفئدتهم: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾، ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، ﴿ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾.

(٢) نداء بالوصف الذى يحدد المهمة ويبعث على القيام بها وعدم التأثر بشيء فى سبيل أدائها ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾.

وهما خطابان لمحمد - ﷺ -، ولم يوجد فى القرآن خطاب له بوصف الرسالة سوى هذين.

وقد ناداه بوصف النبوة فى مواضع متعددة.

ناداه بهذا الوصف فى تنفيذ بعض ما كلف به من جزئيات الأحكام المشروعة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾.

وناداه به فى بعض شئون خاصة به ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾.

وناداه به فى بعض تشريعات عامة للمؤمنين ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾.

وناداه به فى أمره بتقواه وتحذير إطاعة الأعداء، أو التأثر بمقترحاتهم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

وكما نادى الله رسوله بوصفى الرسالة والنبوة - كما رأينا - ناداه بحالة صار إليها لمناسبة خاصة ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾. ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ وفى الخطاب بهذين الوصفين تأنيس له

وملاطفة على عادة العرب فى اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التى هو عليها كقوله ـ ﷺ ـ لعلى ـ كرم الله وجهه ـ حين رآه وهو نائم قد لصق بجنبه التراب: قم يا أبا تراب.

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أمرين:

أولهما: أنه لم يقع نداء لمحمد ـ ﷺ ـ باسمه الصريح كما وقع لغيره من الأنبياء السابقين. وفى هذا من التكريم ورفع الشأن ما لا يعرف لأحد من الأنبياء.

وقد قال العلماء: إن فيه تعليما وتأديبًا للمؤمنين فى التحدث عنه أو ندائه ـ ﷺ ـ، وقد كان الأصحاب ـ رضوان الله عليهم ـ يتحدثون عنه وينادونه بوصف الرسالة أو النبوة، وقد جهل جماعة من الأعراب هذا الأدب لما نشئوا عليه من خشونة البادية، فنادوه باسمه، فأنزل الله عليهم: ﴿ **لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا** ﴾ ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾.

ولعل من محاكاة هذا الأدب ما درج عليه الناس من عدم نداء الملوك والعظماء ورجال الشرف بأسمائهم، وإنما ينادون بألقابهم وأسماء مراكزهم، وهو أدب معقول مقبول.

وثانى الأمرين: أن النداء بوصف النبوة كان موجها إلى جزئيات من تكاليف الرسالة، وبخاصة ما كان يتصل بجهة التنفيذ، وأن النداء بوصف الرسالة لم يكن إلا فى تحديد مهمة الرسالة العظمى وما يتصل بها من تقوية القلب على أدائها، ﴿ **بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** ﴾ ﴿ **لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ** ﴾.

ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة لفظى (نبى) و(رسول) فى اللغة العربية واقتضاء أولهما بمعنى العرفان والعلم واقتضاء الثانى مجرد التبليغ.

النداء بـ «يأيها الناس» و«يا بنى آدم»:

٣ ـ وكما نادى الأشخاص على النحو الذى ذكرنا، نادى الناس جميعا مرة بوصف الإنسانية العام، ومرة بوصف البنوة للأب الأول، والذى نلاحظه هنا أن النداء بوصف الإنسانية كان أكثره فيما يختص بالأصول العامة للدين، من الإيمان بالله، والوحى، والرسالة، والإيمان باليوم الآخر، وما يرجع إلى شىء من هذين: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

وأما نداؤهم بوصف البُنوّة لآدم، فقد وجّه إليهم تحذيراً من مكايد الشيطان التى وقع فيها أبوهم من قبل ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ .

ووُجّه إليهم امتنانا على نوعهم بما ميزهم الله به عن سائر الحيوان من لباس يستر العورة، وريش يتزينون به ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً ﴾ .

ويلاحظ هنا أن الإنزال كما يكون للأجسام تسقط من عُلو، يكون في معنى تهيئة الأسباب للحصول على الشيء بعد خلق مادته ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ . ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ .

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً ﴾ أى خلقنا مادته من القطن والصوف والحرير، وهديناكم بالغرائز والقوى إلى صنع اللباس عن طريق الوسائل التى يتوقف عليها وألهمناكم بها، كالزراعة والغزل والنسيج والخياطة.

٤ ـ وكما نادى الله الناس على هذا النحو، نادى الطوائف والشعوب:

نادى شعب بنى إسرائيل، ولا نعرف شعبا آخر وُجِّه إليه الخطاب فى القرآن كما وجِّه إلى هذا الشعب، ولعل ذلك كان لكثرة ما عُولج به هذا الشعب من نوعى النعماء والضراء، ثم لم تنفع معهم تلك المعالجة لا فى القديم ولا فى الحديث. مع ما كان الله عليهم فى شخص أبيهم «إسرائيل» من فضل عظيم يجب أن يذكروه وأن يقدروه، فيخلعوا أنفسهم عن موقف العناد والمكابرة إلى موقف الطاعة والاستجابة، وفى التذكير بمكانة الآباء إحياء للإحساس بالشرف والشعور بالكرامة عند الأبناء، وفى هذا الإحياء إحياء للعزيمة الصادقة، وتقوية لها على عوامل الهوى والشهوة.

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾.

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾.

٥ ـ ونادى طوائف أهل الكتاب، ناداهم بهذا العنوان تبكيتا لهم على ما كانوا يرتكبون من أفانين التضليل وأنواع التشكيك التى كانوا يحاربون بها الدعوة المحمدية.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ وكأنه يقول لهم: إن صنيعكم هذا لا يتفق مع ما نزلت به الكتب عليكم، وإنَّ صدقكم فى نسبتكم إلى الكتب يحتم عليكم تلبية الدعوة التى تصدِّق رسلكم، والتى تضمنتها كتبكم وكنتم بها من قبل مؤمنين، فلستم كالمشركين الذين لم تنزل عليهم كتب، ولم يشرق فى آفاقهم شىء من نور الحق.

وقد يناديهم بهذا الوصف إغراءً لهم، لتلبية الحق الذى يدعون إليه، والذى لم يكن شيئا جديدا عليهم **﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾**.

٦ ـ وكما نادى سبحانه وتعالى طائفة اليهود والنصارى بوصف أهل الكتاب، نادى طائفة الذين آمنوا بمحمد ـ ﷺ ـ بوصف المؤمنين، وإن المتتبع للنداءات الإلهية فى

القرآن يجد أكثرها موجها إلى المؤمنين، فقد بلغت نداءاتهم تسعة وثمانين نداء، وأنه لم يقع نداء واحد منها في آية مكية، وإنما وقعت كلها في الآيات التي نزلت بعد أن تكوّن المسلمون بالهجرة جماعة لها كيان خاص، وقوة خاصة، وسبيل خاص.

ناداهم بهذا الوصف الذي تركز في نفوسهم، تنبيها إلى أن الإيمان من شأنه أن يحملهم على الاستجابة لما طلب منهم وكلفوا به، وتنبيها إلى أنهم بحكم اشتراكهم في ذلك الإيمان مسئولون عن هذه التكاليف التي هي من أحكام الإيمان، يسأل الشخص المؤمن عن نفسه، ويسأل عن أخيه، وهذا هو الأصل فيما يقرره الإسلام من تضامن أهله، ومسئولية بعضهم عن بعض في تنفيذ الأحكام والعمل بمقتضاها.

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

نادى الله المؤمنين بهذا الوصف في الأخلاق، وفي الأحكام، ففي الأخلاق **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾**. **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ﴾**.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾.

وهكذا استنهض القرآن المؤمنين بالنداء بهذا الوصف المحبب للنفوس، المكرّم

للعقول، إلى مكارم الأخلاق فى الأفراد والجماعات، سمواً بهم إلى أعلى مراتب الإنسانية.

وكما ناداهم فى الأخلاق حثا على التحلى بها، ناداهم فى الأحكام حثًا على امتثالها والعمل بمقتضاها.

ناداهم فى الأحكام التى يطالب بها كل فرد:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

وناداهم فى الأحكام التى طلب وجودها فيما بين الجماعة، وطلبها من الجماعة من جهة أنها جماعة، والشأن فى هذا النوع أن يناط تنفيذه بمن يمثل الجماعة وينوب عنها مع مسئولية الجماعة عنه، وهذا هو أساس مسئولية الحاكم أمام الجماعة فى نظر الإسلام.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ﴾.

ويلاحظ هنا أنه كما أن الأمة مسئولة عن هذا النوع الذى نيط تنفيذه بالحاكم النائب عنها، وكان الحاكم مسئولا أمامها عنه، فإن الحاكم مسئول أيضا عن النوع الآخر الذى طلب من الأفراد ونيط بهم تنفيذه، ومن هنا وجدت فى الإسلام للحاكم سلطة إقامة الحدود، وتوقيع العقوبات على من قصّر فى واجب من الواجبات فعلا أو تركا. فملك عقوبة من ترك الصلاة، أو أفطر فى رمضان، أو منع الزكاة، أو اقتحم البيوت بغير إذن، أو عف بكثرة الأراجيف، أو بالتجسس على الناس فى خواص شئونهم، وما إلى ذلك من المخالفات الأخلاقية والأحكامية التى طلبها الله من عباده المؤمنين.

وقد يأتى النداء للمؤمنين بتكليف يكون مطلوبا من الأفراد من حيث هم أفراد، ومن الجماعة من حيث هى جماعة، ينوب الحاكم عنهم، ومن ذلك: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**

لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ .

فإن الحكم الذى تضمنته هذه الآيات مطالب به الأفراد كل على سبيل الاستقلال، ومطالب به الجماعة التى يمثلها الحاكم، فكما لا يصح أن يتخذ فرد ما من الأمة بطانة من أعدائها يمكّنها من أسرار دولته، ولا يصح للحاكم الذى يمثل الجماعة أن يتخذ من الأعداء بطانة يفضى إليها بهذه الأسرار، أو يمكنها من الاطلاع عليها.

وهكذا نجد القرآن قد عالج بالنداءات الإلهية الناس على وجه عام، وعالج الطوائف على وجه خاص، وكانت الأوصاف التى تقع بها هذه النداءات من شأنها أن تدفع بالمخاطبين إلى امتثال ما يخاطبون به، وهو أسلوب قوى من أساليب الإرشاد واستنهاض الهمم، أسلوب طبيعى تأنس إليه النفوس، وتُملك به القلوب.

وقد قرّ فى نفوس الناس أن يحث بعضهم بعضا على فعل ما يريدون من خير وترك ما يخشون من شر، فهو أسلوب له أثره فى توجيه القلوب وحفز الهمم، وبخاصة لو صدر من أب لابن، أو من رئيس لمرءوس، أو من حاكم إلى رعيته، فما بالنا إذا صدر من الخالق العليم، ذى السلطان والقهر، وصاحب القوة والنعمة فى الأولى والآخرة؟

كلمـــات:

نتقدم هنا إلى المسلمين بكلمات عن هذه النداءات التى سيجدون فيها القوى التى يحتمها الاجتماع لصيانة كل مجتمع، وما أجدرنا ـ معشر المسلمين ـ وبخاصة فى هذا الوقت الذى انحلت فيه عرى الوحدة الإسلامية، وتمكنت من المسلمين عوامل الإفساد داخلية وخارجية. ما أجدرنا أن نستمع إلى هذه النداءات الإلهية، وأن نتدبرها، وأن نعقل معناها، وأن ندرك وحيها، وأن نجعلها نبراسنا فى الحياة، لتعود إلينا صولة الأمة القوية ومكانة الأخلاق القويمة، وننزل المنزلة التى أرادها الله لنا، وأنزل كتابه لأجلها ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

سنن الله فى نهوض الأمم وانحدارها:

يتسرب الخلل إلى الجماعات، ويلحقها الضعف والوهن من نواح متعددة: يلحقها من جانب ضعفها النفسى، وقبولها التأثر بما يثار بينها من المثيرات، وما يذاع فيها من الأراجيف والأباطيل، ويلحقها من جهة انحلال أفرادها، وعدم تكتلهم حول هدفها وغايتها. ويلحقها من جانب السكوت عما يرتكب أبناؤها فى داخلها من مخالفات وفسوق وآثام، فتنتشر حمى ذلك الوباء، فتعم الأمة، وتصبح كلها بعيدة عن الخير والفلاح. ويلحقها من جهة انخداعها بظواهر خصومها واعتقادها فيهم الإخلاص والصدق، فتمتزج بهم، وتلقى بحبال المودة إليهم. وتلحقها من جهة القسوة تملأ قلوب أغنيائها فتحول بينهم وبين الشعور بحاجة فقرائها، فلا يمد الغنى يده بالمساعدة والمعونة للفقير المحتاج، فيضطغن ذلك الفقير بما يتقلب فيه من بؤس وشقاء على ذلك الغنى بما يتعم به من نعيم ورخاء. وبعد هذا وذاك يلحقها الضعف والوهن بأخلاق الجزع والهلع لما يصادفها من أحداث وصعاب، فتفقد قوة المقاومة، وقوة التوقى، وتخر صريعة أمام الأحداث والخطوب، والأعداء والمحاربين.

ولعلنا بالتطبيق لهذه المبادئ على الأمم وأطوارها فى قوتها وضعفها، سواء أكانت متدينة أم غير متدينة، ندرك تماما أنه ما من أمة بقيت وقويت واستقر وجودها، واشتد ساعدها، واستمر لها الملك والسلطان، إلا كان الاحتياط من هذه الثغرات شأنها وديدنها. وما من أمة أكلها الدهر، وأفنتها الحياة، إلا كانت ناحية أو أكثر من هذه النواحى مصدرا لنكبتها وما صارت إليه ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.

ولعلنا ندرك إذا انتهينا من هذا التطبيق، ووافانا التاريخ الصادق بالمثل عليه فى جانب الإيجاب والسلب، ولعلنا ندرك أن القرآن الكريم - بإشارته إلى هذه المبادئ، وتحذيره من هذه الثغرات فى مقام تكوين الأمم والاحتفاظ بعوامل بقائها - لم يفاجئ الناس بما ليس من سنن الله فى كونه، ولم يكلفهم بغير ما تقضى به طبيعة الوجود، أو بما لم تجربه التجارب فى مختلف الأمم والأزمان والآباد.

ولعلنا إذ ندرك هذا ندرك أيضا أن ورود هذه المبادئ الاجتماعية الدقيقة، وهذه الإرشادات التى يعرفها ولا يدرك آثارها إلا من رسخت فى السياسة والاجتماع والتاريخ

أقدامهم، وكانوا طوال حياتهم فى بحث وتنقيب عن علل الاجتماع، وما تبرأ به تلك العلل. وليس من المعقول أن محمداً - ﷺ - بنشأته المعروفة، وفى بلده المحدود، وفى محيطه المعروف، قد وصل بنفسه إلى ذلك العلم، وأحاط به هذه الإحاطة الشاملة الكاملة التى تناولت علل الظاهر، وعلل الباطن، وعلل الداخل، وعلل الخارج، وأبرزه ذلك الإبراز القوى فى تلك المناسبات التى تلتئم بمواضعها كل الالتئام، فسبحان من علمه هذا العلم، وأوحى إليه بهذا البيان ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾.

ولنرجع إلى هذه النداءات فنعرض لها بعد هذه المقدمة بشىء من التفصيل:

النداء الأول فى السورة:

كان أول هذه النداءات هو قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

كثيراً ما كشف القرآن الكريم عن نيات الكفار وأهل الكتاب للمؤمنين، وأنهم لا يألون جهداً فى ردهم عن الحق الذى أشرقت أنواره على قلوبهم، وأنهم كانوا يتخذون لذلك صوراً وألواناً من الشبه وإثارة الفتن والإيقاع بينهم، وفى ذلك يقول الله عز وجل فى سورة البقرة: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ ويقول فيها: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾، ويقول: ﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾، ويقول فى سورتنا هذه: ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾، ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

وكان من هذا ما رواه المفسرون بصدد آياتنا هذه: ﴿ إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾: مرَّ شاس بن قيس اليهودى - وكان عظيم الكفر،

شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم - على نفر من الأنصار يجمع بين الأوس والخزرج، بعد أن استل الإسلام ما كان بينهما من أحقاد وضغائن. فشق عليه أن رآهم وقد طابت نفوسهم، وجلسوا يتبادلون أحاديث المودة والإيمان والإخاء، فجلس إليهم، وأخذ يجرهم شيئًا فشيئًا إلى أحداث الماضى حتى وقع بهم فيما كانوا فيه، وجرت بينهم ذكريات ذلك الماضى الذى جللهم بسواد العداوة والخصومة، وأخذ ينشدهم بعض ما قيل فى حروبهم من الشعر، فحرك من وجدانهم، وهاج من شعورهم، ومازال بهم حتى تنادوا فيما بينهم وعلى أنفسهم: السلاح السلاح، ولكن الله الذى كفلهم برعايته، وطهرهم من رجس الجاهلية، وعداوتها الغاشمة، وملأ بالإيمان قلوبهم، وأقام على الألفة والأخوة أمرهم، لم يمهل هذا الشيطان الذى نفث فيما بينهم سمومه، فأحبط سعيه، وأبطل كيده ﴿**وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ**﴾، فما هى إلا لحظات حتى بلغ الخبر رسول الله - ﷺ - فخرج إليهم تحيط به قلوب أخلصت لله ورسوله من المهاجرين والأنصار وصاح فيهم: «أترجعون إلى أحوال الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلوبكم؟!» فسكنت ثائرتهم وأغمدوا سيوفهم، ورجعوا إلى الله ورسوله تائبين نادمين مستغفرين. وهكذا التأم الجرح الذى حاول هذا المفسد أن ينكأه. وعانق بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله - ﷺ - وإخوانهم راضين مطمئنين، وأنزل الله هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾.

ولنقف هنا قليلا لنستخلص العبرة من هذا الموقف كله.

فنقول أولا: إنه لا يزال هذا الشأن الذى تناوله شاس بن قيس فى جماعة المؤمنين الأولين، يتناوله أعداء المسلمين فى كل عصور التاريخ حتى يومنا هنا، وإن للمسلمين فى كل عصر من هؤلاء الخصوم - النافسين عليهم مكانتهم، الحريصين على تمزيق شملهم وتفريق كلمتهم، المنفرين لهم عن اجتماعهم حول كتابهم - «شاسا» يعمل هذا العمل، ويدأب عليه جاهدًا، لا وانيًا عنه ولا مقصرًا، ولكن هناك فرقًا بين شاس اليوم وشاس الأمس. فقد كان الأول فردًا ضعيفًا ضئيلا، أو كانوا أفرادًا معدودين ليست لهم قوة، ولا يستعينون بعلم ولا نظام ولا سلاح، ولا يملكون من الجاه والمال والسلطان ما يجذبون به عشاق المال والجاه والسلطان، أما شاس اليوم فتمثل فى دول مختلفة ذات قوة وعتاد وعلم وسلطان، وكيد وتدبير، تتجاذب المسلمين فى كل أقطارهم، وتتفق جميعًا فى غاية شاس

الأول من هدم الإسلام وتمزيق أهله، وإحياء العداوات التى أطفأ الله نيرانها من قبل، وإذكاء نار الخصومة والبغضاء فيهم، حتى جعلوهم كأرباب الأديان المتفرقة، ينفس بعضهم على بعض، ويكيد بعضهم لبعض، ويظن بعضهم الظنون ببعض، وقطعوهم أممًا وشيعًا، كل حزب بما لديهم فرحون.

ونقول ثانيًا: إن شاس الأمس لم يستطع أن يصنع بتلك الكتلة المتراصة القوية شيئًا مع وجود ذلك القلب القوى الرحيم، قلب محمد - ﷺ -، ومن حوله جنود الإيمان والإخلاص. فأبطل الله بهم كيد الكائدين، ورد الألفة والمحبة إلى جماعة المؤمنين. فما أجدر المؤمنين اليوم أن يتنبهوا إلى شاسهم الذى يعمل فى صفوفهم، وما أحوجهم إلى قائد قوى ذى عزمات يجمع شملهم ويذود عنهم أعداءهم، ويطهر جوهم من فتن المفسدين، وكيد الكائدين.

وأحب أن ألفت الأنظار إلى ما تضمنته هذه الآية من عدالة فى الحكم وإنصاف لأهل الكتاب، وعدم تجاوز للواقع فى شأنهم، فإن أهل الكتاب ككل أمة، فيهم الخبيث والطيب، والمحسن والمسيء، ومحب الخير ومحب الشر، وظروف الحياة والتعامل والاشتراك فى الوطن، وبخاصة المصاهرة التى شرعها الله بيننا وبينهم، كل ذلك يقضى بإباحة تبادل مظاهر الحياة، ولا تخلو من أمر وإرشاد ونهى وإبداء. رغبة وإشفاق وتعاون وشهادة ونحو ذلك مما يقضى به الاجتماع، وليس من الحكمة أن يفوت المسلمون على أنفسهم الانتفاع بما قد يجدونه من هؤلاء خاليًا عن الإيذاء، ممحضًا للنفع والخير. ولهذا نرى القرآن فى مثل هذا المقام يقتصد فى حكمه، ويعبر التعبير المتزن الذى يفتح للمسلمين باب التعامل مع أهل الكتاب، ويصدر الحكم فى التحذير منهم جزئيًا لا كليًا، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ **وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾. ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾. ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً** ﴾. ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ** ﴾. ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ** ﴾ ﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً** ﴾.

وعلى هذه السنة العامة جاء التعبير فى آيتنا هذه: ﴿ **إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا**

الْكِتَابَ﴾ وعلى هذه السنة الغالبة ينزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم يذكر الله للمؤمنين الذين يتعارضون لمثل هذه المواقف أن لديهم إذا رجعوا إلى أنفسهم وقلوبهم ما يعصمهم من التردى فى هذه الحفرة التى يحفرها لهم أعداؤهم، لديهم آيات الله، وفيهم رسوله، آيات الله: كتابه الناطق ودلائله الصامتة، وحكم تشريعه البينة الواضحة، ومثله الماضية والحاضرة، أما رسوله فقد كان بشخصه فى الأولين، وهو بسنته وسيرته وأخلاقه فى الآخرين.

وإذا كان شخص الرسول قد غاب عن أعين الآخرين، فهو حاضر فى قلوبهم ماثل فى أنفسهم، ولم تنقطع أسوتهم به، ولا متابعتهم له، فهم يذكرونه فى الصباح والمساء، ويسمعون النداء باسمه فى كل صلاة مفروضة، ويجرون اسمه على ألسنتهم فى كل توحيد وتشهد. فمنزلة وجوده فيهم بعد مماته هى منزلة وجود الكتاب فيهم، كلاهما متواتر يتلقاه جيل من المؤمنين عن جيل.

وقد صح فى الخبر أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قال، «تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدى ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتى»[1] والتمسك بهما هو الاعتصام بالله الذى جعله وقاية من الضلال والهلاك، وسبيلا إلى النجاة والهدى ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

النداء الثانى لجماعة المؤمنين:

ثم جاءت الآية الثانية تشرح لنا سبيل هذا الاعتصام، وفى هذا السبيل أوصت بأمور:

(١) تقوى الله حق تقاته.

(٢) الاعتصام بحبل الله.

---

(١) تعددت طرق هذا الحديث، وجاء فى بعضها: «كتاب الله وعترتى» ولاشك أن سنته هى التى كان عليها هو وعترته الطاهرة.

(٣) ذكر نعمة الله فى تأليف قلوبهم بعد العداوة.

(٤) الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

(٥) الحذر من الوقوع فيما وقع فيه السابقون من التفرق والاختلاف بعد مجىء البينات.

هذا هو ما تضمنه النداء الثانى، وهو قوله تعالى:

﴿ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

تقوى الله حق تقاته ومعناها:

أما تقوى الله حق تقاته، فللمتقدمين فى معناها عبارات: منها أن يطاع الله فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر. ومنها أن يجاهدوا فى الله حق جهاده، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم، وأن يقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

وقد أخذ بعضهم من بعض هذه العبارات: أن العباد قد كلفوا فى هذه الآية بما لا طاقة لهم به، ويروون فى ذلك عن ابن عباس: أنه لما نزلت هذه الآية شق الأمر على المسلمين، فأنزل الله بعدها **﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾** ونسخ ذلك قوله **﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾** وبقى عجز الآية **﴿ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾** وهذا لون ما كان لنا أن نراه فى كتب التفسير، وما كان لأحد أن ينقله عن أحد فى بيان معنى كلام الله، فإن تقوى الله حق تقاته، هى تقوى الله ما استطاع الإنسان، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وهى ترجع إلى حفظ النفس من كل ما يدنسها خوفًا من غضب الله وطمعًا فى مرضاته، وعملا على إقرار الحق

والصلاح فى العالم، وأن يكون ذلك كله بقدر ما تحتمل قوى الإنسان من فعل الخير والمعروف مع الإخلاص فيهما دون تفريط فى مقدور، وظاهر أنه لا تعارض بين الآيتين حتى يقال: إن إحداهما ناسخة للأخرى.

وهذا الأمر يرسم للمؤمنين سبيل صلاحهم، واستقرار مجتمعهم، ويربطهم فى هذا الشأن برابطة وثيقة لا تنفصم عروتها؛ فإن كل إنسان إذا اتقى الله وراقبه وامتلأت نفسه بعظمته، فخاف غضبه، ورجا رضاه، طهرت نفسه، وأشرق عليها نور الحق واليقين، واتجهت إلى الخير فى خلوتها وجلوتها، وسرائها وضرائها، وسائر أحوالها، فأفادت واستفادت، وهذا هو أساس الإصلاح الاجتماعى الحق، الذى يكون منبعه القلب، ومبعثه الإيمان، لا ذلك الذى يسوق إليه القانون، وتدفع إليه الرهبة والخوف من السلطان. ولعل الفساد الذى نراه متفشيًا فى العالم، ضاربًا أطنابه فى ربوعه، إنما نشأ من إهمال هذا الجانب، وتركيز الحياة على أسس لا تتصل بالقلب، ولا تمت إلى الروح.

ومرة أخرى نلفت الأنظار إلى أن تحديد هذا المعنى أساسًا للصلاح، والمناداة به فى غير ما آية من كتاب الله، وفى غير ما حديث عن رسول الله، لمن آيات الله على صدق محمد، وعلى أنه يتلقى عن الله العليم بخفيات النفوس، الخبير بطبائعها وما تصلح عليه.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿**وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ من مقتضات تقوى الله حق تقاته، ومعناه: لتستمروا على الإيمان، ولتجتنبوا عوامل الخسران والكفران، ولتسدوا دون قلوبكم وأعمالكم منافذ الضلال والبهتان، فلا تتأثروا بشبهة، ولا تركنوا إلى خديعة، ولا تغتروا بظاهرة، فإنكم إذا كان ذلك منهجكم وسنتكم لم يفارقكم إسلامكم لحظة، ولم يأتكم الموت إلا وأنتم مسلمون.

هذا، وقد كثر فى القرآن أمر الناس بتقوى الله، وجاء ذلك على أساليب مختلفة وتنبيهات متعددة، مذكرًا حينا بنعمة الخلق، وحينًا بنعمة الرزق، وحينًا بهول الساعة ويوم الجزاء ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن**

والده شيئا ﴾، ﴿ واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون (١٣٢) أمدكم بأنعام وبنين (١٣٣) وجنات وعيون ﴾ إلى غير ذلك.

وقد كان الأمر بالتقوى شأنا عاما على ألسنة جميع الرسل، كما أن موجبات تقواه والخوف منه فى جميع الأمم، وبذلك التقت الرسل أولهم مع آخرهم على هذه الكلمة: ﴿ أفلا تتقون ﴾، ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾.

الاعتصام بحبل الله:

إذا وجدت التقوى فى النفوس دفعت إلى التمسك بكتاب الله، والاعتصام بحبله، وذلك يكون بتعرف أحكام الله: أوامره ونواهيه، والعمل بها، والخضوع لها، ونبذ ما سواها، والعمل على نشرها.

وحبل الله - كما روى مرفوعًا عن النبى - ﷺ - هو القرآن الكريم، الذى يهدى للتى هى أقوم، وهو هدى الله الذى بعث به الأنبياء، وختم به الرسالات، وعبر عنه بالحبل - والحبل أداة الربط والحفظ - للإشارة إلى أن الكتاب بتعاليمه وأحكامه يربط العاملين به بعضهم ببعض، ويربطهم جميعًا بربهم، ويكون عصمة لهم من التردى فى مهاوى الأهواء والشهوات.

تحذير من التفرق:

وبعد أن تأمر الآية المؤمنين بالتمسك والاعتصام بحبل الله، والمقتضى لجمع الكلمة، تصرح بالنهى عن التفرقة ﴿ ولا تفرقوا ﴾ وقد أطلق النهى عن التفرق إطلاقا، فشمل التفرق الناشئ عن الاعتداد بالعصبيات، كما كانت سنة أهل الجاهلية التى أبطلها الإسلام، والتى لأجلها نزلت هذه الآيات. والتى جاء فيها قوله - ﷺ -: «ليس منا من دعا إلى عصبية». وشمل التفرق الناشئ عن الآراء المبتدعة التى سحر بها فريق من الناس، وآثرها على كتاب الله فنبذوه وراءهم ظهريًا، واتبعوا ما تملى عليهم الشهوات والأهواء، وصاروا بها شيعًا يضرب بعضهم رقاب بعض ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾.

اختلاف الأفهام فى الاجتهاديات ليس من التفرق المحظور:

وليس من التفرق المنهى عنه أن تختلف الآراء والأفهام فيما جعله الله محلا للآراء والأفهام، ووكل أمره إلى اجتهاد المجتهدين عن طريق النظر فى الأدلة والمصالح ومراعاة ما ينفع الناس، وإنما التفرق المنهى عنه هو التفرق عن سبيل الله الواضحة البينة، والإعراض عما نص الله عليه، وتحكم الهوى فى الدين والمصلحة، وعدم الرجوع فى معرفة الحق والصالح إلى قواعد التشريع العامة التى تضمنها كتاب الله وهديه ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾، ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾.

فالاختلاف فى التوحيد وصور العبادات وعقيدة البعث والجزاء، تفرق فى الدين. والاختلاف فى جعل أساس التشريع هو كتاب الله، تفرق فى الدين. واتخاذ الاختلاف فى الرأى فيما جعله الله محلا للرأى سبيلا للتقاطع والتدابر تلبيةً لروح العصبية المذهبية، تفرق فى الدين.

وقد اختلف الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون هذا الاختلاف المذهبى، ولم ينكر منهم أحد على أحد، ولم يقاطع منهم أحدا أحدا، بل اقتدى الشافعى بالحنفى، والحنبلى بالمالكى، ويجل عبدالله بن عمر عبدالله بن مسعود، وكانوا جميعا فى كل عصورهم مع اختلافهم فى الفهم والرأى إخوانا فى الله، معتصمين بحبل الله.

وما كان أجمل صورة المسلمين وقد اجتمعت وفودهم فى المؤتمر الإسلامى بفلسطين فى المسجد الأقصى، فصلى بهم أحد كبار مجتهدى الشيعة الإمامية فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، لا فرق بين من يدعى بسنى، ولا من يدعى بشيعى، وكانوا جميعا صفوفا متراصة خلف إمام واحد، يدعون ربا واحدا، متجهين إلى قبلة واحدة ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾.

وما أجمل أن نرى علماء المسلمين وقد اجتمعوا على اختلاف آرائهم الفقهية يبحثون شئون الإسلام، ويستعرضون أحواله، ويرسمون خطط الدعوة إلى الله وفيهم الزيدى والإمامى والحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى، وفيهم علماء الدين ورجال الدولة وغاية الجميع واحدة هى العمل على ضم صفوف المسلمين وتنقيتها من أشواك التفرق.

وهذا هو الوضع الديني الصحيح، ولكن نفراً من المسلمين في الماضي لَذَّ لهم - لأمر ما - أن يتخذوا من الاختلاف في الآراء والمذاهب سبيلا للتشنيع الذي ولد البغضاء بين المسلمين وفرق كلمتهم، وفي اعتقادي أن هذا النفر لا يصدر في موقفه هذا عن رأي يدين به، ولكن عن مصلحة يحاول الحصول عليها أو استبقاءها، ومصداق ذلك قوله تعالى في الخلف الصالح: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾.

تذكير بنعمة الأخوة:

وفي سبيل النهي عن التفرق يذكر الله المؤمنين الأولين، وقد حل بينهم - بفضل التمسك بكتاب الله والاعتصام به - الود والصفاء محل البغض والجفاء، يذكرهم بتلك الأخوة التي أفرغها عليهم الإيمان بالله، والتي أنعم الله بها عليهم فقضت على ما كان بينهم من حروب طاحنة، وتباغض مستمر، وعداء مستحكم، ووحّدت في نفوسهم الإحساس والشعور والرغبة في تحقيق الأغراض السامية، وأصبحوا بفضل هذا الصفاء وتلك الأخوة أسرة واحدة على قلب رجل واحد متحابين متعاونين شعارهم تقوى الله وصالح الناس، وفي هذا إيحاء جلي واضح لمؤمني العصور من بعدهم بأن هذه النعمة - نعمة الأخوة - تدوم بينهم وتثمر ثمراتها، بما وحدت به في أولهم من التمسك بالكتاب والاعتصام بحبل الله.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وبعد أن تأمرهم بتقوى الله والاعتصام بحبله، وتنهاهم عن التفرق، تأمرهم بما يحفظ عليهم الأخوة والاعتصام، ويقيهم شر التدهور والانحلال، ويبعث فيهم الشعور بالتضامن في مسئولية بعضهم عن بعض، وفي مسئوليتهم عن الناس جميعا، فتطلب منهم دعوة الناس إلى الحق، وتطلب منهم الائتمار فيما بينهم بالمعروف والتناهي عن المنكر، وقد جعل الإسلام ذلك فرضا من فروض الدين، وعنصرا من عناصر الحياة الطيبة، وأقسم الله سبحانه وتعالى بالعصر، أن الإنسان لا يسلم من خسران في هذه

الحياة إلا إذا ضم إلى إيمانه وعمله الصالح، التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وهما عماد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقص علينا مصير الأولين الذين انحطت فيما بينهم الفضيلة، وتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى تركز البغى فيما بينهم، واستشرى الفساد فى جميع شئونهم ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾، ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾.

وقد تلقى المسلمون الأولون هذا المبدأ العظيم، وعرفوا به مسئوليتهم عن الناس، ومسئولية بعضهم عن بعض، فدعوا غيرهم إلى الحق، وقاموا فيما بينهم بالنصح والإرشاد، وتقبل المنصوحون من الناصحين شاكرة ألسنتهم، مطمئنة قلوبهم، فاستقامت لهم الشئون، وتقدمت بهم الحياة، وكانوا أقوياء أعزاء، يملون ولا يملى عليهم، ويقولون ويفعلون ما يقولون. وظلوا كذلك حتى نبتت فيهم جراثيم الهوى والشهوة، فأفسدت عليهم تصورهم للحياة، وظنوها مادة عليها يتنافسون، وأموالا وجاهًا وملكا بها يتفاخرون، فانحلت من بينهم الروابط، واندفعوا فى طريق الجاهلية الأولى، يرون المنكر فيسكتون عنه، بل يدافع كل منهم عن سفهائه، ويتعصب لأوليائه، ونسوا بذلك حبل الله فأنساهم الله أنفسهم، وسلط عليهم شرارهم وأعداءهم، وكاد يحل بهم ما حل بالأمم قبلهم، وتعرضوا للعذاب العظيم، وكتاب الله قائم بينهم، وناطق بالحجة عليهم، ويحذرهم وينهاهم أن يسلكوا سبيل المفسدين، وأن يفعلوا كما فعل الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات.

النداء الثالث:

أما النداء الثالث فهو قوله تعالى:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا**

أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ .

إن كتاب الله يضع للمؤمنين الحد الفاصل بين من يصح مخالطتهم والتعاون معهم من المخالفين فى الدين، ومن لا يصح معه ذلك، كما يبين مدى هذا التعاون وحدوده، فإنه لم يجعل مجرد المخالفة فى الدين سببا من أسباب الحرب والخصام، أو من أسباب التقاطع وعدم التعاون، وإنما جعل السبب فى ذلك العداء الذى يدفع المخالفين إلى إيذاء المسلمين، وفتنتهم عن دينهم، وإخراجهم من ديارهم وأوطانهم، وسلب حقوقهم، وخنق حرياتهم، والاعتداء عليهم، ولذلك يقرر حسن معاملة المخالفين الذين لم يكن لهم من عداوة المؤمنين ما يدفعهم إلى البغى والعدوان، وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

فهذا الصنف الأخير من المخالفين الذين يبارزون المسلمين بالعداء، أو بالمظاهرة للأعداء، هم الأعداء الذين يجب على المؤمنين أن يحذروهم، وأن يبتعدوا عن موالاتهم، حذرا من الوقوع فى شرهم. وقد كثرت آيات التحذير فى القرآن الكريم عن موالاة هؤلاء، وجعل القرآن مودتهم مظهرا من مظاهر عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، وخروجا على جماعة المؤمنين، وهدما لشخصيتهم التى بها يعتزون ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ

أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

جاءت هذه الآية مقررة للمبدأ الذى قررته سائر الآيات الواردة فى الموضوع، وتبين أوصاف هذا الصنف من المخالفين فى الدين، الذى ينهانا الله عن مخالطته: ينهانا أن نتخذ خلصاء نعتمد عليهم فيما يعظم من شئوننا فنفضى إليهم بأسرارنا، ونستشيرهم فى أمورنا، من قوم غيرنا لا يدخرون جهدا فى إلحاق الضرر بنا، ومن أحب أمانيهم أن نقع فى الشر والمكروه، ونلاقى العنت والمشقة، وقد انطوت قلوبهم على البغضاء وامتلأت بالحقد حتى فاضت على ألسنتهم، ولا يبادلوننا حبا بحب، ولا يوافقوننا فيما نؤمن به من الكتاب، فنحن نؤمن به كله وهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وهم ينافقوننا، فإذا التقوا بنا ظهروا لنا بمظهر المودة وقالوا آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض ظهرت عليهم أمارات الحقد والغيظ، ثم هم بعد هذا وذاك يفرحون بالشر يحيط بنا ويحزنون للخير يمسنا.

تلك أوصافهم، فيجب أن نتعرفهم بها، وأن نتذرع فى مكافحتهم بالصبر والتقوى، فلا نأذن للوساوس أن تدفع بنا إلى موالاتهم، ولا نركن إلى الظواهر التى ترغبنا فيهم وتخدعنا عن حقيقتهم، وتزين صحبتهم والانتفاع بهم، فإن الحزم أن يترك الخير المتوهم للشر المحقق، وقد ضمن الله لنا بالصبر والتقوى السلامة من كيدهم والنجاة من شرهم.

النداء الرابع:

النداء الرابع قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

وهذه أول آية نزلت فى تحريم الربا، وكان أكلهم ذلك فى جاهليتهم - على ما جاءت به الروايات - أن الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه، فيقول له الذى عليه المال: أخر عنى دينك وأزيدك على مالك، فيفعلان ذلك.

وكان كما يدخل النقد على هذا النحو يدخل الدين فى الأنعام: يكون للرجل على الآخر دين من الإبل مثلا، فإذا حل الأجل وكان عنده قضاؤه قضاه، وإلا حوله إلى السن التى فوق ذلك: إن كانت ابنة مخاض «أى الثانية من عمرها» يجعلها ابنة لبون «وهى ما كانت فى السنة الثالثة من سنها» ثم حِقَّة ثم جذعة . . . إلخ.

فالمقصود فى الآية هو هذا النوع من الربا الذى كان معروفًا فى الجاهلية، وهو ربا النسيئة، وقد أجمع المسلمون على تحريمه، أما ربا الفضل ففى دخوله فيما حرمه القرآن وعدم دخوله كلام بين العلماء.

نظرتان فى تحريم الربا: الجانب الخلقى:

وللإسلام فى تحريم الربا نظرة ترجع إلى الجانب الخلقى، ونظرة ترجع إلى الجانب الاقتصادى العملى.

فأما نظرته إلى الجانب الخلقى فإنه يريد أن يكوِّن مجتمعًا متراحمًا متعاونًا لا تكون قاعدة التعامل فيه أن يستلب القوى ما فى يد الضعيف، وأن تستغل حاجات المحتاجين استغلالا دنيئًا لإرباء ثروة الأغنياء وتحويل الأموال إلى خزائنهم: وذلك أن الربا يكون بين دائن قوى فى يده من المال ما هو فوق حاجته، ومدين ضعيف محتاج إلى هذا المال، فيستغل القوى ضعف الضعيف وحاجته الملحة، ويجعل ما يقدمه من المال شبكة، يصطاد بها ما لديه، وليس للأول فضل إلا أنه غنى مالك، وليس للثانى ذنب إلا أنه فقير محتاج، ولا شك أن المجتمع الذى يقوم على تمكين القوى القادر من أسباب الحياة السعيدة وتيسير وسائلها له وحرمان الضعيف المحتاج من المعاونة والرحمة، ومن حقه الإنسانى فى أن ينقذ وينتشل من وهدة الفقر والحاجة، لا شك أن المجتمع الذى يقوم على هذا مجتمع فاسد شبيه بمجتمعات الوحوش فى الغاب.

وقد وازن القرآن الكريم بين هذه المعاملة القاسية وبين الصدقة والإحسان، والتعاون ليبرز لنا صورتين متضادتين: صورة الغنى الذى يأخذ بيد الفقير، رحمة به وإشفاقًا عليه، فيعطيه بعض ماله ابتغاء وجه الله، وصورة الغنى الذى امتلأ قلبه بالقسوة، فلم يعد له هم إلا أن يمتص دماء المحتاجين، ويجمع دراهمه ودنانيره من أفواه الجائعين المحرومين.

وضع القرآن الكريم هاتين الصورتين وجهًا إلى وجه، فجاء فى آيتنا هذه بعد تحريم الربا قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

ولا شك أن الإنفاق فى السراء والضراء إنما يصدر من ذوى النفوس السمحة التى لم يفسدها الشح، ولم يصدها الطمع والجشع عن إنقاذ البائسين، والإشفاق على الفقراء والمحتاجين، فإن الذى ينفق فى حالة السراء ليدل بذلك على أن النعمة لم تطغه ولم تفسد عليه إنسانيته، ولم تمنعه من الإحساس ببؤس غيره، ومعاونته على التخلص من هذا البؤس، والذى ينفق فى حالة الضراء يدل بذلك على أنه امرؤ فى طبعه الإيثار، وفى قلبه من الرحمة ما يدفعه إلى أن ينسى نفسه ليذكر غيره، وإلى أن يحتمل المشاق ليرفه عن غيره ولو بعض الترفيه. والله سبحانه وتعالى يصف المؤمنين بقوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

وهكذا يربى الإسلام النفوس على البذل والإيثار والبر، ويعلم الغنى أنه لم يخرج بغناه عن دائرة بنى جنسه، ولم يصر بالمال نوعًا آخر حتى ينكر الناس ويتنكر لحاجتهم، وإنما هو منهم وهم منه، وهو بهم وهم به. وعليه أن يعاونهم وأن يبادلهم العطف والرحمة والبذل. كما يعلم الفقير أنه لم يخسر نفسه إذ خسر المال، ولم يفقد كرامته وقيمته الإنسانية، فعليه أن يبذل من ماله ولو كان قليلا، ولو كان فى حاجة إليه، ليشعر من يعيش معهم بأنه إنسان ذو قلب.

فهو يريد أن يحفظ على الفقير كرامته كالغنى، فإنه إذا ساهم ولو بالقليل فى تفريج كربة غيره ذاق لذة الإحسان، وشعر بكرامته كإنسان. وإذا رآه من هم أكثر منه مالا كانت لهم فيه أسوة حسنة، وأحبوه واحترموه. ولهذا أباح الله للفقير أن يأخذ صدقة الفطر، وطالبه فى نفس الوقت أن يخرج عن نفسه وعمن تلزمه نفقته. ومن عرف وسائل التربية الصحيحة تبين له أن هذا الأسلوب من أعظم الأساليب فى انتشال نفوس الفقراء من مواطن الذلة والشعور بالخسة. وتعويدهم البر والإحسان، وإصلاح نفوسهم وتكريمها بإشعارها أنها ليست نفوسًا آخذة منتفعة دائمة، وإنما هى أيضًا نفوس معطية باذلة نافعة.

وكما جاءت الموازنة فى هذه الآيات بين الربا الذى هو استغلال حاجة المحتاج لزيادة المال والثراء، والإنفاق فى حالتى الرخاء والضيق الذى هو دليل صلاح النفوس، وتمكن التقوى والإيمان منها، جاءت الموازنة بين الربا والصدقات فى سورة البقرة فى عدة آيات، إذ يقول الله تعالى فى بيان فضل الصدقة، وحث الناس عليها:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴾.

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾.

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

وإذ يقول فى وخامة عاقبة الربا وتنفير الناس منه:

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾.

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

وهكذا يبين الله للناس أن من أراد التضعيف والتنمية لماله حقًا فعليه بالصدقة، فإن الله يضاعفها ويبارك لصاحبها فى الدنيا والآخرة، أما الربا فإنه وإن كان تضعيفًا للمال وتنمية له فى الظاهر فإنه محق وإزالة فى الحقيقة، والمحق كما يكون بإزالة المال وإضاعته بآفة تصيبه أو خسران يحل بصاحبه فى تجارة أو كارثة أو نحو ذلك، يكون أيضًا بضياع بركته، وذهاب فائدته، وحرمان صاحبه من لذائذه والتمتع به.

وفى هـذا المعنى يقول الله عز وجل فى موضع آخر: ﴿**وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**﴾.

ويقول رسول الله - ﷺ -: «من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله تعالى يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل».

بهذا كله يتبين أن الإسلام نظر أولا إلى مسألة الربا والصدقات نظرة إنسانية. وشرع الأمر فيها على أساس تربية المجتمع تربية خلقية أساسها التراحم والمودة والتعاون، وتعليم الإنسان أنه ليس كالحيوان المعتمد على القوة والغلبة، الذى لا تعرف الرحمة سبيلا إلى قلبه، وإنما هو خلق كريم ذو قلب وعطفة وخلق لا يستقيم أمره فى الحياة إلا بها، ولا يصح شأنه إلا عليها.

وقد دلت التجارب على أن المجتمع الذى يتركز فيه التعاون والتراحم بين الناس بعضهم وبعض، ويكون شعاره إحساس كل فرد بآلام الآخرين، وتموت من بين أفراده نزعة عبادة المال وتقديمه على كل معنى شريف من المعانى الإنسانية الكريمة، دلت التجارب على أن المجتمع الذى يكون شأنه ذلك، يكون مجتمعًا سعيدًا هانئًا، ينظر أغنياؤه إلى فقرائه، وفقراؤه إلى أغنيائه نظرة الحب المتبادل، والتعاون المشترك، أما المجتمع الذى تتسلط فيه النزعة المادية على الخلق فإنه يكون أشبه بمجتمعات الذئاب: كلٌ يريد أن يستلب لنفسه ما يستطيع ولو مات غيره، وكل يتربص بغيره دائرة السوء، وما هذه الرَّجَّات - التى تصيب الدول من قيام الفقراء على الأغنياء وتهديدهم المستمر لأصحاب الثروات ورءوس الأموال - إلا أثر من اختلال الأمر بعد اختلال هذا الجانب الخلقى، وهذا هو السر فى أن

الله سبحانه وتعالى ربط النهى عن الربا بالإيمان فى ابتداء الآية حيث قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ وبالتقوى والفلاح فى آخرها حيث قال: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ ثم بالرحمة حيث قال: ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ وما الفلاح والرحمة إلا استقامة أمور الناس على الصراط المستقيم، وما يسودهم من روح الإخاء والسعادة المشتركة التى تجمع بين قويهم وضعيفهم، وغنيهم وفقيرهم، وتربطهم جميعًا برباط من التآلف والمحبة.

الجانب الاقتصادى فى تحريم الربا:

أما نظرة الإسلام فى تحريم الربا إلى الجانب الاقتصادى العملى بعد هذا الجانب الخلقى، فمرجعها إلى أن المجتمع الصالح المبنى على أسس قوية هو المجتمع الذى يكون كل فرد من أفراده عضواً عاملا فيه، أما إذا كان بعض أفراده عاملين، وبعضهم كسالى يعيشون عالة على غيرهم، ويعتمدون فى بقائهم ومتاعهم على ما يقدمه الآخرون لهم، فإن هذا المجتمع يختل توازنه، ويدركه الضعف والشقاء والتخاذل بقدر ذلك، وفى هذا يقول الإمام الرازى: «إنما حرم الربا من حيث إنه يمنع الناس من الاشتغال بالمكاسب، وذلك لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد، نقداً كان أو نسيئة، خف عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة، وذلك يفضى إلى انقطاع منافع الخلق، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات».

وللإمام الغزالى - رضى الله عنه - بحث ممتع فى كتاب الشكر من الإحياء، تعرض فيه لما يعد أساسًا فى هذا الجانب الاقتصادى، وخلاصته «أن المال ليس مقصوداً لذاته، وأن الدراهم والدنانير فى نفسيهما ليسا إلا حجرين كسائر الأحجار، وإنما خلقهما الله ليكونا وسيلة للتعامل بين الناس وقضاء المصالح، ويتخذا ميزانًا لتقدير قيم الأشياء التى يحتاج إليها الناس فى معاشهم، فقد يكون عندك ثياب أو إبل أو نحو ذلك وأنت محتاج إلى دقيق، وليس صاحب الدقيق محتاجًا إلى شىء من ثيابك أو إبلك حتى تبيعه بعضها ببعض ما لديه من الدقيق، وإنما هو محتاج إلى حديد أو آجر مثلا، فاحتيج إلى النقد ليتوسط الناس، فيكون أداة التبادل، والحكم العدل فيه، فمن خرج به عن هذا الوضع

الذى وضعه الله له فقد كفر بنعمة الله فيه، فإذا كنزت المال فكأنك حبست الحاكم ومنعته من أن يتصرف ويقوم بما عليه، وإذا استعملت الذهب والفضة فى آنيتك فكأنك سخرت الحاكم فيما تفعله العامة والدهماء من الخدمة، لأن النقد لم يجعل لذلك، وإنما جعل لذلك الحديد والنحاس وأمثالها من المعادن المعدة للخدمة لا للحكم وتعديل التعامل، وعلى هذا يكون النظر إلى النقدين على أنهما ليسا ميزانًا للتقدير، والخروج بهما إلى أن يكونا مقصودين بالتعامل، واستغلال المال بالمال مما لا يقره الشرع ولا يرضاه الله لعباده، لأنه يؤدى إلى انحياز المال للأغنياء، وتكدسه فى خزائنهم وصناديقهم، ووقوف حركة الأعمال والتثمير بين الناس، وانهيار قيمتها، وشيوع البطالة والكساد فى الأمة».

هذه نظرة الإسلام إلى الربا من الجانب الخلقى الإنسانى، ومن الجانب الاقتصادى العملى، ولذلك حرمه الله تحريمًا قاطعًا، وتوعد آكليه بأشد العقوبة فقال فى سورة آل عمران بعد النهى عنه: ﴿ **وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ إيذانًا بسوء عاقبة آكليه يوم القيامة، وقال فى سورة البقرة: ﴿ **وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾. ﴿ **وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ** ﴾. ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾. ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾.

شبهات «العصريين» فى استباحة الربا:

يرى بعض الناس أن الربا أصبح فى عصرنا الحاضر معاملة عامة، وأساسًا من أسس الاقتصاد، فإن المصارف المالية والشركات المختلفة التى لا غنى للأمة عنها تعتمد عليه فى سائر معاملاتها، وليس من الرأى ولا من مصلحة الأمة أن نشير عليها بهدم ذلك كله، وأن ننفرد من بين الأمم بمعاملة خالية من الربا، وأن نترك البيوت المالية الأجنبية تفيد من ثمرات هذا التعامل العالمى دوننا، وقد ارتبطت الدول والأمم بعضها ببعض فلم يعد من الممكن أن تستقل أمة بنوع من المعاملة لا تعرفه غيرها، وإن أساليب الإصلاح والعمران لتستدعى رصد الأموال وتجميعها من الأفراد لتستغل فيما ينفع الأمة، وتستدعى فى كثير من الأحيان أن تقترض الحكومات من غيرها أو من الشعوب أموالاً تضمنها بسندات ذات

ربح مقدر، فتمتص بذلك الأموال المدخرة المعطلة، وتحولها إلى منافع ومصالح ترقى بها الأمة وتسعد.

يقولون هذا، ويرون أن تحريم الإسلام للربا عائق عن بلوغ الأمة شأن أهل المدنية الحديثة، مفض بها إلى الضعف المادى، فالضعف الأدبى، فالاستعمار.

ومن الناس من يقول: إن اقتراض المحتاج قدراً من المال بفائدة ربوية «قانونية» يمكنه من سد حاجته ويدرأ عنه الإفلاس والضياع، فلا يعقل أن يكون هذا ضرراً أو فساداً، وإنما هو نفع وصلاح، ونحن نجد من المعاملات التى أباحتها الشريعة الإسلامية ما يعتمد فى دفع الأقل عاجلا للحصول على الأكثر آجلا كالسلم، فحيث أجاز الشرع معاملة السلم فليجز معاملة الربا، فإن المعنى واحد.

قضية الشريعة كلها:

وهذا موضوع قد أثير كثيراً، وشغل الأفكار منذ أنشبت المدنية الحديثة أظفارها فى أعناق المسلمين، وعمل أهل التشكيك فى صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان عملهم المثابر المتواصل فى الفتنة وزلزلة القلوب عن دين الله، والقضية فى الحقيقة ليست قضية الربا أو غيره من المعاملات المالية، وإنما هى قضية الشريعة الإسلامية كلها، وقد انصرف عنها أهلها، وتعلقوا بأهداب غيرها من قوانين الأمم الغالبة المسيطرة عليهم، ومن شأن المغلوب أن يولع بتقليد الغالب، ويرى أكثر ما يفعله خيراً وصلاحًا، ويزين له الشيطان أن نجاحه إنما يرجع إلى عدم تمسكه بما يتمسك به هو من القواعد والأصول، والآداب والتقاليد.

لو كان للإسلام اليوم دولة وقوة لكان تشريعة هو المتبع، ولكان للأمم والشعوب من الوسائل الاقتصادية العملية ما يغنيهم عن الربا وغير الربا مما حرمه الإسلام، وإن للكسب لموارد طبيعية هى الأساس والفطرة، كالزراعة والصناعة والتجارة والشركات المساهمة والتعاونية، ولا يستطيع أحد أن يقول: إن الشعوب لا تستطيع أن تقيم مدنيتها على أساس التعاون والتراحم ومساعدة الفقير والمحتاج بإقراضه قرضًا حسنًا على نظام يكفل لأصحاب الحقوق حقوقهم، ولا يؤدى إلى إثقال كواهل المدينين، واستلاب أموالهم بالباطل.

النظم الرأسمالية وفشلها:

إن هذه النظم الاقتصادية التى يتشدقون بها، ويأخذون على الإسلام عدم مجاراته لها، قد صارت الآن فى موضع الشك والتزلزل عند أهليها والمتعاملين بها، وأصبح العالم يميل إلى نظام اشتراكى يحول بين أن يوجد فى الشعب طائفة قليلة العدد مستحوذة على المال، منتفعة بما يدره عليها من الربح والجاه والنفوذ، وطائفة هى الكثرة العاملة الناصبة لا هم لها إلا أن تكدح لهؤلاء وتجد فى تنمية ثرواتهم، ثم لا ينالها من هذا الكدح والنصب إلا أدنى القوت، وأحط المساكن والملابس، وما الربا إلا اعتراف بحق أصحاب الأموال فى الامتياز على العاملين، فهو مناقض لروح التيقظ مصادم لها، فإذا كان أهل هذه النظم قد بدءوا يفقدون إيمانهم بها، بل فقدوا هذا الإيمان فعلا، وأخذوا يلتمسون سبيلا آخر تستقيم به الحياة السعيدة للأمم، أفلا يجدر بنا - معشر المسلمين - أن نتخفف من حماستنا لها، ومن ثقتنا بها؟

أترى لو كانت جمهورية مصر العربية مثلا قادرة على أن تعمل بالتشريع الإسلامى فتلزم جميع ساكنيها بمنع الربا، وتضع لهم أسلوبًا من التعامل يتفق ودينها، أكان ذلك يضرها أو يعطل مرافق إصلاحها؟

إننا لا نتردد فى الإجابة عن السؤال بالنفى، ولسنا فى ذلك متجاهلين للحقائق، ولا جاهلين بسنن الاجتماع، فإن الأمم تألف ما يوضع لها من النظم، وتطمئن إليه، وإذا عرف أفرادها أنه لا سبيل إلى نوع من التعامل لتحريمه، التمسوا غيره، ووطنوا أنفسهم على الاكتفاء بما أبيح لهم.

بهذا يتبين أن ما يزعمه الزاعمون من عدم إمكان التخلص من الربا، ووجوب مجاراة الأمم فى التعامل به، ليس صحيحًا، وأنه يمكن تدبير الأمر على نحو يتفق مع ما تبيحه الشريعة لو أراد الناس ذلك مخلصين.

أما ما اعترضوا به من إباحة السلم فإن السلم بيع فيه ثمن ومثمن، وليس النقد هو كل شيء فيه، وليس المشترى فيه دائمًا كاسبًا، فقد ترخص السلعة عند حلول الأجل وقد تغلو، فالمخاطرة التى تكون فى التجارة موجودة فيه، على أن الربح فى السلم ليس من شأنه أن يكون أضعافًا مضاعفة كالربح فى ربا النسيئة، وإذا فرضنا أن المشترى غبن صاحبه

فى صفقة السلم استغلالا لحاجته فإن الشريعة الإسلامية تحرم هذا، وبعض المذاهب يجعل الغبن الظاهر من مفسدات العقد أيا كان.

بطلان الاستدلال بالآية على إباحة الربا القليل:

بقى علينا أن ننبه فى هذا الشأن لأمر خطير، هو أن بعض الباحثين المولعين بتصحيح التصرفات الحديثة، وتخريجها على أساس فقهى إسلامى ليعرفوا بالتجديد وعمق التفكير، يحاولون أن يجدوا تخريجًا للمعاملات الربوية التى يقع التعامل بها فى المصارف أو صناديق التوفير أو السندات الحكومية أو نحوها، ويلتمسون السبيل إلى ذلك، فمنهم من يزعم أن القرآن إنما حرم الربا الفاحش بدليل قوله: ﴿ **أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً** ﴾ فهذا قيد فى التحريم لا بد أن يكون له فائدة وإلا كان الإتيان به عبثًا، تعالى الله عن ذلك، وما فائدته فى زعمهم إلا أن يؤخذ بمفهومه وهو إباحة ما لم يكن أضعافًا مضاعفة من الربا.

وهذا قول باطل، فإن الله سبحانه وتعالى أتى بقوله: ﴿ **أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً** ﴾ توبيخًا لهم على ما كانوا يفعلون، وإبرازًا لفعلهم السيئ، وتشهيرًا به، وقد جاء مثل هذا الأسلوب فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ فليس الغرض أن يحرم عليهم إكراه الفتيات على البغاء فى حالة إرادتهن التحصن، وأن يبيحه لهم إذا لم يردن التحصن، ولكنه يبشع ما يفعلونه ويشهر به، ويقول لهم: لقد بلغ بكم الأمر أنكم تكرهون فتياتكم على البغاء وهن يردن التحصن، وهذا أفظع ما يصل إليه مولى مع مولاته، فكذلك الأمر فى آية الربا، يقول الله لهم: لقد بلغ بكم الأمر فى استحلال أكل الربا أنكم تأكلونه أضعافًا مضاعفة فلا تفعلوا ذلك، وقد جاء النهى فى غير هذه المواضع مطلقًا صريحًا، ووعد الله بمحق الربا قل أو كثر، ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه، كما جاء فى الآثار، وآذن من لم يدعه بحرب الله وحرب رسوله، واعتبره من الظلم الممقوت، وكل ذلك ذكر فيه الربا على الإطلاق دون تقييد بقليل أو كثير.

ومنهم من يميل إلى اعتباره ضرورة من الضرورات بالنسبة للأمة، ويقول ما دام صلاح الأمة فى الناحية الاقتصادية متوقفًا على أن نتعامل بالربا، وإلا اضطربت أحوالها بين الأمم، فقد دخلت بذلك فى قاعدة «الضرورات تبيح المحظورات».

وهذا أيضًا مغالطة، فقد بينا أن صلاح الأمة لا يتوقف على هذا التعامل، وأن الأمر فيه إنما هو وهم من الأوهام، وضعف أمام النظم التي يسير عليها الغالبون الأقوياء.

إباحة الحرام جرأة على الله:

وخلاصة القول، إن كل محاولة يراد بها إباحة ما حرم الله، أو تبرير ارتكابه بأى نوع من أنواع التبرير، بدافع المجاراة للأوضاع الحديثة أو الغربية، والانخلاع عن الشخصية الإسلامية، إنما هى جرأة على الله، وقول عليه بغير علم، وضعف فى الدين، وتزلزل فى اليقين. وقد سمعنا من يدعو إلى البغاء العلنى ويجيزه، ويطالب بالعودة إليه، ويرى أنه إنقاذ من شر أعظم يصيب الأمة: من انتشار البغاء السرى، وبمثل هذا يتحلل المسلمون من أحكام دينهم حكما بعد حكم، حتى لا يبقى لديهم ما يحفظ شخصيتهم الإسلامية، نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله العصمة من الفتن.

النداء الخامس للمؤمنين:

النداء الخامس قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾.

يقول المفسرون: إن هذه الآيات نزلت فى سياق الكلام عن غزوة أحد، وكان المشركون وعلى رأسهم أبو سفيان، والمنافقون وعلى رأسهم عبد الله ابن أبى وأتباعه، قد جعلوا يبثون فتنتهم فى ضعفة المؤمنين، ويقولون لهم: لو كان محمد رسول الله ما وقعت له هذه الواقعة، وإنما هو رجل كسائر الناس يوم له ويوم عليه، فارجعوا إلى دينكم الذى كنتم فيه.

والكلام الشامل لجميع المؤمنين ولجميع الكفار: وقد تضمنت الآيات أمورًا ثلاثة:

الحذر من طاعة الكافرين:

الأمر الأول: نهى الله المؤمنين عن أن يطيعوا الكافرين، حيث بين لهم أن فى إطاعتهم الانقلاب على الأعقاب وخسران الدنيا والآخرة.

وهذه حقيقة يجب أن تكون ماثلة أمام أعين المؤمنين فى كل زمان ومكان، فإن الكفر عدو الإيمان، ولا يزال العدو يحارب عدوه، ويتربص به الدوائر حتى يوقعه ويهزمه لو استطاع، وأهل الكفر لا يفتئون يحاربون المسلمين ليردوهم عن دينهم، ويعيدوهم فى ملتهم، ولهم فى ذلك أساليب ليست الحروب أشدها، ولا أفظها، منها غزو أفكارهم بمبادئهم الفاسدة التى يصورونها لهم فى صورة الصلاح والتقدم والمدنية، ومنها إغراء العداوة بينهم، وتقطيع الأواصر بين شعوبهم وطوائفهم، فهم يخيلون لكل فريق من المسلمين أنه هو المحق، وهو الجدير بالزعامة، وعلماؤه هم خير العلماء، وقادته هم أعظم القادة، وبلاده هى خير البلاد، لا يريدون بذلك إلا أن يحولوا بينهم وبين التفاهم والتقارب، لأنهم إذا تقاربوا وتفاهموا كانوا قوة، وكانت لهم العزة، وبطل من بينهم سحر الاستعمار ولم يعد لأهل الكفر سلطان عليهم، ولا تأثير فيهم.

وإن تاريخ الاستعمار على ذلك لشهيد، فما من شعب كان للمستعمرين سلطان عليه، أو نفوذ فيه، إلا أحيوا فيه العصبية، وأوقدوا فى قلوب أهله نيران الخصومة لإخوانهم، فهم يقطعون فى داخل البلاد أواصر الأخوة والقربى باسم الخلافات الحزبية، ويقطعون فى خارجها صلات المحبة، والتعارف باسم الخلافات الطائفية، ولا يزالون يغذون هذه النيران بما استطاعوا حتى تأتى على كل شىء، وقد حفظ التاريخ فى هذه الناحية صوراً كريهة احترب فيها المسلمون بعضهم مع بعض فى الشعب الواحد، فكان منهم قاتلون ومقتولون تحت راية الغاصب المحتل، وأى شىء أفظع من أن يقتل الأخ أخاه بتغرير عدوهما المشترك؟

ولو أننا معشر المسلمين عملنا بإرشاد الله لنا، وبما تضمنه كتابه الحكيم من هداية وتعليم، لما كان هذا شأننا معهم، ولما كنا أطعناهم فمكناهم بهذه الطاعة من أعناقنا، وأعناهم على أنفسنا.

ولاية الله للمؤمنين:

الأمر الثانى: تقرير ولاية الله للمؤمنين، وكفالته إياهم بالنصر، وهو خير الناصرين.

ولا شك أن المؤمن القوى الإيمان لا يعتمد إلا على ربه، ولا يطلب النصر إلا منه ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾.

والله سبحانه وتعالى لا يخذل المؤمنين أبدًا، لأنه وعد ووعده الحق لينصرن من ينصره، وليثبتن أقدام المؤمنين، فإذا وجدنا أنفسنا فى وقت ما مخذولين، ووجدنا أعداءنا علينا متسلطين، فليس لنا أن نشك فى وعد الله، ولكن علينا أن نسائل أنفسنا أين نحن من الإيمان؟ وأين نحن من نصر الله؟ وأين نحن من التضحية فى سبيله بالمال والولد والمتاع؟

إلقاء الرعب فى قلوب المشركين:

الأمر الثالث: وعد الله جل شأنه بإلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا بسبب إشراكهم.

وهذه سنة من سنن الله فى الخلق فى كل معاند للحق وهو يعلمه، تراه متظاهرًا بالقوة والجلد مع أنه ممتلئ القلب بالرعب والخوف، ولو أنه وجد أمامه ثباتًا فى المقاومة، وثقة فى المغالبة، لخر صريعًا.

وقد كان المؤمنون الأولون أقوياء بإيمانهم، لاتزلزلهم عنه فتنة، ولا يصرفهم عن نصرته متاع، كانوا واثقين بالله ورسوله ثقة لا يخالجها شك، ولا يفسدها تردد، كان يستوى لديهم إذا خرجوا مجاهدين فى سبيل الله أن يموتوا مستشهدين أو يعودوا منتصرين ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾. ولذلك كانت هيبتهم عظيمة، فكان الكافر يرى نفسه أمام قوم باعوا أنفسهم بيع السماح، يتسمون للموت، ويقبلون عليه كأنهم يقبلون على رغبة من رغباتهم أو شهوة من شهواتهم: ويحس منهم بالعزيمة الصادقة، والإرادة القوية، بينما يعلم فى نفسه أنه يحارب عنادًا وتكذيبًا والتماسًا لبقاء مجده وعزه الدنيوى، فلا تلبث قواه أن تخور، ولا تلبث عزيمته أن تنحل، ولا يشعر بنفسه إلا وقد استولى عليه الرعب، وأخذه الجبن.

المسلمون اليوم غيروا ما بأنفسهم:

وقد ظل أمر المؤمنين على ذلك: ينصرهم الله بالرعب الذى يلقيه فى قلوب أعدائهم، حتى كانت تفتح لهم أبواب البلاد، وتفر أمامهم الجيوش التى تربو على جيوشهم فى العدد والعُدد وتسبقهم شهرتهم بالعدل والإنصاف ومحبة الحق حتى تنكسر أصنام الحكم والسلطان، وتخر جيوش الجبروت والطغيان، قبل أن يتحركوا من بلادهم، وظلوا على ذلك حتى غيروا ما بأنفسهم فغير الله عليهم، فأصبحوا غثاء كغثاء السيل، نزع الله هيبتهم من قلوب أعدائهم، وصاروا كقصعة يتداعى إليها الآكلون.

فينبغى أن نعلم أن سنة الله فى إلقاء الرعب فى قلوب الكافرين مرتبطة باستقامة المؤمنين على صراط الإيمان، وهذا هو السر فى أن الكفار لا يهابوننا الآن، ولا يعبثون بنا مثقال ذرة، وقد جعل الله تعالى علة إلقاء الرعب فى قلوبهم هى إشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وهى علة تؤثر فيهم الضعف وتزلزلهم عن مواقف الثبات والشجاعة، فإن الكافر يكون دائمًا موزع القلب بين ما سوى الله، خاليًا من الثقة به، فاقدًا للروح المعنوية التى لا ثبات إلا بها، ولا نصر إلا على أساسها، فالإشراك بالله علة مؤثرة لتخاذله وتراخيه ورعبه واضطرابه، ويفهم من هذا أن الإيمان بالله، والثقة بوعده، علة مؤثرة للقوة المعنوية، والشجاعة الحسية، والثبات على الشدائد، ومقارعة الأهوال، وانظر فى ذلك قوله تعالى:

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

النداء الإلهى السادس:

النداء السادس قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

وقد ختمت السورة بهذا النداء الجامع القوى، الذى يدخل فيه كل ما سبقه من النداءات، والذى يعد برأسه مع هذا الاختصار دستوراً للفلاح والنجاح لا يعادله دستور.

عناصر النصر والفلاح:

تضمن هذا النداء أربعة أوامر إلهية:

أولها: قوله تعالى: ﴿ **اصْبِرُوا** ﴾، والصبر عدة فى الحياة؛ فإن الحياة كدح وجهاد، وأكثر ما فيها صعاب ومشاق، فإذا لم يكن المرء مسلحًا فيها بسلاح الصبر اهتزت أعصابه وتحطمت، وصار ضعيفًا عاجزًا عن مواصلة السير فيها، وقد علمتنا الأحداث والأزمات التى مرت بالعالم أخيراً أن الأمم التى اعتصمت بالصبر، وقويت أعصابها على احتمال الصدمات دون أن تضطرب أو يفلت منها الزمام، هى التى كسبت، وهى التى نجحت، وكذلك الشأن فى الأفراد. وهذا هو السر فى أن القرآن الكريم عنى بالصبر، وأكثر من حث المؤمنين عليه، وسلك كل سبيل للترغيب، وأمر ذلك معروف مشهور.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿ **وَصَابِرُوا** ﴾ والمصابرة هى المغالبة فى الصبر، فهو لا يطلب منهم أن يصبروا فى أنفسهم فقط، ولكن أن يغالبوا أعداءهم فى الصبر، فالصبر يكون فى كل ما يصيب المرء من أزمات تقع عليه خاصة. والمصابرة تكون فيما يصيب المرء ويصيب أعداءه من شدائد فى مثل الحرب والجهاد. وقد جاء الأمر بالمصابرة فى قوله تعالى: ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ** ﴾، أى فلا يغلبوكم بالصبر على قرحهم، أكثر من صبركم على قرحكم، وفى قوله تعالى: ﴿ **إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ** ﴾ أى فعندكم سبب للتفوق والغلب ليس عندهم مع استوائكم وإياهم فى تحمل الأذى والألم.

ثالثها: قوله تعالى: ﴿ **وَرَابِطُوا** ﴾ والرباط هو اللزوم والثبات، وأصله من الربط بمعنى الشد، وهو عزيمة يعزمها المؤمن بالشىء فيربط الله بها على قلبه فلا يتحول ولا يتزلزل.

وكل أمر حرص الإنسان على لزومه أو التزامه فقد رابط عليه وارتبط به، ومنه الرباط الذى يكون فى الثغور، ورباط الخيل الذى هو ربطها للحرب والجهاد وتخصيصها بذلك، والرباط الذى هو انتظار الصلاة بعد الصلاة، وغير ذلك.

والله سبحانه وتعالى يوصى المؤمنين بأن يكونوا ذوى عزائم ثابتة فى كل شىء، وأن يكونوا مرابطين فى كل ما يصلح نفوسهم وأحوالهم وشئون أمتهم، حذرين من أن يتسرب إلى أية ناحية من هذه النواحى خلل أو فساد أو وهن، كما يقف المرابط فى الثغر يحرسه من أن يدلف إليه عدو، أو يتطلع إلى أسراره جاسوس.

رابعها: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ والتقوى هى الوصية العامة التى يكثر القرآن من إيصاء المؤمنين بها، وقد تقدم الكلام عليها فى أول هذه النداءات.

وقد ختمت هذه الأوامر الإلهية الأربعة بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إشارة إلى أن الفلاح مرجو لمن استجاب لها وقام بها، وهو يشمل فلاح الدنيا وفلاح الآخرة.

ونحن إذا تذكرنا ما عرضت له هذه السورة من مواقف المؤمنين مع أهل الكتاب يهوديهم ونصرانيهم، ومواقف الحرب بين المؤمنين والمشركين فى حالة النصر مع قلة العدد والعُدد، بسبب الصبر وحسن الطاعة والاعتماد على الله، وحالة الهزيمة مع الكثرة بسبب المخالفة والعصيان، ومواقف المؤمنين مع المنافقين الذين كانوا يرجفون عليهم بأساليب التغرير والتخذيل والكيد، ومن إرشادات الله فى كل هذه المواقف إلى ما يحفظ على الأمة كيانها ويثبت أقدامها، ويحقق لها نصر الله الذى وعدها، سواء فيما يقع بينهم وبين أعدائهم، أو فيما يقع بين بعضهم وبعض - إذا تذكرنا هذا كله، واستحضرناه أمام أعيننا، واستحضرنا أن القيام به ليس بالشىء الهين اليسير، عرفنا كيف قضت الحكمة بأن تختم هذه السورة بالإرشاد إلى العلاج فيما حدث، والوقاية مما عسى أن يحدث، ولا يكون هذا العلاج إلا بالصبر والمصابرة، ولا تكون هذه الوقاية إلا بالرباط والوقوف أمام منافذ الشر بما يدرؤه ويرده من حيث أتى، والتقوى ملاك العلاج والوقاية كليهما، وسبيل الحصول على الكمال المقدر للإنسان فى هذه الحياة باجتناب ما يضر، واجتلاب ما ينفع، وذلك عين الفلاح الذى وعد الله به المؤمنين.

هذه هى النداءات الإلهية التى تضمنتها سورة آل عمران إرشادًا للمؤمنين، وتعليما لهم، وبيانًا لكل ما تصلح عليه شئونهم، وتستقيم به دولتهم وأمتهم، ويدرءون به عن أنفسهم مخاطر الفشل، ومكايد الأعداء، ووساوس الشيطان، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

ســــورة النســــــاء

- سورة النساء تعنى بوضع الأسس للاستقرار الداخلى والاستقرار الخارجى.
- العناية بشأن النساء وتنظيم الأسرة والزواج.
- أحكام المال وقواعد الميراث.
- مصادر التشريع كما بينتها السورة.
- ألوان من التمرد على التشريع.
- أساس الاستقرار الخارجى.
- القتال فى الإسلام وأهدافه.
- النداءات الإلهية فى السورة: يأيها الناس.. يأهل الكتاب.. يأيها الذين آمنوا.

(٤) سورة النساء مدنية

وآياتها ست وسبعون ومائة

هذه هى السورة الرابعة من سور القرآن الكريم، وكثيراً ما يطلق عليها اسم «سورة النساء الكبرى» تمييزاً لها عن سورة أخرى عرضت لبعض شئونهن وهى «سورة الطلاق» التى كثيراً ما يطلق عليها اسم «سورة النساء الصغرى».

السور التى عرضت لشأن النساء:

ولم تكن هاتان السورتان فقط هما كل ما عرض فيه القرآن لشأن النساء، بل عرض لهن فى أكثر من عشر سور، وإن لم تسم بهذا الاسم: عرض لهن فى سورة البقرة فى ربعين عظيمين هما: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ** ﴾ ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ﴾ بين فى أولهما حكم تزوج المسلم بالمشركة التى لا تؤمن بكتاب ولا برسول، وحكم تزوج المسلمة بالمشرك. ﴿ **وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾.

وأبطل بعض العادات الضارة التى كان يعتادها أهل الجاهلية مع النساء، ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾.

وأبطل بعض المعاملات التى كان يؤذى النساء بها أهل الجاهلية، كما بين الطلاق الذى يملك الرجل فيه رجعة الزوجة، والطلاق الذى لا يملك فيه الرجعة وبين أن للمرأة الحق فى افتداء نفسها بما تملك من مال إذا أساء الرجل عشرتها وامتنع عن طلاقها، وبين مساواتها للرجل فيما لها وفيما عليها من الحقوق الزوجية، وأمر بإمساكها بمعروف أو تسريحها بإحسان، وحذر من عضل النساء ومنعهن من أن يتزوجن بمن يرون طمعًا فى مالهن وإضرارًا لهن.

وبين فى الربع الثانى أن المرأة شريكة الرجل فى شأن الولد وإرضاعه، وأنه لا يصح للرجل أن يبت فى هذا الشأن برأى إلا ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾. وبين فى هذا السياق الخطبة وأدبها، كما بين حق المطلقات فى المتعة: وهى ما يبذله الرجل للمرأة بعد طلاقها مما تتعزى به ويخفف عنها وقع الفراق، وجعله حقًا على المتقين، وبين عدة المتوفى عنها زوجها، وحث الأزواج على الإيصاء لهن بعد الوفاة، بالبقاء فى منازلهن دون إخراج لهن منها. نرى ذلك كله فى الآيات من ٢٢٦ - ٢٤٢.

وعرض لهن فى سورة المائدة، وبين حل تزوج المحصنات الكتابيات منهن، وسوى فى حقوق الزوجية بينهن وبين المحصنات المؤمنات، وترى ذلك فى الآية الخامسة من هذه السورة.

وعرض لهن فى سورة النور، وبين ما يردعهن عن ارتكاب ما يزرى بالكرامة ويخل بالشرف والمكانة، كما بين حكم من تعدى عليهن بالقذف زوجًا كان أو غير زوج، وشرع الأدب الواجب على الرجال حين يريدون الدخول عليهن فى البيوت، حفظًا لهن من أن تقع عليهن الأنظار وهن فى حالة التبذل والقيام بالمصالح المنزلية، كما خص هؤلاء الذين نضبت وجوههم من ماء الحياء بشديد من التحذير مما اعتادوا فى إكراه الفتيات على البغاء تكسبًا بعرضهن. نرى ذلك كله فى الآية الثانية حتى الآية الرابعة والثلاثين. ثم فى الآية الثامنة والخمسين حتى الآية الحادية والستين.

وعرض لهن فى سورة الأحزاب وعالج كثيرًا من المشاكل المنزلية وما يجب عليهن من آداب، وقد اتخذت السورة زوجات الرسول مثالاً حيًا فيما ينبغى أن تتخذه الزوجة الصالحة أساسًا لحياتها الفاضلة. ونرى ذلك فى الآية الثلاثين من هذه السورة حتى الآية التاسعة والخمسين.

وعرض لهن فى سورة المجادلة، فاستمع إلى رأى المرأة وقرره مبدأ يسير عليه التشريع العام الخالد، وبذلك كانت آيات الظهار التى بدئت بها السورة المذكورة أثراً من آثار الفكر النسائى، وصفحة إلهية خالدة تلمح فيها على ممر الدهور صورة احترام الإسلام للمرأة، وأن الإسلام ليس - كما يظن أعداؤه - يراها مخلوقًا يقاد بفكر الرجل ورأيه، وإنما هى مخلوق له إبداء رأيه، وللرأى قيمته ووزنه.

يقول أوس بن الصامت لزوجه خولة بنت ثعلبة: «أنت على كظهر أمى» وكان المعروف فى الجاهلية أن الرجل إذا قال هذه الكلمة لزوجته حرمت عليه، ثم دعاها أوس إلى نفسه فأبت وقالت: والذى نفس خولة بيده لا تصل إلىّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله، ثم جاءت إلى رسول الله - ﷺ - وقالت: يا رسول الله إن أوسًا تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ، فلما خلا سنى ونثرت بطنى جعلنى كأمه، وتركنى إلى غير أحد، فإن كنت تجد لى رخصة يا رسول الله فحدثنى بها: فقال - ﷺ -: ما أمرت فى شأنك بشىء حتى الآن، وما أراك إلا قد حرمت عليه، فأخذت تجادل رسول الله مراراً وتقول فى الرد عليه: إنه ما ذكر طلاقًا، فكيف أحرم عليه؟ إن لى منه صبية صغاراً إن ضمهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلىّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إنى أشكو إليك، وما برحت على هذه الحال حتى نزلت الآيات الأربع الأوائل من هذه السورة.

وعرض لهن فى سورة الممتحنة، وبين حكم النساء يهاجرون مؤمنات من بلاد الأعداء إلى بلاد الإسلام وحكم زوجيتهن لأزواجهن السابقين، وزواجهن بالمؤمنين، وبين حقهن فى المبايعة على السمع والطاعة، وعلى القيام بحدود الشريعة وأحكامها وأنهن فى ذلك كالرجال، وقد روى المفسرون قصة هذه المبايعة التى شغلت مركز المفاوضة فيها عن النساء هند بنت عتبة زوج أبى سفيان، وهى قصة طريفة، تبدو فيها ظاهرة عظيمة من حرية الرأى فى النقاش والحوار، ونرى ذلك فى الآيات من العاشرة حتى الثانية عشرة من هذه السورة.

وعرض لهن فى سورة التحريم فى شأن جرى بين زوجات الرسول، ويجرى بين كل الزوجات فى كل زمان ومكان، وتقررت فى هذه السورة مسئولية المرأة عن نفسها مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل، وأنه لا يؤثر عليها وهى صالحة فساد الرجل وطغيانه، ولا

ينفعها وهى طالحة صلاح الرجل وتقواه، ونرى ذلك فى الآيات الخمس الأوائل من هذه السورة، والآيات التى ختمت بهن.

عناية القرآن بالنساء:

وأخيرًا عرض القرآن الكريم للنساء فى سورتيهن الكبرى والصغرى: النساء والطلاق. وكم تنبض قلوب النساء فرحًا لتكريم الله لهن وعنايته بهن حينما يسمعن أو يعلمن أن القرآن عرض لهن فى هذه السور كلها، وأن من بين هذه السور سورتين سميتا باسمهن وعالجتا كثيرًا من شئونهن فى أطوار حياتهن كلها، من عهد الطفولة إلى عهد الزوجية والأمومة، وأن إحدى هاتين السورتين تبدأ بخطاب الناس جميعًا وتردهم بذكورهم وإناثهم إلى أصل واحد، تنتظمهم جميعًا رحم واحدة، وأن الأخرى - وهى الصغرى - تبدأ بخطاب الرسول بوصف النبوة فيما تعرض له من أحكام. وفى هذا وذاك حث شديد، واستنهاض قوى على مراعاة ما يفرض بعد الخطاب فى شأن النساء من أحكام وإرشادات، ولا ريب أن منزلة النساء من العاطفة والمركز الاجتماعى فى الأسرة جديرة أن تستثار فى أمرهن وشيجة الرحم التى تجمع بين الناس ذكورًا وإناثًا، والتى يقوم الرجال بحقوقها والهيمنة عليها ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾، وعاطفة الرحمة التى يحملها وصف النبوة ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾.

وهذا الوضع كما يبعث فى قلوب النساء الفرح بتكريم الله لهن، جدير بأن يلفت هؤلاء الذين يرمون الإسلام بأنه يحط من قدر النساء ليتعرفوا هذه المكانة التى وضع الإسلام النساء فيها، فيكفوا عن زعمهم أن الإسلام لم يمنح المرأة من العناية والاهتمام ما منحتها المدنية الحديثة، والواقع أن الإسلام منح النساء كل خير، وصانهن عن كل شر، ولم يأب عليهن سوى ما دفعتهن إليه هذه المدنية الكاذبة من «حرية» جعلت المرأة الغربية إذا ما خلت إلى ضميرها الإنسانى تبكى دمًا على الكرامة المفقودة، والعرض المبتذل، والسعادة الضائعة. وسيعلم النساء متى ثُبْن إلى رشدهن أن لا منقذ لهن، ولا حافظ لكرامتهن سوى هذه التعاليم الإلهية التى يحاول ذوو الغرض والمخادعون أن يصوروها فى أعينهن بصورة الأغلال التى تطوق الأعناق وتحول بينهن وبين ما لهن من حق فى الحياة. ونرجو أن يجد النساء فيما تضمنته هذه السورة - من أحكام ترفع قدرهن وتعلى شأنهن - الحجة القوية فى الإيمان بأن هؤلاء لم يقصدوا بتشويه وضعهن فى الإسلام إلا الكيد لهن،

والحيلولة بينهن وبين التمتع النفسى والاجتماعى بهذه المكانة التى رسمها لهن القرآن الكريم .

بين أول سورة النساء وأول سورة الحج:

ونعود فنتحدث عن سورة النساء ، وأول ما يلفت نظرنا بعد ما تقدم أن سورة النساء هذه إحدى سورتين فى القرآن الكريم بدأهما الله بنداء واحد وأمر واحد ، بدأهما بنداء الناس جميعًا ، وأمرهم بتقوى ربهم الذى هو مصدر الفضل والإنعام عليهم بنعمة الخلق والإيجاد ، وبنعمة التهيئة لوسائل الحياة الفاضلة ، والانتفاع بها وبنعمة الجزاء على الأعمال خيرها وشرها : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ** ﴾ بهذا بدئت سورة النساء ، وبه بدئت سورة الحج ، وتشير سورة النساء - فى سياق الأمر بتقوى الرب - إلى أولى النعم وأهمها ، وهى نعمة الخلق ونعمة الرحم التى انتظمت الناس جميعًا ، والتى نشأت عن خلقهم من نفس واحد ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾ وبهذا كان الناس فى نظر القرآن - على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وتباين أقطارهم - أسرة واحدة للواحد منها حق الأسرة وعليه واجبها ؛ فلا تظالم ، ولا طغيان ، ولا طبقات ، ولا استغلال ، ولكن محبة ، وتآلف ، وعدل ، ومساواة . وهذا أصل قرره القرآن فى غير ما آية ، ودعا به الإنسانية إلى التصافى ، والتعاون ، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر .

وجدير بأهل الحضارة الحديثة ، والثقافة البشرية ، أن يخلعوا أنفسهم مما كبلوها به من أغلال الجحود والنكران والتعصب برهة من الزمن ، ليتفهموا فيها تلك الحقيقة الواقعية التى يقررها الوحى الإلهى ، فيثوبوا إلى رشدهم ، ويريحوا أنفسهم من عناء التكتل الجنسى ، أو الإقليمى ، أو الدينى ، استعدادًا لهذه المجازر البشرية التى يسقون فيها الأرض بدماء أرحامهم وإخوانهم فى الإنسانية التى كرمها الله وفضلها على كثير من خلقه .

هذا وتشير السورة الأخرى وهى سورة الحج بعد نداء الناس جميعًا ، وأمرهم بالتقوى ، إلى هول يوم القيامة ، يوم البعث والجزاء على الأعمال ، استنهاضًا للهمم نحو عمل الخير ومكافحة الشر ، وتجعل ذلك تمهيدًا لإقامة الحجة على أن الساعة آتية لا ريب

فيها، وأن الله يبعث من فى القبور. كما تجعل سورة النساء المبدأ الذى قررته تمهيداً يوحى إلى الناس بادئ ذى بدء بالتزام الأحكام التى شرعها الله بعد؛ لينظموا بها أحوالهم، ويقيموا عليها شئونهم وحياتهم ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾.

وهكذا تجيء السورة الرابعة من نصف القرآن الأول مذكرة بجانب المبدأ وتشريع ما تقتضيه السعادة فى الحياة الأولى. وتجيء السورة الرابعة من نصفه الثانى مذكرة بجانب المعاد، وما أعد فيه لمن أحسن فى الحياة الأولى ولمن أساء. بهذا وذاك يتم للناس تمثل سبيل الحياتين ويعرفون سبيل السعادة فى الدارين.

سورة النساء تعالج الاستقرار الداخلى والاستقرار الخارجى:

يجدر بنا بعد هذا أن نحمل ما عرضت له سورة النساء من أحكام وإرشاد فى نواحى الجماعة فنقول:

إن احتفاظ الأم بكيانها يرتبط بأمرين عظيمين: الاستقرار الداخلى، والاستقرار الخارجى.

فالاستقرار الداخلى: أساسه صلاح الأسرة، وصلاح المال فى ظل تشريع قوى عادل، مبنى على مراعاة مقتضيات الطبيعة الإنسانية، مجرد من تحكيم الأهواء والشهوات، وذلك إنما يكون إذا كان صادراً عن حكيم خبير بنزعات النفوس واتجاهاتها، تمتلئ النفس بعظمته وقوته، وغيرته على تشريعه ومحارمه.

والاستقرار الخارجى: أساسه احتفاظ الأمة بشخصيتها، والاستعداد لمقاومة الشر الذى يطرأ عليها، والعدو الذى يطمع فيها.

وسورة النساء تكلفت بوضع أسس الأحكام التى تصلح بها هذه النواحى، ونستطيع أن نرد ما عرضت له السورة إلى الموضوعات الآتية:

الأسرة، المال، أسس الجماعة الإسلامية، مصادر التشريع، ألوان التمرد على التشريع، أسس الاستقرار الخارجى، مكافحة الآراء والشبه الضارة، تتويج هذا كله بالدعوة إلى الإيمان بمحمد ـ ﷺ ـ وما جاء به من هداية ونور.

نظام الأسرة تكريم للمرأة:

ففى نظام الأسرة أعلنت السورة أولا أن المرأة أحد العنصرين اللذين تكاثر عنهما الإنسان، وجعلت ذلك نعمة توجب على الناس تقوى الله ومراقبته ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾.

وقررت مساواة النساء بالرجال فيما هو من خصائص الإنسانية، فشرعت الكسب للنساء كالرجال، وأرشدت كلا منهما إلى تحرى الفضل والخير من الأموال بالعمل دون التمنى والتشهى، وأنه ليس للرجل أن يسلب المرأة العمل الذى خلقت له، كما أنه ليس للمرأة أن تطمع فيما وراء مؤهلاتها الطبيعية، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ **وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً** ﴾ الآيتان ٣٢، ٣٣.

وقررت أن للنساء ثواب أعمالهن الصالحة، وأن مسئوليتهن عن أعمالهن مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل، فهى إنسان مكلف مسئول، والرجل إنسان مكلف مسئول ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً** ﴾ الآية ١٢٤.

وعلى هذا الأساس رفع الإسلام شأن المرأة أن تكون متاعًا يورث، وجعل لها حرية فى ذاتها وأموالها ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (١٩) وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً** ﴾ الآيتان ١٩، ٢٠.

وفى حقوقهن المالية يقول: ﴿ **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً** ﴾ الآية الرابعة.

نظام الزواج:

وشرعت نظامًا للزواج فيه تكريم للمرأة والأسرة، فحظرت التزوج بأصناف من النساء حفظًا لروابط لا ينبغي أن تعرّض بالزواج إلى الفساد:

حظرت زواج الأبناء من زوجات الآباء، وزواج الآباء من زوجات الأبناء، وحظرت زواج الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت، والأمهات من الرضاع، والأخوات من الرضاعة، وأمهات النساء والربائب بشرطه المذكور فى الآية، وحظرت الجمع بين الأختين، وزواج المتزوجات والمعتدات، واقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾.

وأشارت إلى تخير الزوجات من العناصر الطيبة وهى الحرائر المؤمنات، ومنعت العدول إلى غيرهن إلا عند العجز عنهن مع خوف العنت، وذلك شأن له قيمته فى أساس الأسرة فى إنجاب الولد، واختيار البيئة الصالحة لتربيته، وضمان التوافق والسعادة فى الحياة الزوجية، واقرأ فى ذلك قوله تعالى:

﴿ **وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ الآية ٢٥.

ومن هنا أخذ الفقهاء أن الشريفة مقدمة فى الزواج على غير الشريفة، وأن حسنة السمعة مقدمة على سيئتها، وفى هذا إيحاء قوى للنساء بأن يعملن جهدهن على تحسين

سمعتهن، وتحليهن بالأخلاق الفاضلة التى ترغب فيهن الأزواج، ويلتقى هذا مع قوله تعالى فى سورة النور: ﴿ **الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾.

ولقد كان لما اتخذته الفتاة لنفسها أو مكنها منه ولى أمرها من حرية واسعة فى هذه الأيام نصيب كبير فيما نرى من أزمة الزواج، وإعراض الشباب عنه، لما يعلمون عن الفتاة من أخلاق جعلت الزواج فى نظرهم بابًا من أبواب الشقاء. فعلى الفتاة وعلى ولى أمرها أن يتدبرا الأمر، فإن عليهما وحدهما تقع تبعة هذه المشكلة، وعليهما أن يعملا على حلها إن أراد الخير والسعادة.

الزواج ميثاق غليظ:

وأفرغت السورة على عقد الزواج صبغة كريمة أخرجته عن أن يكون عقد تمليك كعقد البيع والإجارة، أو نوعا من الاسترقاق والأسر كما كان قبل الإسلام عند العرب وغيرهم. أفرغت عليه صبغة «الميثاق الغليظ».

ولهذا التعبير قيمته فى الإيحاء بموجبات الحفظ والرحمة والمودة: وبذلك كان الزواج عهدا شريفًا وميثاقًا غليظًا ترتبط به القلوب، وتختلط به المصالح، ويندمج كل من الطرفين فى صاحبه، فيتحد شعورهما، وتلتقى رغباتهما وآمالهما: كان علاقة دونها علاقة الصداقة والقرابة، وعلاقة الأبوة والبنوة ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾. ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ يتفكرون فيدركون أن سعادة الحياة الزوجية إنما تبنى على هذه العناصر الثلاثة: السكن والمودة والرحمة، وجدير بمن يتخذون الزواج وسيلة للاغتناء بمال الزوجة أو مال الزوج أو جاه كل منهما أن يتدبروا ما تؤول إليه حال كثير ممن ينهجون المنهج المادى فى إيجاد تلك الرابطة الروحية القلبية، فكم من بيوت خرت على عروشها، وكم من أبناء شردوا، وكم من أزواج تعرضوا للذلة والمهانة حينما تقلص عن أفق حياتهم الزوجية هذا المال الذى كانوا يقصدون، وهذا الجاه الذى كانوا عليه يعتمدون.

ولما أخرج القرآن عقد الزواج عن أن يكون عقد تمليك طرفاه مبيع وثمن أفرغ على المال الذى يبذله الرجل للزوجة صبغة «الصدقات» ووصفه بأنه نحلة، والنحلة ما يمنح عن

طيب نفس دون أن يكون عوضًا عن شيء، ولا ريب أن الصلة بين الزوجين أعلى وأشرف من أن يجعل عوضها دراهم معدودة، فليس المهر فى نظر الإسلام ثمنًا، ولا عوضًا عن شيء يملكه الرجل فى المرأة كما يظن كثير من الناس، وإنما هو آية من آيات المحبة والتقدير، ولذلك كان واجبًا على الرجل، وإن اتفق الزوجان على أن لا مهر للزوجة ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾.

وإذا تنبهنا إلى أن كلمة ميثاق لم ترد فى القرآن الكريم إلا تعبيرًا عما بين الله وعباده من موجبات التوحيد، والتزام الأحكام، وعما بين الدولة والدولة من الشئون العامة الخطيرة، علمنا مقدار المكانة التى سما القرآن بعقد الزواج إليها، وإذا تنبهنا مرة أخرى إلى أن وصف الميثاق «بالغليظ» لم يرد فى موضع من مواضعه إلا فى عقد الزواج وفيما أخذه الله على أنبيائه من مواثيق ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ تضاعف لدينا سمو هذه المكانة التى رفع القرآن إليها هذه الرابطة السامية.

قوامة الرجال على النساء:

وبينت السورة الدرجة التى جعلها الله للرجال على النساء، بعد أن سوى بينهما فى الحقوق والواجبات، وأنها لا تعدو درجة الإشراف والرعاية بحكم القدرة الطبيعية التى يمتاز بها الرجل على المرأة، وبحكم الكد والعمل فى تحصيل المال الذى ينفقه فى سبيل القيام بحقوق الزوجة والأسرة. وليست هذه الدرجة درجة الاستعباد والتسخير كما يصورها المخادعون المغرضون، واقرأ فى ذلك أولا قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ ثم اقرأ فى سورتنا قوله تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾.

أصناف النساء أمام قوامة الرجال:

وأرشدت السورة بعد هذا إلى أن النساء أمام هذه الرياسة منهن صالحات، وأن من شأن الصالحات القنوت وهو السكون والطاعة لله فيما أمر به، ومنه القيام بحقوق الزوجية والرياسة المنزلية، والخضوع لرياسة الرجل فيما جعلت له فيه الرياسة، والاحتفاظ بالأسرار الزوجية والمنزلية التى لا ينبغى أن يطلع عليها أحد غير الزوجين، وأن هذا الصنف من الزوجات ليس للزوج عليهن شيء من سلطان التأديب.

غير الصالحات وطريقة إصلاحهن:

أما غير الصالحات - وهن اللاتى يحاولن الخروج على حقوق الزوجية، ويحاولن الترفع والنشوز عن مركز الرياسة، بل على ما تقتضيه فطرهن، فيعرضن بذلك الحياة الزوجية للتدهور والانحلال - فقد وضعت السورة لردعهن وإصلاحهن وردهن إلى مكانتهن الطبيعية والمنزلية طريقين واضحين: وكلت أحدهما إلى الرجل - بحكم الإشراف والرياسة - وهو أن يعالجها بأنواع من العلاج، هى الوعظ، والهجر، والضرب. لكل صنف من النساء ما يليق به ويكفى فى ردعه.

فالتى يكفيها الوعظ بالقول لا يستعمل معها الهجر ولا الضرب، والتى يصلحها الهجر لا يتهاون فى جانبها بالوقوف عند حد القول والوعظ، ولا يسرف فيصل به الأمر إلى حد الضرب، بل يهجر وكفى.

التأديب المادى وهدفه:

وهناك صنف من النساء معروف فى بعض البيئات لا تؤثر فيه الموعظة، ولا يكترث بالهجر فضلا عن أن يصلحه الهجر، فأبيح للرجل نوع من التأديب المادى، وهو الذى عبر عنه القرآن بالضرب، وجعله آخر الوسائل الإصلاحية إشارة إلى أنه لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة كدواء أخير. وقد أساء المتحضرون من أبناء المسلمين فهم هذا النوع من العلاج ووصفوه بأنه نوع من الطغيان الذى لا يتفق وكرامة الزوج، وهم فى الواقع إنما يتملقون بذلك عواطف المرأة، ويتظاهرون أمامها بالحرص على مصلحتها وكرامتها، وحسبنا أن نسأل المرأة العاقلة: أى الأمرين أحفظ لحياة الزوجة، وأبقى على الأسرة؟ أأن تؤخذ الزوجة الشاذة بشىء من العقوبة يردها إلى صوابها، أم تترك لتسترسل فى نشوزها فتهدم بيتها وسعادتها وتشرد أطفالها؟ إن التأديب المادى لأرباب الشذوذ أمر تدعو إليه الفطرة، وقد وكلته الطبيعة إلى الآباء فى الأسر، كما وكلته إلى الحكام فى الأمم، ولولا هذا ما بقيت أسرة، ولا صلحت أمة. وليس من كرامة الأسرة أن يهرع الرجل إلى طلب محاكمة زوجه، كلما انحرفت أو خالفت أو حاولت أن تنحرف وتخالف. فهذا هو التشريع الحكيم الذى وضعه الخبير بطيات النفوس، الرحيم بخلقه، المحيط بالطبائع.

التحكيم:

أما الطريق الثانى فهو التحكيم؛ وجاءت آيته بعد آية الطريق الأول للإشارة إلى أنه إنما يكون فى حال عجز الرجل عن العلاج بالطرق التى شرعت له، وعند تطور الحالة من النشوز إلى الشقاق، وفى حالة ما إذا كان النشوز واقعًا من الزوج نفسه. وقد خاطب الله بهذا العلاج الأخير جماعة المسلمين تحقيقًا لما يجب أن يكون بينهم من التكافل والتضامن على حفظ الأسر والبيوت، وعلى الحكام أن يقوموا بمثل هذا الواجب نيابة عن جماعة المسلمين، كما هو الشأن فى الأحكام التى تتعلق بالأفراد ولا يمكن أن يقوم بها الأفراد، كالحكم بالقصاص، والحدود، وكل ما توجبه المصلحة لجماعة المسلمين.

وقد طلبت الآيات الواردة فى التحكيم أن يكون الحكمان فى هذا الشأن من أهل الزوجين، نظرًا إلى أن الشأن فى الأهل أن يكونوا أدرى الناس بأحوال الزوجين وأحرصهم على سعادتهما، وأقدرهم على التأثير فى نفوسهم، وأحفظهم لما قد يجدون بينهما من أسرار، واقرأ فى ذلك كله قوله تعالى:

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ الآيتان ٣٤، ٣٥. واقرأ فيه أيضًا قوله فى السورة:

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ الآية ١٢٨.

أحكام المال:

وفى ناحية المال عنيت السورة بوضع أحكام من شأنها إذا روعيت وطبقت حق التطبيق استقرت الحياة، وهدأت النفوس، واطمأنت القلوب وانصرف كل عامل إلى عمله والقيام بواجبه، وانتفع كل ذى حق بحقه، وعنى كل ذى شأن بشأنه.

عناية القرآن باليتامى فى أنفسهم وأموالهم:

بدأت فى هذا الشأن بأموال اليتامى. وللقرآن الكريم عناية خاصة باليتيم؛ لصغره وعجزه عن القيام بمصالحه التى تحفظ له حسن الحياة فى المستقبل، وتقى الأمة شر الضرر الذى يحيق بها من عدم تربيته لفقده الأب الذى يكفله ويهذبه ويرعاه.

وقد ظهرت هذه العناية فى القرآن منذ الفترة الأولى حين بدأ الوحى إلى الفترة الأخيرة حين قارب الوحى التمام والكمال: ظهرت فى مكى القرآن حينما عاد الوحى إلى الرسول - ﷺ - بعد انقطاعه مدة طال فيها على الرسول انتظاره، حتى توجس فى نفسه أن يكون الله قد ودعه وقلاه. فجاءه الوحى مؤكداً له رعاية الله إياه، وأنه ما ودعه وما قلاه، وأخذ يثبت ذلك فى نفسه، ويذكره بعناية الله به قبل النبوة وهو يتيم أحوج ما يكون إلى العطف والإيواء ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى** ﴾ وبذلك أشعر قلبه من أول الأمر بأن اليتم الذى ذاق مرارته ينبغى أن يكون باعثًا على العطف على اليتيم، والنظر إليه بعين الرحمة، والعمل على إيوائه وتكريمه. ثم يطلب منه شكر الله على نعمته التى أنعم بها عليه حين وجده يتيما فآوى، وأن يكون ذلك الشكر من نوع هذه النعمة، عطفًا على اليتيم كما أنعم الله عليه بالعطف وهو يتيم ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ** ﴾ وإن رسالة تؤسس على رعاية مثل هذه الاعتبارات لرسالة الرحمة العامة والخير العميم.

ثم تظهر هذه العناية فى المكى أيضًا فى صور أخرى من شأنها أن تدفع بالقلوب - مهما كانت قاسية - إلى أن تنفجر منها ينابيع الرحمة باليتيم؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾.

يجعل ازدراء اليتيم، وإهمال شأنه وعدم الاكتراث بأمره آية واضحة من آيات التكذيب بيوم الدين، ويصرح بأن دعوى الإيمان مع ذلك دعوى كذب ونفاق ورياء.

ومن ذلك أنه يجعل الوصية به والإحسان إليه إحدى الوصايا العشر التى لم تنسخ فى ملة من الملل، والتى يبدؤها الله بقوله لرسوله فى سورة الأنعام: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** .. ﴾ إلى أن يقول: ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** ﴾ ومن تأمل أسلوب هذه الآية رأى أن الوصية باليتيم قصد فيها النهى عن «قربان» ماله، وأن تسليط النهى على «القربان» على هذا النحو لم يرد فى شىء

غير النهى عن مال اليتيم إلا فى الوصية بالنهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأن ما عداهما كان النهى فيه مسلطًا على نفس الفعل حتى الشرك بالله: لا تشركوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله.. إلخ. وذلك يدل على مقدار العناية الإلهية باليتيم وشأنه، ويوحى بأن الاعتداء عليه هو عند الله فى مستوى ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وكما ظهرت العناية باليتيم فى المكى هكذا ظهرت فى المدنى فى صور شتى، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾.

تأثرت نفوس القوم بالوصايا المكية، وصاروا من أمر اليتيم فى حرج وضيق. ماذا يفعلون؟ أيتركون القيام عليه فيفسد أمره ويضيع ماله، أم يقومون عليه ويعزلونه عن أبنائهم فى مأكله ومشربه فيشعر بالذلة والمسكنة؟ توجهت النفوس إلى طريق ينقذهم من هذه الحيرة ويحفظ لليتيم عزته، ويقيهم شر الاعتداء عليه، فقيل لهم ﴿ **إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ** ﴾.

ثم تجىء سورتنا هذه فتظهر فيها العناية باليتيم ظهورًا واضحًا عامًا، فتأمر بالمحافظة على أموال اليتامى، وتحذر من دفع أموالهم إليهم، وتحث على القيام بحقوقهم، وتأمر بابتلائهم واختبارهم فى المعاملات، وترشد إلى الوقت أو الحال التى تسلم فيه أموالهم إليهم، وإلى ما ينبغى أن يتخذ حين ذلك التسليم.

ثم تختم بالتحذير الشديد من إهمال شأن اليتامى وأكل أموالهم، وتذكر الوعيد فى ذلك. تقرأ ذلك كله من قوله تعالى: ﴿ **وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا** ﴾ ... الآية الثانية إلى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾ الآية العاشرة.

وقد مهدت السورة لهذه الأحكام فى آيتها الأولى، فطلبت تقوى الله، وتقوى الرحم، وأشعرت الناس أنهم جميعًا خلقوا من نفس واحدة، أى فاليتيم وإن كان من غير أسرتكم فهو رحمكم وأخوكم، فقوموا له بحق الأخوة، وحق الرحم، واعلموا أن الله الذى

خلقكم من نفس واحدة، وربط بينكم بهذه الرحم الإنسانية العامة، رقيب عليكم يحصى عليكم أعمالكم، ويحيط بما فى نفوسكم، ويعلم ما تضمرون من خير أو شر فيحاسبكم عليه. وبعد هذا التمهيد الذى من شأنه أن يملأ القلوب رحمة، وأن يأخذ الإنسان إلى حصن منيع يقيه غضب الله وسخطه، ويدفعه إلى العمل بأحكامه وإرشاده، بعد هذا يأمرهم بحفظ أموال اليتامى حتى يتسلموها كاملة غير ناقصة، ويحذرهم الاحتيال على أكلها عن طريق المبادلة ﴿**وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ**﴾ أو عن طريق الخلط ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ**﴾ والمبادلة والخلط طريقان يكثر الاحتيال بهما على اغتيال أموال اليتامى، تحت ستار الإصلاح بالبيع والشراء باسم أنه منفعة لليتيم، أو بالخلط والشركة باسم أنه أعز لليتيم وأكرم.

وقد كان بعض أولياء اليتامى ينزع إلى التزوج بمن يلى أمرها من اليتيمات اللائى يحل له زواجهن، أو إلى تزويجها بعض أبنائه إذا كانت لا تحل له، ويتخذ هذا أو ذاك ذريعة إلى أكل مالها أو أكل مهرها الذى تستحقه بعقد الزواج، فلما نزلت الآية السابقة ـ وسمعوا هذا الوعيد الشديد، وقرع أسماعهم أن الإساءة فى مال اليتيم، والاحتيال على أكله بهذه الأساليب الخداعة حوب كبير وإثم عظيم ـ انصرفت نفوسهم عن التزوج من اليتيمات متخوفين سوء العاقبة.

وقد أرشدتهم الآيات إلى أنهم إن لم يأمنوا على أنفسهم العدل فى أموال اليتيمات، وحسن معاشرتهن، وتسليمهن حقوقهن إذا تزوجوهن، أو زوجوا أبناءهم منهن، أرشدتهم إلى ترك التزوج بهن حفظًا لأنفسهم من الوقوع فى هذا الإثم العظيم، ولفتت أنظارهم إلى باب واسع هو التزوج بغيرهن من الأجنبيات اللاتى تميل إليهن نفوسهم، فذكرت لهم إباحة التزوج بثنتين أو ثلاث أو أربع، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾ يريد أنه لم يضيق عليكم فى أمر الزواج حتى تقفوا عند حد اليتيمات اللاتى تتحرجون من سوء معاشرتهن وخوف أكل أموالهن، فلكم فى الزواج بما طاب لكم من النساء متسع عظيم.

تعدد الزوجات فى الإسلام:

وقد كانت هذه الآية مصدرًا لتشريع تعدد الزوجات فى الإسلام، وهى مسألة كثر فيها

الكلام قديمًا وحديثًا، واتخذها أعداء الإسلام سبيلا للطعن فى التشريع الإسلامى، مع أنها لم تذكر كما ترى تشريعًا مقصوداً لذاته، وإنما ذكرت طريقًا للخلاص من تخوف الوقوع فى ظلم اليتيمات حين التزوج بهن.

هذا، ولنا بحث مستفيض فى هذه المسألة عرضنا فيه لتاريخ تعدد الزوجات، كما عرضنا فيه لبيان أن الآية هل أباحت التعدد على وجه الرخصة عند حالات طارئة، أو أنها جعلت إباحة التعدد هى الأصل، وطلبت الاقتصار على الواحدة عند خوف عدم العدل بين الزوجات؟ وفى سبيل ذلك عرضنا الآيات التى جاءت بأحكام الترخيص عن أصل ثابت مقرر، وقارنا بينها وبين هذه الآية، كما أوضحنا فى هذا البحث الأسباب الطبيعية التى دفعت إلى ظاهرة تعدد الزوجات، وإلى موقف المسلمين ـ خاصتهم وعامتهم منذ العصر الأول للتشريع الإسلامى إلى يومنا هذا ـ من تعدد الزوجات[١].

ولنرجع إلى موضوع الآيات، فنقول:

يأمر الله بالمحافظة على أموال اليتامى، ثم يحذر الأولياء تسليم أموالهم إليهم، ولا ريب أن مبنى ذلك وأساسه عدم قدرتهم على ضبط نفوسهم فى التصرف، وضعف عقولهم عن إدراك ما هو خير وصلاح، ولهذا عبر عنهم بوصف السفهاء إثارة لعاطفة الرحمة بهم، وإشارة إلى شمول الحكم لغيرهم ممن يتحقق فيه ذلك الوصف، كالمجنون والمعتوه والصبى الذى لا يعقل، وسيئ التدبير والتصرف، وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا** ﴾.

تكافل الأمة ومسئولية بعضها عن بعض:

ولنقف عند قوله: ﴿ **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** ﴾ لنعلم ما يوحى به من تكافل الأمة ومسئولية بعضها عن بعض، ومن أن المال الذى فى يد بعض الأفراد «قوام للجميع» ينتفعون به فى المشروعات العامة، ويفرجون به أزماتهم وضائقاتهم

---

(١) ارجع إلى هذا فى فصل «تعدد الزوجات» من باب «نظام الأسرة» فى كتابنا «الإسلام عقيدة وشريعة» ط. دار الشروق.

الخاصة عن طريق الزكاة، وعن طريق التعاون وتبادل المنافع، وهذا هو الوضع المالى فى نظر الشريعة الإسلامية، فليس لأحد أن يقول: مالى مالى، هو مالى وحدى، لا ينتفع به سواى، ليس لأحد أن يقول هذا أو ذاك، فالمال مال الجميع، والمال مال الله، وينتفع به الجميع عن الطريق الذى شرعه الله فى سد الحاجات ودفع الملمات، وهو ملك لصاحبه يتصرف فيه لا كما يشاء ويهوى، بل كما رسم الله وبين فى كتابه، حتى إذا ما أخل بذلك فأسرف وبذر أو ضن وقتر حجر عليه، أو أخذ منه - قهراً عنه - ما يرى الحاكم أخذه من مثله.

حث الإسلام على تحريك الأموال وتثميرها:

ولنقف مرة أخرى عند قوله: ﴿ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ لنعلم إيحاء آخر يوجه النفوس إلى أن رءوس الأموال لا يصح أن تبقى جامدة غير متحركة، ولا واقفة غير مثمرة، فهو يطلب أن يكون الرزق فيها لا منها، فهى باقية والرزق من أرباحها المشروعة، وقد أفصح عن هذا الإيحاء ما ورد من قوله - ﷺ - فى خطبة له: «ألا من ولى يتيما له مال فليتجر فيه ولا يتركه حتى تأكله الصدقة».

عناية القرآن بتقوية أخلاق اليتامى وإحسان تربيتهم:

ولنقف مرة ثالثة عند قوله: ﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ لنعلم مقدار عناية القرآن بتربية اليتامى تربية تهذب أخلاقهم، وتكفل لهم حسن المستقبل، وذلك يكون بالإرشاد إلى ما هو خير ونافع، والتحذير مما هو شر وفساد. هذا، وتربية اليتامى من الشئون التى يجب على أهل الرأى وأولى الأمر فى الأمة أن يعنوا بها عناية خاصة، حتى لا يكونوا عناصر فساد فى الأمة، أو منبت شقاء لها بسريان عدوى فساد الأخلاق منهم إلى من يخالطون من أبناء الأمة، فالعناية بهم عناية بتكوين الأمة، وإهمالهم فتح لباب شر مستطير ينزل بالأمة فى عزتها وكرامتها. وليس أدل على وجوب العناية بأمر اليتامى فى التربية العملية من قوله تعالى: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى ﴾ يأمر باختبارهم، وتدريبهم على التصرف والقيام على بعض الشئون، لينظر أيحسنون أم يسيئون؟ فإذا أحسنوا وسعت لهم دائرة الاختبار، وإذا أساءوا وأرشدوا وعلموا، تأمر الآية باختبارهم على هذا النحو حتى يصلوا إلى درجة الرشد، وتعرف قدرتهم على ضبط الأموال وحسن التصرف، فتسلم أموالهم إليهم ليباشروا شئونها بأنفسهم، ويدخلوا بها فى معترك الحياة.

علاقة الوصى باليتيم:

ولما كان الوصى لا يخلو حاله من أن يكون غنيا بماله، ولا يحتاج فى كفافه إلى غيره، أو فقيرا لا يملك ما يدفع به حاجته، أرشدهم الله إلى أن الغنى ينبغى له أن يترفع عن تناول شيء هو فى غنى عنه من مال اليتيم، وأن عليه أن يجاهد نفسه بالتحلى بالعفة، ليكون عمله فى صون اليتيم وحفظ ماله عملا إنسانيا فاضلا يبتغى به وجه الله ورضاه. وأباح للوصى الفقير أن يأخذ من مال اليتيم بقدر ما يسد حاجته التى لا ينكرها عليه أصحاب العقول. تقرأ ذلك كله فى قوله تعالى: ﴿ **وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾.

أساس قانون المجالس الحسبية:

وقد كانت هذه الآيات الواردة فى شأن اليتيم والسفهاء أساسا لقانون المجالس الحسبية التى وكل إليها إقامة الأوصياء على اليتامى والسفهاء، ومحاسبتهم على تصرفاتهم فى الأموال التى أقيموا عليها.

ومع هذه المحاسبة التى يوجبها الله على أولياء الأمر للأوصياء، فإن الله سبحانه وتعالى يختم هذه الآيات بوعيد من شأنه أن يباعد بين الأوصياء المؤمنين والتفريط فى شيء من حقوق اليتامى، وأن يجتث من قلوبهم بذور الطمع فيهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾.

حقوق النساء:

وكما عنيت السورة فى هذا المقام بحقوق اليتامى والسفهاء المالية على هذا النحو، عنيت أيضا بهذه الحقوق فى جانب النساء، والنساء يشاركن اليتيم فى الضعف وعدم

القدرة الطبيعية على المكافحة ومنافسة الرجال، وفى سبيل ذلك أبطلت ما كان عليه أهل الجاهلية من عدم توريثهن، كما أبطلت عدم توريث الأطفال، وألغت الأسباب التى كان أهل الجاهلية يعتمدون عليها فى توزيع الميراث، وبهذه المناسبة عرضت السورة إلى الوارثين والوارثات، مفصلة فى ذلك أنصباء الجميع. وقد جاء ذلك فى قوله تعالى:

﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ** ﴾.

وهناك آية ثالثة ختمت بها هذه السورة الكريمة وهى قوله تعالى: ﴿ **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)** ﴾ بهذه الآيات يبين الله الوارثين والوارثات ونصيب كل وارث.

وقد اتخذها فقهاء الإسلام وأئمته مصدرا لعلم الفرائض الذى أفردوه بالتأليف والتدوين وجعلوه علما قائما بذاته: بينوا فيه الحقوق المتعلقة بالتركة، وأسباب الإرث وشروطه وموانعه، كما بينوا أصناف الوارثين والوارثات، وما يطرأ على الوارث من حجب كلى أو جزئى إلى آخر ما أوردوا من المسائل المتعلقة بالميراث وتوزيعه.

أحكام الإرث فى هذه الآيات:

وقد كنا فى غنى عن شرح هذه الآيات اكتفاء بالرجوع إلى كتب هذا الفن لولا أن رأينا أن أكثر القراء لا يسهل عليهم أخذ تلك الأحكام من الكتب الفقهية.

أولا: لكثرة ما اشتملت عليه من بحوث واستدلالات وفروض.

وثانيا: لأنها مؤلفة بأساليب قد لا تساعدهم على هضمها ثقافتهم الخاصة التى لم تعرف هذه الأساليب، ولندرك من جهة أخرى حسن البيان مع الدقة فيما تضمنته ودلت عليه هذه الآيات الثلاث فقط، وكيف أنها تضمنت أصول هذا العلم بوضوح يكتفى به النابه اليقظ فى معرفة فرائض الله وتشريعه فى أحكام المواريث، فهو بلا شك بيان تعجز عنه من البشر نهاية القوى والقدر، ولا يكون إلا من خالق القوى والقدر. فسبحانه من خالق قوى ومشرع حكيم.

بينت هذه الآيات الثلاث الوارثين والوارثات ونصيب كل وارث بالأوصاف والعناوين التى قررها الله سببا فى استحقاق الإرث، كالبنوة، والأبوة والأمومة، والزوجية، والأخوة، وقد ألغت بالنسبة إلى أصل الاستحقاق الذكورة والأنوثة، والصغر والكبر، وسوت بين الذكر والأنثى، كما سوت بين الصغير والكبير، وجعلت للكل حقا فى الميراث، كما اعتبرت للزوجية مكانها وجعلتها سببا من أسباب استحقاق الإرث، وبهذا أبطلت ما كان عليه العرب من جعل الإرث بالنسب مقصورا على الرجال دون النساء والأطفال، وقد كانوا يقولون فى ذلك: «لا يرث إلا من طاعن بالرماح، وذاد عن الحوزة، وحاز الغنيمة» فأبطل الله ذلك وجعل الميراث بالنسب عاما للرجال والنساء، والصغار والكبار. وجاء فى ذلك على وجه العموم: أولا قوله تعالى: ﴿ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا** ﴾.

ثم جاءت الآيات الثلاث وفيها التفصيل والتصريح بما يعم الرجال والنساء والصغار والكبار.

عدّلت الآيات استحقاق الإرث بالنسب على الوجه المتقدم، ولم تعرض لسببية التبنى فيه، وقد كان التبنى - وهو أن يتخذ الرجل ابن غيره ابنا له ملحقا به، فتنقطع صلته بأبيه

وتلزمه واجباته فى الحياة ويرثه بعد الموت - سببا من أسباب الإرث التى كان العرب بها يورثون، ولم يقف القرآن فى إبطال التوريث بالتبنى المذكور عند حد إسقاطه من أوصاف الوارثين والوارثات، بل صرّح ببطلانه وأهدر آثاره وأرشد فيه إلى ما يقضى به العقل الصحيح، والمنطق المستقيم، وذلك فى قوله تعالى من سورة الأحزاب: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾. وقد تبنى النبى - ﷺ - قبل هذا التشريع زيد بن حارثة جريا على ما كان معروفا عند العرب من اعتبار التبنى وإقراره، فلما جاء القرآن بإبطال التبنى أمر الله نبيه أن ينفذ بنفسه تطبيق ذلك التشريع الجديد، حتى يكون عند الأمة باعثا على الامتثال والمسارعة إلى القبول دون تحرج من ترك ما ألفوا.

أثر القدوة العملية فى الأمة:

ولا ريب أن القدوة العملية أفعل فى النفس - وبخاصة بالنسبة للعادات الموروثة المتأصلة - من مجرد إعلان التشريع الجديد، وإبطال السابق عليه.

وهذه طريقة كثيرا ما كان يلجأ إليها النبى - ﷺ -، وكانت تستتبع آثارها من اندفاع الناس وراءه فى العمل والامتثال، ولو أن ولاة الأمور فى الإسلام اقتفوا هذه السنة المباركة - وتقدموا الأمة فى عمل ما يطلبون بالتشريع، والكف عما يحذرون بالتشريع - لكان لنا شأن غير الشأن، ومكانة غير المكانة، ولكن هكذا قدر، وابتلى المسلمون بقوم يشرعون ويكون تشريعهم للناس فى جانب، ووضعهم الشخصى فى جانب آخر، ومن هنا ضعفت قيمة التشريع فى نفوس الناس، ولم توجد لديهم القوة التى تحفزهم على الامتثال والتنفيذ إلا بقدر ما يتحللون من طائلة العقاب والزج إلى السجون.

أمر الله النبى - ﷺ - بتنفيذ التشريع الجديد، وطلب منه أن يتزوج حليلة مولاه زيد بن حارثة بعد أن طلقها زيد. وجاء ذلك فى قوله تعالى من سورة الأحزاب أيضا: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾.

بذلك بطل هذا النوع من التبني وطويت صفحته الجاهلية، وصار فى الشريعة الإسلامية مهدرا محرما، لا يصح لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يفعله.

ولعل من واجب المسلمين علينا أن يعرفوا الحكمة فى إبطال هذا النوع من التبنى وتحريمه، ليتبين لهم مقدار حدب الشريعة الإسلامية على حفظ الإنسان والحقوق التى لا بد منها فى نظام الحياة.

الحكمة فى إبطال التبنى:

وليس من ريب أن هذا التبنى فيه:

أولا: حرمان الأب الحقيقى من أن يتصل به نسله المنسوب إليه فى الواقع وفيما يعلم الله، وحرمانه من النصرة والمعونة التى أساسها اتحاد الشعور بالمسئولية ورابطة البنوة الحق.

وثانيًا: تضييع حقوق الورثة الذين تحقق سبب إرثهم الشرعى من الأب الكاذب «المتبنى»، وبذلك تقع العداوة والبغضاء بينهم وبين مورثهم ودعيّه الذى تبناه وضيع به حقهم فى التركة.

وثالثًا: أن المتبنى «الولد الزور» يدخل على زوجة المتبنى وبناته باسم البنوة والأخوة، ويعاشرهن على أساس منهما وهو أجنبى عنهن، لا يباح له منهن ما يباح للابن أو الأخ الحقيقى لهن، وبقدر ما تتركز هذه البنوة الكاذبة - فى هذه الأسرة المدخولة - فإن البنوة الحق فى الأسرة تسير إلى الفناء والمحو والزوال حتى ينسى الشعور بها أصلا، فتنسى الأم التى ولدته، وتنسى الأخت التى اجتمعت معه فى بطن واحدة، وقد تدفع ظروف المستقبل أن يتزوج من أخواته، أو أبنائهن، وبذلك تضيع الأنساب، ويختل نظام الأسرة، ويعيش المرء فى حياته الزوجية مع من حرم الله عليه التزوج بها ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ ﴾ وفى هذا قال بعض العلماء: «لو فتح باب الانتفاء من الأب لأهملت هذه المصالح، ولاختلطت الأنساب، ولضاعت حكمة الله فى جعل الناس شعوبًا وقبائل».

وقد ورد عن النبى - ﷺ -: «أيما امرأة أدخلت على قوم ما ليس منهم فليست من الله فى شىء ولن يدخلها الجنة، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رءوس الخلائق».

ولنرجع إلى ما تضمنته الآيات من أنواع الإرث فنقول :

عرضت الآيات للإرث بالبنوة، والأبوة، والزوجية، والأخوة. وهى على الترتيب الآتى :

ميراث الأبناء:

دل قوله تعالى : ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ** ﴾ على أن الولد الذكر صغيراً كان أم كبيراً واحداً أم متعدداً، متى وجد مع الأنثى، واحدة أو متعددة، فله سهمان ولها سهم، ولا فرق فى ذلك بين أن يكون معهم صاحب فرض أو لا يكون، إلا أنه فى الأولى يقتسم الذكور والإناث ما بقى بعد أخذ صاحب الفرض فرضه، وفى الثانية يقتسمان كل المال.

وعلى أن الأنثى إذا انفردت عن الذكور إن كانت واحدة فلها النصف، وإن كن ثلاثاً فلهن الثلثان، ولم تذكر الآية الأنثيين الثنتين، وجمهور العلماء على أنهما كالثلاث لهما الثلثان، لأن الذكر مع الواحدة يرث الثلثين، والله يقول ﴿ **لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ** ﴾ فيكون الثلثان هما حظ الأنثيين. ولما كان يوهم أن نصيبهما يزيد عن الثلثين عند زيادتها نفى ذلك فى قوله ﴿ **فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ** ﴾ وبالنص على نصيب الذكر مع الأنثى، وعلى نصيب الأنثى الواحدة علم أن الذكر إذا انفرد يأخذ التركة كلها، وإذا كان معه أخ أو أكثر كانت التركة بينهم بالمساواة، وعلم أن البنات مهما كان عددهن لا يستغرق نصيبهن التركة، بل يأخذن الثلثين فقط ويكون الباقى للعصبة.

وقد جاء التعبير عن استحقاق الأنثى - وقد كان العرب يحرمونها من الميراث - بهذا الأسلوب الذى يدل على أصالتها فى الإرث، وينسب الذكر إليها، مبالغة فى إبطال ما كانوا عليه من حرمانها، وكأنَّ إرثها هو الأصل وحمل عليه إرث الذكر، ولهذا لم يقل مثلا : «للأنثى نصف حظ الذكر» وقال : «للذكر مثل حظ الأنثيين».

ويجدر هنا أن نشير إلى خصوم الإسلام، فقد اتخذوا التفاوت بين نصيبى الذكر والأنثى هكذا مطعنا على الإسلام من جهة أن فيه إهدارا لحق بنوة الأنثى المساوية تماما فى نسبتها إلى المورث لبنوة الذكر، وقالوا : إن هذا من فروع هضم الإسلام حق المرأة وهى إنسان كالرجل، وفاتهم أن الذكر تتعدد مطالبه وتكثر تبعاته فى الحياة، فهو ينفق على

نفسه، وعلى زوجه، وعلى أبنائه، ومن أصول الشريعة أنه يدفع المهر لمن يريد أن يتزوجها، أما الأنثى فإنها لا تدفع مهرا، ويلزم زوجها بنفقتها فى مأكلها ومشربها ومسكنها وخدمها، وذلك فوق تبعاته العائلية التى لا يلحق الأنثى مثلها، وهذا باب يتضح منه أن نصيب الأنثى فى الوضع الإسلامى أعظم وأكثر من نصيب الذكر، ولو أننا نظرنا نظرة أخرى وقارنا الوضع الإسلامى لميراث المرأة بالأوضاع الأخرى لوجدنا أن الإسلام قد انتهج فيه الحد الوسط الذى لا إفراط فيه ولا تفريط، فبينما نرى تشريعا يقضى بحرمان الأنثى بتاتا يقابله تشريع آخر يقضى بمساواتها للذكر، نرى الإسلام لا يُفرط فى حقها بمساواتها بأخيها ولا يُفرط فى حقها بحرمانها، وإنما يمنحها كما يمنح أخاها، ويقدر ظروف كل فيجعل نصيبه على ضعف من نصيبها، وهذا هو شأن الإسلام الذى اتخذه أساسا فى كل أحكامه وشرائعه.

ميراث الوالدين:

انتقلت الآيات من بيان ميراث الأولاد إلى بيان ميراث الوالدين ﴿ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾.

ودلت الآية على أنه إذا كان مع الوالدين ولد - والمراد منه ما يشمل ولد الابن ذكرا كان أم أنثى - كان لكل منهما السدس، إلا أنه فى صورة وجود البنت الواحدة معهما يكون الباقى - بعد فرضها وهو النصف، وفرضهما وهو الثلث - للأب بطريق آخر يقال له التعصيب، وعلى أنه إذا لم يكن معهما ولد وورثاه هما فقط كان للأم الثلث وكان الباقى وهو الثلثان للأب.

ودلت على أنه إذا كان معهما إخوة للميت - والمراد مطلق العدد - من غير اعتبار تثليث ولا صفة ولا جهة، كان للأم السدس، وكان للأب الباقى فرضا وتعصيبا، ولا شىء للإخوة من السدس الذى حجبوا عنه الأم، وذلك لأنه تعالى لم يذكرهم بعد أن كان المال كله للأبوين إلا بحجبهما الأم عن السدس فبقى المال على أصله.

ميراث الزوجين:

ثم انتقلت الآية إلى بيان إرث الزوجين: ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن

لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وقد دلت على أن الزوج يرث من زوجته نصف ما تركت إذا لم يكن لها فرع وارث، ويرث الربع إذا كان لها فرع وارث، وعلى أن الزوجة ترث من زوجها الربع إذا لم يكن له فرع وارث، وترث منه الثمن إذا كان له فرع وارث، ولا فرق فى ميراث الزوجة المذكور بين أن تكون واحدة فتستقل به، أو أكثر فيقتسمنه بالسويّة.

وفى تقرير الإرث بالزوجية تقرير لأساس قوى متين لتبادل التعاون فى تركيز الأسرة والمحافظة على الأموال، وتربية الأبناء على وجه تدوم به المودة ويقوى به شعور كل من الزوجين بمسئوليته، ومن فروع ذلك أن حق المرأة على الرجل فى النفقة هو الحق الأول، فإذا لم يجد بعد سد رمقه إلا ما يسد رمق إنسان واحد كان ذلك الإنسان هو الزوجة، ولا يتصل ذلك الوضع بحق الاحترام والإحسان الواجبين للوالدين، وإنما يتصل بالحالة الاجتماعية التى صار إليها الزوجان وانفردا بها عن الوالدين.

ميراث الإخوة:

بينت الآيات ميراث الأبناء، والوالدين، والأزواج، وكل منهم يتصل بالمورث دون توسط شخص ثالث، ثم انتقلت إلى بيان إرث الصنف الرابع وهو صنف الإخوة الذى يتصل المورث بواسطة الأب أو الأم ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ وتدل الآية على أن الميت ذكرا كان أم أنثى إذا لم تكن وراثته من جهة الأبوة ولا البنوة، وإنما كانت من جهة الإخوة، والإخوة من الأم، فالحكم فيها: للواحد منهم السدس وللأكثر منه الثلث، يقتسمونه بالسوية لا فرق بين ذكرهم وأنثاهم، وإنما قيدت الإخوة فى هذه الآية بجهة الأم، لأن الله تعالى بين حكم الإرث بها إذا كانت من جهة الأب والأم أو الأب فقط فى الآية الثالثة من آيات الميراث التى ختمت بها سورة النساء ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾.

وبذلك يكون الله قد بين ما يرثه الإخوة للأم فى الآية الأولى وبيَّن بالثانية ما يأخذه

إخوة العصب، وكانت الآيتان فى ميراث الكلالة، والأصل فى كلمة «كلالة» ذهاب القوة إعياء وضعفا، عبِّر بها عن القرابة من غير جهة الوالد والولد وهى قرابة الأخوة.

مبادئ فى التوريث:

هذا شرح وجيز لآيات الميراث ونستطيع أن نستخلص منها المبادئ الآتية:

أولا: أن مبنى التوريث فى الإسلام أمران: نسبى وهو القرابة بنوعيها: قرابة الولادة، وتشمل الإخوة من الجهات الثلاث، وسببى وهو الزوجية، وتشمل الزوج والزوجة، وأنه لا اعتبار لما وراء ذلك فى أصل الاستحقاق من أوصاف الذكورة والأنوثة والصغر والكبر.

ثانيا: أنه متى اجتمع فى المستحقين ذكور وإناث أخذ الذكر ضعف الأنثى إلا فى الإخوة لأم فإنهم يستوون فى النصيب.

ثالثا: أن الأبناء والأبوين والزوجين لا يسقطون فى أصل الاستحقاق بحال وإن كان يؤثر عليهم وجود غيرهم فى كمية المستحق.

رابعا: أنه لا إرث للإخوة مع وجود الأبوين، وإن كانوا يحجبون الأم من الثلث إلى السدس.

خامسا: يجب تقديم حقوق الميت على تقسيم التركة، وأنه لا ينبغى الإهمال فى تنفيذها، ويرشد إلى ذلك تكرار قوله تعالى: ﴿**مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ**﴾ فى الآيتين ثلاث مرات، ويلاحظ أن الوصية وإن قدمت فى الذكر على قضاء الدين، فإن قضاء الدين مقدم عليها فى التنفيذ، وإنما قدمت الوصية بعثا على تنفيذها نظرا إلى أنها من المورث، يتعلق بها الضن، وتشح بها الأنفس، فيخشى التهاون بها، أما الدين فحق ثابت له مطالب من جهة العباد، فلا يخشى إهماله.

سادسا: لا ينبغى للمورث أن يسىء إلى ورثته حين مشارفته الموت بالوصية لمن ليس محتاجا إليها، أو الإقرار بما ليس ثابتا عليه، وورثته فى حاجة إليه، يرشد إلى هذا قوله تعالى: ﴿**غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ**﴾، أى أن المورث لا يجوز له أن يضر ورثته لا من جانب الوصية ولا من جانب الدين، وقد حدد النبى - ﷺ - الوصية الجائزة بثلث التركة وقال: «والثلث كثير» وليعتبر بذلك كثير من الناس الذين يجترحون - وهم على عتبة

الوقوف بين يدي مولاهم ـ تصرفات بها يحرمون بعض ورثتهم من حقوقهم تلبية لشهوة باطلة أو هوى فاسد، فيوصون للأجانب، أو يعترفون لهم بديون كيدا للوارث فى حقه الذى ربما يكون فى حاجة إليه ليقيم به أوده، ويحفظ به حياته.

وإن التعبير فى أول آيتى الميراث بقوله تعالى: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ**﴾ وفى آخرها ﴿**وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ**﴾ لجدير أن يهز هذه القلوب القاسية التى تستبيح لنفسها أن تختم حياتها بذلك الوزر العظيم، فتفرط فى تنفيذ شىء من هذه الأحكام التى فرضها الله، فيحرمون بناتهم أو يؤثرون بعض أولادهم على بعض أو يمنعون بعض عصبتهم من أخذ حقوقهم فى التركة بما يقدمون عليه من تصرفات تحت ستار البيع والشراء، أو تحت ستار الوصية والاعتراف بالديون، فإن كل ذلك جرم عظيم، وذنب كبير لا يقترفه من يؤمن بأن المشرّع هو العليم الحكيم، ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾.

اهتمام القرآن فى هذه السورة وغيرها بشأن المال:

وقد جاء فى السورة مما يتصل بالجانب المالى ما يشبه أن يكون قاعدة عامة فى المحافظة على الأموال، ذلك لأن الأموال عنصر من العناصر التى لابد منها فى الحياة، وأن كل ما تتوقف عليه الحياة فى أصلها وكمالها، وسعادتها وعزها من علم، وصحة، وقوة، واتساع عمران، لا سبيل للحصول عليه إلا بالمال، وقد نظر القرآن إلى الأموال هذه النظرة الواقعية فوصفها بأنها قوام الحياة، وحذر من تركها فى أيدى السفهاء الذين لا يحافظون عليها، ولا يحسنون التصرف فيها، كما أمر لذلك بتحصيلها من طرق فيها الخير للناس، فيها النشاط والحركة، وفيها عمارة الكون: أمر بتحصيلها عن طريق التجارة، وعن طريق الزراعة، وعن طريق الصناعة، وسمى طلبها ابتغاء من فضل الله، كما وصفها نفسها بأنها زينة الحياة الدنيا ومتاعها، وبلغ من عناية القرآن بالأموال أنه طلب السعى فى تحصيلها بمجرد الفراغ من أداء العبادة المفروضة، وأنه لم يأمر بالانصراف عن تحصيلها إلا لخصوص هذه العبادة، واقرأ فى ذلك قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ**

تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وآيات التنويه فى القرآن بشأن المال، والحض على تحصيله واستثماره بالوجوه المشروعة، كثيرة متنوعة. وقد جعل القرآن الاقتصاد فى صرف المال ووضعه فى مواضعه التى تعود بالخير على الفرد والجماعة من صفات عباد الرحمن ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ والذين يقدرون رحمة الله لعباده من التمكين المالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ونهى عن الإسراف فيه، كما نهى عن الضن به على الحقوق والواجبات، ونبه إلى أن الإسراف والضن كلاهما يوقع المرء فى اللوم ويسلمه إلى الكلال والضعف ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ والمحسور: من انكشف أمره، أو انحسرت قوته وزالت، فانكشف ضعفه، وهكذا نجد القرآن ينهى عن البخل، ويصور البخل بهذه الصورة البشعة، صورة من غلت يده إلى عنقه فصار عاجزا عن أن يحركها أو ينتفع بها، ونراه فى الوقت نفسه ينهى عن السرف ويحذر عاقبة المسرف الذى ينفق ماله فيما لا خير فيه، ولا يزال ينفق حتى ينفد ماله وينكشف حاله، ويظهر عجزه، وتزول قوته، وتلحقه الحسرة النفسية، والندامة القلبية لفقده عنصر الحياة والعزة، وكم رأينا من بيوت خرَّت على عروشها، وأصبح أهلها فى عداد المتسولين بسوء الإسراف والتبذير.

وهذه آية من سورة النساء يوجه فيها الخطاب للمؤمنين عن طريق النداء بوصف الإيمان المشعر بأن الحكم الذى تضمنته من مقتضيات الإيمان ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾. وقد جاء فى سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾. ومجموع الآيتين يرشد إلى أن التعدى على الأموال وانتهاك حرمتها: وسلبها بغير حق شرعى، قتل للأنفس، وإماتة لعنصر الحياة فيها وإثم كبير.

حرمة الأموال العامة:

ولا ريب أن الأموال فى الآيتين تشمل أموال الأفراد وأموال الأمة، وأنه كما يحرم

على الأفراد أن يأكل بعضهم مال بعض بالباطل الذى لا يقره عرف صحيح، ولا يبرره عقل سليم، فإن حرمة أكل أموال الأمة أو وضعها فى غير مصلحتها، وفى غير ما تحتاج إليه أشد عند الله حرمة، وأكبر فى نظر الإنسانية جرما، وإذا كان العبث بأموال الأفراد اعتداء على حق الأفراد، وفى استطاعتهم أن يكافحوا هذا الاعتداء، فإن العبث بأموال الأمة اعتداء على حق العامة الذى يسمى فى الشريعة حق الله، وليس له قوة تحميه إلا اليد المهيمنة عليه المتصرفة فيه. فكيف لو كانت هى التى تأكله بالباطل والتى تبذره فى غير مصلحة؟

أنواع أكل الأموال بالباطل:

وإذا كان الباطل كما قلنا ما لا يقره عرف صحيح، ولا يبرره عقل سليم، فهو يتناول الأكل عن طريق الربا الذى يؤخذ استغلالا لحاجة الضعيف المحتاج، والذى يقتلع من النفوس معانى الرحمة والتعاون والمجاملة الكريمة، وعن طريق السرقة والغش والانتهاب والتسوّل، وما يؤخذ عن طريق التجارة أو العمل فيما حرم الله، كالخمر والخنزير والميسر والرقص، وكل ما يفسد الأخلاق، ويعبث بالإنسانية. ومن أقبح ما يتناوله أكل الأموال بالباطل ما يؤخذ من الأفراد فى مقابلة الحكم لهم، أو الحكم على خصومهم، وهو المعروف بين الناس بالرشوة، ومنه ما يؤخذ باسم التوسط فى إعطاء غير المستحق وحرمان المستحق، كما يفعله سماسرة الوظائف، وذلك كله هو قوله تعالى فى الآيتين: ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ** ﴾ وعنيت آية البقرة بذكر ما يؤخذ عن طريق الرشوة، فقالت: ﴿ **وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾، ذلك أن الرشوة - مع ما فيها من أكل أموال الناس بالباطل - مفسدة للأخلاق، مهدرة للكفايات، مضيعة للمصالح، فضررها أشد، وعاقبتها أوخم.

لا خير فى المال إلا إذا اكتسب عن طريق مشروع:

وقد أرشدت سورة النساء إلى أن الأموال التى عقد الله بها الخير والصلاح، وأحل الانتفاع بها، هى التى يكون تحصيلها عن طريق العمل المرضى بين الناس، الذى لا يترك أثرا سيئا فى نفوس المتعاملين ﴿ **عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ** ﴾.

التضامن المالى فى الأمة:

كما أشارت بإضافة الأموال إلى الجميع فى قولها: «أموالكم» إلى أن الاعتداء الواقع على مال البعض هو اعتداء واقع على مال الجميع، نظرا لما قرره الإسلام من المسئولية التضامنية بين الأمة، القاضية بأن المال جميعه - مع تقرر الملكية الشخصية فيه - أداة لمصلحة الناس كلهم: يساهم به أصحابه فى سد حاجة المحتاجين، وتأسيس المشروعات العامة النافعة، إن لم يكن بحكم التبرع المالى الذى ندبت إليه الشريعة، وضاعفت الأجر والمثوبة عليه، فبحكم الزكاة التى أوجبها الدين، وجعلها ركنا من أركانه، وبحكم الضرائب العادلة التى يضعها أولو الأمر حسب تقدير المصالح التى تحتاج إليها البلاد من مشروعات الخير العام فى نواحى الحياة.

أكل الأموال بالباطل يغرس الحقد ويفضى إلى التقاتل:

ولما كان أكل الأموال بالباطل من شأنه أن يغرس الحقد فى القلوب، والتباغض فى النفوس، وكثيراً ما يؤدى ذلك إلى الاغتيال والتقاتل، فيفسد النظام وتنتشر الفوضى، وتضطرب بالناس جوانب الحياة، نهت الآية بعد ذلك عن قتل النفوس، ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ** ﴾ ولا ريب أن المال - باعتباره مقوماً من مقومات الحياة - شقيق النفس والروح، وأن من سلب مال إنسان فقد سلبه عنصراً مهماً من عناصر الحياة صيّره فى حكم المقتول إن لم يؤد ذلك إلى التقاتل بالفعل، وهو ما يحدث كثيراً وتشهد به سجلات المحاكم، وتقارير المسئولين عن الأمن فى كل زمان ومكان، وحسب هؤلاء الذين يستحلون أكل أموال الناس بالباطل قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ **وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا** ﴾.

وقد جرت سنة الله فى أمثال هؤلاء أنهم لا يكادون ينتفعون بهذه الأموال المحرمة، فإن انتفعوا بها كان انتفاعهم غالبًا مشوبًا بالكوارث والفواجع، أو فى الوجوه الفاسدة التى لا تعود عليهم إلا بالشر والضرر، وإن استمر لهم أن ينتفعوا بها مدة حياتهم فلا يستمر انتفاع أبنائهم الذين جمعوا لهم هذه الأموال. ومن هذا الجانب نرى أن النار التى توعدوا بها ليست خاصة بنار العذاب الأخروى فحسب، إنما هى أيضًا نار يصطلونها فى حياتهم، ويصطليها أبناؤهم بعد مماتهم، هى نارالفقر أو الذلة أو الأعوجاج أو الأمراض أو

الاحتقار بين الناس، أو سوء السمعة، وشواهد ذلك فى الحاضر والماضى كثيرة، وما من بيئة إلا وفيها أمثالها، فليعتبر بها أولو الألباب.

إشارة السورة إلى فكرة الضمان الاجتماعى:

ولا يفوت السورة - بعد أن وضعت ما وضعت فى جانب المال - أن تنبه إلى أن المحافظة على الأموال ليس معناها قبض اليد عن البر والإنفاق فى سبيل الله، وسد حاجة المعوزين والإحسان إليهم، فتأمر بأساس الفضائل التى تهذب النفس وهو عبادة الله والإخلاص له فى العبادة، كما تأمر بالإحسان فى معاملة الناس، وتخص بالذكر طوائف هى أجدر بالإحسان، والإحسان إليها إحسان إلى النفس وإلى الأسرة وإلى الإنسانية كلها. واقرأ فى ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ الآيات ٣٦-٣٩.

وهذه آيات يجدر بالمؤمنين أن يتفهموها، وأن يعرفوا مغزاها، وسيرون أنها تضع لهم أساس ما تعارفه الناس اليوم ولهجت به ألسنتهم طلبًا للتضامن وسبيلا للعزة القومية، وهو «الضمان الاجتماعى».

بناؤها ذلك على أساس الإيمان بالله وعبادته وحده:

فهى تضع أولا عبادة الله وحده أساسًا لهذا الضمان، وتجعل عدم الإشراك بالله عنوانًا صادقًا لإفراد الله بالعبادة، وعدم الإشراك به شيئًا، وذلك يحفز النفوس إلى الخوف من الله والرجوع إليه فى كل شىء فلا يتجه أحد إلا إليه، ولا يخشى إلا إياه، ولا يتلقى حكما أو تشريعًا إلا منه.

الوصية بالوالدين وسر العناية بهما:

ثم تذكر «الوالدين»، وقد جاءت الوصية بالإحسان إلى الوالدين فى أربع سور من القرآن الكريم: جاءت فى سورة البقرة تذكيراً بالميثاق الذى أخذه الله على بنى إسرائيل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾، وجاءت فى سورتنا هذه وفى الآية التى هى موضع الحديث: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾، وجاءت فى سورة الأنعام ضمن الوصايا العشر التى وردت فى كل دين: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾، وجاءت فى سورة الإسراء ضمن ما قضى به الله وشرعه من الوصايا العامة: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

ومما يجدر بنا التنبه له أن الإحسان فى هذه الآيات عدى بالباء، وتعديته بالباء - وهى تدل على معنى الإلصاق - يفيد أن المطلوب أن يتصل البر والإحسان بمن طلب له البر والإحسان دون انفصال ولا مسافة بينهما. وهذا فيه من الدلالة على تأكيد طلب الإحسان بالوالدين والعناية به ما ليس فى التعدية بكلمة «إلى» وليضم إلى هذا أن الأمر به جعل تاليًا للأمر بعبادة الله وحده. أو النهى عن الإشراك به، وفى هذا رفع أيما رفع لمقام الأبوة والأمومة.

وقد جاءت الوصية بهما فى سورة العنكبوت: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وفى سورة لقمان: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. وفى سورة الأحقاف: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ ١٥ ـ ١٨ ، وبالرجوع إلى آيات تلك السور نجدها تشير إلى السبب فى العناية بالوالدين ، وتنص على مدى طاعتهما ، وتنفرد سورة الأحقاف بتصوير صفحتين واضحتين، تمثل إحداهما خلق الولد البار الذى أدرك فضل الله عليه بالوالدين ، وتمثل الأخرى خلق الولد العاق الذى لم يسمع نصح والديه ، بل تأفف منهما وتضجر .

هذه عناية القرآن الكريم بشأن الوالدين ، ولعلنا ندرك أن العناية بالوالدين إلى هذا الحد لم تكن نظرًا لشخصهما فقط ، وما قاما به من تربية الولد ، وإنما كانت لأنهما عماد الأسرة ، ولابد فى تكوين الأمة تكوينًا قويًا صحيحًا من تكوين الأسرة تكوينًا قويًا صحيحًا ، يستظل فيه أفرادها بلواء العزة والسعادة ، ويمتد منها إلى القلوب والجيران وسائر حلقات الأمة ، وبذلك تمتد الفضيلة إلى الأمة كلها ، وما الأمة إلا مجموعة الأسر ، يعنيها ما يصيب الأسر ، إن شرًا فشر ، وإن خيرًا فخير .

ومما يحقق هذا أنه جاء فى آيتنا بعد طلب الإحسان إلى الوالدين ، طلب الإحسان إلى ذوى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب وابن السبيل . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل طلب من الإنسان الإحسان إلى ما يملكه ويتصرف فيه وينتفع به ، وبذلك طلبت الآية الرحمة والإحسان طلبًا عامًا شاملا ، حتى تظهر عاطفة الرحمة والإشفاق بين طوائف الناس ، بل طوائف الخلق جميعًا .

ولا ريب أن ذلك من أقوى الوسائل التى تكفل العزة والسيادة فى الأمة .

التقصير فى هذا شأن المختالين:

ثم تشير الآيات بعد ذلك إلى أن التقصير فى هذا الحق الاجتماعى شأن المختالين

الفخورين، وهم المتكبرون الذين يظهر أثر كبرهم فى عملهم، أو فيه وفى أقوالهم، ومثل هؤلاء لا يعترفون ـ لما فى قلوبهم من كبر عملى أو قولى ـ بحق للغير على أنفسهم، فهم لا يرون فى الحياة إلا أنفسهم، ومتعة أنفسهم، ولا يرون حقًا عليهم لغيرهم خالقًا كان أم مخلوقًا، وقد جعلهم الله صنفين من طبيعة كل منهما ألا يعترف لله بشكر على نعم، ولا للخلق بحق عليه ﴿ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ** ﴾ الآية: ﴿ **وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ** ﴾. فالبخيل يمنع الحق، والمرائى ينفق الحق نفسه فى جلب مظاهر الفخر الكاذب، وحسب هذين تسجيل القرآن الكريم عليهم أن قرينهم الذى أغراهم بهذا الموقف من الله ومن خلق الله هو الشيطان منبع الشر والمغرى بالفساد ﴿ **وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا** ﴾.

أداء الأمانات والحكم بالعدل:

وبعد أن تذكر السورة الإرشادات الحكيمة التى يجب على الأمة أن تتخذها أساسًا للحياة فيها. تذكر ما يجب أن يؤسس عليه شأن الجماعة الإسلامية، فتذكر أمرين لهما خطرهما فى حفظ حياة الأمم وسعادتها: أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل بين الناس.

وكأن السورة تشير بهذا إلى أن الانتفاع بالإرشادات المتقدمة فى الأسرة والأموال لا يتحقق إلا بالبناء على هذين الأمرين: «أداء الأمانة» و«العدل» فإن الأمانات كلمة عامة تشمل جميع الحقوق من مالية، وعلمية، وعملية. والحكم بالعدل هو القضاء بتلك الأمانات عند تعرضها للضياع، والحكم بالعدل يشمل ما كان عن طريق التولية، وما كان عن طريق التحكيم، ويشمل ما يكون بين المسلمين بعضهم وبضع، وما يكون بينهم وبين غيرهم. وقد كثرت فى القرآن آيات الحث على العدل حتى جاء فيه: ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ فالعمل شأن الله فى الخلق والتشريع، والجزاء. وعناصر العدل فى الحكم هى معرفة الحكم من مصدره التشريعى، ثم فهم الحادثة من جميع جوانبها، ثم تحرى انطباق الحكم على الحادثة، ولابد مع ذلك كله من التسوية بين الخصوم فى مجلس القضاء فى كل شىء حتى النظرة واللفتة.

مصادر التشريع فى الإسلام:

ثم بهذه المناسبة تذكر السورة مصادر التشريع التى يجب أن يرجع إليها المسلمون فى تصرفاتهم وأحكامهم، وهى:

أولاً: القرآن الكريم، والعمل به هو إطاعة الله.

ثانيًا: سنة الرسول قولية كانت أم فعلية، والعمل بها هو طاعة الرسول.

ثالثًا: رأى أهل الحل والعقد فى الأمة من العلماء وأرباب النظر فى المصالح العامة كالجيش، والزراعة، والصناعة، والتعليم، كل فى دائرة معرفته واختصاصه، والعمل به هو إطاعة أولى الأمر.

وهذه المصادر فى الرجوع إليها مرتبة على هذا النحو، فلا نرجع إلى السنة إلا بعد عدم العثور على الحكم فى القرآن، فنرجع إلى السنة حينئذ، إما لمعرفة الحكم الذى لم يرد فى القرآن، أو لبيان المراد مما ورد فى القرآن، ولا نلتجئ إلى رأى أولى الأمر إلا بعد عدم العثور على الحكم فى السنة، وعندئذ نرجع إليهم ليجتهدوا رأيهم، وهذا الاجتهاد هو عنصر «الشورى» الذى بنى عليه أمر المسلمين. ومتى حاز الاتفاق وجب العمل به، ولا يصح الخروج عنه ما دامت وجوه النظر التى أدت إليه قائمة، وهو أساس فكرة الإجماع فى الشريعة الإسلامية، وقد انتفع به المسلمون كثيرًا، واتسع نطاق الفقه الإسلامى، وبخاصة فيما ليس منصوصًا عليه فى كتاب الله وسنة الرسول، وهو يشمل إعطاء حكم لحادثة مثل حكم حادثة سابقة للاشتراك بينهما فى المعنى الموجب لذلك الحكم، وهذا هو المعروف فى لسان الفقهاء والأصوليين باسم «القياس» وقد بحثوه بحثًا مستفيضًا، بينوا فيه أركانه، وشرائطه، وعلته، وما ينقضه، وما لا ينقضه، وما يجرى فيه وما لا يجرى فيه، وقد تكفلت به كتب الأصول فليرجع إليها من شاء.

الاجتهاد من مصادر التشريع وبابه مفتوح أبدًا:

ويشمل أيضًا النظر فى تعريف حكم الحادثة عن طريق القواعد العامة، وروح التشريع التى عرفت من جزئيات الكتاب وتصرفات الرسول، وأخذت فى نظر الشريعة مكانة النصوص القطعية التى ترجع إليها فى تعرف الحكم للحوادث الجديدة، وهذا النوع هو

المعروف بالاجتهاد عن طريق الرأى وتقدير المصالح. وقد رفع الإسلام بهذا الوضع جماعة المسلمين عن أن يخضعوا فى أحكامهم وتصرفاتهم لغير الله، ومنحهم حق التفكير والنظر والترجيح واختيار الأصلح فى دائرة ما رسمه من الأصول التشريعية، فلم يترك العقل وراء الأهواء والرغبات، ولم يقيده فى كل شىء بمنصوص قد لا يتفق مع ما يجد من شئون الحياة، كما لم يلزم أهل أى عصر باجتهاد أهل عصر سابق دفعتهم اعتبارات خاصة إلى اختيار ما اختاروا.

وهنا نذكر بالأسف هذه الفكرة الخاطئة الظالمة التى ترى وقف الاجتهاد وإغلاق بابه، ونؤكد أن نعمة الله على المسلمين بفتح باب الاجتهاد لا يمكن أن تكون عرضة للزوال بكلمة قوم هالهم - أو هال من ينتمون إليهم من أرباب الحكم والسلطان - أن يكون فى الأمة من يرفع فيها لواء الحرية فى الرأى والتفكير؛ فالشريعة الإسلامية - رغم ما يقول هؤلاء - شريعة عامة خالدة صالحة لكل عصر، ولكل إقليم. وما على أهل العلم إلا أن يجدوا ويجتهدوا فى تحصيل الوسائل التى يكونوا بها أهلا للاجتهاد فى معرفة حكم الله الذى وكل معرفته - رأفة منه ورحمة - إلى عباده المؤمنين ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾. واقرأ فى هذا الموضوع كله قوله تعالى من السورة: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** ﴾ الآيتان ٥٨، ٥٩.

الاعتماد فى التشريع على غير هذه المصادر ينافى الإيمان:

وبهذا كان كل تشريع ليس مأخوذًا من كتاب الله ولا سنة الرسول، ولا من الرد إليهما عن طريق القواعد العامة تشريعًا باطلا يتبع الأهواء ولا يضمن صلاح الحياة، ولا رضاء الله، وهو لذلك لا يكون من شأن المؤمنين بالله ورسوله.

وقد أردفت هاتان الآيتان بذكر لون من ألوان التمرد على هذا الوضع التشريعى، فوصفت السورة قومًا يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إلى الرسول وإلى إخوانه السابقين، ومع هذا ينبذون فى أعمالهم وأحكامهم أن يعتمدوا على هذه المصادر التشريعية التى

حددها الله لعباده، ويسايرون فى أحكامهم وقوانينهم من لا يؤمنون بالله، ويتحاكمون إلى الطاغوت، فيحل لهم ويحرم ما شاء أن يحل ويحرم، وبذلك يعطلون حدود الله، فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل، بل يشتط بهم الهوى والانقياد للطاغوت فيسخرون من شرع الله، ويعتبرون الدعوة إليه رجعية لا تساير تقدم الحياة ولا حضارة الإنسان. ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴾ واقرأ فيهم قوله تعالى من السورة: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا** ﴾. وفى هذا السياق تبين الآيات أن التحاكم إلى ما أنزل الله وإلى ما قرره من المصادر التشريعية شرط فى صحة الإيمان بالله، وأنه لا نجاة لهؤلاء الذين يصدون عن رسول الله فى شأن ما أنزل عليه إلا بالتوبة والاستغفار والرجوع إليه مع إيمان وتسليم، ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾.

تمرد بعض ذوى الثقافات الأجنبية على الإسلام وتشريعه:

هذا اللون من ألوان التمرد على أحكام الله قد منى به المسلمون فى أولهم بالمنافقين، كما تحدثت عنه سورة النساء ومُنوا به فى آخرهم بأرباب الثقافات الأجنبية الذين غرهم بريق الطواغيت الأوربية، الكافرة بالله وبشرع الله، فرأوا أن تشريع تلك الطواغيت هو التشريع الملائم للعصور، المحقق للمصالح، المساير للحضارة، أما قطع يد السارق، أما جلد الزانى، أما تحريم الربا، أما حظر التجارة بالخمر والخنزير، وتحريم أكلهما والانتفاع بهما، أما تعدد الزوجات، ﴿ **لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ** ﴾ أما ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ** ﴾ أما ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ** ﴾ أما كل هذا وأمثاله مما وضعه الحكيم الخبير، العليم بطيات النفوس ودخائلها، وبما يصلحها وبما يفسدها، وهو الواقع الملموس. أما كل هذا فتشريع جاف صحراوى لا يلبى حاجة العصر ولا يتفق وحضارة الإنسان!!

نعم هو لا يتفق وهذه الميوعة الخلقية والاجتماعية. لا يتفق وهذا الذوبان والانحلال. أما كل ما يأتي به الغرب، وترمينا به تياراته الخبيثة، فإنه يتفق وهذا الضعف الذى أناخ بكلكله على المسلمين، وسلبهم الثقة بأنفسهم وقوميتهم، وجعلهم يؤمنون بباطل أعدائهم ويكفرون بالحق الذى أنزله الله واختاره، ولكن ﴿ **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً** ﴾، ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾.

لون آخر من التمرد بمحاولة تضليل الحكام عن الحق:

هذا، وقد أرشدتنا السورة إلى لون آخر من ألوان التمرد على أحكام الله، مُنى به المسلمون كذلك فى آخرهم كما مُنوا به فى أولهم، ويرجع هذا اللون إلى استخدام القوى والمواهب والتدبير لإظهار الحق فى صورة الباطل، والباطل فى صورة الحق، خديعة للحاكم وتضليلا للقضاء. عرضت السورة إلى هؤلاء الذين يتخذون هذا اللون من التمرد سبيلا لتبرئة نفوسهم وهم الجناة، وإدانة غيرهم من البرآء، وهم المدينون، أو سبيلا إلى كسب خبيث يحصلون عليه من الدفاع والمحاولة بالباطل ليخفوا به الحق، عرضت السورة لهذا الفريق من الناس وحذرت الرسول أن يخدع بأساليبهم، أو يتهاون فى تحرى الحق اعتماداً على ظن الصدق فيهم، وعلى ظاهر حالهم فى دعوى الإيمان والخوف من الله، وقد جاء ذلك فى جملة من الآيات نزلت فى حادثة حاول فيها أهل الجانى أن يصرفوا عنه الجناية وأن يرموا بها بريئًا من اليهود، واتخذوا التدبير السيئ وطرق الخداع سبيلا لصرف الرسول عن الحق. وتتلخص هذه الحادثة فى أن رجلا من ضعفاء المسلمين بالمدينة - يقال له «طعمة» - سرق درعًا من جاره ثم خبأها عند يهودى، فالتمست الدرع عن «طعمة» فلم توجد، وحلف: ما أخذها وما له بها علم، ثم وجدت عند اليهودى فقال اليهودى: دفعها إلى طعمة واستحفظنى عليها، وشهد له بذلك ناس من اليهود، فاهتم لذلك قوم «طعمة» وأخذوا يتناجون فيما بينهم فى طريقة تبرئته وإلصاق السرقة باليهودى، وبيتوا فى ذلك ما بيتوا، ثم انطلقوا إلى الرسول، وأخذوا يثيرون نفسه بأن هذه التهمة من كيد اليهودية للإسلام، وأنهم ما يعلمون عن صاحبهم «طعمة» إلا خيراً، وشهدوا أمام الرسول ببراءته وسرقة اليهودى، وسألوا الرسول أن يجادل عنه وأكثروا عليه فى هذا الشأن، فبادر

الوحى بهذه الآية: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ الآيات ١٠٥ - ١١٣.

القضاء لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً:

هذا، وقد صح أن النبى - ﷺ - كان ذات يوم فى حجرة زوجه أم سلمة، فسمع ببابها نزاعًا ارتفعت فيه الأصوات، وعلا بعضها على بعض، فخرج إليهم فإذا هم خصوم يتنازعون حقوقًا بينهم، وقد جاءوا إليه - ﷺ - ليفصل بينهم فيها، فابتدرهم بقوله: «إنما أنا بشر، وإنه يأتينى الخصم، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها».

ويدل هذا الحديث مع إشارة الآيات السابقة على أن القضاء لا يحل حراما ولا يحرم حلالا، وأنه يجب على من صدر له حكم عن طريق التزوير والاحتيال أن يراجع نفسه، وأن يتحلل من ذلك الإثم برد الحق إلى صاحبه.

من واجب القاضى بذل النصح بين الخصوم:

كما يدل على أن مهمة القاضى ليست قاصرة على استماع البينات وإصدار الأحكام،

وإنما تتناول قبل ذلك أن يمحض المتنازعين النصح، وأن يرشدهم إلى عاقبة التضليل والاحتيال رجاء أن يوفروا على أنفسهم أسباب الخصومة الدائمة، كما يوفروا على أنفسهم النفقات الطائلة التى يبذلونها فى سبيل التمويه والخداع، وبخاصة فى سبيل استئجار الذين لا عهد لهم ولا إيمان «الشهود المزورين».

عبر وأحكام:

ونحب أن نقف بدارس القرآن عند هذه الآيات ١٠٥ - ١١٣ من سورة النساء لنضع بين يديه ما ترشد إليه أو تدل عليه من عبر وأحكام. ويتلخص ما يهمنا من ذلك فيما يأتى:

على الولاة أن يتحروا الحق والعدل:

أولاً: تنبه الآيات إلى أن المهمة التى ألقاها الله على عاتق الرسول - ﷺ - بإنزال الكتاب عليه، وبالطبع هى المهمة التى ألقيت على خلفائه من بعده - خلفاء وقضاة - هى تحرى العدالة والحكم بين الناس بالحق الذى لا يجافى الواقع ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** ﴾.

تحذيرهم من محاولات التلبيس:

ثانيًا: تحذر الآيات من التأثر بمحاولات الخصوم فى تلبيس الحق وإخفائه، وبخاصة بما يدلون به إلى الحاكم من وجوه الخصومة المزيفة دون أن يمحصها الحاكم ويعرف واقعها الذى تتحقق به العدالة المطلوبة من الله بين الناس ﴿ **وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا** ﴾.

تساهل الحاكم لا يعفى المحكوم:

ثالثًا: تلفت الآيات الأنظار إلى أن التساهل فى تمحيص الأدلة والاندفاع مع تيار الخصوم الخائنين والجدال عنهم وهم يخاصمون بالباطل، وينسجون التمويه على الحق، كل ذلك لا يغنى عنهم من الله شيئًا، ولا ينجيهم فى الآخرة من العذاب الأليم ﴿ **هَا أَنتُمْ**

هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾.

لا إثم على حاكم أخطأ معذوراً:

رابعًا: تشير الآيات إلى أن مثل هذه المحاولات، التى يقصد بها صرف الحاكم عن الحكم بالحق، لا يصيب الحاكم شيء من إثمها متى أخذ نفسه بحدود الشرع والقانون فى تمحيص ما يسمع من وجوه الإثبات والنفى، ثم حكم بمقتضاها ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾.

إنما الآثم من اكتسبه:

خامسًا: تصرح الآيات بأن عاقبة الذنوب وآثارها السيئة إنما تنزل وتحيق بمن اكتسبها وباشرها دون من ألصقت به وحكم بها عليه ظلمًا وزوراً وإن إثمها ليتضاعف على صاحبها إذا رمى بها بريئًا، وانتحل فى خصومته الأكاذيب والزور حتى ضلل بها الحاكم وأوقعه فى الخطأ وهو يريد الصواب، وفى الباطل وهو يريد الحق ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

الحاكم العادل فى كنف الله:

سادسًا: تشير الآيات إلى أن الحاكم الذى يجرد نفسه من الميل إلى أحد الخصوم ويجعل منها قاضيًا عادلا، يكون من الله فى كنف يحفظه ويرعاه ويعصمه من التأثر بخداع المبطلين ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾.

بعض القضاء ينفذ ظاهراً لا باطنًا:

سابعًا: تعطى الآيات ما قرره الفقهاء من أن حكم الحاكمين بشهادة الزور لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالاً، وهو معنى قولهم: «إنه لا ينفذ باطنًا وإن نفذ ظاهرًا» ذلك أن الحاكم إنما كلف الحكم بناء على ما يسمعه ويصل إليه من وجوه الإثبات

والدفاع، ولم يكلف الحكم بالواقع الذى لم يعرفه عن طرق الإثبات الواضحة المضبوطة، وأن الحكم متى صدر من الحاكم مبنيًا على شرطه المقدور له وجب احترامه حفظًا للنظام العام. ومن هنا وجب القول بنفاذه ظاهرًا: ولكنه مع ذلك لا يستتبع تغيير الواقع ولا قلب الحقيقة التى يعلمها الله فى شأن الدعوى، وهذه الحقيقة هى مناط الحل والحرمة والثواب والعقاب عند الله. والمدعى المحكوم له زورًا هو الذى يعلمها دون غيره، ومن هنا كانت مؤاخذته الأخروية، ووجب عليه الكف عما يعلم أنه ليس له بحق، ولزم القول بعدم نفاذ الحكم باطنًا، وهذا وجه من النظر والتوجيه يدل على أن الحكم بشهادة الزور ينفذ ظاهرًا لا باطنًا كما قال الفقهاء فى كل ما يدعى به من ملك أو عقد أو عمل.

رأى أبى حنيفة فى ذلك:

ولم يخالف فى ذلك أحد منهم غير أبى حنيفة الذى رأى - كما نقل فى كتب الحنفية - أن حكم الحاكم بشهادة الزور فى دعوى ما يمكن للقاضى إنشاؤه، كالعقود والفسوخ ينفذ ظاهرًا وباطنًا، وترتب على ذلك عنده أن كان للمرأة التى ادعت الزواج برجل وأقامت عليه بينة الزور حق المطالبة بالقسم والوطء والنفقة، وحل لها فيما بينها وبين الله أن تمكن ذلك الرجل من نفسها، كما حل له أن يتمكن منها، والمسألة مشهورة عند الفقهاء، وقد بسطت بوجوهها وفروعها وأدلتها فى كتب الفقه فليرجع إليها من شاء.

الإسلام لا يعرف تفريقًا فى العدل:

ثامنًا: تدل الآيات دلالة واضحة قوية على أن الإسلام يقرر فى أول مهمته وجوب العدالة بين الناس جميعًا، وأنه لا يحابى فيها مسلمًا لإسلامه ولا شريفًا لشرفه، فالشريف والوضيع، والغنى والفقير، والمسلم وغير المسلم، كل هؤلاء فى نظر الإسلام سواء أمام الحكم والقضاء. وقد حث الله على العدل مع أشد الناس عداوة للمسلمين، وفى أشد أوقات الخصومة والحرب ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا** ﴾ وحذر المحاباة كيفما كانت ولمن تكون ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾.

ولعل عيون هؤلاء الذين يرمون الإسلام بالتعصب ـ وهم فى الوقت نفسه يتخذون الاعتداء على الأبرياء دينًا به يحاربون ـ لعل عيونهم تتفتح على أمثال هذه الآيات من القرآن الكريم، التى تقضى بالمساواة والعدل بين الناس جميعًا، وأن الإسلام لم تكن مهمته إلا إقرار العدل والأمن والسلام بين الناس فى هذه الحياة، ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾.

ولعل آذان هؤلاء الآخرين الذين ينتمون إلى الإسلام وهم فى الوقت نفسه يتخذون أساليب الحيل والخداع طريقًا لصرف القضاة العادلين عن جهة الحق وموطن العدل، لعل آذانهم تصغى إلى هذه التحذيرات الشديدة التى تضعهم فى صفوف الخائنين الآثمين ﴿ **وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا** ﴾ ﴿ **وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا** ﴾:

درس اجتماعى قرآنى:

هذا، ومن سنة القرآن الكريم أنه إذا ذكر حادثة أو قصة انتهزها فرصة وقفى عليها بما يرشد الناس إلى المبادئ التى يجب أن يتنبهوا إليها وينتفعوا بمغزاها، كى يحفظوا أنفسهم من الشرور النفسية والاجتماعية التى تضمنتها القصة أو أشارت إليها، وعلى هذه السنة جاء بعد قصة السرقة المتقدمة قوله تعالى: ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾.

تضمنت حادثة السرقة التى أشارت إليها الآيات المتقدمة: أن أهل «طعمة» أخذوا يبيتون طرق الكيد للحق صرفًا للنبى عن الحكم بالسرقة على صاحبهم ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ** ﴾ كما تضمنت محاولة الخروج عن العدل الذى قرره الله بين الناس، وهم يعلمون طريق الهدى والحق.

ثم جاءت هاتان الآيتان فى هذا السياق تبينان حكم التناجى، خيره وشره، وحكم من يعرض عن الهدى بعد أن تبين له. وتناولت الآية الأولى منهما شأن التناجى بين الناس

فيما يتصل بغيرهم، وقد اشتملت الآية على أجزاء يجدر بنا أن نفرد كل جزء منها بالقول والبيان.

التناجى بالإثم والعدوان:

الجزء الأول: قوله تعالى: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ﴾ وهذا الجزء يقرر أن أكثر ما يتناجى به الناس فيما يتصل بغيرهم شر لا خير فيه، ذلك بأن النفوس مجبولة على إظهار الخير والتحدث به فى الملأ والعلانية، ومجبولة على محبة إخفاء الشر وكتمانه، وقلما يكتم الناس حديثًا يتعلق بغيرهم ويكون خيراً كله، وقلما يذيعون حديثًا يتعلق بغيرهم ويكون شرًا كله. شأن جبل عليه الناس. ولننظر فيما نعرفه من شئون المجتمع وطوائفه، فهذه الأحزاب السياسية تتناجى فى تدبير المكايد والتهم الباطلة، والتشهير ووضع العقبات، وألوان الأراجيف. وهؤلاء الرؤساء يدبرون الكيد والإيذاء لمن يعتقدون أنهم ينافسونهم أو يقفون أمام أهوائهم ورغباتهم الجامحة، أو يظنون أنهم ليسوا معهم فى الرغبات والشهوات، ولو كان هؤلاء المرءوسون غاية فى الاستقامة والحرص على الواجب ومحبة وصول الحق إلى أهله، ومحبة وصول الرؤساء إلى الأهداف الحقة لأعمالهم التى لها يديرون وعليها يشرفون، وهؤلاء الماجنون من الفتيان والفتيات والمترفين يتناجون فى تهيئة السبل لإشباع نهمهم فى الليالى الساهرة الخليعة التى تذهب فيها العقول وتضيع فيها الأموال، وتخدش فيها الأعراض وتتناثر على أرضها السوداء حبات الشرف البيضاء بالدعارة والاختلاط الفاضح.

هذه وأمثالها هى الشأن الكثير فيما يتناجى به الناس مما يتصل بشئون بعضهم وبعض، تلبية للرغبات الفاسدة والشهوات الجامحة، والله سبحانه يقرر هذه الحقيقة ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ﴾ ويلفت الناس إليهم بنفى الخير عنها ليعرفوا ما لها من آثار سيئة، ويحذروا عواقبها الوخيمة، وهو كما قلنا ينتهز فى تقرير تلك الحقيقة على هذا النحو قصة المتآمرين على إخفاء الحق فى حادثة السرقة التى دار فيها الاتهام بين مسلم ويهودى، وأراد عصبة المسلم أن يعملوا على إلصاقه باليهود وتناجوا بينهم فى ذلك، اتخذت هذه الحادثة وهذا التدبير أساسًا لتقرير تلك الحقيقة حتى تعرف آثارها أخذًا من حادث مادى معاين.

التناجى بالخير والإصلاح:

الجزء الثانى من الآية: هو الاستثناء من عموم الجزء الأول وهو قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ يستثنى الله من هذا الحكم العام فى التناجى أموراً ثلاثة مما يجرى فيه التناجى ويكون متعلقًا بغير المتناجين، ويقرر أن التناجى فيها خير لا شر فيه، وهذه الأمور الثلاثة هى جماع الخير المتعلق بشئون الناس لا يكاد يشذ عنها شىء منه:

أولها: التناجى فى شأن الصدقات، والصدقة وإن كانت ترد فى لسان الشرع عامة شاملة للتصدق بالمال ولأنواع أخرى من البر والخير، كإماطة الأذى، وإغاثة الملهوف، والسعى على المعاش، ونحو ذلك، إلا أنها هنا أريد بها خصوص الصدقة المالية التى يدبرها أهل الخير فيما بينهم ويتناجون فى اكتتابهم، ثم يدفعونها لذوى الحاجات سداً لعوزهم وقضاء لحاجتهم، فالآية تقرر أن التناجى فيها خير، وذلك لأن الجهر بها قد يكون فيه إيذاء للمتصدق عليه وكشف لحالة كان الأولى أن تظل خفية مستورة.

وثانيها: التناجى فى الأمر بالمعروف فإنه خير لا شر فيه، وقد يكون فى إظهاره شر وأى شر: يكون فيه إيذاء لمن يؤمر به، وإحراج قد يدفعه إلى العناد فيستمر على ترك المعروف، وإنا لنعلم من طبائع النفوس النفرة من سماع النصيحة العلنية، لما فيها من التشهير بالمنصوح والظهور بمظهر الاستعلاء عليه، والنقد له.

وثالثها: الإصلاح بين الناس، فالتناجى به خير وأى خير، فيه ضمان الوصول إلى الوفاق وقطع الشقاق، وقد يكون فى إظهاره، وإظهار ما يتخذ له من وسائل، شر يحول دون تمام المقصود.

و«المعروف» كلمة عامة تشمل كل ما تتقبله العقول ويرضاه الشرع والدين، فهو يشمل ما ذكر قبله من الأمر بالصدقة، وما ذكر بعده من الأمر بالإصلاح بين الناس، ولكن الله سبحانه أبرز هذين النوعين: «الأمر بالصدقة والأمر بالإصلاح» بعبارة خاصة، لما لهما من الآثار العظيمة فى حياة الأمة؛ فسد حاجة الفقراء من أكبر ما يبعد الأمة عن شرور الفقر وآثامه، ومن أكبر ما يطهر الأمة من النزعات الضارة والأفكار الهدامة. والإصلاح بين الناس من أكبر دعائم السلم والأمن، ومن أبرز أسس التعاون على البر والتقوى، وعلى الجملة فالصدقة تمثل النفع المادى، والأمر بالمعروف يمثل النفع الروحى، والإصلاح بين

الناس يمثل دفع الشر عن الأفراد والجماعات، وبذلك كانت الثلاثة كما قلنا جماع الخير كله ولا يفوتنا أن نلفت الأنظار إلى ذكر الإصلاح بين (الناس) عامًا هكذا بعنوان الإنسانية، وأن الإسلام بذلك لم يفرق فيه بين كافر ومؤمن، كما لم ينظر فيه إلى دين أو جنس أو وطن، لأن الجميع عند الله فى معنى الإنسانية وحقوقها سواء، فالدول المتحاربة، والقبائل المتعادية، والأحزاب المختلفة، والفرق المتنافسة، والأفراد المتشاكسة، كل هؤلاء يطلب الله الإصلاح بينهم ويراه خيرًا عظيمًا، فالله هو السلام ويحب السلام ويدعو إلى السلام، ويأمر أن يكون الناس جميعًا متآلفين، تربط بينهم صلات التعاون والمعرفة والمحبة، ويكره أن يفرقهم التناكر والتخاذل والبغى ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾.

وكما أمر به هكذا عاما عنى به خاصًا فى الأسرة بين الرجل وزوجه ووضع فى ذلك هذا المبدأ القيم الذى يستل كل سبب من أسباب النزاع ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا** ﴾ وكذلك عنى به خاصًا بين جماعات المؤمنين، وأشار باتخاذ التحكيم أساسًا بين الطائفتين المختلفتين ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾.

فهذا هو موقف الإسلام من الصلح بين المتخاصمين أفرادًا وأسرًا، أو جماعات وأممًا. ولو أن الناس صدقوا فى إصلاحهم بين الناس ونزلوا على العدل فى ذلك لما سخر الوجود من هذه المنشآت الدولية التى أقامها أرباب البغى والعدوان باسم الإصلاح بين الناس والسلام، ثم لا تراها إلا مثيرة لعوامل الحروب والتدمير والتخريب.

هذا هو حكم التناجى خيره وشره فى نظر القرآن، وقد جاء النهى صريحًا فى غير هذه الآية عن التناجى بالآثام والشرور، وأرشد القرآن إلى أنه من وسوسة الشيطان، وأباح التناجى بما فيه خير ونفع للأفراد والجماعات على نحو ما ذكرت الآية التى نحن بصدد تفسيرها ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ**

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ويشير بقوله: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ إلى ما كان يقوم به المنافقون، وذكره قبل ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ وهذا نوع من التناجى الذى جاءت لأجله آيتنا الكريمة، والكل يرمى إلى النهى عن هذا الخلق الذى يصطنعه بعض الناس سبيلا للإفساد فى الجماعات والأسر والأفراد، ويضع الحد الفاصل بين النجوى الآثمة التى يمقتها الله ولا يرضاها، والنجوى التى يحبها ويدعو إليها.

ويذكرنا هذا الموضوع بذلكم الأدب الكريم الذى يضعه الرسول - ﷺ - فيما يتصل بالنجوى الصالحة حتى تكون خيراً كلها. يقول عليه الصلاة والسلام: «إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث»، أو «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى يختلطوا بالناس، أجل أن ذلك يحزنه». وكثيراً ما يظن أنهما ينهشان عرضه أو يتحدثان فى شأنه بما يكره، فإبقاء على المودة والألفة حرم الرسول - ﷺ - التناجى ولو بخير فى حضرة ثالث معزول عن الحديث. وفى حكم التناجى مع حضرة الثالث، التحدث بلغة أجنبية لا يعرفها، فالحكم هو الحكم، والإثم هو الإثم.

أساس الفضيلة ترسم أوامر الله ابتغاء مرضاته:

أما الجزء الثالث من الآية: فهو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

والإشارة فيه إلى أن الأمر بهذه الثلاثة المذكورة فى الاستثناء السابق، وهى الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس، وإذا كان هذا جزاء الآمر بها، المرشد إليها، فكيف بمن يفعلها خالصة بها نيته، مبتغيًا بها مرضاة ربه؟ ويصح أن تكون الإشارة لنفس هذه الأمور الثلاثة، ويكون قد مهد ببيان فضل الأمر بها لبيان فضلها فى ذاتها، وقد رتبت الآية هذا الأجر العظيم على فعل ذلك بشرط أن يكون قد فعل ابتغاء مرضاة الله، ومن البين أن

التماس مرضاة الله بفعل إحداها يستدعى أن يكون الفاعل معتقداً أن الله أمر بها، وأن فعلها يرضيه، وأنه لم يقصد بفعلها شيئًا سوى مرضاة الله، فيكون الفاعل لها باعتبارها أمرًا من أوامر الله مظهرًا لرحمة الله بعباده وحكمته فى تشريعه وأوامره، وبذلك تتجرد نفسه فى فعل الخير عن الحظوظ النفسية، وتتجه إلى الحظ الأسمى الذى يتعلق بالدائم الباقى، الذى لا ينقطع مدده، ولا يخبو نوره، فيتركز حب الخير فى النفس على وجه الثبات والاستقرار، وافقته شهوته أم خالفته، اقترن به مدح الناس أم لم يقترن، عندئذ يستحق ذلك الجزاء الذى وصفه العظيم بأنه عظيم، أما من يفعل هذه الأمور على غير هذا الوجه، بأن التمس بها سمعة يكتسبها، أو جاهًا يناله، فإنه لا ثبات للخير فى نفسه إلا بقدر ما ينال من سمعة أو جاه، وهو مع ذلك قد حول وجهته فى فعل الخير عن مصدر الخير، والآمر بالخير، ولم يربطه به رباط الرحمة والحكمة والإيمان، ومن قطع صلته بالله فى أفعاله قطع الله صلته به فى رحمته وثوابه، ووكله إلى ما وصل به نفسه، وتعلق بأذياله، ومن هنا يتضح جليًا سر نفى الإيمان عن المرائين بأفعال الخير، الذين يبتغون السمعة عند الناس جزاء لما يظهرون به من فعل الخير، كما يتضح السر فى أن الرياء يحبط ثواب الأعمال عند الله، وفى أنه لا يدل على تأصل الخلق الكريم فى نفس الفاعل، وفى أن الرياء قد جعله القرآن من علامات التكذيب بيوم الدين ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ** ﴾. ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾.

هذا هو الأساس فى فهم الفضيلة: ترسم أوامر الله، وتنفذها ابتغاء مرضاة الله، ومن هنا جاهد المؤمنون بالله فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وأهليهم وعشيرتهم، وكان ذلك فى نظرهم الحياة الخالدة، والغنى الدائم، والسعادة الأبدية.

«إرضاء الضمير» مقياس غير منضبط:

وهناك فريق من الناس يرون أن أساس الفضيلة هو تلبية الضمير فيما يعتقدونه خيراً

للمجتمع، ويرون أن هذا كاف فى سعادة الإنسان، وأن الضمير كفيل بتقدير الخير ومعرفته دون رجوع إلى الله وما يرسم لعباده من شرع وخلق، وأنهم بهذا ليسوا فى حاجة إلى الوحى، وأن الوحى إذا كان فإنما يحتاج إليه لإرشاد من ليسوا من أرباب الضمائر الحية المتيقظة. وقد فات هؤلاء أن فهم ما ينفع الهيئة الاجتماعية وما لا ينفعها كثيراً ما تختلف فيه الأنظار والآراء، وقلما نجد فى تاريخ هذه النظرية قديمه وحديثه اتفاقًا على نفع جزئية معينة، أو ضرر جزئية معينة، وفاتهم أيضًا أن النظر الواحد، أو الضمير الواحد كما يعبرون، كثيراً ما يتغير فى معرفة الخير والفضيلة. وقد عدل كثير من الفلاسفة عن آرائهم الأولى، واستحدثوا آراء أخرى جديدة، ولهذا تعترك فى عصرنا الحاضر المذاهب الاجتماعية من ديمقراطية وفاشية ونازية وشيوعية واشتراكية، بل يتنازع أرباب المذهب الواحد، بل يتناقض الفرد الواحد مع نفسه ورأيه فى وقتين مختلفين، وكل هؤلاء يتحاكمون إلى الضمير، أو يتحاكمون إلى الإدراك البشرى فى معرفة الفضيلة، وهو تحاكم - كما نرى - إلى أساس غير ثابت ولا منضبط ولا مأمون العاقبة، وهو فى الوقت ذاته سير بالنفس وبالعالم فى طريق محفوفة بالمخاطر تهدد العالم فى أمنه واستقراره، وتشعل فيما بين جوانبه نار الحروب والتدمير، ولا سبيل إلى الاستقرار فى هذا العالم وسلامته من أثر الآراء المشتجرة إلا بالرجوع إلى أساس ثابت منضبط صادر عن عليم بطيات النفوس، ونزعات البشرية، يبصرهم ذلك الأساس بالخير والفضيلة التى ارتسمت فى لوح الوجود الحق الذى لا يكتنهه إلا خالق الوجود ومدبر الكون على ما يعلم فيه من سنن وشئون، وليس ذلك المبصر إلا وحى العليم الحكيم ﴿ **إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾.

مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين:

جاءت بعد ذلك الآية الثانية، وقد وضح مما قبلها أن الحكم بالحق هو الثمرة التى أراها الله للناس من إنزال الكتاب، وأن الذين يحاولون طمس الحق خائنون لأنفسهم ولإيمانهم، وأن التناجى بهذه المحاولة شر لا خير فيه، وأن التناجى إنما يكون خيراً إذا كان فيما ينفع الناس ويصلح شئونهم، وأن ما ينفع الناس ويصلح الشئون لا يستحق صاحبه الأجر والمثوبة إلا إذا فعله على وجه يركز الفضيلة فى نفسه ويربطه بالمبدأ الدائم الذى لا يفنى ولا يتغير، فيستمر خيره ولا ينقطع مدده، ولا يكون ذلك إلا إذا قصد به ابتغاء

مرضاة الله، وكان من الطبيعي بعد هذا البيان أن يبين حكم من يشاق الرسول في شيء من هذا، فلا يفعل الخير، أو يفعله على غير هذا الوجه، ويتبع في عمله وسلوكه غير سبيل المؤمنين، ذلك هو ما تكفل به قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾.

والمشاقة: المعاداة، وهي كالمحادة، ومنه قوله تعالى في وصف الكافرين: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾. وقوله ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ** ﴾ وأصله: أن يكون المرء في شق غير شق صاحبه، والمعنى يرجع إلى الخروج عما رسم الله لرسوله والمؤمنين، واتخاذ طريق آخر لا يلاقي أو لا يحقق الخير الذي يريده الله لعباده عن طريق ما رسم.

وتبين الهدى: ظهوره واتضاحه بالبرهان والدليل، وسبيل المؤمنين هو ما بينه الله في تلك الآيات السابقة وفي سائر القرآن من معرفة الحق والعمل على مقتضاه، ونفع الناس به، وهو الصراط المستقيم الذي يجمع بين علم الحق والعمل بالحق. والذي لفت الله أنظار المؤمنين إلى الدعاء به والتماسه منه سبحانه ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ وهو سبيل الله الذي أمر الرسول بالدعوة إليه وأمره أن يضيفه إلى نفسه ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾، ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾. وسبيل الله الذي هو سبيل المؤمنين هو ما توعد الله بالعذاب الشديد من صد عنه، ﴿ **أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ وصرح كثيراً بأن الصد عنه شأن المشركين وشأن كثير من الأحبار والرهبان وشأن المنافقين ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً** ﴾ وهكذا تجد آيات القرآن تحدد سبيل الله الذي هو سبيل المؤمنين.

ومن حمل الآيات على غير وجهها، ومن تفسير القرآن بغير ما يدل عليه القرآن أن يفسر سبيل المؤمنين في هذه الآية بالإجماع الذي يعده الأصوليون أحد أدلة الأحكام الشرعية العملية ويعرفونه بأنه: اتفاق مجتهدي هذه الأمة بعد وفاة نبيها على حكم شرعي

فى أى عصر، فسبيل المؤمنين أمر مقرر من مبدأ الوحى والرسالة، وهو كتاب الله وسنة رسوله، ومن هنا يتبين أن الاشتغال ببيان وجوه دلالة هذه الآية على حجية هذا الإجماع صرف للآية عن موضوعها والغرض منها، واشتغال بما لايجدى شيئًا فيما سيقت له أو تدل عليه، على أنه مع كثرة ما انتحلوا من وجوه دلالتها على هذا الإجماع قد عادوا فنقضوا ما انتحلوا، ثم عادوا فأجابوا عما به نقضوا، وانساقوا فى سبيل الجدل الذى لا يقف عند حد، ولا ينتهى عند رأى، وكان الأولى بهم أن يلتمسوا ما يريدون من غير هذا الوادى، وأن يتركوا هذه الآية تعمل عملها فيما رسم الله لها من دائرة.

بعض الشعوب النائية من غير المسلمين لا ينالهم الوعيد فى هذه الآية:

والآية بعد ذلك صريحة فى أن الوعيد المذكور فيها هو لمن يشاق الرسول ويبارزه بالمناوأة والمعاداة بعد أن يتضح الحق له ويظهر بدلائله البينة فيعرض عنه عنادًا واستكبارًا، أو اتباعًا لشهوة أو جاه زائل، أو خوفًا من لوم الناس وتعنيفهم. وهذا يقتضى أن تكون دعوة الحق قد بلغته على وجهها الصحيح دون تحريف ولا تشويه، ووصل بنظره فيها وفيما أقيم عليها من أدلة إلى إدراك حقيقتها، ثم انسلخ منها وأعرض، فمن لم تبلغه الدعوة أصلا، أو بلغته مشوهة ولم يتهيأ له سبيل النظر فيها عن طريق مظهر جميل يغريه بها وبالنظر فيها، أو بلغته على وجهها الصحيح ونظر، وظل ينظر طول حياته ابتغاء الوصول إلى الحق، ولكنه مات ولم يتبين له الحق - كل أولئك لا ينالهم فى حكم الله، هذا الوعيد المذكور فى قوله: ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾.

هذا هو ما يفهم من الآية، وهو واضح أن الشعوب النائية التى لم تصل إليها دعوة الإسلام، أو لم يصور لهم الإسلام إلا تصويرًا سيئًا منفرًا، أو لم يفقهوا حجته مع اجتهادهم فى بحثها وتجرد أنفسهم لمعرفة حقيتها، هم جميعًا بمنجاة من هذا العقاب وليسوا عند الله كفارًا يخلدون فى النار. نعم هم فى أحكام هذه الدنيا ليسوا بمسلمين لأن إجراء الأحكام الإسلامية فى الدنيا مشروط بالنطق بالشهادتين وتصديق الرسول فيما جاء به عن ربه، فلنا أن نقف بهم عند هذا الظاهر ونحكم بأنهم غير مسلمين، فلا تجرى عليهم أحكام المسلمين، ولا نحكم بأنهم كفار عند الله، فلا يلزمنا أن نعتقد خلودهم فى النار.
يقول بعض الناس: إن هذا استدلال بدلالة المفهوم ولا يعتد بها عند كثير من العلماء، وإن من يعتد بها يراها ظنية لا تفيد القطع فيما يحتاج إلى القطع، ولكنا نرى أن هذا تحكيم

لقواعد اصطلاحية فى فهم كلام الله الغنى بذاته عن القواعد، الواضح فى دلالته على اعتبار ما يذكر من شروط وقيود، ولو صح هذا لأهملنا فى الآية الأولى بحكم هذه القواعد قيد ﴿ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ وجوزنا أن من يفعل شيئًا مما ذكر، وليس مبتغيًا الله بفعله مرضاة، ينال الأجر العظيم الذى ذكره الله.

نعم يرى بعض العلماء أن الكفر بالله وحده لا عذر لأحد فيه، وذلك لوضوح الأدلة الشاهدة بوجوده ووحدانيته، ولأنه مركوز فى الطباع، وربما استدل هذا البعض بإطلاق مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾. والذى نفهمه من هذه الآية ونحوها أنه من الجائز أن تكون مطلقة غير مقيدة، لأن الهدى فى الاعتراف بالإله بين ظاهر لكل من عنده عقل وإدراك بلغته دعوة أم لم تبلغه، أعمل فكره فى الأدلة أم لم يعمله، وبذلك يكون منكر الألوهية ممن يصدق عليه أنه شاق الرسول بعد تبين الهدى، وقد تكون مقيدة بالشرك الذى هو عناد وتكبر لا عن خفاء فى الأدلة إن صح أن تخفى أدلة الربوبية، ولعلك تجد فى كثير من الآيات دلالة على هذا التقييد ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾.

وعلى كل فالمناط هو الإعراض عن الهدى بعد تبينه ووضوحه، فمتى وجد استتبع الجزاء المذكور، وإذا لم يوجد كنت فى حل من الحكم بنفيه.

فصل الخطاب فى مسألة الجبر والاختيار

أما قوله تعالى: ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ﴾ فقد رأى بعض الناس أنه يقرر دفع الله للعبيد فى طريق الشر، أو أنه جزاء لمن يدفع نفسه فى طريق الشر، ينزله الله به فى الدنيا كإصلائه جهنم فى الآخرة، والمعنى على هذا الأخير أن الله يعاقب على المشاقة بعقوبتين:

إحداهما: دنيوية، وهى زجه فى مهاوى الشر والضلال، ودفعه دفعًا، جزاء ما فتح على نفسه من أبواب الضلال، وبهذا يفسرون نحو قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ من الآيات التى تدل بظاهرها على أن الله يضل من ضل جزاء ضلاله.

والثانية: عقوبة أخروية وهى إصلاؤه جهنم.

ولست على أحد هذين الرأيين، فالله لا يضل عبده ابتداء، ولا يزجه فى الضلال جزاء ضلاله، والرأى أن الله خلق الناس وخلق فيهم القدرة الصالحة لفعل الخير وفعل الشر ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾. ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ثم بعث الله الرسل ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ ثم ترك كل امرئ وما يختار لنفسه، لا يحمل أحدًا بقوة خارجة عنه على خير، ولا يدفعه إلى شر، ولو شاء لهدى الناس جميعًا، وجعل الخير وحده من طبيعتهم. ولكنه شاء أن يخلقهم كذلك لينظر أيشكرون أم يكفرون؟ وهو ييسر اليسرى لصاحب اليسرى، يتركه فيها ولا يحول بينه وبينها، وييسر العسرى لصاحب العسرى يتركه فيها ولا يحول بينه وبينها، وهذا هو السبيل الذى تحمل عليه كل الآيات التى وردت فى هذا الموضوع، وعليه فليست تولية الله - لمن يشاق الرسول - ما تولى، الواردة فى الآية، تعبيرًا عن الإضلال ابتداء ولا جزاء، وإنما هى تعبير عن تخلية الله بينه وبين ما يريد لنفسه من ضلال، وذلك بحكم خلقه إياه قادرًا على الخير والشر، مختارًا فى فعلهما ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ والمعنى فى هذا وأمثاله وهو كثير فى القرآن: تركناه وشأنه ولم نحل بينه وبين ما أراد لنفسه. هذا هو ما يجب أن يفهمه الناس ويتخذوه أساسًا لهم فى الحياة العاملة، ويبعدوا به عما بلبل أفكارهم وفرقهم من الآراء والفرق التى اتخذت فى هذا الموضوع ميدانًا للنقاش والجدل فيما لا يتصل بحياة الإنسان الجادة العاملة، وفيما لم يكلفهم الله به ولم يطلبه عقيدة من عقائده.

وقد تناول علماء الكلام فى القديم والحديث هذه المسألة، وعرفت عندهم بمسألة الهدى والضلال، أو بمسألة الجبر والاختيار، أو بمسألة خلق الأفعال، وكان لهم فيها آراء فرقوا بها كلمة المسلمين، وزلزلوا عقائد الموحدين العاملين، وصرفوا الناس بنقاشهم فى المذاهب والآراء عن العمل الذى طلبه الله من عباده، وأخذوا يتقاذفون فيما بينهم بالإلحاد والزندقة والتكفير والتفسيق. وما كان الله - وآياته ببينات واضحات - ليقيم لهم وزنًا فيما وقفوا عنده، وداروا حوله، ودفعوا الناس إليه.

فهذا فريق منهم يرى: أن العبد لا اختيار له فى فعل ما، وهو مجبور ظاهراً وباطناً، فالهداية تلحقه بخلق الله، والضلال يلحقه بخلق الله دون أن يكون له دخل ما فى هدايته أو ضلاله لا ابتداء ولا جزاء، وهذا رأى يناقض صريح ما جاء فى القرآن من نسبة الأعمال إلى العباد، ومن التصريح بأن الجزاء ثوابًا أو عقابًا إنما يكون بالأعمال الصادرة من العباد، وهى أكثر من أن تحصى، وهو بعد ذلك يصادم الشعور والوجدان الذى يجده كل إنسان فى نفسه حينما يفكر، وحينما يتجه ويعزم، وحينما يفعل، وهو مع كل هذا ينقض قاعدة التكليف، وهى اختيار المكلف، وقاعدة العدالة وهى: السيئة بالسيئة والحسنة بالحسنة.

وهذا فريق آخر يرى: أن الله يخلق الضلال فى العبد ابتداء واستمراراً، وليس للعبد قدرة على فعل ما، أو ليس لقدرته تأثير فى فعل ما، وحينما رأوا نتائج الرأى السابق تلزمهم انتحلوا للتخلص منها شيئًا سموه: كسبًا، وصححوا به فى نظرهم قاعدة التكليف، وقاعدة العدالة، ونسبة الأفعال. وحاصل معنى هذا الكسب هو الاقتران العادى بين الفعل والقدرة الحادثة، أى أن الله يخلق الفعل عند قدرة العبد لا بها كما يقولون، وبهذه المقارنة نسب الفعل إلى العبد، وكلف بالفعل، وسئل عنه، وجوزى عليه. ولا شك أن تفسير الكسب بهذا لا يتفق واللغة، ولا يتفق واستعمال القرآن لكلمة «كسب». على أنه بهذا المعنى الذى يريدون لا يصحح قاعدة التكليف، ولا قاعدة العدالة والمسئولية، لأن هذه المقارنة الحاصلة بخلق الله للفعل عند قدرة العبد ليست من مقدور العبد ولا من فعله حتى ينسب الفعل بها إليه ويجازى عليه، والفعل كما يقارن القدرة يقارن السمع والبصر والعلم، فأى مزية للقدرة بهذه المقارنة فى نسبة الأفعال إلى العبد؟ وبذلك يكون العبد فى واقع أمره مجبوراً لا اختيار له، وقد قال بعض العلماء: إن كسب الأشعرى، وطفرة النظام، وأحوال أبى هاشم، ثلاثتها من محاولات الكلام.

وهذا فريق ثالث يرى: أن العبد يفعل بإرادته وقدرته اللتين منحهما الله ابتداء واستمراراً فى دائرة ابتلائه وتكليفه. ويفصل آخرون بين الضلال ابتداء فينسبه إلى العبد، والضلال استمراراً فينسبه إلى الله إضلالا منه للعبد جزاء على ضلاله، فهناك فى رأيهم زيغ من العبد باختياره، ثم إزاغة من الله عقوبة له على ذلك الزيغ، هناك انصراف من العبد عن الحق ثم صرف من الله للعبد جزاء هذا الانصراف.

والذى نراه كما قلنا أن للعبد قدرة وإرادة ولم يخلقهما الله فيه عبثًا، بل خلقهما ليكونا

مناط التكليف، ومناط الجزاء، وأساس نسبة الأفعال إلى العبد نسبة حقيقية، والله يترك عبده وما يختار لنفسه، فإن اختار الخير تركه فيه يدعوه سابقه إلى لاحقه، ولا يمنعه بقدرته الإلهية عن استمراره فيه، وإن اختار الشر تركه فيه يدعوه سابقه إلى لاحقه ولا يمنعه بقدرته الإلهية عن استمراره فيه. والعبد وقدرته واختياره، كل ذلك بمشيئة الله وقدرته وتحت قهره، ولو شاء لسلب قوة الخير فكان الإنسان شراً بطبعه لا خير فيه، ولو شاء لسلبه قوة الشر فكان خيراً بطبعه لا شر فيه، ولكن حكمته الإلهية فى التكليف والابتلاء قضت بما رسم، وكان فضل الله على الناس عظيماً.

ومن هنا يتبين أن العبد ليس مجبوراً، لا ظاهراً ولا باطناً، ولا مجزيًا على ضلاله بإضلال الله إياه؛ فإن هذا أمر تأباه حكمة الحكيم وعدل العادل، وتمنع تصوره.

القضاء والقدر ليس معناهما الإلزام:

وبهذا يكون المؤمنون عمليين، لا يعتذر الواحد منهم عن تقصير فى واجب بالقضاء والقدر، فليس فى القضاء والقدر إلا العدل المطلق، والحكمة الشاملة العامة، ليس فيهما إلا الحكم والترتيب وربط الأسباب بالمسببات على سنة دائمة مطردة، هى أصل الخلق كله، وهى أساس الشرائع كلها، وهى أساس الحساب والجزاء عند الله، وليس فيهما شيء من معانى الإكراه والإلزام، وإنما معناهما الحكم والترتيب، فقضى: حكم وأمر، وقدر: رتب ونظم، وعلم الله بما سيكون من العبد باختياره وطوعه - شأن المحيط علمه بكل شيء - ليس فيه معنى إلزام العبد بما علم الله أن سيكون منه، وإنما هو العلم الكامل الذى لا يقصر عن شيء فى الأرض ولا فى السماء، ولا فيما كان وما يكون.

ونرجو أن تتاح لنا الفرصة لتتبع كل الآيات التى استخدمتها الفرق على اختلافها وتباين آرائها فى تأييد مذاهبها وآرائها فى هذه المسألة، ثم نوجه دلالتها على هذا الرأى الذى اخترناه.

أساس الاستقرار الخارجي:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾.

بدلنا واقع الحياة وتاريخ الاجتماع أن احتفاظ الأمة بكيانها يرتبط بأمرين لا بد منهما : الاستقرار الداخلى، والاستقرار الخارجى. والاستقرار الداخلى أساسه: صلاح الأسرة، وصلاح المال، وقوة النظم التى تساس بها فى جميع شئونها. والاستقرار الخارجى أساسه. احتفاظ الأمة بشخصيتها، واستعدادها لمقاومة الشر الذى يطرأ عليها، والعدو الذى يطمع فيها، ولا بد من هذا وذاك من تقوية العنصر الروحى فى قلوب أبنائها، حتى يتحقق فيما بينهم التضامن والتعاون على السير بالأمة فى ظل تشريعها القوى العادل، فى سبيل الخير والفلاح، والعزة والمنعة.

وقد تكفلت سورة النساء بوضع كثير من الأحكام التى تصلح بها هذه النواحى.

وقد عرضنا فيما سبق إلى موضوعات: الأسرة، والمال، ومصادر التشريع، والعنصر الروحى، وألوان من التمرد على التشريع، إلى آخر ما وفقنا الله إلى فهمه واستنباطه من آيات سورة النساء مما شرعه الله أساسا للاستقرار الداخلى.

وهذه آية من آياتها الكريمة، التى عرضت لأساس الاستقرار الخارجى، وقد سبحت السورة فى هذا الجانب سبحا طويلا، يبتدئ من الآية رقم ٧١ حتى الآية ١٠٤.

نداءات إلهية باعتبارات مختلفة:

وقد بدئت الآية بنداء المؤمنين، وقد اشتملت سورة النساء على جملة من النداءات الإلهية، نودى الناس جميعا بثلاثة منها، ونودى أهل الكتاب باثنين منها، ونودى الناس جميعا بثلاثة منها، ونودى أهل الكتاب باثنين منها، ونودى المؤمنون بتسعة منها، ونحب أن نضع هذه النداءات جميعها أمام المسلم «الدارس للقرآن» مع تعليق وجيز على كل نداء منها لتكون بيده أشبه بقوانين كلية، له أن يستنبط منها ما تحتاج إليه الأمة من وسائل تنظيمها فى أهم شئونها.

وإن من يقرأ هذه النداءات، ويفقه الأحكام التى تضمنتها، يجد أن النداء فى كل آية من هذه الآيات قد اختير له وصف من شأنه أن يبعث المخاطبين على الامتثال، ويغرس فى نفوسهم المعانى الإنسانية والدينية التى تحفزهم على العمل بما فيها من أحكام، والدعوة إليها، ويحول بينهم وبين الإعراض عنها، أو التعاون فى شأنها، ويلفت أنظارهم إلى أن التهاون فيها لا يتفق فى نظر العقل والحكمة، والحقيقة الواقعة، التى يعترفون بها فى أنفسهم، ويعرفها الناس عنهم من جهة الإنصاف بهذا الوصف.

يأيها الناس:

فوصف الإنسانية الذى تضمنه نداء الناس جميعا فى الآيات الثلاث وهن: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ هذا الوصف: (الإنسانية) هو الحقيقة المشتركة بين بنى الإنسان، التى جعلت منهم جميعا أسرة واحدة، ذات رحم واحدة، وهو بعد ذلك عنوان على خاصية العقل والإدراك، ولا ريب أن خاصية العقل والإدراك تقضى بمعرفة الخالق والقيام بحق شكره وتقواه، وأن وحدة الحقيقة والرحم تدعو إلى تبادل العطف والرحمة، وأن يأخذ القوى من أبناء تلك الحقيقة وهذه الرحم بيد الضعيف منهم، وأن يُعنى بالنظر فى مصالحه ويرعى شئونه، وفى هذا حفز قوى نحو امتثال ما صدرت به السورة من أحكام الضعفاء من اليتامى، والنساء، والسفهاء.

وباعتبار خاصية الإدراك الذى يوحى به النداء بوصف «الناس» وُجِّه النداء إلى منكرى الحق من المشركين الذين خالفوا فى قضية الألوهية، وأهل الكتاب الذين خالفوا فى قضية الرسالة، وطُلب من الجميع الإيمان فى ذلك بالحق الذى جاء به الرسول من الرب الذى خلقهم ومنحهم العقل وجعله حجة عليهم، وكلَّفهم بمقتضاه. وعلى هذا الأساس خوطبوا فى النداء الثالث بأن ما جاء به محمد، ليس مما تأباه العقول التى منحوها بوصف الإنسانية، وإنما هو نور يهرع إليه العقل الإنسانى ويتغذى عن طريقه بالمعارف الحقة النقية.

يأهل الكتاب:

أما وصف «أهل الكتاب»، الذى نادت به السورة مرتين، فهو يدل على أن للمنادَيْن بالوحى السماوى والهداية الإلهية صلة وثيقة عن طريق الكتاب الذى أوتوه وصاروا أهلا له، وفيه تقرير الحق فى الألوهية، وما لله من أوصاف الجلال والجمال، التى تأبى الحلول والاتحاد، كما تأبى البنّوة التى زعموها لبعض رسله الكرام، وفيه الآيات الواضحات على أن رسولا يأتى بعد التوراة والإنجيل، مصدقا لما فيهما من أصول الدين وأركان الهداية،

وإذن يكون إعراضهم عن رسالة هذا الرسول الذى جاء مصدقا لما معهم، وغلُوهم فى رسولهم، وقد دعاهم إلى توحيد الله، وتنزيهه عن الوالد والولد، يكون هذا وذاك غير ملائم لاتصافهم بذلك الوصف وهو أنهم أهل كتاب، ويكون موقفهم من الرسول، ورأيهم فى الألوهية مما لا يتفق ونسبتهم إلى الكتاب، فهو يسجل عليهم بالنداء المذكور هذا الانحراف، كما يسجل عليهم به عدم أهليتهم لهذا الانتساب. ويبرزهم فى صورة عجيبة: يدَّعون أنهم أهل كتاب، أو هم أهل كتاب، ثم ينكرون ما يقرره ذلك الكتاب. تناقض يثير العجب، ويرد عقلاءهم إلى تدبر شأنهم حتى يصححوا موقفهم فى نظر أنفسهم، وفى نظر العقلاء جميعا.

يأيهــا الذين آمنــوا:

أما نداءات «المؤمنين التسعة» فهى متعلقة بأحكام دعاهم إليها من آمنوا به، وبلَّغهم إياها رسوله، ونزل عليهم بها كتابه. ولا ريب أن مقتضى الإيمان أن يحافظوا عليها، وأن يعملوا على نشرها ورعايتها. وقد تناولت هذه النداءات جملة من النواحى التى يعتبر تنظيمها من أهم العناصر التى يتوقف عليها صلاح الجماعة وسعادتها.

ناداهم فيما يختص بأساس الأسرة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ** ﴾.

وناداهم فيما يختص بالمال ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ** ﴾.

وناداهم فيما يختص بأهم أركان التهذيب الروحى وموقف المراقبة والمناجاة وهو الصلاة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا** ﴾.

وفى هذا النداء إيحاء بوجوب العمل على تصفية النفس فى مواقف الخير عما يدنسها، أو يضعف الإشراق عليها، إذ ليس من المعقول أن يدخل الإنسان فى بيئة نورانية وهو متحمل للظلمات، مفعم بالمدنسات.

وناداهم فيما يختص بأصول التشريع التى يجب أن يلتزموا حدودها، ولا يصح لهم بمقتضى إيمانهم أن يخرجوا عنها ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾.

وناداهم فيما يختص بقوام النظام وأساس الملك: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** ﴾ وقد أمر الله فى هذه السورة بالعدل خاصًا وعامًا؛ ففى الأسرة ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا** ﴾ وفى اليتيم ﴿ **وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ** ﴾. وفى الحكم ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ وأمر به عامًا فى هذا النداء ﴿ **قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ** ﴾ وبذلك كان العدل فى نظر الإسلام هو أساس التصرفات والأحكام، وأنه لا ينبغى لمؤمن أن يحول بينه وبين العدل شىء من هوى النفس أو صلات النسب والقربى.

وناداهم بوجوب العمل على تطهير قلوبهم من نوازع العصبية، والإيمان بهداية الله العامة، السابقة واللاحقة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا** ﴾ وهذا النداء يتضمن تحذير المؤمنين أن يسلكوا مسلك غيرهم فى عدم الإيمان بغير رسولهم الذى بعث إليهم، وبغير كتابهم الذى أنزل عليهم، ويعلنهم بوحدة الدين عند الله، وأن الإيمان الحق يقضى بتصديق الجميع، وأن التفريق بين الرسل والكتب تفريق لهداية الله، وإنكار لأجزائها التى تتألف منها وحدتها وقد عرض القرآن فى غير موضع إلى هذه الوحدة، وقرر أن الإيمان بالجميع هو شأن المؤمنين، وقد تضمنت أوائل سورة البقرة هذا المعنى ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ كما تضمنته خواتيمها ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾. وتضمنه قوله تعالى فى سورة النساء ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾.

وناداهم بعد ذلك فيما يختص بحفظ الدولة وصيانة أسرارها ورعاية شخصيتها، والإبقاء عليها من الانحلال والذوبان فى غيرها باسم المصالح والصداقات: ﴿ **يَا أَيُّهَا**

الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ .

وقد سبق مثل هذا التحذير فى سورة آل عمران، وعرضنا هناك للحد الفاصل بين ما يجوز للمؤمنين من مخالطة غيرهم وما لا يجوز لهم من ذلك. كما سبق لنا التحدث عما احتوت عليه أكثر هذه النداءات التى وجهت إلى المؤمنين فى سورة النساء، وقد بقى منها نداءان اثنان، وهما يتعلقان بما يجب على المؤمنين أن يتخذوه فى سبيل استقرارهم الخارجى الذى بدأته السورة بهذا النداء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ .

عرضت سورة النساء فيما قبل هذه الآية إلى كثير من الأحكام التى يجب أن يتخذها المسلمون أساسا لتنظيم شئونهم الشخصية والمدنية والدينية، كما بينت مصادر التشريع، وأساس الحكم الذى يحفظ على الأمة كيانها الداخلى، وحذرت فى ذلك كله متابعة الأهواء، والتمرد على هذا التشريع.

لا بد للحق من القوة:

ثم أوردت هذه الآيات، ترشد فيها إلى ما يجب فى سبيل المحافظة على الأمة من اتخاذ الحيطة والحذر من الأعداء، الذين يعملون جهدهم فى زعزعة الحكم الإسلامى، ومحاولة سلب سلطانه، والقضاء على أمنه واطمئنانه، وفى هذا إيحاء بأن الحق لا بد فى بقائه وتمتع الناس به من قوة تحميه. وهى قضية يشهد لها التاريخ، ويقررها الواقع الاجتماعى فى كل عصور الإنسانية، وكثيرا ما رأينا أن رأى صاحب القوة والسلطان حق ولو كان ظاهر البطلان، وأن رأى الضعيف باطل ولو كان حقا مبينا، رأينا ذلك فى آراء الأفراد، ورأيناه فى مبادئ الجماعات وشرائعها وسائر خططها فى الحياة. ولعل كثيرا من الشئون الدولية التى يجرى فيها البحث الآن بين الأمم القوية والأمم الضعيفة أوضح مثال على صدق هذه القضية، وعلى أن الحق غير المؤيد بالقوة يصاب بالانزواء والانكماش. ويتضاءل دائما أمام صخرة الباطل القوية، وقد عرفت الجماعات البشرية هذا المبدأ الاجتماعى فى جميع أطوارها، وآمنت بالتجارب المتكررة، أن عزها وهيبتها واحترام حقها لابد له من القوة، فاتخذتها واعتمدت عليها، ولم يكن الأمر فى ذلك قاصرا على

الجماعات البشرية: فالشرائع السماوية نفسها وضعت القوة أساسا لتركيزها، وحمل الناس على الأخذ بها، فأمرت بها سلاحا لحق تحميه وترعاه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ ومن هنا كانت القوة شيئا لا بد منه في تمتع أرباب الحق بحقهم، وفي تمتع الناس بالخير في هذه الحياة. ونحن إذا نظرنا إلى تاريخ الإسلام وجدنا أمته أدركت سر الحياة، وعرفت أنه في القوة، فتسلحت بها واعتمدت عليها، وكونت القوة منها أمة تأمر فتطاع، وتحكم فتعدل، وتقف في صف المظلوم فيصل إلى حقه، وفي وجه الظالم فيكف عن طغيانه، وبهذا عاشت الأمة مهيبة الجانب، مرهوبة المكانة، فكان سلطانها هو السلطان، وكانت عقائدها هي العقائد، وكان تشريعها هو التشريع الذي يلبي الحاجة، ويكفل المصالح، وكانت عاداتها هي العادات التي تهرع الأمم إلى تقليدها فيها، وكان الإسلام على وجه العموم هو القوة، والقوة هي الإسلام. وظل الإسلام بمنأى عن عبث العابثين، وعن طمع العدو ومحاولة الاقتراب منها، أو التفكير في الاستيلاء عليها.

ظل الإسلام ذا شوكة ومنعة في جميع نواحيه ما بقيت له قوة، وما كانت القوة هي الإسلام.. فلما تبدلت الشئون، وتغيرت الأحوال، وأخذ الضعف ينفث سمومه في المسلمين بعوامل بعضها داخلية، خلقتها الأهواء والمطامع، وبعضها خارجية سنحت لها الفرص، ووجدت من تفرق المسلمين وأحقاد طوائفهم، التي خلقتها المذاهب والآراء، ما أعانها على تفريق الكلمة وشغل المسلمين بأنفسهم واختلافهم فيما بينهم، ومكنها أن تحدث بين صفوفهم المتراصة الفجوات الواسعة، فدخلت عليهم من جميع أقطارهم، ونزعت القوة من بينهم، وتركتهم أشلاء مبعثرة تهددهم القوة في كل مكان، وتنذرهم بالفناء في كل وقت.

ومن هذا كله عني القرآن بلفت نظر المؤمنين إلى أخذ الحيطة والحذر، وقوة الاستعداد لدفع الشر الذي تسوقه الأطماع إليهم، وفي هذا السبيل شرع القتال وحث عليه في كثير من سوره.

أهداف الإسلام في الحرب:

ومما ينبغي معرفته أن الإسلام حينما شرع القتال وأمر باتخاذ عدته، ورغب فيه: نأى به

عن هدف الاستغلال والاستيلاء والملك، كما نأى به عن هدف الإكراه على اعتناقه واتخاذه وسيلة من وسائل الإيمان بدعوته: ويجدر بنا أن نضع أمام القارئ الخطوات التى اتخذها فى سبيل الإذن بالقتال، وتحديد الغاية التى قصد به الوصول إليها.

أقام المسلمون فى مكة أعواما يسامون سوء العذاب، ويصادرون فى حريتهم الدينية، ويضطهدون فى عقيدتهم التى اطمأنوا إليها، ويفتنون فى أموالهم وأنفسهم حتى أكرهوا على الهجرة فخرجوا من أوطانهم وديارهم، ثم أقاموا فى المدينة صابرين لأمر الله، راضين بحكمه؛ وكانوا كلما همت نفوسهم بالرد على الظلم أو تطلعت إلى الانتقام من الظالمين، ردهم رسول الله إلى الصبر وانتظار أمر الله قائلا: «لم أومر بقتال! لم أومر بقتال!» وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ وقد ظلوا كذلك متطلعين إلى القتال حتى كاد اليأس يساورهم ويقضى بهم إلى الظنون، وعند ذلك أنزل الله أول آية فى القتال: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾ (سورة الحج الآية ٣٩ـ٤١)

كانت هذه الآيات أول إذن بالقتال، وقد عللت هذا الإذن بما أصاب المسلمين من الظلم والإكراه على الهجرة بغير الحق، وأرشدت إلى أن هذا الإذن موافق لما تقضى به سنة التدافع بين الناس حفظا للتوازن الجماعى، ودرءا للطغيان البشرى، وتمكينا لأرباب العقائد والعبادات من أداء عباداتهم والبقاء على عقائدهم.

ثم أرشدت إلى أن الله إنما ينصر بمقتضى سنته فى خلقه من ينصره ويتقيه بإقامة العدل، وإقرار الأمن، وبث الطمأنينة، ولا يتخذ الحرب أداة للتخريب والإفساد، وإذلال الضعفاء، وإرضاء الشهوات، وإنما يتخذها وسيلة إلى عمارة الكون، وإنفاذ أمر الله فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وجاء بعد هذه الآيات آيات أخرى وردت فى سورة البقرة، وفى سورة النساء، وفى

سورة التوبة، وغيرها، وكلها تحصر دائرة القتال ـ الذى أذن فيه للمسلمين وأمروا به ـ فى رد العدوان والقضاء على الفتنة فى الدين دون اعتداء أو اضطهاد، واقرأ فى ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ... الآيات** ﴾ من ١٩٠ ـ ١٩٤. وفى سورة النساء ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ** ﴾ إلخ الآية ٧٥. ﴿ **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً** ﴾ الآية ٨٤. ﴿ **فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ** ﴾ الآية ٩١. وجدير بك أن تقف عند قوله تعالى: ﴿ **عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ وقوله: ﴿ **فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ** ﴾ فتضع يدك على السبب الذى لأجله أمر المسلمون بقتالهم، وهو عين ما قررته آيات البقرة، ولم يخرج عن دائرته ما قررته سورتا الأنفال والتوبة، ففى سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾ وفى سورة التوبة قوله تعالى: ﴿ **وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾. ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾.

اقرأ هذه الآيات كلها ورددها فى نفسك متدبرا إياها، لتعلم أن سبب القتال فى الإسلام ينحصر كما قلنا فى رد العدوان، وإشاعة الأمن والاستقرار، وحماية الدعوة، والقضاء على الفتن التى يثيرها أرباب المطامع والأهواء، ولتعلم أيضا أن الإسلام حينما شرع القتال نأى به كما قلنا عن جوانب الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء، واتخذه طريقا إلى السلام العام بتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة ﴿ **لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾.

وليصل المسلمون بالقتال إلى الغاية السامية التى ربطها الله به، لفت القرآن أنظار المؤمنين إلى أن النصر معقود بتقوية الروح المعنوية فى الأمة، وبإعداد القوة المادية وتنظيمها بما يحقق لهم النصر والغلبة.

القتال فى سبيل هذه الأهداف هو الجهاد فى سبيل الله:

وفى تقوية الروح المعنوية ترشدهم إلى أن القتال فى هذه الدائرة قتال فى سبيل الله الذى يضاعف ثواب المصلحين وأجر المجاهدين، قتال فى سبيل إنقاذ الضعفاء، والبر بالإنسان، ومقاومة الجبروت والطغيان. وإلى أنه سبحانه قد كتب على نفسه ـ بذلك الأجر العظيم للمجاهدين فى سبيله ـ عهدا بيَّنه فى جميع كتبه المنزلة. واقرأ فى ذلك كله قوله تعالى فى سورة النساء: ﴿ **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾، وقوله فى سورة التوبة: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾. وقوله فى سورة التوبة أيضا: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾.

الأمر بإعداد القوة ورباط الخيل:

وفى إعداد القوة المادية يقول الله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ والقوة: كلمة تتسع لكل ما عرف ويعرف من آلات الحرب، ومن جميع ما يتوقف النصر عليه. والرباط، كلمة تتسع لكل ما عرف ويعرف أيضا فى تحصين الثغور ومداخل العدو. وتشير الآية إلى فائدة هذا الإعداد، وهى أنها إرهاب العدو حتى يعلم قوة المسلمين، ولا تحدثه نفسه باستغلال ناحية من نواحى الضعف والتخاذل. وقد نوه الله فى امتنانه على الناس بإنزال الحديد بيأسه الشديد، ومنفعته للناس، وفى ذلك توجيه للمسلمين نحو هذه المادة التى تعتبر ـ بحق ـ المادة الأولى والوحيدة فى إعداد العدة، وإبراز القوة. أما رباط الخيل؛ فيجدر بنا أن نسوق فى شأنه كلام الإمام الرازى فى تفسير قوله تعالى من سورة ص: ﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ**

الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ نسوقه هنا لنعلم أن الرباط كوسيلة من وسائل القوة والإعداد الحربى، شأن قديم اتخذته أقدم الأمم حضارة وأكبرهم عدة وأقواهم فكرة، وأن أولياء الله وأنصاره لم يغفلوا عما فيه من خير ومنعة لأمتهم، وإرهاب وتخويف لأعدائهم. قال: إن رباط الخيل كان مندوبا إليه فى دينهم، كما أنه كذلك فى دين محمد - ﷺ - ، ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو، فجلس وأمر بإحضار الخيل، وأمر بإجرائها وذكر أنه لا يحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أحبها لأمر الله، وطلب تقوية دينه، وهو المراد بقوله: ﴿ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ ثم إنه عليه السلام أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب: أى غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور:

الأول: التشريف لها، والإبانة عن عزتها لكونها من أعظم العون فى دفع العدو.

الثانى: أنه أراد أن يظهر أنه ضبط السياسة والملك، وينبغى أن يباشر الأمر بنفسه ولو فى أدنى الأمور التى يكثر القائمون بها.

الثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعرف حقيقة أمرها فى السلامة من العلل أو الإصابة بها.

وهكذا يجد قارئ تاريخ الأنبياء والمرسلين أن كثيراً منهم حارب فى سبيل الله، واتخذ القوة واصطناعها أساسًا لحياته الحربية، ولعل قوله تعالى فى سورة سبأ: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ وقوله فى السورة نفسها: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ لعل هذه الآيات تشير إلى ما كان يتخذه هؤلاء الأنبياء من المصانع التى كانت تخرج لهم الدروع المحكمة فى وضعها ومقدارها، وتخرج لهم التماثيل التى كانت تدخل على العدو شدة الروع فتضعف من قوته، وترد من طغيانه، وقد فسرت هذه التماثيل بتفاسير كثيرة: منها أنهم كانوا يعملونها كالحيوانات فى أسفل

الكرسى وكانت تتحرك بآلات عند الصعود، قال الألوسى: وقد انتهت صنائع البشر عند ذلك فى الغرابة.

ولعل فى ذلك أو فى بعضه ما يدفع المسلمين إلى إنشاء المصانع التى تخرج لهم ما يحتاجون إليه فى حفظ حياتهم، وتعصمهم من التطلع إلى ما بأيدى أعدائهم، غير مشغولين بشىء سوى الافتتان به والتعجب منه، والوقوف أمامه وقفة المبهوت المستغرب.

مقتضيات أخذ الحذر

هذا، وإذا كانت هذه هى الروح العامة التى يريد القرآن أن يوجه إليها المسلمين فى استعدادهم الحربى، فإن آياتنا ﴿ **خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا** ﴾ من أعم الآيات فى ذلك، وأبعدها مرمى فى توخى نواحى الاستعداد الحربى من جهة العدد والعدة، فقد أمرت الآيات بالاستعداد لمقاومة العدو، وتضمنت الإيحاء بتعليم الأمة جميعها فنون الحرب والقتال، ولفتت الأنظار إلى لزوم تطهير الجيش - وهو الأمة كلها - من عناصر الفتنة والتخذيل، وأشارت إلى ما يجب أن يتحلى به المجاهدون فى سبيل الله من تحرى المسالمين لهم والمحاربين، ولم يفت الآيات أن تغرس فى نفوسهم ما يقوى عزائمهم ويجعلهم على صلة قوية بربهم حتى فى أوقات نشوب المعركة بينهم وبين أعدائهم، فأمرتهم بالركن الأول من أركان التصفية الروحية وهو: إقامة الصلوات مع أخذ الحذر وعدم الغفلة عن السلاح.

ولا ريب أن أخذ الحذر الذى أمرت به الآيات فى أول ما أمرت يستدعى العلم بحال العدو فى عدده وعُدده، ومسالك بلاده، ويستدعى العلم بوسائل المقاومة والتدرب على العمل بها، وأن يكون ذلك التدريب عامًا لجميع الأمة، حتى يتحقق النفير العام إذا دهمهم العدو، وأغار على جميع بلادهم، وذلك كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ **فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا** ﴾.

الجندية واجب على كل قادر:

ومن هذا يتبين أن مسايرة الأمم فى فنونها الحربية وتدريب أبنائها عليها من ألزم الواجبات، كما يتبين أن التهاون فى شأن هذا التدريب تقصير عما لا يصح لأمة - تريد أن

تحيا حياة طيبة - أن تغفله . وقد جاء فى القرآن الكريم ما يدل دلالة واضحة على أنه لا يعفى أحد من الجندية إلا إذا كان ضعيفًا، أو مريضًا، أو لا يجد ما يجهز به نفسه للقتال، وانظر فى ذلك قوله تعالى من سورة التوبة : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ولكن المسلمين غفلوا حينًا من الدهر عن هذا الواجب، وعولوا على حمايتهم بالخصوم، وتعهدهم لهم بالدفاع عن أنفسهم وأراضيهم، فأهملوا الجندية - فى فترة مضت - وجعلوها صورة هزلية، لا يقصد بها إلا خدمة الصغار للكبار، والضعفاء للأقوياء، فقصروها على الفقراء الذين لا يستطيعون دفع البدل العسكرى، وأخرجوا من صفوف الأمة المجاهدة حملة القرآن والعلم، وأبناء الأغنياء والوزراء، وبذلك صارت الجندية عنوان الذلة والضعف .

قراء القرآن فى الصدر الأول كانوا فى مقدمة المجاهدين:

وها هو ذا القرآن لا يرى شيئًا من ذلك سببًا من أسباب المعافاة من الجندية، وقد كان العمل فى عصر النبوة والعصور التالية له على مقتضى وحى القرآن وإرشاده، ولعلنا نذكر أن التفكير فى جمع القرآن لم يكن إلا مخافة أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا أكثر القوم إقدامًا وبسالة فى حرب اليمامة، وكان إقدامهم وجرأتهم على اقتحام صفوف الأعداء سببًا فى أن يستحر القتل فيهم، وفى أن يهرع أصحاب رسول الله إلى خليفة رسول الله يستنهضونه فى سرعة العمل على جمع القرآن حتى لا يذهب بذهاب حفاظه المحاربين المجاهدين . ورحم الله ذلك الزمن الذى كانت آيات القرآن فى قلوب حامليها أقوى حافز على التضحية بالنفوس فى سبيل إنقاذ الدولة ورد الطغيان عنها، وتعسًا وخزيًا لزمن جعل فيه العلم وحفظ القرآن عنوانًا على عجز أهله حتى اتخذوا علمهم بالدين، وحفظهم للقرآن الكريم وسيلة من الوسائل التى تبررهم فى الجبن والضعف والخور، وقد كانوا أحق الناس - بما يحفظون من كتاب الله وأحكامه - أن تتألف من وحداتهم الصفوف الأولى لمحاربة الأعداء، وتطهير البلاد من شرهم، ولكن هكذا قدر وهكذا كان، ولا حول ولا قوة إلا بالله ! !

عناصر الفتنة والتخذيل ووجوب التطهر منهم:

أما تطهير الجيش من عناصر الفتنة والتخذيل فقد عرضت له آياتنا، كما عرضت له

آيات أخرى فى غير سورة النساء، ففى آياتنا الإرشاد إلى جملة من خصائصهم التى تميزهم ويتعرف بها عليهم.

المتثاقلون:

فمنهم هؤلاء الذين يتثاقلون عن تلبية الدعوة إلى الجهاد، ويثبطون بتثاقلهم هم غيرهم، وتفرح قلوبهم بالهزيمة تقع على إخوانهم، ويحمدون الله ويشكرون فضله على تثاقلهم وتخلفهم عن هذا القتال، فيقول قائلهم: ﴿ **قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا** ﴾ ويظهرون الأسف والحزن على فوات مساهمتهم فى القتال إذا توج بالنصر والظفر، وأصاب به المجاهدون فضلا ونعمة، فيقول قائلهم: ﴿ **يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ** ﴾ فأفوز بما فازوا من الفضل والنعمة.

وإن من يربط إقدامه وإحجامه بالنتائج المادية للقتال، ويجعلها أكبر همه دون أن يكون له من الحدب النفسى، والإيمان القلبى، ما يدفعه إلى التضحية فى سبيل إيمانه، ونصرة دينه وإنقاذ وطنه، لهو من هذا الفريق الذى لم تنفعل نفسه بحب الدين والغيرة عليه، والدفاع عن بيضته ابتغاء مرضاة الله، وهو بهذا ليس مأمون العاقبة إذا خرج مع المجاهدين.

الناكصون:

ومنهم هؤلاء الذين ينكصون عن القتال حينما يكتب عليهم ويؤمرون به، بعد أن كانوا يتطلعون إليه ويستعجلونه، ويقولون ضنًا بحياتهم، وخوفًا من الناس: ﴿ **رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ** ﴾ كلمة الذين يحاولون التخلص من التكاليف التى توجه إليهم متى رأوا أن فيها مشقة تلحقهم، أو مصيبة قد تنزل بهم.

المبيتون غير ما يظهرون:

ومنهم هؤلاء الذين يظهرون الطاعة والامتثال عند سماع الأمر بالقتال والدعوة إليه، ثم إذا خرجوا بيتوا غير الذى يظهرون من العزم على المخالفة، والنكوص عن الدعوة

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ .

المرجفون:

ومنهم هؤلاء الذين تعودوا الإرجاف بما يسمعون، غير مقدرين لنتائجه فى الأمة، وكثيراً ما يكون فى إذاعته، قبل تمام الأمر والركون إلى الغاية، أضرار تلحق الأمة فيضطرب شأنها، وتكل عزيمتها، ويدركها الضعف فى السير إلى الغاية، وقد كان لإذاعة خبر موت النبى - ﷺ - فى غزوة أحد أبلغ الآثار السيئة فى قوة الجيش المعنوية، وكاد الأمر يصل بالمؤمنين إلى الهزيمة المنكرة لولا أن بادر الوحى بالعلاج، ونزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ وفى أمثال هؤلاء تقول آياتنا: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ وجاء فى سورة الأحزاب تنبيه شديد على صنيع هؤلاء وأمثالهم، كما جاء فيها وعيدهم عليه بسوء العاقبة والطرد والحرمان: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ... ﴾ الآيات ١٢ - ١٩، ثم تقول: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ الآيتان ٦٠ - ٦١.

مشروعية الأحكام العرفية إذا اقتضتها ظروف الحرب:

وهذه الآيات وأمثالها تقرر وجوب الاحتفاظ بأسرار الدولة عامة، وأسرار الجيش على وجه خاص، وأن يكون الشأن فيها خاصًا بالقيادة وأولى الأمر، وهى فى الوقت نفسه تمنح أولياء الأمر حق اتخاذ الوسائل التى تحول بين العامة وإذاعة هذه الأنباء ما داموا يرون أن فى إذاعتها ضرراً يلحق بالأمة ويعترض مصالحها، وأنهم لو رأوا وقف قوانين حرية

الأفراد في التحدث والكتابة والاجتماعات سبيلا لاتقاء شر الإرجاف، وجب عليهم وقفها ومنع الناس من التمتع بها، وإن الشريعة لتقرر إعطاء الوسيلة حكم ما يترتب عليها، فوسائل ما يجب تأخذ الوجوب، ووسائل ما يحرم تأخذ الحرمة، وهو أصل تقضي به سنن الاجتماع، وقد عرفه الإنسان في جميع أطواره، وكان أساسًا في عصورنا الحاضرة لاستباحة أخذ الأمم بما يسمونه «الأحكام العرفية».

وكما تحدثت سورة النساء، وسورة الأحزاب عن عناصر الشر والتخذيل فى الأمة، فقد تحدثت عنها كثيرًا سورة التوبة، وأبرزت جملة من أخلاقهم وسيئات تصرفهم التى ترشد إليهم وتدل عليهم، وكان ذلك بعد رجوع النبي وأصحابه من غزوة تبوك التى كانت أكبر ابتلاء وأشد تمحيص عرف الله بها نبيه دخائل نفوسهم، وأطلعه على ألوان نفاقهم وهى ألوان المنافقين فى كل جيل ودولة، واقرأ فيها قوله تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ وقوله: ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ اقرأ الآيات من ٤٢ - ١١٠، وتأمل قول الله المتكرر فيها «ومنهم. . . ومنهم. . . ومنهم. . » ثم طبقه على ما يبدو من خلال الناس فى موقفهم حينما يستنفرهم القائد الحريص على حياتهم وعزتهم، ويصيح فيهم ﴿ **انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ اقرأه كله، وأنعم النظر فيه، وتتبع أمثاله فى القرآن الكريم لتستخلص الخلال السيئة التى هى عنوان الجندية الشريرة، والتى يشعل أصحابها نيران الفتنة فى جوانب الأمة، وستجد فيها ما يجب على قادة الأمة وزعمائها أن يعرفوه، وأن ينبهوا له وقت الإعداد، ووقت قيام الحرب بينهم وبين الأعداء، وفى كل وقت يتطلب الحيطة والحذر، وأن يتخذوا بإزائهم ما يجنب الدولة شرهم، ويقيها سوء خلالهم، وبذلك يطمئنون إلى سلامة الأمة ويأمنون جانب الشر والفساد.

هذا ما تضمنته الآيات مما يتصل بأخذ الحيطه والحذر.

الحرب سجال:

ثم تختم الآيات بعد ذلك بلفت الأنظار إلى شأن واقعى فى الحروب يجب أن يعرفه المجاهدون فى سبيل ؛ الله فيعصم نفوسهم من عوامل اليأس ، ويخفف عن كواهلهم ثقل العبء الذى يحملونه فى القتال ـ وبخاصة فى حالة الهزيمة التى يتعرض لها كل مجاهد ـ ذلك الشأن هو أن مشقات الحروب ، وما يكون فيها من نصر أو هزيمة قسمة بين الفريقين ، يفرح أحدهما تارة بالنصر ، ويحزن أخرى بالهزيمة ، فهم فى سنة الحرب سواء ، ولكن المؤمنين يمتازون عن خصومهم بأنهم جنود الحق . يقاتلون فى سبيل الله ، وخصومهم جنود الباطل ، يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، ﴿ **وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ .

صلاة الخوف:

ولا يفوت الآيات فى هذا السياق الطويل أن تنبه المجاهدين إلى ناحية من شأنها أن تقوى الروح المعنوية فيهم ، تلك الناحية هى الالتجاء إلى الله والاتصال به عن طريق القيام بأحب واجب دينى إليه سبحانه ، وأقوى مزك للنفوس وهى الصلاة ، فترخص لهم فيها كيفية خاصة لا تباح فى غير السفر والحرب ، وتأمر بالجمع بينها وبين أخذ الأسلحة والحذر ، وهكذا تشعرهم أنهم فى جميع حالاتهم ، عباد لله يجاهدون فى سبيله ، ويهدون بأمره ، ويخشون جلاله ، ويؤدون واجبه لا يلهيهم شأن عن شأن ، وتلك الصلاة هى صلاة الحرب ، المعروفة عند الفقهاء باسم : صلاة الخوف ، وفيها يقول الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢)**

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ .

دلالة تشريعها على أهمية الصلاة:

وفى تكليف المؤمنين بالصلاة وقت الحرب والاشتغال بقتال الأعداء ، وفى حالة ترقب الموت ؛ دليل واضح على أهمية هذا الواجب فى تزكية النفوس وفى الحصول على رضاء الله وعطفه ، وقد جاء مثل ذلك فى سورة البقرة : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ولا ريب أن الصلاة وهى مناجاة بين العبد وربه تبعث على مراقبة الله ، واستشعار عظمته ، وتجعل الإنسان فى حذر دائم من مخالفة أحكامه ، أو التقصير فى حدوده ، وبذلك يكمل للروح تهذيبها ، وللنفس قوتها وصلاحها . وحسب المؤمنين فى العناية بها أنها الركن الأول من أركان الدين بعد شهادة التوحيد والرسالة ، وأنها أقدم عبادة عرفت مع الإيمان ، وحكيت عن الأنبياء والمرسلين ويحدثنا القرآن أن إبراهيم يسكن ذريته بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم ، ثم يقول : ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ ويحدثنا عن عيسى وهو يقرر نعمة الله عليه : ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ﴾ . وقد قرن الله بينها وبين الصبر وجعلها عدة الإنسان فى هذه الحياة ، وطلب منه الاستعانة بهما على مشاقها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ .

وهكذا ، مما يكفى بعضه لرد هؤلاء الذين أساءوا إلى الصلاة ، وحرموا أنفسهم من آثارها الطيبة التى تعود عليهم بالخير العظيم والرضا العام والمكانة السامية عند الله .

حرب الأفكار والمبادئ:

وبعد أن عالجت السورة فى هذه الآيات وسائل الدفاع من الوجهة المادية على النحو الذى ذكرنا خلصت إلى نوع آخر من العلاج فى ناحية الحرب الفكرية ، التى تعلن على المسلمين ابتغاء زلزلة الإيمان فى قلوبهم ، وإضعاف معتقداتهم ، وصرفهم عن مبادئهم القويمة ، وفى هذا الجانب تعرض السورة للكثير من فتن أهل الكتاب الدينية ، وأساليبهم فى صرف المؤمنين عن حق الله وهدايته ، تعرض لعنت اليهود مع الرسول وطلبهم أن ينزل

عليهم كتابًا من السماء، ثم تخفف وقع ذلك على قلب الرسول، بأن هذا شأنهم الذى ارتكبه أسلافهم مع نبيهم موسى عليه السلام. وتعرض لموقفهم من مريم والمسيح، وتعلن صحيفة أسلافهم الماضين فى نقض المواثيق، والكفر بآيات الله، وأكلهم الربا وأموال الناس بالباطل.

ثم تعرض لغلو النصارى فى شأن المسيح وإساءتهم فى حق الألوهية، وتعلن واقع الأمر فى عيسى وأمه، إلى آخر ما يجده القارئ فى قوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا...** ﴾ الآيات ١٥٣ - ١٦١، وفى قوله: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا** ﴾ الآيتان: ١٧١ - ١٧٢.

من هذه الفصول التى كتبناها عن سورة النساء يتبين أنها عالجت أحوال المسلمين فيما يختص بتنظيم شئونهم الداخلية، وحفظ كيانهم الخارجى، وأنها لم تقف عند حد التنبيه على عناصر المقاومة المادية؛ بل نبهت على ما يجب أن نحتفظ به عقيدة الأمة ومبادئها من التأثير بما يلقى فى شأنها من الشكوك والشبه، وفى هذا إيحاء يجب على المسلمين أن يلتفتوا إليه، وهو أن يحتفظوا بمبادئهم كما يحتفظون بأوطانهم، وأن يحصنوا أنفسهم من شر حرب أشد خطرًا وأبعد فى النفوس أثرًا من حرب السلاح المادى: تلك هى حرب التحويل من مبدأ إلى مبدأ، ومن دين إلى دين، مع البقاء فى الأوطان والإقامة فى الديار والأموال.

ألا وإن شخصية الأمة ليتطلب بقاؤها الاحتفاظ بالجانبين: جانب الوطن والسلطان، وجانب العقيدة والإيمان. وعلى هذا درج سلفنا الصالح فعاشوا فى أوطانهم آمنين، وبمبادئهم وعقائدهم متمسكين.

وفق الله المسلمين إلى فهم أسرار كتابهم، واتخاذه أساسًا لحياتهم، حتى يعود إليهم ذلك المجد السالف، ويتبوءوا فى العالم المكانة التى أعدها الله لعباده المؤمنين الصالحين.

ســـــورة المائـدة

- قصة المائدة وما أثير حول نزولها من آراء.
- النداءات الإلهية فى السورة.
- العقود وسعة مدلولها ووجوب الوفاء بها.
- الشعائر التى أمر الله باحترامها، وحكمتها.
- أطعمة أهل الكتاب والتزوج بنسائهم.
- الطهارة فى الصلاة وما لها من أحكام وآثار.
- التيمم وأسراره التشريعية.
- مواثيق الله مع الناس.

(٥) سورة المائدة مدنية
وآياتها عشرون ومائة

سورة المائدة هى السورة الخامسة من سور القرآن الكريم فى الترتيب المصحفى، وتسمى أيضًا سورة العقود.

وجه تسمية السورة بسورة العقود:

أما وجه تسميتها بسورة العقود، فهو أنها السورة الوحيدة التى افتتحت بطلب الإيفاء بالعقود من المؤمنين ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾ وقد برزت فيها لذلك عناية خاصة بالتحدث عن ميثاق الله للمؤمنين والحث على الوفاء به شكرًا لله على نعمه ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾. وعن ميثاق الله لمن كان قبلهم من أهل الكتاب ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾. وقد أرشدت المؤمنين بذلك إلى أن النقص الدينى والفساد الخلقى والانحلال الجماعى، والارتطام فى الشهوات والأهواء، والخروج عن حدود الله وشرائعه، إنما أصاب أهل الكتاب بسبب نقضهم لهذه المواثيق، وعدم وفائهم بعقود الله معهم وتكاليفه لهم، والإخلال بما وثقوه بينهم من التزامات الخير والصلاح ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ** ﴾. ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ**

الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

وهكذا تبنى السورة من أولها إلى آخرها على حرفين واضحين:

أحدهما: حث المؤمنين على التزام المواثيق والعهود وتحذيرهم عاقبة إهمالها، أو الإخلال بشيء منها.

والآخر: النعى على أهل الكتاب نقضهم مواثيق الله، وأن هذا كان شأن جميعهم، تلقاه خلفهم الحاضر عن سلفهم الغابر، وأن الحاضرين إذا كانوا نقضوا ما بينهم وبين الله من مواثيق وبدلوا كتبه وخانوا رسله، فإن فيما أصاب سلفهم من عقاب على نكث العهود عبرة لهذا الخلف إذا استمر على خطة السلف، ولابد أن يصيبهم جزاء نقضهم للعهود ما أصاب آباءهم وأجدادهم من قبل، وتلك سنة الله فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

هذا إلى ما عرضت له السورة من عقود جزئية سنمر بها إن شاء الله تعالى:

وجه تسميتها بسورة المائدة:

أما وجه تسميتها بسورة المائدة فهو أنها السورة الوحيدة أيضًا التى تحدثت عن مائدة طلب الحواريون من عيسى عليه السلام أن يسألها ربه، وذلك فى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

استطراد:

هذه هى الآيات التى عرضت لمسألة المائدة، ويجدر بنا تعجيلا للفائدة أن نستطرد بتعليق وجيز على هذه الآيات لبيان ما تدل عليه فيما يختص بالحواريين وبالمائدة وضعًا

للحق فى نصابه، وقطعًا لألسنة تحاول تحريف الكلم عن مواضعه ابتغاء شهرة زائفة؛ أو فتنة جامحة.

الحواريون:

الحواريون: هى جمع حوارى، والحوارى لعيسى عليه السلام كالأنصارى لمحمد عليه الصلاة والسلام، وأصل الحوارى فى اللغة: الأبيض النقى اللون، وكانت العرب تسمى نساء المدن حواريات لبياضهن ونقائهن من قشف البدو. ثم استعمل الحوارى بمعنى النقى الخالص فى غير اللون، وبهذا أطلق اللفظ على خلصاء عيسى الذين صفت قلوبهم من الكفر والنفاق، وخلصت لنصرته وتأييده، وبادروا إلى الإيمان به فتلقوا عنه التعاليم وبثهم فى القرى للقيام بدعوته، وقد جاء ذكرهم فى الأناجيل باسم «التلاميذ». أما القرآن فقد ذكرهم باسم «الحواريين» فى أربعة مواضع هذا أحدها، والثانى فى الآيات التى هى قبل هذه الآيات: ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ** ﴾. والثالث فى سورة آل عمران، وذلك حيث يقول وهو بصدد الحديث عن إرسال عيسى إلى بنى إسرائيل: ﴿ **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾. والرابع فى سورة الصف، وذلك حيث يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ﴾.

اختلاف المفسرين فى إيمانهم:

هذه الآيات التى عرضت لذكر الحواريين فى القرآن الكريم، وهى مع وضوحها فى أن الحواريين كانوا مؤمنين مذعنين بربهم وبقدرته، ومخلصين لعيسى فى تلقى رسالته والعمل على نشرها، وصدقهم فى نصرته - مع هذا - يحكى المفسرون اختلافا بين العلماء فى أنهم: هل كانوا مؤمنين؟ فيرى بعضهم أنهم كانوا غير مؤمنين، ويرى آخرون أنهم مؤمنون. ولعل منشأ هذا الاختلاف هو ما جاء فى كلامهم لعيسى - عليه السلام - وهم

يسألونه المائدة من قولهم: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ وهو يشعر بشكهم فى قدرة الله على إنزال المائدة. وفى إضافة كلمة «رب» إلى خصوص عيسى إشعار واضح بتبريهم من ربوبيته لهم، وهو نظير إضافة فرعون كلمة إله إلى موسى فى قوله: ﴿ لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ ومن قولهم: ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ وهو واضح فى أن قلوبهم لا يزال مرض التكذيب يلعب بها، وما جاء كلام عيسى عليه السلام لهم: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإنه يدل على عدم وثوقه بإيمانهم. ثم ما جاء فى الآيات الأخرى التى ذكر فيها الحواريون، وقد أوردناها بنصها آنفا، وهى صريحة فى إيمانهم وإخلاصهم فى الإيمان، واضحة فى نصرتهم لعيسى.

واتخذ فريق من العلماء ما جاء فى آية السؤال أصلا فى معرفة حالهم، وقال: إنهم كانوا كافرين، شاكين فى قدرة الله، شاكين فى صدق عيسى، وعيسى شاك فى إيمانهم، قالوا: دلت آية السؤال على هذا ولم يرد فى شىء من الآية الأخرى أن الله شهد بإيمانهم أو قرر أنهم مؤمنون، وإنما جاءت كلها تحكى ادعاءهم أنهم آمنوا بالله: ﴿ قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾. ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾. وقد أظهر سؤالهم لعيسى فى شأن المائدة حقيقة ما تنطوى عليه قلوبهم من شك فى ربهم، وشك فى قدرته، وشك فى أن عيسى صدقهم، كما ظهرت حقيقتهم من جواب عيسى لهم. وبهذا كله رأى هذا الفريق من العلماء أن الحواريين كانوا كافرين.

أما الفريق الآخر فقد اتخذ الآيات الأخرى أصلا فى معرفة حالهم، وقالوا إنهم كانوا مؤمنين، فقد امتن الله بإيحاء الإيمان إليهم، واعتبره نعمة يذكر بها عيسى ضمن نعمه الأخرى عليه: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ والسياق امتنان الله على عيسى ووالدته بنعم الله عليهما: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ﴾ إلى أن قال بطريق العطف على ما عد من نعم: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ فالسياق كما ترى امتنان بالنعم، وما كان الله ليمتن بشىء وهو يعلم عدم حصوله له، وقد امتن الله بإيحاء الإيمان إليهم، وإيحاء الإيمان هو إلهامهم إياه، وما ألهمه الله عبده لا بد أن يكون

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ . ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ . ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ وهذا من ذاك ، ولو كانوا غير مؤمنين ، الله يعلم منهم عدم الإيمان والتظاهر بالإيمان ، لكانوا من المنافقين الذين يسرون الكفر ويعلنون الإيمان ، وما كانت سنة الله مع أنبيائه إلا أن يظهر لهم نفاق المنافقين ، ويكشف عن حقيقة نواياهم ، وليس من سنته ـ ولا من المعقول أن يكون من سنته ـ أن يجاريهم فيما يدعون دون أن يفضح لأنبيائه نفاقهم ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ .

هذا ، وقد ضرب الله وراء ذلك إخلاصهم لعيسى عليه السلام ، ونصرتهم إياه ، مثلا للمؤمنين ، وطلب منهم احتذاءه ، وأن يكونوا من محمد كما كان الحواريون من عيسى . وما كان الله ليضرب إخلاصهم مثلا للمؤمنين ويطلب منهم أن يكونوا مع محمد كما كان الحواريون مع عيسى إلا وهو يعلم صدقهم فى الإيمان ، وإخلاصهم فى النصرة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ .

رأينا فى ذلك:

وفى رأيى أنه لا تعارض بين ما يفهم من الآيات جميعًا ، فآية السؤال قد يؤخذ منها أنهم شاكون ، والآيات الأخرى يؤخذ منها أنهم مؤمنون ، وليكن كل هذا ؛ فإن من المعلوم أن الدعوات تبتدئ دائمًا بمرحلة من التردد فى نفوس المدعوين ، تختلف باختلاف الأفراد فى الاستعداد لإدراك الحق وقبوله فمنهم من يبادر بالإيمان ، ومنهم من يمتد به التردد حتى يرى ما يطمئنه فيطمئن ، وليست أمة عيسى فى هذا بدعًا من الأمم ، فقد رأينا مثل ذلك فى أمة محمد ـ ﷺ ـ ، إذ سارع منهم من سارع ، وتأخر من تأخر ، وصدف منهم من صدف ، وما كان تأخر مثل عمر وخالد بالذى يبعدهم عن مرتبة النصرة للحق ، والصدق فى الإيمان بمحمد ودعوته ، وعلى هذا فمن الجائز القريب أن يكون الحواريون ممن تريثوا فى بادئ الدعوة وناقشوا فيها ، وطلبوا الآيات عليها مرة بعد مرة ، حتى يطمئنوا ويصلوا إلى الإيمان بعد الشك . إن دل كلامهم فى آية السؤال على شىء من الشك فإنما كان ذلك فى مرحلة النظر والاستدلال . وإذا دلت الآيات الأخرى على إيمانهم فإنما كان ذلك بعد انتهاء هذه المرحلة ، وتقرر الإيمان فى نفوسهم .

على أنه إذا فرض إيمانهم من أول الأمر وعدم ترددهم فى صدق عيسى، فليس فى آية السؤال ما يترجح به شكهم على إيمانهم، ذلك أن «استطاع» تأتى أحيانًا بمعنى أطاع كما قالوا «استجاب» بمعنى أجاب، ويكون المعنى على هذا «هل يطيعك ربك إن سألته إنزال المائدة؟» وقد تلتقى مع هذا المعنى قراءة: «هل تستطيع ربك» أى هل تستطيع أن تسأله وأنت على اطمئنان من أنه يستجيب لك؟، وهذه القراءة مروية عن على وعائشة وابن عباس وغيرهم، وقالت عائشة رضى الله عنها: كان القوم أعلم بالله عز وجل من أن يقولوا «هل يستطيع ربك» ولكن «هل تستطيع ربك» وعن معاذ بن جبل قال: أقرأنى النبى - ﷺ -: «هل تستطيع ربك» وقال: سمعته مراراً يقرأ بالتاء: «هل تستطيع ربك» وإذا كانت هذه القراءة بتلك المكانة فى الرواية ومعناها واضح فى عدم شكهم، فلتحمل عليها القراءة الأخرى جمعا بين القراءتين، وعملا بالآيات الواضحة فى إيمانهم وصدق قدمهم فى تصديق عيسى عليه السلام.

على أن مجرد السؤال لا يدل على المكابرة وعدم الإيمان، وها هو ذا إبراهيم عليه السلام يسأل: ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى؟** ﴾ فيجاب: ﴿ **أَوَلَمْ تُؤْمِن** ﴾ فيقول: ﴿ **بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ وليس من شك فى أن سؤال إبراهيم لم يكن عن شك، وإنما كان طلبًا لطمأنينة القلب بعلم المعاينة التى لا يطوف حولها خيال من الريبة أو الشبهة، بعد أن علم بالنظر والاستدلال، وهذه مرتبة فوقها مرتبة. وقد قال الحواريون فى بيان غرضهم من المائدة: ﴿ **نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ فذكروا طمأنينة القلب، وعلم الصدق عن طريق المشاهدة والمعاينة. ومن هنا نرى رجحان القول بإيمان الحواريين.

درجات الإيمان:

وإذا كانت درجات الإيمان متفاوتة، وكان الشخص ينتقل من درجة إلى أسمى منها، فإن لعامة المؤمنين درجة أو درجات، ولخصوص الأنبياء والمقربين درجة أو درجات، وكثيراً ما تلمح مظاهر التفرقة بين درجات إيمان المقربين، ودرجة إيمان غيرهم. وبالنظر فى بيان الغرض من المائدة حسب ما قدر الحواريون، والغرض منها حسب ما رأى عيسى، تدرك شيئًا من مظاهر الفرق بين درجات القرب من الله والإيمان به.

نظر لطيف للرازى:

وفى هذا المقام قال الرازى فى تفسيره الكبير: «تأمل فى هذا الترتيب؛ فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا فى طلبها أغراضًا، فقدموا ذكر الأكل، فقالوا: نريد أن نأكل منها، وأخروا الأغراض الدينية الروحانية: فأما عيسى فإنه لما طلب المائدة، وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية، بعد أن توجه بالخطاب إلى الله بوصف الربوبية بالإضافة إلى ضمير المتكلم، وفيه التمهيد بحاجة المربوبية إلى غنى الربوبية، فقال: ﴿ **تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ** ﴾، وأخر غرض الأكل حيث قال: ﴿ **وَارْزُقْنَا** ﴾ وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح فى كون بعضها روحانية وبعضها جسمانية، ثم إن عيسى عليه السلام لشدة صفاء دينه، وإشراق روحه، لما ذكر الرزق بقوله ﴿ **وَارْزُقْنَا** ﴾ لم يقف عليه، بل انتقل من الرزق إلى الرزاق فقال: ﴿ **وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾. فقوله: «ربنا» ابتداء منه بذكر الحق سبحانه، ﴿ **أَنزِلْ عَلَيْنَا** ﴾ انتقال من الذات إلى الصفات، وقوله: ﴿ **تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ** ﴾ إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة بل من حيث إنها صادرة عن المنعم، وقوله: ﴿ **وَآيَةً مِنْكَ** ﴾ إشارة إلى كون هذه المائدة دليلا لأصحاب النظر والاستدلال، وقوله ﴿ **وَارْزُقْنَا** ﴾ إشارة إلى حصة النفس. قال الرازى: فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلا إلى الأدنى، ثم قال: ﴿ **وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق، ومن غير الله إلى الله، ومن الأخس إلى الأشرف، وعند ذلك تلوح لك شمَّة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية الإلهية، ونزولها وهذا سبح لا يجد شاطئه، تسبح فى أجوائه وآفاقه الأرواح الصافية، والقلوب المتعلقة بحضرة مالك القلوب، وليس ذلك مما لا يمكن تحديده بالعبارات ولا رسمه بالكلام، وإنما هو إيمان وذوق، فآمن وتأمل وتنقل فى درجات الإيمان ومراتب التعلق تحظ بإدراك الخير كله، وتملك قلبك عز المعرفة، وسمو الجلال.

المائدة وما يذكر فى شأنها من الأساطير:

هذا، وقد تكلم العلماء أيضًا فى هذا المقام على المائدة التى سألها الحواريون عيسى، هل نزلت أم لا؟ وتكلموا على أوصافها وما احتوت عليه من ألوان الطعام والشراب، وحسبك فى معرفة ما قالوه فى هذا الأخير أن ترجع إلى أى كتاب من كتب التفسير

المتداولة لتقرأ في أوصافها وأوصاف ما وضع عليها الشيء الكثير، مما يجعلك تؤمن أن كل ما قيل حولها من افتراء المفترين، أو أساطير الإسرائيليين. وقد سبق لنا في تفسير سورة البقرة أن سقنا في ذلك ما كتبه أبو السعود في تفسيره، وكان ذلك بمناسبة الكلام على قصة البقرة ومناهج الناس في فهم القصص القرآني فارجع إليه إن شئت.

هل نزلت فعلاً؟ آراء النافين والمثبتين في ذلك وأدلتهم:

أما نزولها فقد ذكرت كتب التفسير أن العلماء اختلفوا فيه، وأن الجمهور على أنها نزلت، وقد تعددت الروايات على هذا الرأي فيما كان عليها من أصناف الطعام وألوانه، وعن كيفية نزولها ومكانه، وكيفية استقبالها وكشف غطائها، والأكل منها، والباقي عليها بعد الأكل، إلى غير ذلك مما نضرب عنه صفحًا. وأن الحسن ومجاهداً وقتادة قالوا: إنها لم تنزل، وذكروا في ذلك أنه لما قيل لهم: ﴿ **إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ ـ وهو واضح في التوعد بالعذاب الشديد عند عدم إيمانهم بعيسى ودعوته ـ استعفوا واستغفروا الله وقالوا: لا نريدها. وقد أنبأنا القرآن الكريم أن سنة الله فيمن يقترحون الآيات على أنبيائهم: أنه إذا أجابهم إليها ثم لم يؤمنوا عاجلهم بالعذاب ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ** ﴾. ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ** ﴾.

الاستدلال بأن النصارى لا يعرفون هذه القصة:

هذا، وقد استدل بعض الكاتبين على عدم نزولها بأن النصارى لا يعرفونها وليس لها ذكر في كتبهم، ولم يكن لهم عيد يعرف بعيد المائدة، وبأن نزول مائدة من السماء خارق عظيم للعادة من شأنه أن تتوافر الروايات على نقله وتواتره لغرابته، فلو كانت المائدة نزلت لكان خبرها موجوداً في كتبهم، وكان متواترًا، مع أنها لم توجد حتى ولا برواية الآحاد. ولنا أن نقول: إن هذا الاستدلال إن كان يعني عدم نزولها فقط، فقد يكون له شيء من الوجاهة، وإن كان يعني أنها لم تنزل ولم تسأل، فهو محل نظر كبير: لأن السؤال ما لم ينته بإجابة كونية فعلية تبرز بها المائدة للناس، ويرونها بأعينهم، ويلمسونها بأيديهم فلا يعد بذلك مما تتوافر الدواعي على نقله، لا سيما وعيسى في بيئة محصورة: جماعة سألوا

وأجيبوا، وانتهى الأمر برجوعهم عما سألوا، فعدم تواتر سؤالها فى كتب النصارى أو عدم وجوده فيها لا يستغرب، كما يستغرب الأمر فيما لو نزلت المائدة فعلا ورآها الناس فعلا، وأكلوا منها، وتذوقوا طعامها، ولم يذكر عن ذلك شىء.

هيمنة القرآن على الكتب السابقة:

وقد ذكر القرآن هذه الحقيقة ابتداء وانفرد بها عن سائر الكتب، ولا يلزم أن يكون كل ما قصه الله تعالى فى القرآن قد قصه فى غيره من الكتب المتقدمة، ولا أن أصحاب الأناجيل علموا بكل شىء حتى بمثل هذه المحاورة الخاصة التى لم تنته بحادث كونى حتى يكون عدم ذكرهم إياها فى أناجيلهم - التى وضعوها - دليلا على عدم سؤالها، فقصة السؤال إذن لم ترد فيما عند النصارى ولكنها وردت فيما عند المسلمين، ومن الجائز أن تكون مما ورد فى الإنجيل، وأن تكون مما أخفاه أهل الكتاب، أو ضاع منهم علمه بسبب ما، والقرآن كما وصف نفسه مهيمن على كتبهم التى وصفها بأنهم حرفوها وأنهم كانوا يخفون كثيراً منها، وأنه يبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون.

ونذكر بهذه المناسبة كلمة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيما يختص بنسبة القصص القرآنى عامة إلى كتب العهد القديم، قال رضى الله عنه: «وإذا ورد فى كتب أهل الملل أو المؤرخين ما يخالف بعض هذه القصص فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه ونقل إلينا بالتواتر هو الحق، وخبره الصادق، وما خالفه هو الباطل، وناقله مخطئ أو كاذب، فلا نعده شبهة على القرآن، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه، فإن حال التاريخ قبل الإسلام كانت مشتبهة الأعلام، حالكة الظلام، فلا رواية يوثق بها فى معرفة رجال سندها، وقد انتقل العالم بعد نزول القرآن من حال إلى حال، فكان بداية تاريخ جديد للبشر، كان يجب عليهم لو أنصفوا أن يؤرخوا به أجمعين».

ومما سبق يتبين أن الرأى فى المسألة دائر بين رأى الجمهور القائلين بالنزول، ورأى الحسن ومن معه القائلين بعدم النزول، وأن الفريقين متفقان على أن الحواريين سألوا عيسى المائدة، وأن عيسى سألها ربه، وأن الله أجاب بما أجاب، وأن الجمهور يرون أن قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ وعد، ووعد الله لا يتخلف فلا بد أن تكون قد نزلت، وأن الحسن وأصحابه يرون أنه وعد مقيد بما رتب عليه من وقوع العذاب بهم إذا لم يؤمنوا بعد نزولها،

وأن القوم أشفقوا على أنفسهم بثقل هذا الشرط ، فرجعوا واستعفوا من طلبها مخافة أن يحل بهم العذاب على فرض كفرهم ، أو كفر أحد من معاصريهم بعد نزولها ، وعليه فلم يعد هناك مبرر لإنزالها فلم تنزل .

ما يجب الإيمان به فى شأن المائدة:

وسواء علينا أقلنا بنزولها كما يعزى إلى الجمهور ويرجحه ابن جرير ، أم قلنا بعدم نزولها كما يعزى إلى الحسن ومجاهد وقتادة ما دمنا نؤمن بأن الحواريين سألوا عيسى أن يسأل ربه المائدة ، وأن عيسى ـ عليه السلام ـ سألها ربه بناء على سؤالهم ، وأن الله تعالى أجاب بما أجاب به وعداً غير مقيد كما يرى الجمهور . أو مقيداً كما يرى الحسن ومن معه ، سواء علينا هذا أو ذاك ما دمنا نعتقد ما قصة القرآن علينا ، والله لم يكلفنا باعتقاد واحد من الأمرين ، وليس فى القرآن ما يقطع بأحدهما عينا حتى تكون مخالفته مخالفة لقطعى فى ثبوته ودلالته ، والآيات كما ترى محتملة للرأيين ، فلكل من اطمأن إلى أحد الاحتمالين : النزول أو عدمه أن يعتقده ، أما أن يقال : إن الحواريين لم يسألوا ، وإن عيسى لم يسأل ربه ، وإن الله لم يجب بما أجاب ، اعتماداً على أن خبر المائدة لا تعرفه النصارى ، ولا هو موجود فى كتبهم ، فهو قول يخرج بصاحبه إلى إنكار صريح القرآن البين فى سؤال المائدة وإجابة الله عنه ، وقد علمت من كلمة الإمام الشيخ محمد عبده منزلة ما قصة القرآن علينا بما لم يرد فى كتب القوم .

رأى بعض المتفلسفة العصريين فى القصص القرآنى:

بقى أن جماعة من متفلسفة هذا العصر حاولوا أن يعيدوا بعض آراء قوم حكموا عقولهم فيما قصه الله فقالوا : إن مثل هذا القصص لا يلزم أن يكون صادقًا يحكى واقعًا صحيحًا ، وإنما يجوز أن يكون القرآن جارى فيه معلومات عامة اشتهرت على تعاقب العصور من غير أن يكون لها أصل كونى ، وأن القرآن حدث القوم بما يتناقلون من معارف مأثورة ، وإن لم يكن لها واقع صحيح ، قالوا : ومن الجائز أن يكون القرآن هو الذى وضعها ابتداء بقصد التخييل لغرض صحيح ، وهو التأثير على القوم فى سبيل اعتناق الحق الذى يدعون إليه ، وعليه يكون سؤال الحواريين افتراضًا وتخييلاً ، وإجابة عيسى افتراضًا وتخييلاً ، وإجابة الله لهم على النحو الذى أجاب به افتراضًا وتخييلاً ، وكل ما تضمنته

هذه الآيات من نسب هى حكايات عن مفروض متخيل، لا واقع له تنطبق عليه وإنما هى تخييل فى تخييل، واختراع فى اختراع ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾.

فساد هذا الرأى ومنافاته لقدسية القرآن:

وهذه آراء - فضلا عما لها من نتائج سيئة - تذهب بقدسية القرآن من النفوس، وتزيل عنه روعة الحق، وتزلزل قضاياه فى كل ما تناوله من عقائد وتشريع، وأخبار ماضية، وأحوال مستقبلة، وتفتح لكل إنسان أن يقول فى كل هذا: ليس له مدلول ولا واقع يدل عليه، وإنما هو إما مجاراة لخطأ أو تخييل سبق لمجرد بعث الرغبة أو الرهبة أو العظة، وتقويم النفوس، وإصلاح المجتمعات، ولا يلزم أن يكون لما سبق لهذا الغرض واقع صحيح ينطبق عليه.

هذه الآراء فضلا عما لها من تلك النتائج السيئة هى فاسدة فى ذاتها؛ لأن القرآن عربى، نزل بلغة العرب، وقانون اللغة المتواتر يقضى بحمل الكلام على ظاهره، وما تدل عليه ألفاظه من المعانى المعروفة لها عند المخاطبين، ما لم يمنع من ذلك الحمل مانع، فيصار تحت ضغط هذا المانع إلى التأويل كالمتشابه، أو التخييل كما فى رءوس الشياطين، وكما فى ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ وعندئذ فقط يصرف الكلام عن ظاهره، ولترجع إلى ما شرحنا به مناهج الناس فى فهم القصص القرآنى - فى تفسير سورة البقرة - لتشبع نفسك مما كتبناه هناك[1].

هذا ما أردنا التعليق به فى شأن الحواريين، وفى شأن المائدة، ونرجو أن نكون قد لفتنا أنظار المؤمنين بالله وبما أنزل الله على رسوله - من كتاب يهدى إلى الحق، ويقص الحق - إلى ما يقتحمه أرباب الهوى فى فهم القرآن وتحريفه، ونسبة التخييل إليه بمحاولة إخراجه فى أسلوب روائى لمعان مخترعة لا تتصل بالواقع ولا تصف ما أظله الوجود.

الحكمة فى أن الله قص علينا هذه القصة:

بقى أن نتساءل عن الحكمة فى أن يقص القرآن علينا هذه القصة؟ والجواب عن هذا - إذا

---

(١) انظر ص ٣٧ وبعدها من هذا الكتاب.

أخذنا برأى الجمهور وأن المائدة نزلت - واضح بين، وهو أنها آية ونعمة لبنى إسرائيل يمتن بها الله على خلفهم الذين كانوا فى عهد النبى، وأن غاية الله بإجابة مطالب سلفهم توحى إليهم بمعرفة ذلك الفضل، والإيمان بمن أوحى إليه وظهر على يديه وهو محمد - ﷺ - .

أما إذا أخذنا برأى القائلين بعدم نزولها فالحكمة فى ذكر هذه المحاورة هى تنبيه أمة محمد إلى أنه لا ينبغى أن يحكموا الآيات التى يقترحونها فى إيمانهم بمحمد، وأن لهم فيما يظهره الله من البينات وبراهين الحق بلاغًا وكفاية ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وجدير بهم - إذا سمعوا مثل هذه المحاورة وما قيد به نزول المائدة على بنى إسرائيل - أن يخشوا عاقبة الآيات المقترحة، وأن يقدروا النتائج التى تترتب على الكفر بعد إجابتهم إليها، كما خاف الحواريون ذلك وقدروا النتائج فرجعوا عما اقترحوا، فليتخذوا الحواريين أسوة لهم فى ذلك إذا طلب الله منهم أن يكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله .

الظروف التى نزلت فيها السورة ومناسبة موضوعاتها لها:

هذا، وفى السورة ما يرشد إلى الوقت الذى نزلت فيه، وإلى الحالة التى صار إليها المسلمون فى ذلك الوقت، فقد جاء فيها بعد أن فصل الله محرمات الطعام قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ والفقرة الأولى ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ ﴾ تقرر أن المشركين الذين كانوا يعملون دائمًا على قهر المسلمين وإذلالهم وتشتيتهم وتفريق كلمتهم وفتنتهم عن دينهم صاروا من كل ذلك فى عجز وضعف، واستولى عليهم اليأس فى الوصول إلى شىء من أغراضهم، وعليه فيجب على المسلمين - وقد عصمهم الله من أعدائهم وبدل بضعفهم قوة وبخوفهم أمنًا وبفقرهم غنى - أن يشكروا رب هذه النعمة وألا يكترثوا فى تنفيذ أوامره وإقامة دينه وتنفيذ أحكامه بأحد سواه .

ولا ريب أن هذا القهر الذى حاق بالمشركين كان أثرًا للقوة التى صارت إليهم فى ذلك الوقت، وتقرر الفقرة الثانية ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... إلخ ﴾ بشارة عظيمة هى فى الواقع بمنزلة البيان أو التعليل لما استفيد من الفقرة الأولى من وقوع المشركين فى اليأس وحصول المسلمين على النصر والقوة؛ وذلك أن إكمال الدين على الإطلاق يتناول إكماله

بالبيان والتشريع، وإكماله بالقوة والتركيز. وإن أكبر النعم التى يمتن بها العظيم ويضيفها إلى نفسه تفخيما لها لهى النعمة التى بها يستتب النظام وتوضع القوانين، وتبين الحقوق والواجبات، وتقضى على نوازع الشر ومنابع السوء، وتقهر العدو، وتدك صرح باطله، وتجعله فى يأس من عودة القوة إليه، نعم إنها لأكبر النعم. ويكشف عن هذا ما روى أن رجلا من اليهود جاء إلى عمر - رضى الله عنه - فقال: إن فى كتابكم آية تقرءونها لو علينا أنزلت - معشر اليهود - لاتخذنا اليوم الذى أنزلت فيه عيداً، قال عمر: وأية آية؟ قال: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ فقال عمر: إنى والله لأعلم اليوم الذى أنزلت فيه والساعة التى نزلت فيها، نزلت على رسول الله عشية عرفة فى يوم جمعة والحمد لله الذى جعله لنا عيداً.

ومن هذا كله نأخذ أن سورة المائدة لم تنزل إلا بعد أن قلمت أظفار المشركين، وانزوى الشرك فى مخابئه المظلمة، وصار المسلمون فى قوة ومنعة كانوا بهما أصحاب السلطان والصولة فى مكة وفى بيت الله الحرام، يحجون آمنين مطمئنين وقد نكست أعلام الشرك وانطوت صفحة الإلحاد والضلال. ولا ريب أن هذه الحالة لم تصل إلى المسلمين إلا بعد أن فتح الله مكة للإسلام، وإلا بعد أن نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ وهذا يقرب لنا صحة ما يروى من أن النبى قرأ سورة المائدة فى حجة الوداع وقال: «يأيها الناس إن سورة المائدة آخر ما نزل فأحلوا حلالها وحرموا حرامها». وقد روى عن السيدة عائشة أنها قالت: «إن المائدة من آخر ما أنزل الله، فما وجدتم فيها من حلال فأحلوه، وما وجدتهم فيها من حرام فحرموه». ويتبين من هذا أن سورة المائدة كانت آخر ما أنزل أو على الأقل من آخر ما نزل.

ظواهر تنفرد بها السورة:

وهذه النتيجة تفسر لنا جملة من الظواهر نجدها فى المائدة ولا نكاد نجد شيئًا منها فى غيرها من السور المدنية، حتى فى أطول سور القرآن وهى سورة البقرة؛ ذلك أنها لم تتحدث عن الشرك ولا عن المشركين على النحو الذى ألف فى القرآن من محاجتهم وتسفيه أحلامهم وتحقير شركائهم، وأنها لم تعرض فى قليل ولا فى كثير إلى ما عهد فى أكثر السور المدنية التى نزلت قبلها من الحث على القتال والتحريض عليه، ورسم خطط

النصر والظفر بأعداء الله المشركين، كما نراه فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتوبة، لأن المسلمين فى ذلك الوقت لم يكونوا بحاجة إلى شىء من هذا الحديث، فقد انقشعت عن سمائهم سحابة الشرك، ورسخت أحكام الله ـ فيما يختص بالجهاد ـ فى قلوبهم، وأصبحوا لا يخشون أحدًا غيره فى أحكامه، وصار المشركون فى قهر وذلة ويأس. ولكن إذا كان المشركون قد انقضى عهدهم فإن للمسلمين أنفسهم شئونًا، هم فى حاجة إلى إكمال التشريع المنظم لها والسياسة التى تديرها، على وجه يضمن لهم دوام السعادة ويحفظ لهم السيادة. ولهم بعد ذلك صلات خاصة بطوائف من أهل الكتاب يعيشون فى ذمتهم وعهدهم، ويخالطونهم فى حياتهم ومعاملاتهم، ومن ذلك لا يسلم الأمر من الخوض معهم فى أحاديث تتصل بدينهم وكتبهم.

ومن هنا يتبين أن المسلمين فى ذلك الوقت كانوا فى حاجة إلى ما يغنيهم فى الجانبين: جانب أنفسهم، وجانب علاقتهم بأهل الكتاب. وبذلك دار كل ما تضمنته سورة المائدة ـ كما قلنا ـ على أمرين بارزين: تشريع للمسلمين فى خاصة أنفسهم وفى معاملة من يخالطون، وإرشادات لطرق المحاجة والمناقشة وبيان الحق فى المزاعم التى كان يثيرها أهل الكتاب مما يتصل بالعقائد والأحكام.

وفى سياق هذه المحاجة تعرض السورة لكثير من مواقف الماضين من أسلاف أهل الكتاب مع أنبيائهم، تسلية للنبى ـ ﷺ ـ من جهة، وتنديداً بهم عن طريق أسلافهم من جهة أخرى.

النداءات الإلهية للمؤمنين فى هذه السورة واعتبار كل منها قانونًا منظمًا لشأن من الشئون:

تحدثت السورة عن ذلك كله، ونادى الله عباده المؤمنين بما شرع لهم من أحكام وأرشد إليه من أخلاق فى مواضع لم نر عددها فى أطول سورة وهى البقرة. ويجدر بنا أن نضعها أمام القارئ الكريم ليكون على ذكر منها ويسير معنا فى شرحها وبيان ما يتيسر من أحكامها، وها هى ذى على الترتيب:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ..... ﴾.

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله .... ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم .... ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط .... ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم .... ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة .... ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء .... ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ... ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء .... ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا .... ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه .... ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم .... ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم .... ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم .... ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم .... ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية .... ﴾ .

هذه ستة عشر نداء وجهت إلى المؤمنين خاصة ، يعتبر كل نداء منها قانونًا ينظم ناحية من نواحى الحياة عند المسلمين فيما يختص بأنفسهم ، وفيما يختص بعلاقتهم بأهل الكتاب .

نداءان من الله لرسوله:

وقد وجهت السورة النداء إلى النبي - ﷺ - بصفة الرسالة خاصة مرتين اثنتين، ولم يوجد نداء له - ﷺ - بهذا الوصف في غير هذه السورة: هذان النداءان هما:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾.

نداءان لأهل الكتاب:

ووجهت السورة أيضًا النداء إلى أهل الكتاب مرتين اثنتين هما:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ﴾.

وأمرت الرسول ثلاث مرات أن يوجه إليهم النداء في موضوعات ثلاثة في شأن ما يثيرون به الخلاف بينه وبينهم.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾.

هذه جملة النداءات التي وجهت إلى الرسول - ﷺ -، وإلى المسلمين وأهل الكتاب، أو أمر النبي بتوجيهها إليهم في هذه السورة.

وسنتحدث عن جملة من هذه النداءات الإلهية، وما تضمنته من تشريع وإرشاد، ونبدأ بما بدأ الله به السورة الكريمة، فنقول:

النداء الأول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

مسئولية الالتزام التعاقدى:

هذا النداء يقرر الأساس فى مسئولية الالتزام التعاقدى، والالتزام التعاقدى شأن اجتماعى خطير . والوفاء، والإيفاء : الإتيان بالشىء كاملا غير منقوص . والعقود : جمع عقد، وهو ما يلتزمه المرء لنفسه أو لغيره . وأساسه قد يكون شأنًا فطريًا تدعو إليه الطبيعة، وقد يكون شأنًا تكليفيًا تدعو إليه العقيدة، وقد يكون شأنًا عرفيًا يدعو إليه الالتزام والتعاهد، وهذا يكون بين الفرد والفرد، كما فى البيع، والزواج، والشركة، والوكالة، والكفالة . . إلى آخر ما تعارفه الناس ويتعارفونه من وجوه الاتفاقات .

ميثاق الإيمان بين الخالق والمخلوقين:

فالفطرة التى فطر الله الناس عليها وملأ بها الكون بالآيات، والشواهد الدالة على وجوده وعظمته، ثم منحه الإنسان عقلا به يفكر ويستدل، وتهيئته للنظر - هذه الفطرة بمثابة عقد جرى بين الله والإنسان فى أن ينظر ويفكر ويستدل، حتى يؤمن بالله ولا يشرك به شيئًا من دونه، وقد ذكر القرآن هذا العهد ونبه الإنسان إليه، وأقام عليه الحجة به فى قوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

من مقتضيات هذا الميثاق التزام التشريع الإلهى وحده:

والإيمان بالله ورسله وكتبه بمثابة عقد بين المؤمن وبين الله فى أن يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه، ويتبع إرشاداته التى تضمنها كتابه، وبينها رسوله، وألا يحيد عنها قيد شعرة

فضلا عن أن يستبدل غيرها بها، ويعتمد عليه فى تنظيم حياته الخاصة والعامة. فالمحافظة على ما شرع الله من عبادات، وأرشد من معاملات، من مقتضى عهد الإيمان. والتزام ما رسمه الله فى إنشاء الأسرة من الزواج إلى تربية الأبناء والعدل بينهم من مقتضى عهد الإيمان. والقيام بموجب عقود البيع والإجارة والرهن والمداينة والتجارة على ما وضعه الله فى كتابه، وبينه رسوله، من مقتضى عهد الإيمان. وهكذا يوجب الإيمان القيام بكل ما شرع الله من أحكام.

التعاقد محترم إلا ما أحل حرامًا أو حرم حلالاً:

والارتباط بين الإنسان وأخيه الإنسان فيما لا يحرم شيئًا أحله الله، أو يحل شيئًا حرمه الله، عقد يجب الوفاء به، والارتباطات بين الناس ذات ألوان شتى، وأنواع مختلفة، وكلها واجبة الوفاء، إلا ارتباطًا أحل حرامًا، أو حرم حلالا: فالعقود التى يكره عليها الإنسان وتفقد عنصر الرضا، والعقود التى يتفق فيها على إفساد فى الأرض أو استغلال حاجة الضعيف، أو الحصول على أموال من طريق غير مشروع كالقمار والرشوة، والاتجار فى الخمر والخنزير وما شابه ذلك، كلها عقود يحرم الوفاء بها، وتجب محاربتها والقضاء عليها وتطهير المجتمع منها.

والآية بعمومها تتناول العقود التى تكون بين أمة وأمة، كما تناولت ما يكون منها بين الفرد والفرد. وللقرآن الكريم موقف واضح فى هذا النوع من العقود يطلب فيه بنوع خاص ألا يمس التعاقد الأساسى للإسلام، وأن يكون مبنيًا على التراضى والاطمئنان من الجانبين، وأن يكون واضحًا فى تحديد الالتزامات والحقوق والواجبات، لا يدع مجالا للتأويل ولمحاولة الخروج عن العهدة ومن ذلك يرى الإسلام أن التعاقد الذى يتضمن انتهاك الحرمة للشخصية الإسلامية فى بلاد الإسلام - كالحكم فى الأعراض والأموال بغير ما أنزل الله، وكمنح غير المسلمين فى بلاد الإسلام حقوقًا تفسد أخلاق المسلمين ولا تتفق وسلطانهم فى بلادهم - تعاقد باطل يحرم الوفاء به ويجب نقضه، وكذلك يرى أن التعاقد المأخوذ بسيف القهر وسلطان القوة، والتعاقد الذى يتخذ وسيلة للاحتيال على السلب والاغتصاب، تعاقد باطل يجب نقضه ويحرم الوفاء به.

عهد بين الحاكم والمحكوم:

وتتناول الآية بعد هذا كله عهد الحكم بين الحاكم والمحكوم، وكثيراً ما عرض القرآن لهذا العهد: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾. هذا من جهة الحاكم، أما من جهة المحكوم فالطاعة وتنفيذ الأحكام والقوانين ما لم تكن فى معصية الله ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾.

ميثاق أهل العلم:

وتتناول عهد العلم بالبيان والإرشاد بين العالم والناس، وقد عرض له القرآن أيضًا، وحذر نقضه بالكتمان أو التحريف ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ﴾، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ! ﴾.

الحلال والحرام وطغيان الناس فى التحليل والتحريم افتراء على الله:

وبعد أن وضح الله هذه «الكلية» العامة الشاملة لجميع أنواع العقود على النحو الذى شرحناه، أخذ يفصل بعض ما تتناوله تلك الكلية فيما يتصل بحاجة الإنسان الشخصية، وهى الطعام الذى به قوام حياته، والذى كان للناس فى جميع أطوارهم بالنسبة إليه مذاهب وآراء فيما يطعمون منه وما لا يطعمون: يحرمون منه ما شاءوا، ويحلون منه ما شاءوا، تبعًا للأهواء والأوهام. وقد أشار القرآن كثيرًا - فى هذا الشأن - إلى تصرفاتهم التى كانوا بها يحللون ويحرمون، وإنك لتقرأ فى سورتنا هذه: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾.

وهذه أنعام كانوا يحرمونها بأهوائهم «البحيرة» هى الناقة التى كانوا يبحرون أذنها، أي يشقونها شقًا واسعًا، وكانوا يفعلون بها ذلك إذا ولدت خمسة أبطن أو عشرة على اختلاف الرواية فى ذلك، ويقصدون بذلك الشق الدلالة على تحريم أكلها، أو الانتفاع بها ركوبًا أو حملا عليها، و«السائبة»: هى الناقة التى كانت تسيب، بنذرها للآلهة، فترعى حيث شاءت، ولا يحمل عليها شىء، ولا يجز صوفها، ولا يحلب لبنها إلا لضيف، و«الوصيلة»: هى الشاة التى تصل الأنثى بالأنثى فى النتاج، ليس بينهما ذكر، و«الحام»: هو فحل الضراب والتلقيح، كانوا إذا أتم عددًا مخصوصًا من الضراب يحمون ظهره ويتركونه دون أن ينتفعوا به.

نفى الله مشروعية ذلك كله، وجعله من تصرف الأهواء والأوهام، واغتصاب حق التحليل والتحريم الذى هو لله وحده. وقد رأينا لهذه العادة الضالة بقايا حتى فيما بين المسلمين فيما ينذرونه من الأنعام للأولياء والمقربين، وإن اختلفت صور التقليد والتعليم للمنع والتحريم، وقد عرضت لذلك سورة الأنعام فى مناقشة طويلة وتهكم واضح من تصرفاتهم فى التحليل والتحريم على هذا الوجه أو غيره مما كانوا يعتادون ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا** ﴾، ﴿ **وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾. ﴿ **ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾.

ولعل فى هذا التقريع الشديد والتهكم اللاذع لأنظار هؤلاء الذين يجعلون لأنفسهم باسم تدينهم حق تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل - إلا أن التحليل والتحريم التعبديين من خصائص الألوهية وحدها، وأن التصرف فى المخلوقات بالتحليل أو التحريم ليس مما فوض أمره إلى البشر، نعم هناك من الشئون والأعمال ما يبيحه الله باعتبار ذاته وبقطع النظر عما قد يترتب عليه من أضرار ومنافع، ومثل هذا قد أعطى للإنسان الحق فى تحريمه إذا كان حلالا متى تيقن أو غلب على ظنه أنه سبيل لضرر أو إيذاء، كما أعطى الحق فى

إيجابه متى تيقن أنه سبيل لدفع ضرر محقق أو جلب خير لا بد منه لصالح الفرد أو الجماعة، وهذا أصل عظيم فى التشريع الإسلامى يجب التنبه له والانتفاع به فيما تتوارد عليه المنفعة والمضرة بحسب الظروف والأحوال.

وأمام هذا الطغيان في التحليل والتحريم بينت السورة ما أحله الله وما حرمه، وساقت في ذلك قوله تعالى: ﴿ **أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ** ﴾ ومعناها أن الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم، أو هى وما يشبهها من بقر الوحش والظباء ونحوها حلال إلا ما بينه الله، وإلا ما صدتموه وأنتم محرمون، فإن الأول حرام على الإطلاق، والثانى حرام ما دمتم فى الحرام أو محرمين، وقد ذكر الأول بقوله تعالى فى السورة: ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ** ﴾. وذكر الثانى بقوله فى السورة نفسها: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾.

ومما ينبغى التنبيه له أن محرمات الطعام نزلت قبل هذه السورة فى ثلاث سور: نزلت فى سورة الأنعام: ﴿ **قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾. ثم نزلت فى سورة النحل بصيغة ﴿ **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾. ثم نزلت فى سورة البقرة على نحو ما جاء فى سورة النحل، ونزلت فى سورة المائدة على نحو ما رأيت، وقد جاء فيها تفصيل لم يكن فيما نزل قبلها، كما أن ما نزل قبلها، مكيًا كان أو مدنيًا، جاء بصيغة الحصر الصريح الواضح، أما هى فقد استفيد الحصر فيها من قوله فى صدر الآية: ﴿ **أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ والذى تلى

عليهم هو المذكور فى قوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ إلى آخره ، ولم يخرج فى جملته عن الأربع التى سيقت بصيغة الحصر الواضح فى الآيات الثلاث الأخر .

وللفقهاء فى هذا المقام كلام كثير حول ما إذا كان وراء الأربع محرمات أو لا ، وقد قال الرازى فى تأييد القول بالحصر ، وأنه ليس فيما وراء الأربع محرم : «إنه الحكم المستقر فى الشريعة من أولها إلى آخرها ، وإنه ذكر فى المكى وأيد فى المدنى ، وإن مدار الشريعة على أن الأصل عدم النسخ ، وأن نسخ القرآن بخبر الواحد لا يجوز» ، وختم كلامه بقوله : «فثبت بالتقرير الذى ذكرناه قوة هذا الكلام وحجة هذا المذهب ، وهو الذى كان يقول به مالك بن أنس رحمه الله»[1] .

التذكية المعتد بها فى الذبائح:

هذا ، وقد دل قوله تعالى فى آية المائدة : ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ على أن ما لم يمت من المذكورات قبل - بالخنق وما عطف عليه - وأدرك وفيه حياة ما وذكى ، كان حلالاً طيب الأكل لاخبث فيه ، وإن كانت الإصابة فى مقتل ، وقد روى أن ابن عباس سئل عن ذئب عدا على شاة فشق بطنها ، ثم انتثر قصبها «أمعاؤها» فأدركت ذكاتها فذكيت؟ فقال : كل وما انتثر من قصبها فلا تأكل . وقال إسحاق ابن راهويه : السنة فى الشاة على ما وصف ابن عباس ، فإنها وإن خرجت مصارينها فإنها حية بعد ، وموضع الذكاة منها سالم ، وإنما ينظر عند الذبح أحية هى أم ميتة؟ ولا ينظر إلى الفعل هل يعيش مثلها منه أولا؟ وقال ابن إسحاق : ومن خالف هذا فقد خالف السنة عن جمهور الصحابة وعامة العلماء ، وقال ابن العربى : اختلف قول مالك فى هذه الأشياء فروى عنه أنه لا يؤكل إلا ما ذكى بذكاة صحيحة . والذى فى الموطأ أنه إن كان ذبحها ونفسها يجرى وهى تضطرب فليأكل ، وهو الصحيح من قوله الذى كتبه بيده وقرأه على الناس من كل بلد طول عمره . فهو أولى من الروايات النادرة ، وقال القرطبى : أطلق علماؤنا على المريضة أن المذهب جواز تذكيتها ولو أشرفت على الموت إذا كانت فيها بقية حياة ، وليت شعرى أى فرق بين بقية حياة من مرض ، وبقية حياة من سبع لو اتسق النظر وسلمت من الشبهة الفكر ، وقال أبو عمر : قد أجمعوا فى المريضة التى لا ترجى حياتها أن ذبحها ذكاة لها إذا كانت فيها الحياة حين الذكاة

---

(١) انظر الرازى فى سورة الأنعام جـ ٤ .

وعلم ذلك منها بحركة اليد أو الرجل أو الذنب أو نحوه، أما إذا صارت فى حالةَ النزع ولم تحرك يداً أو رجلا فإنه لا ذكاة فيها.

ما ذبح على النصب:

أما ما ذبح على النصب فهو من المحرم، حفظًا للعقيدة وابتعادًا عن مظاهر الشرك والوثنية، والمراد به ما كانوا يذبحونه على الأحجار المنصوبة حول مكة بنيّة الآلهة وإن لم يكن باسمها.

الاستقسام بالأزلام وما يشبهه فى عصرنا الحاضر:

وقد ضمت الآية إلى هذه المحرمات «الاستقسام بالأزلام» والأزلام هى قطع من الخشب تشبه السهام، والاستقسام هو طلب معرفة ما قسم فى مستقبل الحياة عن طريق هذه القطع الخشبية، وذلك أنهم كانوا إذا أرادوا سفرًا أو غزوًا أو زواجًا أو بيعًا وترددوا فيما يريدون: أخير هو فيقدمون عليه، أو شر فيحجمون عنه؟ عمدوا إلى هذه الأزلام فأجالوها فى الأقداح فإن خرج لهم السهم المكتوب عليه «أمرنى ربى» أمضوا ما أرادوا مستبشرين، وإن خرج المكتوب عليه «نهانى ربى» أمسكوا عما يريدون، وإن خرج السهم الغفل الذى لا كتابة عليه أعادوا حتى يخرج أحد السهمين الآخرين.

ولما كان هذا الاستقسام منشؤه الوهم الفاسد، كما أن تحليل المحرم منشؤه الوهم الفاسد والهوى الضال، نظما معًا فى سلك واحد، وأخذا حكم التحريم بقوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ﴾.

ولا ريب أن الاعتماد على مثل هذا فى معرفة ما يكون فى مستقبل الإنسان، وهو غيب لا يعلمه إلا الله، اعتماد على وهم يأباه دين العقل والبرهان الذى لا يرضى أن يخضع الإنسان ويقيد حياته وتصرفه بمثل هذا الوهم الباطل، وأن يلغى عقله ويتطلع إلى معرفة الغيب بما لا يمت إليه بصلة، ويلحق بهذا النوع الذى حرمه الله على الإنسان ـ احتفاظًا بعقله ـ ما يشبهه من وسائل الاستقسام التى يعتادها الناس اليوم كالطرق بالحصا، وضرب الفول والرمل، والاستخارة بحبات السبحة. ومن أقبح أنواع الاستخارة: الاستخارة بالقرآن الكريم الذى جرت به عادة بعض المسلمين وصار شأنًا معروفًا حتى عند أهل العلم

والدين، وما كان الله ليرضى أن يكون كتاب هدايته وإرشاده للتى هى أقوم - فى الحياة العقلية والروحية والعملية - أداة لشعوذة أو لعبة فى يد عابث أو مضلل أو محتال.

إباحة الطيبات وما تصيده الجوارح وتدريب الحيوان:

وبعد أن بين الله المحرمات على الوجه الذى ذكر فى الآية، بين لهم أنه أحل الطيبات، وهى ما لا تحدث ضررًا فى الصحة، ولا تستقذرها النفوس، وعطف عليه صيد المعلم من الجوارح، واشترط فى حله أن يمسكه الجارح للصائد لا لنفسه، وأن يذكر الصائد اسم الله عند الإرسال، ولا يخفى ما فى دلالة هذا من تيسير أسباب الحياة على الإنسان، ومن إباحة تدريب الحيوانات الكاسرة للانتفاع بها فيما يحتاجه الإنسان، وعليه فلا بأس بالحمام الزاجل، ولا بأس بالكلاب التى يدربها رجال الأمن للانتفاع بها فى معرفة المجرمين وتعقبهم.

إباحة طعام أهل الكتاب والتزوج من نسائهم:

وأباحت أيضًا طعام الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى، كما أباحت التزويج من نسائهم، وقد جمعت الآيات فى هذا الشأن بين طعام أهل الكتاب وطعام المؤمنين، كما جمعت بين نسائهم ونساء المؤمنين للإشارة إلى أن الجميع فى حكم واحد، فالكل طيب والكل مباح، وأن الإسلام لا يرى مجرد المخالفة فى الدين مانعًا من المؤاكلة، ولا من الاختلاط والتزاور، ولا من المصاهرة والتزوج، ولنا فى هذا المقام كلمتان:

الكلمة الأولى: فى علاقة «حل طعام أهل الكتاب» مع شموله لبعض ما حرم على المؤمنين فى صدر الآيات كالمنخنقة إذا كانوا يأكلونها، وما ذكر عليه اسم المسيح أو الكنيسة، وهم يأكلونه.

والكلمة الثانية: فيما نرى بإزاء حل التزوج بنسائهم.

هل تباح ذبائح أهل الكتاب مطلقًا؟

رأى الجمهور:

أما الأول: فيرى فيه جمهور العلماء أن الغرض من قوله تعالى: ﴿ **وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا**

الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ رفع الحرج عن المسلمين فى تناولهم ما يصنعه أهل الكتاب من طعام وما يذبحونه من حيوان، وقد كان المسلمون قبل نزول هذا التحليل يتحرجون من تناول طعامهم وذبائحهم لمخالفتهم إياهم فى العقيدة، فبين الله تعالى أن ذلك حلال لهم كجميع الطيبات من المآكل والمشارب، وأرشدهم إلى أن اختلاف العقيدة لا يمنع تبادل أسباب المعيشة فيطعم المسلم من طعام الكتابى، كما يطعم الكتابى من طعام المسلم، وبهذا يتبين أن آية إحلال طعام أهل الكتاب واردة فى غير ما وردت له الآية الأولى، وأن طعام أهل الكتاب الذى أحله الله للمسلمين لا يصح أن يتناول شيئًا مما وردت بتحريمه الآية الأولى من الميتة وما إليها، وإن كانوا يستبيحونه لأنفسهم ويطعمونه، وإذن فلا تأثير لهذه الآية على آية التحريم فى شىء ما، ولا يحل لمسلم أن يتناول مخنوقهم ولا ما سموا عليه بغير الله متى علم ذلك.

رأى طائفة من العلماء منهم ابن العربى:

وترى طائفة من العلماء أن الله سبحانه وتعالى أباح أطعمتهم وهو العليم بما يقولون والعليم بما يفعلون، وأن الآية جاءت استثناء مما هو حرام على المسلمين من اللحوم إذا كان طعامًا لهم، وعليه فيباح للمسلم أن يتناول أطعمتهم كيفما كان نوع ذكاتها، وبذلك صدرت فتوى ابن العربى إذ يقول: ولقد سئلت عن النصرانى يقتل عنق الدجاجة ثم يطبخها، هل يؤكل معه أو تؤخذ طعامًا منه؟ فقلت: تؤكل، لأنها طعامه وطعام أحباره ورهبانه، وإن لم تكن هذه ذكاة عندنا، ولكن الله تعالى أباح طعامهم مطلقًا وكل ما يرونه فى دينهم فإنه حلال لنا فى ديننا إلا ما كذبهم الله سبحانه فيه.

حكم الأطعمة المستوردة من بلاد الكتابيين:

وفى ضوء هذا الخلاف نستطيع أن نتعرف حكم الأطعمة المستوردة من بلاد أهل الكتاب: فهى على رأى الجمهور حلال ما لم يعلم أنهم سموا عليها غير الله، أو ذبحت بغير الذكاة الإسلامية، كالخنق والوقذ، ومن باب أولى عالم يعلم أنها من الخنزير أو الميتة أو الدم، وهى على الرأى الثانى: حلال ما لم نتحقق أنها من المحرم لذاته وهو الميتة والخنزير والدم، وكل ما وراء ذلك حلال وإن تحققنا أنه قد أهل به لغير الله، أو لم يذك بالذكاة الإسلامية.

لجنة الفتوى بالأزهر تفتى بالرأيين فى عهدين:

هذا، وقد أفتت لجنة الفتوى بالأزهر بالرأيين فى عهدين مختلفين، وكانت الفتوى بالرأى الأول فى عهد فضيلة المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم، وبالتالى فى عهد فضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ المراغى، وقد وافق فى فتواه ما سبق للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من الفتوى بهذا الرأى فى الأسئلة الترنسفالية.

دلالة هذا على وجود روح الاجتهاد فى علماء العصر:

وما دامت الفتوى تصدر دائمًا عن ترجيح واجتهاد، فهذا الذى صدر من لجنة الفتوى أقوى دليل على تركز روح الاجتهاد الترجيحى فى نفوس علماء العصر وإن حاول المرجحون أنفسهم أن ينكروه. وما دامت الحادثة تتعلق بأمر مجتهد فيه والرأى يتبع الترجيح، والترجيح يتبع قوة الإدراك واختلاف المدارك فإن الاجتهاد بابه مفتوح مهما قالوا ومهما أنكروا.

رأينا فى الموضوع بعد المقارنة بين الفتويين:

وقد يكون من ذلك الاجتهاد المقارنة بين هاتين الفتويين. وإن الناظر فى المعنى الذى لأجله حرم ما حرم على المؤمنين وهو الابتعاد عما اتصل به ما ينافى التوحيد كذكر اسم غير الله، أو الذبح على النصب، وعما كان تحريمه لمعنى فى نفسه كالميتة وما عطف عليها. إن الناظر فى هذا لا يرى بدًا من الحكم بأن ذلك التحريم لا يرفعه إن كان الحيوان ملكا لغير المسلم، أو إطعامًا له، فإنه لم يعهد أن يحرم شىء لمعنى على طائفة، ثم يباح لها إذا كان لغيرها مع وجود معنى التحريم فيه. وإذا نظرنا إلى أن التكاليف الإسلامية وما تضمنته من تحليل وتحريم - هى فى واقعها، وفيما أراد الله من جعل الرسالة المحمدية وشرائعها - عامة لجميع الناس، وأن الناس جميعًا مكلفون بها، يظهر لهذا الرأى قوة فوق قوته. نعم جعل الشارع سبحانه عدم إيمانهم بالرسالة مبيحًا لتركهم وما يدينون وإن كان باطلا فى ذاته، وذلك تسامح منه سبحانه قضت به محبة الأمن والاستقرار، وعدم الإكراه فى الدين. وهذه مبادئ قررها الإسلام صونًا للجماعة وحفظًا للنظام، أما قول المرجحين للإباحة: «إن الله أباح طعام أهل الكتاب للمؤمنين وهو يعلم ما يقولون ويفعلون» فيقابله أنه سبحانه

أباحه للمؤمنين وهو أيضًا يعلم ما حرمه عليهم، ويعلم أنهم يعلمونه، ويعلمون أن تحريمه لم يكن لأنه ملك لهم، بل لمعنى متصل به ومتحقق فيه ولا تأثير لصفة المالك عليه.

هذا موقفنا بين الفتويين، وبعبارة أخرى بين الرأيين ولكل مجتهد نصيب.

هل إباحة التزوج بالكتابيات مطلقة؟

أما الكلمة الثانية: فهي في شأن التزوج من نسائهم وهو المذكور بقوله تعالى: ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ فقد أخذه الجمهور على عمومه، وأباحوا التزوج من أهل الكتاب وإن غيروا وبدلوا، ذميين كانوا أو حربيين. وقيده جماعة بالذميين دون الحربيين. وذهب جماعة من السلف إلى أن أهل الكتاب قد غيروا وبدلوا وعبدوا المسيح وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فهم بذلك والمشركون في العقيدة سواء، وقد حرم الله التزوج من المشركين، ونسب ذلك الرأي إلى عبد الله بن عمر، وغيره من الصحابة، وتأولوا الآية بوجوه أقربها أنها رخصة خاصة في الوقت الذي نزلت فيه. قال عطاء: إنما رخص الله في التزوج بالكتابية في ذلك الوقت لأنه كان في المسلمات قلة، أما الآن ففيهن الكثرة العظيمة، فزالت الحاجة فلا جرم زالت الرخصة.

رأينا في ذلك:

والذي نراه في المسألة أنه ليس في الآية ما يدل على أنه رخصة، ولا نعلم في الشريعة ما يدل على أنه رخصة، والآية دلت على الإباحة المطلقة ولم تقيد بوقت خاص ولا حالة خاصة، وعلى هذا يكون القول بحرمة التزوج من نسائهم وقفًا لحكم الآية، أو نسخًا لها بغير دليل. ومن المعلوم من تعاليم الشريعة العامة أن الله فرق بين أهل الكتاب والمشركين في كثير من الأحكام، نظرًا لما بينهم من الاختلاف الشاسع في العقيدة، الأمر الذي جعل أهل الكتاب أقرب للمؤمنين من المشركين، ومن هذه الأحكام أن شرع للمؤمنين - الذين يعتزون بإيمانهم ويكونون مثلا أعلى للأخلاق الإسلامية - التزوج من أهل الكتاب ليكون ذلك التزوج بمثابة رسول من رسل المحبة والآلفة، فيزول ما في صدورهم للإسلام من جفوة، ويعرفون محاسنه وفضائله عن كثب. أما قولهم: إن الله ثالث ثلاثة، وإن المسيح أو عزيزًا ابن الله، وإن محمدًا ليس برسول، فهذا كله ليس معناه إنكارهم ألوهية الله، ولا إنكارهم أصل الوحي والرسالة بخلاف المشركين في ذلك كله.

نعم إن ما نراه اليوم فى بعض المسلمين من رغبة التزوج بنساء الإفرنج لا لغاية سوى أنها إفرنجية تنتمى إلى شعب أوروبى، ثم يضع بذلك نفسه وأولاده ومعيشته تحت تصرفها ورأيها، ويتخذها قدوة له، ويتخذها قائداً يسير خلفه، ولا يرى نفسه إلا تابعًا لها، مسايراً لرأيها ومشورتها، فتذهب بأولاده إلى الكنيسة كما تشاء، وتسميهم بأسماء قومها كما تشاء، وتربط فى صدورهم شعار اليهودية أو النصرانية، وترسم فى حجر منزلها ما نعلم، ثم بعد ذلك كله تنشئهم على ما لها من عادات فى المأكل والمشرب والاختلاط وغير ذلك مما لا يعرفه الإسلام ولا يرضاه، ومما يعتبر الرضا به والسكوت عليه كفراً وخروجًا عن الملة والدين، إن ما نراه من كل ذلك عكس للقضية، وقلب للحكمة التى أحل الله لأجلها التزوج من الكتابيات، ولا ريب أنه لمثل هذا القلب قد حرم الله على المسلمة التزوج بالكتابى صونًا لها عن التأثر بسلطان زوجها، والطبيعة مهما تخرص المتخرصون قاضية بقضية القرآن ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ ومركز الرجل فى الزوجية يختلف عن مركز المرأة، فليبق هذا الأصل على الطبيعة، ويطرد المنع والتحريم، وإذا شذ الرجال عن مركزهم الطبيعى بحكم ضعفهم القومى، وألقوا بمقاليدهم بين يدى المرأة وجب منعهم من التزوج بالكتابيات، ووجب على الحكومات التى تدين بالإسلام وتغار على قوميتها وشعائرها فى أبنائها أن تضع لهؤلاء الذين ينسلخون عن مركزهم الطبيعى بفتنتهم الضالة حدا يردهم عن غيهم حفظًا لمبادئ الدين والقومية فى البلاد. وإن العمل على تقييد هذا الحكم فى التشريع الإسلام أو منعه لألزم وأوجب مما تقوم به بعض الحكومات الإسلامية أو تحاول أن تقوم به من تحديد سن الزواج للفتاة، وتقييد تعدد الزوجات، وتقييد الطلاق، وما إلى ذلك من التشريعات التى ينشط لها كثير من رجال الحكم سيراً وراء مدنية الغرب المظلمة. ألا وإن انحلال الكثرة الغالبة - ممن يميلون إلى التزوج بالكتابيات للمعانى التى أشرنا إليها - لمما يوجب الوقوف أمام هذه الإباحة التى أصبحت حالتنا لا تتفق والغرض المقصود منها. وهذا معنى تشهد به كليات الدين وقواعده التى يتجلى بها شدة حرصه على حفظ شخصية الأمة الإسلامية وعدم انحلالها وفنائها فى غيرها.

هذا ما أردنا أن نعلق به على النداء الأول وما اتصل به من أحكام وتشريع.

النداء الثانى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

وكما تضمن النداء الأول تشريعًا كليًا يركز مسئولية الالتزام التعاقدى، وتشريعًا جزئيًا ينص على ما أحله الله للإنسان وما حرم عليه من الحيوان، يتضمن هذا النداء الثانى تشريعًا كليًا يقرر المحافظة على الشخصية الدينية لجماعة المسلمين، وتشريعًا جزئيًا ينص على وجوب الاحتفاظ بأشياء معينة تتصل بما قدس الله من المكان والزمان.

المحافظة على الشخصية الدينية للمسلمين بإيجاب التمسك بالشعائر:

وفى الكلى يقول: **﴿ لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾** شعائر الله: هى ما نصبه الله عنوانًا على هديه، وهى عند التحقيق ترجع إلى مظاهر ما فرض الله من فرائض، وحد من حدود، وشرع من تشريع، وهو بعمومه يشمل فى جانب الفعل: الفرض، والمسنون، والمندوب، وفى جانب الترك: المحرم، والمكروه، وما لا ينبغى. وإحلالها: انتهاكها وتركها وإهمالها فيما طلب فعله. وفعلها وإظهارها وإشاعتها بين الناس فيما طلب تركه. ومن هنا يتبين أن الشخصية الدينية تتكون من عنصرين: فعل مطلوب، وترك منهى عنه، فإذا اجتمعا كملت الشخصية الدينية، وإذا عدما أو عدم أحدهما عدمت الشخصية الدينية للجماعة، وحرمت مكانة السمو التى تحظى بها ذات الشخصية الكاملة. **﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.**

فالأذان، وصلاة الجماعة فى الأوقات الخمس، وصلاة الجمعة فى كل أسبوع، وصلاة العيدين فى كل عام، وأداء الحج فى العمر، وزكاة المال والزروع فى وقتها، كل ذلك ونحوه من العناصر الإيجابية للشخصية الدينية.

والابتعاد عن شرب الخمر، وأكل الخنزير، والاتجار بهما، وغلق أبواب اللهو

والفسوق، وبيوت الدعارة، والقمار، ومنع خروج المرأة متزينة، متعطرة، عارية كاسية، من العناصر السلبية للشخصية الدينية، ووجودها هدم لهذه الشخصية.

تقديس ما قدسه الله:

وبعد أن ركز هذا النداء فى نفوس المؤمنين وجوب المحافظة على شخصيتهم التى بها يعرفون وعن غيرهم يتميزون، ويتضح للناس مسلكهم وصراطهم الذى يسلكون، عنى النداء بالنص على أشياء خاصة كانت موضع انتهاك القوم لها وقت التنزيل، وربما كان لإحلالها فى نفوس البعض ما يبرره، فحذر بوجه خاص من إحلالها.

الشهر الحرام:

ومن ذلك «الشهر الحرام» والمراد به الجنس، فيشمل الأشهر الأربعة المذكورة فى قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

الهدى:

ومن ذلك «الهدى» وهو ما يهدى إلى بيت الله من الأنعام للتوسعة على عباد الله العاكفين فيه والبادين.

القلائد:

ومنه «القلائد» وهى ما يوضع على الهدى إشعاراً بأنه هدى إلى الله وقربان.

قاصدو البيت الحرام:

ومنه ما أشار إليه بقوله: ﴿وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ وهم الذين يقصدون البيت يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً.

وإحلال الأشهر الحرام يكون باستباحة الدماء والقتال، وارتكاب المظالم فيها. وإحلال الهدى حبسه عن أن يبلغ محله، وهو بيت الله الحرام، أو ذبحه قهرًا عن أصحابه. وإحلال القلائد يكون بانتزاعها من الهدى، فيجهل الناس أنه هدى، ويتعرضون له بالغصب أو النهب. وإحلال قاصدى البيت، التعرض لهم بسوء وهم لا يريدون السوء بأحد، وإنما يريدون فضل الله ورضوانه، فهم إذن ضيوف الله وفى جواره فلا يقاتلون، ولا يساءون، ولا يعنف عليهم فى معاملة أو بيع وشراء. وقد عرض القرآن الكريم للبيت الحرام وبين قدسيته القديمة ومناسك الحج وشعائره فى سورة البقرة، وآل عمران، والمائدة، وسورة الحج، وبين فى كل ذلك أنه شأن دينى قديم نزلت به شريعة السماء. ودانت به الأمم من عهد إبراهيم وإسماعيل إلى عهد محمد خاتم الأنبياء إلى يوم الدين. ومما جاء بشأنه وشأن احترامه وتقديس ما يتصل به أو يدخل فيه حتى الصيد والأنعام قوله تعالى فى سورتنا هذه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

تقديس بعض الأماكن والأزمان يتيح للناس نوعًا من الهدنة والتحصن:

ومبدأ احترام بعض الأماكن وبعض الشهور مبدأ سام، شرعه الله فى القديم وأقره فى الإسلام، كيف لا وهو فرصة تعين المتخاصمين على حسن التفاهم وإقرار الأمن والسلام هو بمثابة هدنة إلهية يغرس الاعتراف بها فى قلوب الناس جميعًا ويمنحونها حقها من الكف عن المظالم والعدوان، فتشعر بلذة الأمن والطمأنينة، وتسعى فى إزالة أسباب التدابر والتقاتل والخصام بوازع دينى تمتلئ به القلوب، وتخشى فى مخالفته سطوة المالك للرقاب، المهيمن بقدرته وجبروته على القوى المتجبر، وبرحمته وعطفه على الضعيف المستعبد.

ومن غريب أمر هذه الهدنة أنها أقرت الأمن فى هذه الأماكن حتى بالنسبة للأشجار الصامتة وللحيوان الأعجم الذى يغشاها ويتنقل فى أرجائها ويطير فى أجوائها ﴿ **وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا** ﴾ .

كلام القرطبى فى هذا:

قال القرطبى فى تفسيره: «والحكمة من جعل الله تعالى هذه الأشياء قيامًا للناس وسبيلا لأمنهم أن الله تعالى خلق الخلق على سليقة التحاسد والتقاطع، والتدابر والسلب، والغارة والقتل والثأر، فلم يكن بد فى الحكمة الإلهية من كاف يدوم معه فى الحال، ووازع يحمد معه المآل. ومن هنا جعل الخليفة والإمام لتجرى على رأيه الأمور ويكف الله به عادية الأمور، وعظم فى قلوبهم البيت الحرام، وأوقع فى نفوسهم هيبته، وعظم حرمته فكان من لجأ إليه معصومًا به، وكان من اضطهد محميًا بالسكون فيه ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ** ﴾ ولما كان البيت الحرام فى مكان مخصوص لا يدركه كل مظلوم، ولا ينال حظه من الأمن فيه كل خائف، ولا يمكن أن يجتمع سكان المعمورة فيه، جعل الله الأشهر الحرم ملجأ آخر، تنشر على الناس، وهم فى أقاليمهم وأقطارهم ألوية الأمن والاطمئنان، ويدخلون بها فى هدنة الرحيم المنان، فقرر فى القلوب حرمتها: لا يروع فيها سرب، ولا يطلب فيها دم، ولا يتوقع فيها ثأر، وفيها تسكن السيوف فى أغمادها، وتتجه القلوب إلى ربها، فيفيض عليهم من رحمته ما يطهرها من النوازع المادية التى بتسلطها على الإنسان يهلك الحرث والنسل، ويعرض الكون للخراب والدمار».

ولا ريب أن الإنسان إذا استمر فى هذه الهدنة، وعالج نفسه فى ظلها، وهى - أربعة أشهر من اثنى عشر شهرًا - ثلث الحياة، كان فى فسحة وواحة ومجال للسياحة والاتصال وتسوية الحال، مما يجعله فى حصن ووقاية من الرجوع إلى طرق باب الشرور والتنازع والخصام، وبذلك يصير مع إخوته بنى الإنسان إخوانًا متعاونين على البر والتقوى، بعيدين عن الإثم والعدوان.

ختام النداء وما يوحى به من المعانى السامية:

هذا تشريع الله لعباده المؤمنين، وقد ذيله بقوله: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا**

﴿ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ليأخذ بهم إلى السمو عن مواطن الأهواء والنزعات، والترفع عن معانى الأثرة والأنانية، وسبل الشر والفساد، ويجعل منهم قوة موجهة إلى الخير، متعاونة على البر.

فمتى يخضع المسلمون لتعاليم ربهم وإرشاده وهو يأمرهم أن يكونوا جميعًا أمة واحدة لا تعرف النزاع ولا الشقاق، ولا التقاذف، ولا التقاطع، ولا العصبية الجنسية، ولا العصبية المذهبية؟ وفيم هذه الخلافات المستحكمة التى لفتتهم عن قصدهم، ولوتهم عن سبيلهم، وفرقت كلمتهم وجعلتهم شيعًا وأحزابًا؟ وفيم هذه التفرقة وهم على كلمة سواء فى توحيد الله والإيمان بوحيه ورسله، والإيمان بيوم البعث والجزاء، والإيمان بأصول الأحكام التى قررها كتاب الله الخالد، وجعل منها معتصما للجميع إذ يقول: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾، ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾.

ألا إن هذه الخلافات قد صرفتنا عن النافع العملى، واستغرقت جهودنا الفكرية فى مختلف الأزمان والأوطان، ولو أن المسلمين كانوا قد تخففوا منها، أو هونوا شأنها فلم يضخموه ولم يحرصوا على تلقينه لأجيالهم جيلا بعد جيل، لوجدت العقول مجالا غير مجاله فأثمرت ثمرات طيبات مباركات، ولوطدت أواصر المحبة والتعاون بين أهل الدين الواحد والأصول الأساسية المتفق عليها، ولما وجد أعداؤنا منفذًا إلينا لا فى أفكارنا وعقولنا، ولا فى أوطاننا وأعمالنا.

إنه لو حسبت الأوقات التى ضاعت وتضيع فى الخلافات النظرية، والجهود التى بذلت وتبذل فى كل شعب قديمًا وحديثًا لدراسة موقف كل طائفة من الأخرى فيما تقول به كذا، أو فيما تنكره من كذا، لهالتنا كثرتها، ولعز علينا أنها ذهبت هباء لم تفد منها الأمة شيئًا إلا إبقاء العداوات والأضغان، بل تثبيتها وتنميتها، فاللهم هيئ لنا من أمرنا رشدا، وألف بين قلوبنا.

النداء الثالث:

قرر النداء الأول من النداءات الإلهية فى هذه السورة الكريمة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾: الأساس فى مسئولية الالتزام التعاقدى، وهو تشريع كلى يتناول الالتزام التعاقدى بين الله وعباده، سواء أكان منشؤه الفطرة التى خلقهم عليها، أو التكليف الذى

بعث به الرسول وأنزل به كتابه، ويتناول الالتزام التعاقدى بين الأفراد بعضهم مع بعض، وبين الجماعات والأمم بعضهم مع بعض وخلاصته أن الوفاء به واجب، وهو على إطلاقه يتناول كل تعاقد ما لم يتضمن أو يشتمل على تحريم ما أحل الله، أو إحلال ما حرم.

وقرر النداء الثانى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾: وجوب المحافظة على الشخصية الدينية لجماعة المؤمنين، وهو تشريع كلي أيضًا، ويتناول أشياء كما يشمل جانب الفعل فيما طلب، وجانب الترك فيما نهى عنه، وقد أردف كل من النداءين بالنص على بعض الجزئيات التى يتناولها.

وهذا هو النداء الثالث، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

وهو تشريع جزئى يتعلق ببيان ما تتوقف عليه صحة الصلاة من جهة الطهارة وضوءًا وغسلا.

شرح آية الطهارة:

وقد تضمنت هذه الآية طهارة الوضوء، وطهارة الغسل، كما تضمنت طهارة التيمم التى جعلت تيسيرًا على العباد خلفًا عن طهارة الماء، والتى دل اعتبارها طهارة على أن تزكية النفس ترجع فى الواقع إلى تلبية التكليف وامتثال الأمر، أكثر مما ترجع إلى الصورة الحسية وما يحدثه التكليف من أثر فى الجسم.

طلبت الآية من المؤمنين إذا اتجهت نياتهم إلى الصلاة وعزموا عليها أن يغسلوا وجوههم وأيديهم إلى المرافق، وأن يمسحوا برءوسهم وأرجلهم إلى الكعبين، وأن يطهروا إن كانوا جنبا، ثم أباحت لهم - إن كانوا مرضى أو على سفر - أو قضى أحدهم حاجته

الطبيعية أو الجنسية، ولم يجدوا ماء يتوضئون به أو يغتسلون: أن يتيمموا صعيداً طيبا فيمسحوا بوجوههم منه، ثم ذيلت الآية بما يدل على أن إرادة الله من هذا التكليف إنما هى: تطهير عباده وإتمام نعمته عليهم.

تلك هى رءوس الموضوعات التى احتوى عليها هذا النداء، وهى: الوضوء والغسل والتيمم.

الوضوء والاختلاف فى أركانه وشروطه:

أما الوضوء، فلم تذكر الآية فيه سوى غسل الوجه واليدين إلى المرفقين، والمسح بالرءوس وغسل الأرجل إلى الكعبين أو مسحهما. وإذا نظرنا إلى أن الآية لم تعرض للأذنين، وأنها ذكرت المرافق فى اليدين على أنها غاية، وأنها عدت المسح إلى الرءوس بالباء، ثم جاءت الأرجل فيها بقراءتى النصب والجر، وذكر فيها الكعبان على أنهما غاية. ونظرنا بعد ذلك إلى أنها لم تعرض إلى حكم النية فى الوضوء، ولا إلى حكم الترتيب والموالاة والتدليك، ونظرنا إلى أن عباراتها فيما عرضت له ليست قطعية فى معنى معين، وإنما هى عبارات قابلة لوجوه من النظر. إذا نظرنا إلى هذا كله استطعنا أن نقول: إن أركان الوضوء وشروطه لم ينل منها شىء اتفاق الأئمة وإجماعهم سوى غسل الوجه فيما تقع به المواجهة، واليدين دون المرفقين، وأصل مسح الرأس لا كلها ولا بعضها، أما الأرجل فقد دار فرضها بمقتضى القراءتين بين الغسل والمسح، وفيما وراء ذلك اختلف الأئمة.

اختلفوا فى أن الأذنين من الرأس فتكون وظيفتهما المسح، أو من الوجه فتكون وظيفتهما الغسل، أو هما عضو مستقل لم يفترض غسله ولا مسحه. واختلفوا فى أن المرفقين يفترض غسلهما بناء على دخوله الغاية، أو لا يفترض بناء على خروجها.

واختلفوا فى أن الرأس فرضها مسح الجميع أو مسح بعض معين، أو مسح أى جزء منها، وذلك بناء على مكانة الباء فى قوله «برءوسكم» هل هى زائدة أو هى للإلصاق؟ وإذا كانت للإلصاق فهل يتحقق بمسح أى جزء، أو هناك ما يدل على أن المطلوب إلصاق المسح بجزء معين؟

واختلفوا فى أن وظيفة الأرجل هى الغسل عملا بقراءة النصب عطفًا على الوجوه المغسولة، أو وظيفتها المسح عطفًا على الرءوس عملا بقراءة الجر. وهل يدخل الكعبان فى وظيفتها غسلا أو مسحًا كما قيل فى المرفقين؟

واختلفوا فى فرضية ما لم يذكر بنصه فى الآية من النية وما إليها.

اختلفوا فى كل ذلك، وقد عنيت كتب الفقه ببسط الآراء والأدلة فى كل مسألة من هذه المسائل، وكان أوسعها قولا، وأشدها خلافًا مسألة «المسح بالرأس» و«غسل أو مسح الرجلين». وقد عرضنا فى كتابنا «مقارنة المذاهب»[1] فى الفقه لمسألة الرأس، ومسألة النية، والدلك، والترتيب والموالاة.

رأينا فى المسح بالرأس:

وكانت نتيجة نظرنا فى المسح بالرأس أن الآية من قبيل المطلق، وأنها لا تدل على أكثر من إيقاع المسح بالرأس وذلك يتحقق بمسح الكل، وبمسح أى جزء قل أو كثر، ما دام فى دائرة ما يصدق عليه اسم المسح، وهو إمرار البلة بالعضو الممسوح. وأن مسح شعرة أو ما يتناوله وضع الإصبع من الشعرات لا يصدق عليه عنوان «المسح بالرأس».

وفى النية:

وكانت نتيجة نظرنا فى «النية» رجحان القول بفرضية النية فى الوضوء، وأن انغماس الأعضاء فى الماء بدون قصد رفع الحدث، أو بقصد التبرد، ليس غسلا لصلاة حتى يؤدى مهمته الشرعية ويحقق المأمور به، والمقصود أن يحقق المكلف ما أمر به لا أن يتحقق.

وفى التدليك:

وكانت نتيجة نظرنا فى مسألة «التدليك» فرضية الدلك فى الوضوء، وفى غسل الجسم كله فى الغسل، وقد بنينا ذلك على الفرق اللغوى بين معانى الألفاظ الآتية: أسال، صب، غمس، غسل.

---

(١) المقرر على طلبة السنة النهائية بكلية الشريعة.

وفى الترتيب:

وكانت نتيجة نظرنا فى مسألة «الترتيب» اختيار القول بالفرضية، وبنينا ذلك على أسلوب الآية حيث لم تذكر الأعضاء مرتبة كمواقعها فى الجسم، ولا كوظيفتها فى الغسل أو المسح، وإنما وسطت ممسوحًا بين مغسول ومغسول. وعلى ما تواترت به الأخبار الصحيحة من مواظبة النبى - ﷺ - وأصحابه من بعده على الترتيب، وكان ذلك بيانًا مؤكدًا لما تدل عليه عبارة الآية، وكذلك كان رأينا فى الموالاة.

وفى الأذنين والمرفقين والكعبين:

أما مسألة الأذنين فرأينا فيها مع الجمهور القائلين بأنها عضو مستقل ليس من مسمى الرأس ولا من مسمى الوجه، وبذلك لم يفرض فيه غسل ولا مسح، وإنما كانت وظيفته أخذًا من الوارد عن الرسول: المسح على وجه السنية. وكذلك رأينا فى «المرفقين والكعبين» بناء على دخول الغاية فى مثل ذلك. وقد بسط الفقهاء وجهة نظر الجمهور فى كل مواضع الخلاف فليرجع إليها من شاء.

رأى الجمهور فى فريضة الرجلين:

أما وظيفة «الرجلين» فرأى الجمهور أنها الغسل، وكان أساسهم فى هذا قراءة النصب التى عطفت بها الأرجل على الوجوه المغسولة فتأخذ حكمها وهو الغسل، وقالوا: إن قراءة الجر محمولة على قراءة النصب، وليس الجر بمقتضى العطف على الرءوس الممسوحة حتى تشاركها فى المسح، وإنما كان الجر بحكم المجاورة الذى عرف كثيراً فى اللغة العربية.

حجة من قال إن الفرض مسحهما لا غسلهما:

ويجدر بنا هنا أن نسوق عبارة الفخر الرازى فى الاحتجاج لمن قال بوجوب المسح. قال: حجة من قال بوجوب المسح مبنية على القراءتين المشهورتين فى قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فقرأ ابن كثير وحمزة وعاصم فى رواية أبى بكر عنه بالجر، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم فى رواية حفص عنه بالنصب، فنقول:

أما القراءة بالجر فهى تقتضى كون الأرجل معطوفة على الرءوس، فكما وجب المَسح فى الرأس فكذلك فى الأرجل، فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال هذا جر على الجوار كما فى قوله «جحر ضب خرب» وقوله «كبير أناس فى بجاد مزمل» قلنا هذا باطل من وجوه:

الأول: أن الكسر على الجوار معدود فى اللحن الذى قد يتحمل لأجل الضرورة فى الشعر، وكلام الله يجب تنزيهه عنه.

وثانيها: أن الكسر إنما يصار إليه حيث يحصل الأمن من الالتباس كما فى قوله: «جحر ضب خرب» فإن من المعلوم بالضرورة أن الخراب لا يكون نعتًا للضب بل للجحر، وفى هذه الآية الأمن من الالتباس غير حاصل.

وثالثها: أن الكسر بالجوار إنما يكون بدون حرف العطف، وأما مع حرف العطف فلم تتكلم به العرب.

وأما القراءة بالنصب فقالوا: إنها أيضًا توجب المسح، وذلك لأن قوله: ﴿ **وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ** ﴾. فرءوسكم فى محل النصب، ولكنها مجرورة بالباء، فإذا عطفت الأرجل على الرءوس جاز فى الأرجل النصب عطفًا على محل الرءوس، وجاز الجر عطفًا على الظاهر، وهذا مذهب مشهور للنحاة. إذا ثبت هذا فنقول: ظهر أنه يجوز أن يكون عامل النصب فى قوله: ﴿ **وَأَرْجُلَكُمْ** ﴾ هو قوله: ﴿ **وَامْسَحُوا** ﴾ ويجوز أن يكون هو قوله ﴿ **فَاغْسِلُوا** ﴾ لكن العاملين إذا اجتمعا على معمول واحد كان إعمال الأقرب أولى، فوجب أن يكون عامل النصب فى قوله: ﴿ **وَأَرْجُلَكُمْ** ﴾ هو قوله ﴿ **وَامْسَحُوا** ﴾ فثبت أن قراءة ﴿ **وَأَرْجُلَكُمْ** ﴾ بنصب اللام توجب المسح أيضًا. فهذا وجه الاستدلال بهذه الآية على وجوب المسح، ثم قالوا: ولايجوز ذلك بالأخبار، لأنها بأسرها من باب الآحاد ونسخ القرآن بخبر الواحد لا يجوز.

رد الإمام الرازى عليهم:

ثم قال: واعلم أنه لا يمكن الجواب عن هذا إلا من وجهين:

الأول: أن الأخبار الكثيرة وردت بإيجاب الغسل، والغسل مشتمل على المسح ولا ينعكس، فكان الغسل أقرب إلى الاحتياط فوجب المصير إليه، وعلى هذا الوجه يجب القطع بأن غسل الرجل يقوم مقام مسحها.

والثاني: أن فرض الرجلين محدود إلى الكعبين، والتحديد إنما جاء فى الغسل لا فى المسح.

رأينا فى ذلك:

والذى نفهمه أن الغسل غير المسح، وأن الإتيان بأحدهما لا يحقق الأمر بالآخر، فالله إذا أمر بالمسح، وهو غير الغسل، لا يعد متمثلا للأمر من أتى بالغسل وبالعكس، وإقامة أحدهما مقام الآخر تحتاج إلى دليل شرعى، وليس هناك دليل على ذلك، فجوابه الأول غير مقبول فى نظرنا. نعم لجوابه الثانى وجهة نظر قوية، ويضم إليها أن الكعبين قد عرفا فى اللغة وفى العرف أنهما العظمان الناتئان فى جانبى الساق، ومنشأ القول بغير ذلك افتراض أن وظيفة الرجل المسح، وهو أصل الدعوى فلا ينهض دليلا على أن هذا هو معنى الكعب.

بقى أن عمل الأخبار التى تكاد تبلغ حد التواتر فى أن وظيفة الرجل «الغسل» ليس هو نسخ الكتاب بالآحاد، وإنما هو بيان وترجيح لاختيار أن قراءة النصب مبنية على اعتبار الأرجل معمولة لقوله «اغسلوا» وليس واجبًا أن تكون معطوفة على المحل فى قوله: «وامسحو برءوسكم» وما دامت الأحاديث تلتقى مع وجه محتمل فى الآية فإنها لا تكون ناسخة للآية، وإنما تكون مبنية ومرجحة لهذا الاحتمال.

بقى علينا أن نشير إلى النكتة التى من أجلها وسط الممسوح بين المغسول، وهى إفادة وجوب الترتيب بين أعمال الوضوء على الوجه الذى ذكر فى الآية، ودلت على اعتباره: أخبار وضوئه - ﷺ - ووضوء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. والذى نراه فى هذا الموضوع هو غسل الرجلين لا مسحهما، عملاً بالأحاديث الكثيرة الواردة فى هذا الشأن، وعملاً بالتحديد الوارد فى الآية، وبتحكيم معنى الكعبين المعروف لغة وعرفًا، وليس من شك فى أن أحاديث «غسل الرجلين» أكثر وأقوى من روايات مسحهما، فليكن الغسل هو الرأى. أما الجمع بين القراءتين أو بين الأحاديث بالتخيير بين المسح والغسل، أو بجمعهما، أو بحمل المسح على حالة لبس الخف، فكل ذلك تكلف ظاهر لا يستند إلى جانب قوى من النظر.

دلالة هذا الخلاف على سعة الشريعة ويسرها:

هذا ما أردنا أن نسوقه للقراء فيما يختص بالوضوء، ومواقف الأئمة بالنسبة للآية الكريمة، وهي مواقف تدل دلالة واضحة على أن الإسلام لم يرد في تشريعه حتى في العبارات أن يرهق أتباعه أو يقيدهم بحكم معين فيما يرى أن القصد منه يحصل على أي احتمال ذهب إليه الفقيه جريًا وراء ما يظهر من قرائن وأدلة، فمن ترجح عنده الغسل وجب عليه الغسل، ومن ترجح عنده المسح وجب عليه المسح، لا يحال بينه وبين ما اطمأن إليه قلبه، ما دام الحق مطلبه والدليل رائده. أما المخالفة عن طريق التشهي، أو طريق التعصب المذهبي فليست من الإسلام ولا يعرفها الإسلام. وهذه كلمتنا ورأينا في كل الموضوعات الخلافية المبنية على النظر وإرادة الحق، ولكل مجتهد نصيب.

الغسل:

ثم أردفت الآية بيان الوضوء وهو المعروف «بالطهارة الصغرى»، بطهارة الغسل وهو المعروف «بالطهارة الكبرى» فقال: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا** ﴾ والتطهر هنا مراد به المبالغة في الطهارة، وتلك لا تكون إلا بغسل البدن كله، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا** ﴾ من قوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا** ﴾ وقد أفادت صيغة المبالغة في آيتنا وجوب غسل جميع ما أمكن غسله من الجسم دون إيذاء أو ضرر، ومن ذلك افترضت المضمضة والاستنشاق في الغسل عند من لم ير فرضيتهما في الوضوء. وقد دل اعتبار الجنابة في وجوب الغسل على اعتبار الحدث في الوضوء، كما دل اعتباره أيضًا قوله بعد: ﴿ **أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا** ﴾ حيث اعتبر في وجوب التيمم الذي جعل خلفًا عن الوضوء والغسل وجود الحدث الذي عبر عنه بالمجيء من الغائط وملامسة النساء. وكان هذا وذاك مع الأحاديث الواردة في هذا الشأن أدلة ظاهرة على أن قوله في صدر الآية: ﴿ **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا** ﴾ مبني على وجود حالة الحدث التي يزيلها غسل الوجه وما عطف عليه.

بم تتحقق الجنابة: هل هي من الالتقاء أو من الماء؟:

أما الجنابة التي تدل عليها كلمة «جنبًا» في الآية، فهي الحالة الشرعية التي يعتبر

الشخص متلبسًا بها عقب خروج المنى، وهو ظاهر فيما إذا خرج عن طريق الوقاع، أو خرج عن طريق آخر من مداعبة أو استمناء، أو احتلام. ولا خلاف بين العلماء فى أنه إذا انفصل عن مقره بشهوة وجب الغسل، وإنما الخلاف بينهم فى ذلك فى موضعين:

أحدهما: إذا خرج عن مقره بشهوة ثم سكنت الشهوة وانفصل من المحل سائلاً، ومحل تحقيق هذا الخلاف كتب الفروع، فليرجع إليه من شاء، ونحن نرى أن مجرد الانفصال عن المقر بشهوة محقق لمعنى الجنابة، وأنه موجب للغسل.

ثانيهما: إذا غاب العضو فى المحل الآخر، وحصل انفصال دون إنزال، فهل تتحقق بهذا القدر جنابة فيجب الغسل أو لا تتحقق فلا يجب؟ وهذا الموضوع جدير بشىء من البسط، فنقول:

ذهب جمهور العلماء إلى أن الوصف الموجب للغسل يتحقق بمجرد غيبوبة العضو، واستدلوا بمنقول ومعقول:

أما المنقول فما روى عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال: «إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب عليه الغسل» متفق عليه، ولمسلم وأحمد: «وإن لم ينزل» وما روى عن عائشة قالت: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا قعد بين شعبها الأربع ثم مس الختان الختان، فقد وجب الغسل» رواه أحمد ومسلم والترمذى، والحديثان صريحان فى أن الغسل لا يتوقف وجوبه على الإنزال. قال شراح الحديث: وقد ذهب إلى ذلك الخلفاء الأربعة، والعترة، والفقهاء، وجمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وروى ابن عبد البر عن بعضهم أنه قال: العقد إجماع الصحابة على إيجاب الغسل من التقاء الختانين، قال: وليس ذلك عندنا كذلك، ولكنا نقول: إن الاختلاف فى هذا ضعيف، وإن الجمهور الذين هم الحجة على من خالفهم من السلف والخلف انعقد إجماعهم على إيجاب الغسل من التقاء الختانين، أو مجاوزة الختان الختان. وقال النووى: قد أجمع على وجوب الغسل متى غابت الحشفة فى الفرج، وإنما كان الخلاف فيه لبعض الصحابة ومن بعدهم، ثم انعقد الإجماع على ما ذكرنا.

أما المعقول فقد عرض له فقهاء الحنفية بقوله: «إن التقاء الختانين - أو غيبوبة الحشفة كما يعبرون - سبب الإنزال، والإنزال يغيب عن البصر وقد يخفى لقلته، فيقام الظاهر مقام الخفى، وتوضيح هذا أخذاً من قواعد الأصول: أن المعنى الذى يترتب عليه حكم إذا كان

خفيًا وله سبب ظاهر يقام ذلك السبب الظاهر مقام ذلك المعنى الخفى، وبه يناط الحكم، والإنزال فى هذا المقام هو المعنى الذى يترتب عليه الغسل، وهو خفى عن بصر الشخص، وقد يخفى عن إحساسه لقلة النازل، وله سبب ظاهر بحسب العرف والعادة، وهو الغيبوبة أو التقاء الختانين، فيقام ذلك الظاهر مقام الخفى، ويدار الحكم عليه: إن وجد وجب الغسل، حصل الخفى أو لم يحصل. ونظير هذا ما قالوه فى المشقة بالنسبة للسفر، وإقامة السفر عنوانًا عليها حتى نيط به لا بها الحكم، وهو الترخص، فقصر المسافر الذى يتقلب فى النعيم والراحة.

قال الجمهور: وبهذه الأحاديث الصحيحة المروية، وبهذا المعنى المعقول المقرر فى قواعد الأصول، وقع بيان المراد بالجنابة فى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا﴾ ويصير معنى الآية على هذا: وإن خرج المنى منكم ظاهراً أو حكما عند وجود سببه وجب الغسل، وهو نوع من البيان والتفسير الذى أرشدت إليه مصادر البيان والتفسير.

واستدل غير الجمهور ومنهم أبو سعيد الخدرى، وزيد بن خالد، وابن أبى وقاص، ومعاذ بالحديث المتفق عليه: «إنما الماء من الماء» وهو ظاهر فى أن الغسل لا يكون إلا بالإنزال. ورد الجمهور عليهم بأن هذا الحديث لا ينهض لمعارضة حديث عائشة وأبى هريرة، لأن عدم الغسل فى حالة عدم الإنزال مستفاد منه بطريق المفهوم، وهما يفيدان وجوب الغسل عند عدم الإنزال بطريق المنطوق، ومن المقرر أن المنطوق أرجح من المفهوم، وأن المفهوم لا يعارضه، وقالوا: على فرض أن القضية تفيد الجانبين بطريق المنطوق، كما ذهب إليه بعض الأصوليين، فالحديث منسوخ بما روينا، وبما جاء صريحًا فى النسخ من رواية أحمد وأبى داود، عن أبى بن كعب قال: «إن الفتيا التى كانوا يقولون: «الماء من الماء» رخصة، كان رسول الله - ﷺ - رخص بها فى أول الإسلام ثم أمرنا بالاغتسال بعدها» وفى لفظ: «إنما كان الماء من الماء رخصة فى أول الإسلام، ثم نهى عنها» رواه الترمذى وصححه.

وبهذا ثبت نسخ الماء بطريق النص والنقل، ومثل هذا لا سبيل إلى القول بإنكاره، وبذلك تمت الحجة للجمهور، وصار من الواجب الدينى الحتم على المسلمين وجوب الغسل بالغيبوبة، وإن لم يحصل إنزال، وهذا مما يجب أن يعرفه كثير من المسلمين الذين جهلوا أحكام دينهم وساروا فى عبادتهم بمقتضى ما يعن لهم أو يتبادر لأذهانهم، ولأحكام الدين قواعد فى الفهم والاستنباط لا يعرفها إلا من خصصوا أنفسهم لها.

ليس فى الآية اشتراط الاغتسال من الحيض فى صلاة المرأة أو حل قربها:

وكما دلت الآيتان: ﴿وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾، ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ - مع ضميمة البيان المتقدم - على أن موجب الغسل: إنزال أو التقاء، دل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ على أن الحيض مما يفقد صفة الطهارة التى هى شرط فى صحة الصلاة، وأنه موجب للغسل كالإنزال والالتقاء، وقد وجه ذلك بعض الفقهاء فقال: دل قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ على وجوب الاغتسال بالنسبة للقربان، وبالنسبة للصلاة، أما بالنسبة إلى القربان، وهو الذى سيقت له الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ... إلخ﴾ فقد غيا الله سبحانه حرمة القربان الذى كان حلالا بالاغتسال، فينبغى أن تنتهى الحرمة به، ويكون مباحًا، وإلا لكانت حرمة مؤبدة، وفى ذلك نقض لما شرعه الله بالزواج وصرح به بعد فى قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ وفى قوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ وإذا كان الاغتسال شرطًا لحل القربان، مع أن الطهارة عما سوى الحيض والنفاس ليست بشرط له فى صورة من الصور، فلأن يشترط الاغتسال لحل الصلاة - التى اشترطت لها الطهارة عن جميع النجاسات الحقيقية والحكمية فى كل الأوقات - أولى.

وفى النفس شىء من هذا البيان، فإن الآية المشار إليها لا تعلق لها بالصلاة ولا بطهارة الصلاة، وإنما جاءت تقرر حكما وسطًا فى علاقة الرجل بزوجه وقت المحيض، فهل عليه أن يعتزلها اعتزالا كليًا بمعنى أنه لا يؤاكلها، ولا يشاربها، ولا يضاجعها، ولا يجالسها فيه، كما كان شأن فريق من أهل الكتاب؟ أو له أن يخالطها مخالطة كلية بمعنى أنه لا يدع شيئًا يريد أن يفعله معها إلا فعله من أعمال ظاهرة أو خفية، كما كان شأن الفريق الآخر من أهل الكتاب؟ تردد المسلمون فى هذا الشأن الذى كان فيه أهل الكتاب بين إفراط وتفريط؟ وسألوا النبى - ﷺ - عن حكم الله الذى يرشدهم إليه، فنزلت الآية ترشد إلى أن الحيض «أذى» ضار مكروه، يؤذى البدن، ويفسد الصحة، فيجب البعد عنهن فى هذه الحال التى ينبعث منها الأذى حفظًا للصحة، واحتفاظًا بعاطفة المودة التى يفسدها تقزز النفس من التلبس بتلك المادة.

ومن هنا يبدو أن التطهر فى هذه الآية لا يعدو أن يكون هو انقطاع دم الحيض وتعقب

آثاره الباقية فى المحل بالإزالة والتنقية، وبهما يزول سبب حرمة القربان وهو الأذى. أما التطهر بمعنى الاغتسال فليس فى الآية ما يدل على اشتراطه فى حل القربان بعد زوال سبب المنع وهو الأذى، وإذا لم تكن الآية دالة على اشتراط الغسل فى حل القربان، بطل الانتقال منه إلى وجوب الغسل لحل الصلاة، وقد تفرع فى البيان السابق هذا على ذاك. وإذن فلا نرى فى الآيات دلالة على وجوب اغتسال الحائض لحل الصلاة.

السنة توجب الاغتسال من الحيض للصلاة:

نعم وجب ذلك بالأحاديث الصحيحة المكملة لبيان القرآن، ومن هذه الأحاديث ما رواه البخارى عن عائشة أن فاطمة بنت أبى حبيش كانت تستحاض فسألت النبى - ﷺ -، فقال: «ذلك عرق وليس بالحيضة، فإذا أقبلت فدعى الصلاة، وإذا أدبرت فاغتسلى وصلى» أمرها النبى - ﷺ - بالاغتسال حينما تدبر الحيضة، ثم أباح لها الصلاة، كما هو شأن المستحاضة. وبهذا يتبين أن التطهر بمعنى الاغتسال مصدر وجوبه للصلاة إنما هو السنة لا القرآن الكريم، وليس فى القرآن ما يدل على خلافه.

وقد ثبت أن السنة مصدر مستقل فى بيان الأحكام التى لم يعرض لها القرآن بالإثبات ولا بالنفى، على أنه مما لا يقبل من أحد خلافه أن السنة تلحق ما لم يعرض له القرآن بما عرض له متى وجد المعنى الذى لأجله كان الحكم القرآنى فى الملحق به. وإذا كانت الجنابة تحدث تهيجًا فى الأعصاب، وفتورًا يحول بين المؤمن ونشاطه وتذكره، فإن نزول الحيض فى مدته طالت أم قصرت له مثل ذلك الأثر فى تهيج الأعصاب، وضعف النشاط، وفقدان التذكر، والماء الذى يعم الجسم يقضى على كل ذلك، فيعيد للأعصاب اعتدالها، وللنشاط توافره، وللتذكر قوته. وهذا هو الذى نراه فى الموضوع، وإن كان ما ذكره بعض الفقهاء لا يخلو عن شىء من الطرافة فى التخريج والاجتهاد.

هذا ما أردنا التعقيب به على تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾. وبذلك تم الكلام على الطهارتين الأصليتين اللتين وسيلتهما الماء: الصغرى: المعروفة بالوضوء، والكبرى: المعروفة بالاغتسال.

التيمم وأسراره التشريعية:

ولما كان الإنسان عرضة لأن يفقد الماء، أو يعجز عن استعماله، أو يشق عليه

استعماله، وكانت الصلاة كتابًا موقوتًا على المؤمنين، يستشعرون بها عظمة مولاهم فى أوقاتهم المتكررة فى اليوم والليلة، وينمون بها مراقبته التى هى حصن ووقاية لهم من السوء والشر فى قلوبهم، اعتبر لهم مادة أخرى يتخذون منها طهارتهم فى تلك الأحوال، وهى «الصعيد الطيب» والتيمم به، تحصيلا لتلك الطهارة التى اشترطها لصحة الصلاة، وأعطى التطهر بها حكم التطهر بالأصل وهو الماء، ما دامت حالة فقدان الماء، أو العجز عن استعماله أو مشقته، قائمة.

كونه طهارة رمزية تطمئن القلوب بها ويحافظ بها على الصلوات:

وفى الواقع أن مشروعية الطهارة بالبدل فى هذه الأحوال إنما هو لقصد إقرار التطهر للصلاة فى النفس، وإن الترك فى أوقات الأعذار للطهارة الأصلية - وقد تمتد تلك الأوقات أو تكثر - لسبيل بحسب العرف والعادة إلى التهاون بها فى غير أوقات الأعذار، ولا يجهل أحد ما تخلقه المواظبة من ملكة الاحتفاظ بأصل المطلوب. وهذا مبدأ يقرره ويعرفه رجال التربية والنظام. ترى ذلك فى تدريب الجنود على أعمال الحروب، ونراه فى الإيماء للصلاة فى أوقاتها عند العجز عن الحركات، فلو ترك الإنسان مدة تلك الأعذار بدون خلف يمثل له الواجب الأصلى، ويجعله منه على ذكر دائم، ويراه ماثلا بمعناه فى الخلف لكان ذلك سبيلا بحكم العادة إلى التهاون بالأصل عند انقطاع تلك الأعذار. وقد أشار إلى ذلك الشيخ الشعرانى فى الميزان، وضرب له مثلا ما قاله العلماء فى باب الحج «إن من لا شعر برأسه يستحب له إمرار الموسى عليه تشبهًا بالحالقين»، وأفصح عنه المحدث الدهلوى فى كتابه «حجة الله البالغة»، فقال: لما كان من سنة الله فى شرائعه أن يسهل عليهم كل ما يستطيعونه - وكان أحق أنواع التيسير أن يسقط ما فيه حرج إلى بدل لتطمئن نفوسهم، ولا تختلف الخواطر عليهم بإهمال ما التزموه غاية الالتزام، ولا يألفوا ترك الطهارات - أسقط الوضوء والغسل فى المرض والسفر إلى التيمم.

ولما كان ذلك كذلك نزل القضاء من الملأ الأعلى بإقامة التيمم مقام الوضوء والغسل، وحصل له وجود تشبيهى أنه طهارة من الطهارات، وهذا القضاء أحد الأمور العظام الذى تميزت به الملة المصطفوية من سائر الملل، وهو قوله - ﷺ -: «جعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء».

تشريع البدل حين لا يمكن الأصل مبدأ تربوى يراد به تركيز خلق المحافظة على التكاليف:

وإن من يقف عند هذا المبدأ التربوى، ثم ينظر فيما شرعه الله من أصول وأبدال فى أحكام العبادة وغيرها، يجده ماثلا فيها: يجده فى الصلاة كما سبقت الإشارة إليه، ويجده فى الحج كما جاء فى عبارة الشعرانى، ويجده فى الصوم بالإطعام، ويجده فى العقود والتصرفات - التى يكون اللفظ أداة لها - بالإشارة، كما يجده فى أصل الأمر كله وهو التوحيد، والتنزيه بالإشارة إلى جهة الرفعة والسمو، وكل ذلك لا يعدو فيما نرى قاعدة التركيز والتثبيت للأحكام الأصلية فى نفوس المؤمنين حتى يكونوا مستمرين عليها بحقائقها أو مثلها، وحتى يكمل شعورهم بلزوم مراقبتها والمحافظة عليها، وعدم التهاون فيها ما داموا يرون أن الله يعتبر لها بدلا يخلفها ويطالبون به، وإن لم يحقق ذلك البدل المعنى الذى يعقلونه ويدركونه من التكاليف الأصلية، ولعله بهذا البيان يتضح لنا الحكمة فى تلك البداية التى عقدها الله بين الماء والتراب، والوضوء والتيمم.

من مظاهر حكمة الله ورحمته فى التيمم:

ومن حكمة الله أنه لم يجعل البدل شيئًا يعز وجوده، أو يصعب استعماله على أحد من خلقه، فالصعيد الطيب، وبخاصة عند من لا يشترط فيه ترابًا، ملازم للإنسان فى وجوده أين كان. وتلك رحمة إلى رحمة.

ورحمة ثالثة: هى أنه اقتصر منه على ما يحقق الرمز والوجود الشبهى، وكان مظهر ذلك فى الاقتصار على مسح بعض أعضاء الوضوء، وهو الوجه والأيدى فقط.

ورحمة رابعة: هى أنه ساق مسح هذين العضوين بصيغة ليس لها دلالة على إرادة تعميمها بالمسح على نحو تعميمها بالماء فى الوضوء، فعدى المسح إلى الوجوه بالباء على نحو ما عداه إلى الرأس فى الوضوء، وبذلك كانت هنا مجالا للخلاف الذى هناك. وعداه كذلك إلى اليدين دون ذكر الغاية، وبذلك فتحت باب الاكتفاء بمسح ما تطلق عليه كلمة «أيدى» وبذلك صح الاقتصار فيه على مسحهما إلى الرسغين، إذ كان إطلاق اليد على هذا القدر شائعًا عند العرب، معهودًا فى القرآن.

ورحمة خامسة: هى أنه لم يطلب أكثر من المسح بعد تيمم الصعيد الذى يصدق

بقصده ولو مرة واحدة، وحسبنا في هذا حديث عمار في رواية الصحيحين، فقد صرح فيه أن التيمم بضربة واحدة يمسح بها الوجه والكفين، وهذا كله مما يحقق المعنى الذى قلناه في معنى الخلفية، وقرره غيرنا من قبلنا.

ومما يزيد ذلك وضوحًا: الاكتفاء بالوجود الشبهى على صورة واحدة فى حالة الحدث الأصغر الذى طهارته الوضوء والحدث الأكبر الذى طهارته الغسل، ذلك أن الرمز لا يقصد منه تمام مشاكلة البدل للأصل، وإنما يقصد منه الاحتفاظ بتعود الأصل والمواظبة عليه. وترى هذا ماثلا فى حديث أبى ذر عند أصحاب السنن مرفوعًا وصححه الترمذى: «إن الصعيد الطيب وضوء المسلم، وإن لم يجد الماء عشر سنين».

ونراه فى حديث عمار فى رواية الصحيحين: «أتى رجل عمر ـ رضى الله عنه ـ فقال: إنى أجنبت ولم أجد ماء، فقال له عمر: لا تصل، فقال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت فى سرية.. فأصابتنا جنابة. فلم نجد الماء، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمعكت فى التراب وصليت. فقال ـ ﷺ ـ: إنما كان يكفيك أن تضرب بيديك فى الأرض، ثم تنفخ، ثم تمسح بها وجهك وكفيك إلى الرسغين»؟ وهنا قال الشوكانى: وبهذا يتبين أن أحاديث الضربتين لا تخلو جميع طرقها من مقال، ولو صحت لكان الأخذ بها متعينًا لما فيها من الزيادة، فالحق الوقوف على ما ثبت فى الصحيحين من حديث عمار من الاقتصار على ضربة واحدة حتى تصح الزيادة على ذلك المقدار.

ولا ريب أن هذا كله مما يحقق المعنى الرمزى والتشبيهى الذى عنينا فى هذا المقام بإبرازه والدلالة عليه، ومن الواضح أنه لا شأن لمعنى النظافة والتنشيط فيما يتعلق بالتيمم، وإنما هو معنى رمزى، يثبت معنى الامتثال الربانى للأمر، ويغرس فى النفس ملكة المواظبة والحرص على تنفيذ الأوامر والاستمرار عليها، وهذا معنى يحقق الطهر القلبى، والتزكية الروحية التى هى أثر الإيمان الحق، والتى هى الغاية من سائر التكاليف الإلهية، ولعل قوله تعالى فى آخر الآية: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾.

لعل هذا التذييل جاء مرشدًا ومنبهًا على هذا المعنى الذى أوضحناه فى هذا المقام.

بحث حر فى الأسباب المبيحة للتيمم كما تفيدها الآية وبيان اضطراب الجمهور فى شأنها:

بقى بعد ذلك النظر فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا** ﴾ من جهة ما تدل عليه من الأسباب المبيحة لتلك البدلية.

ونحن فى هذا المقام نريد أن نقف بأنفسنا أمام هذه الجملة من آية الطهارة، ناظرين فى تلك الوقفة فقط إلى صلتها بالجملتين السابقتين لنتعرف - بمجرد النظر فى الأسلوب - الأحوال التى تريد الآية أن تضع لها أحكامها من جهة الطهارة واستباحة الدخول فى الصلاة. وبهذه النظرة نجد آية الطهارة تسوق شرطيات ثلاثا: تخاطب المؤمنين أولا، وتسوق لهم شرطيتين تبين فيهما حكم الحالة التى هم عليها بحسب الطبيعة والعادة، وهى حالة الإقامة، ووجود الماء والقدرة على استعماله، وترشدهم إلى أنهم إذا أرادوا الصلاة - وكانوا طبعًا على حالة من الحدث المنافى للصلاة - وجب عليهم أن يتطهروا طهارة صغرى إن كان الحدث أصغر، وهى الوضوء المذكور فى الشرطية الأولى وهى قوله: ﴿ **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ** ﴾. وطهارة كبرى إن كان الحدث أكبر وهى الغسل المذكور فى الشرطية الثانية، وهى قوله تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا** ﴾ وظاهر أن الحكم فى هاتين الحالتين لم يدخل فى حيثياته سوى الاعتبارات الطبيعية الجارية على الناس بحكم العرف والعادة، لم ينظر فيها إلى طارئ عليهم من مرض أو سفر، أو فقدان ماء، أو عجز عن استعماله، وبعد هذا صار من الحتم استيفاء لأحكام هذه الأحوال الطارئة أن نعرفها، وأن نعرف أساس الحكم فيها من هذه الطوارئ، فجاءت الشرطية الثالثة تبين لنا الحكم فى ظل تلك الطوارئ. ولما كان الأصل الذى عليه الناس هو صحتهم، وإقامتهم، ووجود الماء فيما بينهم، وعلى هذا الأصل جاء الحكم فى الشرطيتين السابقتين، كان من الضرورى أن تعرض الآية للأحوال الطارئة على هذا الأصل، وهى أحوال المرض والسفر، وعدم وجود الماء، فذكرت الشرطية الثالثة الحكم فى الأحوال الثلاثة بعناوينها الخاصة فقالت: ﴿ **وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا** ﴾ وعلى هذا يكون «المرض» عارضًا مبيحًا للتيمم بنفسه دون أى اعتبار آخر

معه، سواء صحبته إقامة أم سفر . أو وجود ماء أو فقده، أو حدث أصغر أو أكبر، ويكون «السفر» عارضًا مبيحًا للتيمم بنفسه دون أي اعتبار آخر معه سواء صحبه مرض أو صحة، أو وجود ماء أو فقده في حدث أصغر أو أكبر، ويكون «فقد الماء» عارضًا مبيحًا للتيمم بنفسه صحبته صحة أم مرض، إقامة أم سفر، فى حدث أصغر أم أكبر، وبهذا تكون الشرطية الثالثة جاءت لبيان أحكام الحالات التى طرأت على ما هو الشأن فى الناس من الإقامة، والصحة، ووجود الماء.

هذا هو الذى نفهمه من الأسلوب القرآني بمجرد النظر فيه، وتتبع الأحوال التى دلت عليها العادة الجارية، وأشارت إلى ما يخلفها العناوين الخاصة التى ذكرت فى تلك الشرطية من «المرض، والسفر، وعدم وجدان الماء» وبذلك يكون «المرض» مبيحًا للتيمم كيف كان، وعلى أى حال كان المريض، ويكون «السفر» مبيحًا للتيمم كيف كان الفاقد له، وعلى أى حال كان المسافر، ويكون «عدم وجدان الماء» مبيحًا للتيمم كيف كان الفاقد له، وعلى أى حال كان، فالمريض يتيمم، والمسافر يتيمم، وفاقد الماء يتيمم، وكلها أسباب مستقلة مبيحة للتيمم.

هذا، وقد سبقنا إلى هذه النتيجة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ووافقه فيها الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره، ويجدر بنا أن نسوق فى هذا المقام كلمة الأستاذ الإمام وهو بصدد تفسير آية النساء. قال: «المعنى أن حكم المريض والمسافر إذا أراد الصلاة كحكم المحدث حدثا أصغر أو ملامس النساء ولم يجد الماء، فعلى كل هؤلاء التيمم فقط، وهذا ما يفهمه القارئ من الآية نفسها إذا لم يكلف نفسه حملها على مذهب من وراء القرآن، يجعلها بالتكلف حجة له، منطبقة عليه، وقد طالعت فى تفسيرها خمسة وعشرين تفسيراً فلم أجد فيها غناء، ولا رأيت قولا فيها يسلم من التكليف، ثم رجعت إلى المصحف وحده، فوجدت المعنى واضحًا جليًا، فالقرآن أفصح الكلام وأبلغه وأظهره، وهو لا يحتاج عند من يعرف العربية: مفرداتها وأساليبها إلى تكلفات فنون النحو وغيره من فنون اللغة عند حافظى أحكامها من الكتب مع عدم تحصيل ملكة البلاغة». ثم قال الشيخ رشيد: إلى آخر ما أطال به فى الإنكار على المفسرين الذين عدوا الآية مشكلة، لأنها لم تنطبق على مذاهبهم انطباقًا ظاهراً سالمًا من الركاكة وضعف التأليف. ثم قال الشيخ رشيد: وإذا كان ـ رحمه الله ـ راجع خمسة وعشرين تفسيراً رجاء أن يجد فيها قولاً لا تكلف فيه، فأنا لم أراجع عند كتابة تفسيرها إلا روح المعانى، وهو آخر التفاسير المتداولة

تأليفًا، وصاحبه واسع الاطلاع، فإذا به يقول: «الآية من معضلات القرآن، ولعلها بعد تحتاج إلى نظر دقيق». قال الشيخ رشيد: ووالله إن الآية ليست معضلة ولا مشكلة، وليس فى القرآن معضلات إلا عند المفتونين بالروايات والاصطلاحات، وعند من اتخذوا المذاهب المحدثة بعد القرآن أصولاً للدين يعرضون القرآن عليها عرضًا، فإذا وافقها بغير تكلف، أو بتكلف قليل فرحوا، وإلا عدوها من المشكلات والمعضلات، على أن القاعدة القطعية المعروفة عمن أنزل عليه القرآن - ﷺ - وعن خلفائه الراشدين - رضى الله عنهم - أن القرآن هو الأصل الأول لهذا الدين، وأن حكم الله يلتمس فيه أولاً، فإن وجد فيه فمنه يؤخذ وعليه يعول، ولا يحتاج معه إلى مأخذ آخر، وإن لم يوجد التمس من سنة رسول الله - ﷺ -. على هذا أقر النبى معاذًا حين أرسله إلى اليمن، وبهذا كان يتواصى الخلفاء والأئمة من الصحابة والتابعين.

أما الجمهور فقد قالوا: إن المذاهب المعروفة عندنا لا تبيح التيمم للمسافر إلا عند فقد الماء، ولا يمكن أن يعقل ذلك من أرباب المذاهب كلها إلا إذا كان لديهم أصل لذلك الحكم يجعلهم يقفون أمام الآية هذا الموقف الذى وقفوه، وكانت به فى نظرهم من المشكلات المعضلات، ولكن أى أصل هذا الذى يقف أمامهم قبل القرآن، ويجعلونه حكمًا على القرآن؟ قالوا: إن الأحاديث والروايات التى ذكرت السفر والتيمم فيه، كانت كلها مجمعة على أن القوم لم يكن عندهم ماء وهم على سفر، وأن التيمم أبيح لهم وهم على تلك الحال، ونحن نقول: أبيح لهم التيمم وهم على تلك الحال، وهل منعوا منه وهم على سفر مع وجود الماء؟ لم يرد ذكر حالة مثل هذه، وليست الإباحة فى الحالة التى وقعت لهم مانعة من الإباحة فى مثل تلك الحالة إذا وقعت، ولم يوجد نص قولى يعم الأحوال كلها، ويحدد ما يباح التيمم فيه للمسافر وما لا يباح، فكل ما ورد من وقائع أحوال لا عموم لها ولا تدل على انتفاء الحكم فى غيرها. قالوا: إن ذكر السفر هنا لدفع توهم أنه مرخص بذاته، كما عرف له ذلك فى الصلاة والصوم، وكأنه يقول إن السفر فى هذا الباب ليس مرخصًا بذاته، ولا أثر له فى إباحة التيمم إلا إذا عدم الماء كالمقيم سواء بسواء، ولعلهم يقولون بمثل ذلك فى المرض ويمنعون تيمم المريض متى كان الماء موجودًا، وإلى هذا ذهب بعض الفقهاء. ونحن نقول: كان يكفى الاقتصار على عدم وجود الماء، فيعم الأحوال كلها، ويفهم ذلك الذى تقولون من مجرد الاقتصار على عدم الماء، ومن المعلوم أن الرخصة لا تثبت لحالة خاصة إلا إذا نص عليها، وما لم ينص عليها يعمها

الحكم دون استثناء، ثم كيف يقبل أن المرض لا يبيح التيمم؟ وعندئذ يقولون دفعًا لهذا: إن المراد بعدم الوجدان عدم القدرة على استعماله والانتفاع به، ويكون بذلك عدم الوجدان مستعملا فى حقيقته ومجازه، فإن قالوا: دل على هذا الاستعمال قاعدة نفى الحرج وما أباحه الله من الرخص فى حالة المرض، قلنا: وبمثل هذا يقال فى السفر، فقد أباح الله فيه - كما أباح فى المرض - الإفطار فى رمضان، وقصر الصلاة والجمع بين الصلوات، وما إلى ذلك من سائر الرخص التى رتبها الشارع عليهما معًا.

ويقول الشيخ رشيد هنا: هل يقول منصف إن صلاة الظهر أو العصر أربعًا فى السفر أشق من الغسل أو الوضوء فيه؟ وضرب مثلا بالجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام، وقال: إن الماء فيها كثير دائمًا، وفى كل باخرة منها حمامات ولكنها خاصة بالأغنياء، وإن هؤلاء الأغنياء أنفسهم منهم من يصيبه دوار شديد يتعذر عليه معه الاغتسال أو يشق، وإن كان هذا هو حال السفن وحال المسافرين فيها بالنسبة للغسل والوضوء، فما يكون الحال بالنسبة لهما فى قطارات السكك الحديدية أو قوافل الجمال والبغال؟

وأخيرًا فالرأى أنه إذا ثبت عن طريق موثوق به واقعة حال منع فيها التيمم للمسافر مع وجود الماء، أو ثبت نقل صحيح لإجماع صحيح على منع التيمم لذلك المسافر، كان ذلك أساسًا لقبول رأى الفقهاء فى الموضوع، وكان فى الوقت نفسه موجبًا لتخريج الآية على النحو الذى يتفق مع ما صح ثبوته من وقائع الحال أو صريح الإجماع، أما والحال كما نعلم من أنه لا ثبوت لمثل تلك الواقعة، ولا تصريح بنقل الإجماع، فإن الفقيه فى حل من أن يفهم الآية ويخرجها على ما تقتضيه أساليب اللغة، وتشهد به أصول التشريع فيما يختص بالعزائم وأسباب الترخص، ونرجو أن يكشف الله لنا ولغيرنا الغطاء فى أمثال هذه المسألة، كشفًا تطمئن إليه القلوب، ويقلل من نوازع الخلافات الفرعية التى تقع فى دائرة ما أباح الله فيه النظر والاجتهاد.

ما تدل عليه الآية من نواقض الطهارة:

هذا، وقد دلت الآية عن طريق إيجاب التيمم عند فقد الماء فى حالة المجىء من الغائط الذى كنى به عن قضاء الحاجة الإنسانية، وفى حالة المخالطة الجنسية التى كنى عنها بملامسة النساء، دلت على أن هذين الأمرين: قضاء الحاجة، والملامسة، ناقضان

للطهارة، وقد تكلم الفقهاء طويلا على نواقض الوضوء، وتوسعوا فيها على حسب اختلاف درجاتهم فى الرواية والاعتداد بها، وفى القياس والإلحاق والاعتداد به، ولم يتفقوا فى هذا الباب إلا على انتقاض الوضوء بالبول والغائط والريح والمذى والودى، إذا كان خروجها على وجه الصحة، واختلفوا فيما عدا ذلك: اختلفوا فى النجس يخرج من الجسد، فقيل: كل نجاسة تسيل من الجسد وتخرج منه يجب منها الوضوء، وعلى ذلك يكون الدم، والرعاف الكثير، والفصد، والحجامة، والقيء، ناقضة للوضوء. وقيل: الناقض هو كل ما خرج من السبيلين معتاداً كان أم غير معتاد، على وجه الصحة، أم على وجه المرض. وقيل: إن الناقض للوضوء هو كل ما خرج من السبيلين مما هو معتاد خروجه إذا كان خروجه على وجه الصحة، واختلفوا فى النقض بالنوم، فقيل هو ناقض قل أو كثر، وقيل هو ليس بناقض، وإنما الناقض هو ما يحدث فيه بيقين، ولا فرق عند هذين بين قليل النوم وكثيره، وفرق آخرون بين القليل الخفيف والكثير الثقيل، كما فرق غيرهم بين الكيفيات التى يكون عليها النائم من جهة التمكن أو عدمه. واختلفوا فى النقض بلمس النساء باليد أو بغيرها، فذهب قوم إلى أنه ناقض على اختلاف بينهم فى التفصيل، وذهب آخرون إلى عدم نقضه، ولاختلافهم فى المراد من الملامسة فى الآية دخل كبير فى الاختلاف فى هذا الحكم، والذى نراه أن النقض باللمس العادى لم يصح فيه شيء من الأحاديث، فى حين أنه صح أن عائشة - رضى الله عنها - وضعت يدها على قدم النبى - ﷺ - وهو يصلى فى المسجد، ولو كان من النواقض لتوفرت الدواعى على نقله لكثرته ولاتصاله بصحة العبادة وفسادها[1].

واختلفوا كذلك فى النقض بمس الفرج، ومن أراد الإحاطة بآراء الفقهاء فى النواقض وحججهم المختلفة فيها فليرجع إلى كتب الفروع، فمجالها فى ذلك أوسع، وبيانها وحجاجها أتم.

أما الآية فلم يثبت بها ناقض إلا قضاء الحاجة المعتادة، والمخالطة الجنسية، أما ما عداهما فإن صح بشيء منه رواية عن النبى - ﷺ - فإنه يجب الأخذ بها والعمل بمقتضاها، ويكون ذلك من باب البيان التكميلى للقرآن عن طريق السنة.

---

(١) راجع موضوع «لمس المرأة» فى كتابنا «الفتاوى».

قاعدة اليسر ونفى الحرج فى هذا التشريع وغيره، ووجوب مراعاتها على الناظرين فى أحكام الدين:

هذا، وقد ذيل الله آية «الوضوء» بالإشارة إلى القصد من هذا التشريع، مما يرجع إلى تزكية النفس وتطهيرها، وتنظيف الإنسان وتنقيته، وبوضع هذه القاعدة العظيمة التى كانت محققة لسهولة الإسلام ويسره، وعدم اتجاهه فيما يشرع إلى شيء من الإعنات والإرهاق، وهي قاعدة نفى الحرج في أحكام الدين عامة بقوله: ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ وقد ذكرت هذه القاعدة فى سورة الحج بما يدل على عمومها فى الدين كله: ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾.

وجدير بمن ينظرون فى أحكام الدين ويعالجونها ويدعون الناس إلى اتباعها أن يجعلوا هذه القاعدة الإلهية التى وضعها الرحيم بخلقه نصب أعينهم، فلا يحملهم ضيق الصدر، أو حب الظهور بالمخالفة على الإعنات والمشاقة التى كثيراً ما تصرف الناس عنهم وعن بيانهم وإرشادهم، وربما تفاقم الأمر فكرهوا الدين، وكرهوا أحكامه، فراراً من التنطع والمشاقة، وإرادة قهر الناس بما لا يصحح لهم عبادة ولا يزكى لهم نفسًا، ولا يرقى لهم حياة؛ وقد كان النبى يختار أيسر الأمرين إذا خير، ويقول: «يسروا ولا تعسروا» فهذه هى قاعدة الدين، وهذا هو شأن الرسول فى علاج الأمة وتعليمها، فإن كنتم تحبون الله فاتبعوه، وإلا كنتم منه على جانب، وكان منكم عمله وشرعه على آخر.

نعمة الله على المؤمنين وميثاقه الذى واثقهم به:

وقد ختم الله هذا النداء بإرشادين، لكل منهما أثر كبير فى توجيه المؤمنين إلى التزام ما شرع الله من أحكام يطهر بها النفوس، ويتم بها النعمة دون إرهاق ولا إعنات.

تضمن أول الإرشادين قوله تعالى: ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾.

وتضمن ثانى الإرشادين قوله تعالى بعد: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

نعمة الله على عباده:

يذكرهم بأمرين: نعمة الله عليهم، وميثاقه وعهده الذى عاهدهم به، ولله على المؤمنين نعم عامة تشملهم وتشمل غيرهم وهى نعم الخالقية، ونعم الربوبية، وتنتظم نعمة الخلق والتكوين، ونعم التربية البدنية والعقلية، ونعم تسخير ما خلق فى السموات والأرض وما بينهما لمصلحة الإنسان، وقد أشار القرآن فى جميع سوره إلى تفصيل كثير من هذه النعم ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ اقرأ هذه الآية وما بعدها من سورة النحل إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ثم ارجع واقرأ من قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ واقرأ فى سورة الروم من قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

اقرأ هذا وأمثاله وهو كثير فى القرآن، وتدبر ما تدل عليه الآيات، وما يحيط بك من عناصر هذا الكون وآثارها فى نفسك لتعرف مقداره، أو لينفتح لك باب من أبواب المعرفة

بنعمة الله عليك وعلى الناس وعلى الخلق أجمعين، وعلى المؤمن - بعد ذلك - الذى أجاب دعوة محمد، ونزع نفسه من الشرك والوثنية أن ينظر فيما أنعم الله به عليه من نعمة الإيمان والهداية، ونعمة النصرة على الأعداء، ونعمة الاتحاد والاعتصام ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾.

مواثيق الله مع الناس. ميثاق الاعتراف بالربوبية:

وكما لله على عباده المؤمنين نعم عامة وخاصة، له مع عباده أنواع من المواثيق أخذ بعضها على نفسه، وأخذ بعضها عليهم. أخذ عليهم ميثاق الإيمان بوجوده، والاعتراف بخالقيته ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾، وبمقتضى هذا العهد قالوا فى جواب ﴿ **مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** ﴾: خلقهن الله.

ميثاق الطاعة والامتثال بمقتضى الإيمان:

أخذ عليهم ميثاق الإيمان على القيام بالأحكام، والطاعة والامتثال، ويتجلى هذا فى جميع التكاليف التى مهد لها بالنداء بوصف الإيمان ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ** ﴾ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ** ﴾ وهكذا إلى آخر ما تراه فى القرآن من نحو هذه الآيات الدالة على أن الإيمان يقتضى العمل بالأحكام.

ميثاق الأنبياء على البلاغ وتصديق بعضهم لبعض:

أخذ على الأنبياء ميثاق البلاغ، وميثاق تصديق بعضهم لبعض ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾.

وأخذ على العلماء الميثاق على بيان الأحكام وما أنزل الله ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾.

ميثاق بنى آدم باتباع الهداية، وترسم الرسالات الإلهية:

وأخذ الميثاق على بنى آدم جميعًا باتباع هدايته وترسم رسالاته ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾.

المواثيق الخاصة ببعض الأمم ميثاق بنى إسرائيل:

وكما أخذه عاما على بنى آدم أخذه خاصًا على بعض الأمم، فعلى بنى إسرائيل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾.

ميثاق أمة الإجابة لمحمد:

وعلى أمة الإجابة لرسوله محمد ـ ﷺ ـ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. وقد أخذ النبى ـ ﷺ ـ فى ذلك العهد على الرجال والنساء بالسمع والطاعة، وذكر الله تعالى فى كتابه عهد النساء فى سورة الممتحنة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقد جاءت الأحاديث بعهد الرجال على السمع والطاعة فى المنشط والمكره، والعسر واليسر، وحمايته ونصرته مما يحمون منه أنفسهم وأولادهم.

ميثاق الله على نفسه:

أما ميثاق الله على نفسه فهو ميثاق النصرة، والحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة، وقد جعل الوفاء به مشروطًا بوفاء العبد بميثاقه، ومرتبًا على قيامه بما طلب منه ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

عهد الله للأولين هو عهده للآخرين:

وهكذا إذا قرأنا القرآن وتدبرنا هذه الآيات وأمثالها، وجدنا أن عهد الله للأولين من خلقه هو عهده للآخرين منهم، وأن ما أخذه على الأولين هو ما أخذه على الآخرين: إيمان بربوبيته، وتنزيه لألوهيته، وامتثال وطاعة لأحكامه وشرائعه، ومن هنا نرى فى

القرآن الكريم تذكير الآخرين بنعمه على الأولين إذا أطاعوا، ونقمه عليهم إذا خالفوا، فالمصدر واحد، والهداية واحد، والخلق واحد.

خطة إلهية واحدة لإنسانية فى قديمها وحديثها واحدة:

ومن هنا جاءت الآيات المصرحة باتحاد خطة الأنبياء، وبأنهم جميعًا يوحى إليهم من عند الله، وبأن ما شرع للمتأخر من دين وعقيدة هو ما شرع للمتقدم؛ فالإنسانية فى نظر الألوهية واحدة، ووضعها واحد، لم تحكم فيها طبقات، ولا أجناس، ولا أقاليم، ولا لغات، فالكل أمام المسئولية الإلهية سواء، وكلهم مأخوذون بعهد الله وميثاقه، ولكن الناس بأهوائهم وفتن هذه الحياة جعلوا الرسالات الإلهية الواحدة، والعدل الإلهى الواحد، والفضل الإلهى الواحد، أنواعًا متعددة، وصوراً مختلفة متباينة، وانحاز كل فريق بدواعيه الخاصة إلى ما حد له ورسم لنفسه من شرعة ودين، وبذلك فرقوا دين الله، وهداية الله، وكانوا لأنفسهم هم الظالمين ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾.

هذا ما أردنا أن نفتح أبوابه أمام الدارس لكتاب الله فى ظل من ختام النداء الثالث من النداءات الإلهية فى سورة المائدة: ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾.

النداء الرابع:

ولا يفوت المؤمن أن التذكير بمواثيق القادر القاهر، الرحيم المتفضل، مما يوجب الوفاء، وإن التذكير بالنعم مما يوجب الشكر، والشكر والوفاء طريقهما القيام بأحكام الله وما يرضيه من أعمال الخير للفرد والجماعة، ولا ريب أن أعظم ما يغار الله عليه من الأحكام ما يكون محققًا للعدالة والرحمة بين عباده، ومن هنا جاء النداء الرابع من نداءات هذه السورة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾.

ما يشتمل عليه هذا النداء القوامية لله وأثرها فى السمو بالإنسان:

وقد اشتمل هذا النداء على أمور ثلاثة:

أولها: أن يكونوا قوامين لله، وهذا يمثل القوة والإخلاص فى الأقوال والأفعال، والثبات في خدمته سبحانه وتعالى، والارتفاع بالنفس عن منازل الانحطاط، ومزالق الهوى ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

لا يرضى الله لعباده إلا أن يكونوا فى منازل السمو والرفعة، والنأى عن مراتع الهوى والشهوات. لا يرضى لهم إلا السمو بأنفسهم إلى مدارج القوة والسلطان والهيمنة على كل ما سخر لهم فى هذه الحياة: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

القيام بالقسط وحمايته ولو بالقوة:

وثانيها: الشهادة بالقسط، وهى الغاية من إرسال الرسل، وإنزال الكتب ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

فليس أمام المؤمنين فى تقرير الحق أو الحكم به قرابة، ولا ولاء، ولا مال، ولا جاه، ولا فقر، ولا غنى، ولا قوة ولا ضعف، فصاحب الحق هو القريب وإن كان بعيداً، والغنى وإن كان فقيراً، والقوى وإن كان ضعيفاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ولعلنا ندرك من هذه الآيات أن العدل قد سمت به التعاليم الإلهية عن مواطن التأثر

بعواطف الأبوة والبنوة، ووضعت بإزائه «الحديد» للإشارة إلى أنه مطلوب من العباد، ويجب أن يسلكوا سبيله مهما كلفهم من جهود وتضحيات ولو باستعمال الحديد والنار.

العدل مع الصديق والعدو:

وثالثها: لم تقف الآية فى العدل عند طلب الشهادة به، بل أكدت هذا بالنهى عن الظلم ولو للأعداء، وحذرت أن تحمل العداوة والبغض على الظلم، والتساهل فى العدل، ولم تكتف بهذا بل عادت فأمرت به ﴿ **اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾.

إجمال مواطن الأمر بالعدل فى القرآن:

وقد كثرت أوامر الله فى القيام بالعدل. فأمر به عامًا وخاصًا، أمر به مع المخالفين فى الدين، وأمر به فى الحكم والقضاء، وأمر به بين الأولاد والزوجات، وأمر به النفس، وآيات ذلك كثيرة شهيرة، فليرجع إليها وليتتبعها فى القرآن من شاء.

النداء الخامس روايات المفسرين عن سبب نزول آية:

ثم يجىء النداء الخامس: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾.

ويحاول المفسرين كعادتهم أن يجعلوا الآية إشارة إلى حادثة معينة، فيقول بعضهم: إنها نزلت فى رجل هم بقتل النبى - ﷺ -، وكان بيده السيف، وليس مع النبى سلاح، قام على رأس رسول الله، وقال: من يمنعك؟ قال: الله، فوقع السيف من يده، فأخذه النبى - ﷺ -، وقال: من يمنعك؟ قال الرجل، كن خير آخذ، قال النبى - ﷺ -: تشهد ألا إله إلا الله وأنى رسول الله؟ قال الرجل: أعاهدك ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فجاء الرجل إلى قومه، وقال. جئتكم من عند خير الناس.

ويقول آخرون: إنها نزلت فى قصة النبى مع بنى النضير حينما ذهب إليهم ومعه أبو بكر وعمر وعلى يطلبون منهم الإعانة على قتل رجلين كان معهما أمان من النبى ولم يعلم به من قتلهما، وكان بين النبى وبنى النضير عهد التعاون فى الديات، فلما حضر عندهم لذلك وهو بين أظهرهم، أظهروا له القبول، وقالو: نعم يا أبا القاسم. قد آن لك أن تأتينا

وتسألنا حاجة، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذى تسألنا فلما جلس بجانب جدار لهم وجدوا أن الفرصة قد سنحت للغدر به، وهموا أن يطرحوا عليه صخرة، فأعلم النبى بذلك من ربه، فانطلق وتركهم.

الآية تذكير بوقائع الاعتداء على المؤمنين عامة:

والذى نفهمه أن الآية تذكر عام بوقائع الاعتداء على المؤمنين، وما كان من الأعداء من محاولة قتلهم، والتدبير لهم منذ بدء الدعوة والاستجابة لها إلى نهايتها، ولا ريب أن التذكر بها يتضمن التذكير بنعمة الخلاص منها، وتوافر قواهم على رد العدوان، كما يتضمن لفت الأنظار إلى أسبابها من صدقهم وإخلاص نيتهم وتضامنهم فى رد كيد الكائدين، وكبح جماح الظالمين.

عمومها يشمل الأولين والآخرين إلى يوم الدين:

وليس التذكير بهذه النعمة قاصراً على من وقعت لهم تلك الوقائع، بل هى منة عامة يجب أن يشكرها لله عز وجل كل مؤمن إلى يوم القيامة، فالنبى هو الذى قد بلغ الرسالة، وأصحابه هم الذين تلقوها بالقبول وعملوا على نشرها فى الأمصار والجهات حتى وصلت سليمة من التحريف والتبديل إلى الذين جاءوا من بعدهم، فهى نعمة عامة شاملة، موصولة النفع بالأجيال كلها إلى يوم الدين إن شاء الله، وعلى المتأخرين الذين يعرفون فضل الله عليهم بهذه النعمة أن يذكروها، وأن يقفوا من دينهم وتعاليم نبيهم موقف السابقين الأولين، حتى يكون فيهم لمن بعدهم القدوة الحسنة التى كانت لهم فى آبائهم الأولين، وبذلك ينتفع آخر الأمة بما انتفع به أولها، وتكون الأمة الإسلامية كالحلقة المفرغة يقوى أولها آخرها، ويسلك آخرها سبيل أولها، هكذا يجب أن تكون، ولكن لله فى خلقه شئون وشئون.

عناية القرآن بتذكير المؤمنين بحوادث النصر:

هذا، وقد عنى القرآن كثيراً بتذكير المؤمنين بحوادث النصر الذى سجله تاريخ الجهاد الإسلامى فى عهد التبليغ، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا (٩) إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا (١٠) هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا﴾ إلى أن يقول: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا (٢٥) وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا (٢٦) وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا﴾.

واقرأ فى مثل هذا من سورة الأنفال قوله تعالى فى شأن غزوة بدر: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾.

سر هذه العناية:

ولا ريب أن من أقوى وسائل التربية فى الأمم عرض صفحات الماضين، وأنها بما توحى من أسباب القوة، نور يضىء السبيل للسير فى طريق النصر، والاحتفاظ بالمجد الذى كان للآباء[1].

موازنة بين نصر الله للمؤمنين وخذلانه للمكذبين والمخالفين:

وقد أراد الله فى هذا المقام أن يأخذ المؤمنين إلى المثلات الماضية الأولى، ليؤكد لهم أن المخالفة والعصيان، ونقض العهود فى سنن الاجتماع من أسباب العواقب السيئة التى تنزل بالأمة جزاء طبيعيًا لمسلكها إزاء الحق والتهاون فيه. ومن هنا قفى ذلك النداء بما كان عن موقف بنى إسرائيل من عهد الله وميثاقه الذى أخذه عليهم، وسبحت الآيات فى ذلك سبحًا طويلاً. فلنقرأه من قوله تعالى: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم..﴾ إلى قوله: ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾.

---

(١) راجع موضوع «القرآن والذكريات» فى كتابنا «توجيهات الإسلام».

النداء السادس:

ثم يجيء بعد ذلك النداء السادس ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

هذا هو النداء السادس من النداءات الإلهية التى اشتملت عليها سورة المائدة ، وقد طلب فيه من المؤمنين - كما هو ظاهر - تقوى الله ، وابتغاء الوسيلة إليه ، والجهاد فى سبيله . وذيل برجاء الفلاح للمؤمنين إذا هم حققوا ذلك المطلوب ، ثم ألحق به ما يرشد إلى عاقبة الكافرين الذين لم يعتمدوا فى تهذيب نفوسهم ، وإصلاح حالهم على ما رسمه الله للمؤمنين فى هذا النداء . بل أطلقوا لأنفسهم العنان تسبح وراء الشهوات والأهواء إلى أن يعاينوا ما أعد لهم من عاقبة سيئة ، يحاولون التخلص منها بأعظم ما يمكن أن يقدمه المحرج سبيلا للخروج من المأزق الذى وقع فيه .

ميزة هذا النداء على ما قبله وما بعده من نداءات السورة:

وإذا قورن هذا النداء بغيره من النداءات التى وردت فى هذه السورة ، فإنه يظهر له مكانة خاصة تأخذ به عن مستوى النداءات كلها ، وتجعل له شأنًا جديرًا بالعناية والتقدير ، ذلك أن النداءات السابقة عليه واللاحقة له يتعلق كل واحد منها بناحية معينة من نواحى التشريع ، فالنداء الأول يطلب الوفاء بالعقود ، والنداء الثانى يطلب المحافظة على شعائر الله وعدم إحلالها ، والنداء الثالث يطلب الطهارة حين إرادة الصلاة ، والنداء الرابع يطلب القوامية لله ، والشهادة بالعدل ، ويحذر الظلم ، والنداء الخامس يطلب تذكر نعمة الله على المؤمن بكف أيدى الأعداء عنهم . والنداء السابع يحذر من اتخاذ الأعداء أولياء من دون المؤمنين ، وفى معناه النداء الثامن ، يلفت نظر المؤمنين إلى أن المسارعة فى موالاة الأعداء ردة عن الدين ، ثم يجيء التاسع بلون آخر يدعو إلى شدة الحذر من موالاتهم ﴿ لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ﴾ والنداء العاشر ينكر تحريم الطيبات التى أحلها الله ، ويحرم الحادى عشر الخمر والميسر ، ويتعلق الثانى عشر والثالث عشر بتحريم قتل الصيد الذى ابتلى الله المؤمنين بالتمكن منه فى حالة

الإحرام. ويتعلق الرابع عشر بالنهى عن سؤال ما ترك الله بيان حكمه توسعة على عباده، كما يتعلق الخامس عشر بتحديد مدى المسئولية التى يحملها المؤمنون فى الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ويتعلق السادس عشر بكيفية الشهادة على الوصية فى حالة السفر.

من هذا العرض الوجيز يتبين أن جميع النداءات الواردة فى السورة ـ خلا النداء السادس ـ تتعلق بشأن خاص.

ما يأمر به هذا النداء هو ملاك الأمر كله:

أما هذا النداء فإنه يتعلق بملاك الأمر كله، وأساس الامتثال فى جميع النداءات، بل فى جميع الأوامر والنواهى، وهو تقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه، والجهاد فى سبيله.

تذييل الأوامر القرآنية بالأمر بالتقوى:

هذا، إلى أننا إذا نظرنا نظرة عامة فى سائر الأوامر والنواهى الواردة فى كتاب الله وجدناها جميعها أو جلها يوضع الأمر فيها «بالتقوى» تمهيداً أو تذييلا لها.

وما عليك فى هذا سوى أن تستعرض آيات النداء للمؤمنين، وكذا آيات الأوامر والنواهى المجردة عن النداء، فترى ما قلناه من التمهيد أو التذييل بطلب التقوى قدراً مشتركا فى أكثرها، فآية البر تختم بقوله: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾، وآية الوصية تختم بقوله: ﴿ **حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴾، وآية الصوم تختم بقوله: ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾، وآية الأهلة تختم بقوله: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾، وآية القتال فى الشهر الحرام تختم بقوله: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾، وآية الحج تختم بقوله: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ وبقوله: ﴿ **فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾، وآيات الطلاق تختم بقوله: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾، وآيات الرضاع تختم بقوله: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ وآية المتعة للمطلقات تختم بقوله: ﴿ **حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴾. وآية الربا تمهد بقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا** ﴾.

وبعد: فهذه جولة فى سورة البقرة فقط، تريك كيف اتخذ الأمر بالتقوى تذييلا لهذه التشريعات، وعليك باستقراء ما تستطيع أن تستقرئه من هذه الناحية لتصل إلى الشق الآخر، وهو شق التذييل فى الأوامر بطلب التقوى، فيستقر فى نفسك ما قلنا فى شأن التقوى من جهة التمهيد والتذييل للأوامر والتشريعات.

دلالة ذلك على المعنى المقصود للتقوى:

وإذا دل هذا على شىء، فأول ما يدل عليه أن التقوى ليست - كما اشتهر - عبارة عن خصوص امتثال الأوامر واجتناب النواهى حتى تكون عملا جارحيًا، إنما هى معنى فى القلب يرجع فى جملته إلى تقدير العظمة الإلهية، وامتلاء النفس بها امتلاء يدفع المؤمن إلى المسارعة، وشدة الحرص والإحساس فى تحقيق أوامر الله وتشريعاته، ويدفع به فى الوقت نفسه إلى إنعام النظر وقوة التفكير فى ملكوت السموات والأرض لمعرفة أسرار الله فى كونه، وسننه فى خلقه، ثم الاتجاه إلى هذه الأسرار، والعمل على إظهار رحمة الله فيها بعباده، والوقوف على السنن التى ربط بها بين الأسباب والمسببات، بين السعادة وأسبابها، والشقاء وأسبابه بين العلم وأسبابه، والغنى وأسبابه، والعزة وأسبابها.. وهكذا إلى آخر ما تمليه على العاقل المفكر هذه السنن الثابتة التى لا تتغير ولا تتبدل، والتى لا سعادة للإنسان إلا بتقديرها والعمل بمقتضاها. إذن ليست التقوى امتثال الأوامر، واجتناب النواهى، إنما هى ذلك المعنى القلبى الذى تغنى به الإرادات الإنسانية فى ملكوت العظمة الإلهية، وهى الباعث على امتثال الأوامر، واجتناب النواهى، وهى المحققة للإحسان فى طاعة الله ورسوله، فهى المبدأ وهى المنتهى، وهى الأولى وهى الآخرة.

ولعلنا - لو تتبعنا مواقع التقوى فى القرآن الكريم - نقف فى معناها على أسرار لا تفى الأقلام بتدوينها، فلندع هذا الباب، وقد ثقبنا منه نافذة صغيرة ينفذ منها شعاع على القلب المستعد للتقوى فيدرك معناها، ويستشعر لذتها، ويقف ثملا بعظمة الله كلما سمع قوله تعالى: ﴿**إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا**﴾. ولنرجع إلى النداء:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾. وحسب القارئ منا فى الكلام على التقوى ما أسلفناه وما أشرنا إليه.

الوسيلة والمراد منها فى هذه الآية:

أما الوسيلة، فقد قال الراغب: «الوسيلة التوصل إلى الشىء برغبة، وهى أخص من الوسيلة لتضمنها معنى الرغبة. قال تعالى: ﴿ **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾، وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحرى مكارم الشريعة، وهى كالقربة..» اهـ.

وقد روى تفسير الوسيلة بالقربة عن كثير من السلف، وعبارتهم: تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وجاءت الكلمة فى الحديث اسمًا لمنزلة معينة فى الجنة، فقد روى أن عبد الله بن عمر سمع النبى - ﷺ - يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه عشرًا، ثم سلوا لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله: وأرجو أن أكون هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة».

هذا، ومن البين أنه لا يمكن حملها فى القرآن على إرادة هذه المنزلة لاختصاصها - كما جاء فى الحديث - به - ﷺ -، والوسيلة التى وردت فى القرآن قد اقترن بها ما يجعلها صريحة فى إرادة القربة إلى الله، فآيتنا تقول: ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ** ﴾ والضمائر لا مرجع لها سوى لفظ الجلالة، وآية الإسراء تقول: ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾، وهى ظاهرة فى معنى القربة أيضًا من جهة ما تضمنته الآية عن إنكار دعوة غير الله مما لا يملك كشف الضر عن الداعين ولا تحويله.

ومن هنا قال الألوسى: «كون الطلب هنا للنبى - ﷺ - مما لا يكاد يذهب إليه ذهن سليم» ولما كانت تقوى الله بالمثابة التى شرحنا، وكانت الوسيلة ترجع - كما أسلفنا عن «الراغب» - إلى مراعاة سبيل الله بالعلم والعبادة، وتحرى أحكام الشريعة، ومكارم الأخلاق، وهما مما يثقل على النفس الإنسانية - التى تحيط بها الشهوات، وتتحكم فيها الرغبات - أن تحصل عليه فى يسر وسهولة، شد الله أزر الإنسان المؤمن بطلب الجهاد فى قطع هذا الطريق الشاق، وقواه على تحمل أعبائه بضمان الفلاح له فى الدنيا والآخرة، فقال: ﴿ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾.

والآية بعد هذا واضحة فى معناها، واضحة فى هدفها، ليس لها مدلول ولا دلالة على غير ما يتبادر منها وتقضى به بيئتها، وهو الاعتماد فى الوصول إلى الله على المعنى القلبى المؤثر فى امتثال الأوامر واجتناب النواهى بقصد مرضاة الله، وعن طريق الجهاد فى سبيله، ولم تشر الآية فى قليل ولا كثير إلى مشروعية الاعتماد فى الوصول إلى الفلاح على شيء من خارج النفس، وقد أيد هذا بتأييد العذاب على هؤلاء الجاحدين الذين ظلوا طول حياتهم يعتمدون فى تقربهم إلى الله على دعاء غير الله، ويؤكد لهم أن مدار النجاح والفلاح ليس على ما يتوهمه هؤلاء فى أمر الفدية، ولو أن لهم جميع ما فى الأرض ومثله معه، وقدموا ذلك كله ليكون فداء لهم من العذاب يوم القيامة لم يتقبله الله منهم، ولا يكون له أثر فى تخفيف العذاب عنهم، لأن الله قد رسم لعباده سبيل الفلاح والنجاة، وأنه لا يكون إلا نابعًا من قلب الإنسان ونفسه، لا يكتسبه من أحد سواه ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ فمن زكى نفسه بالإيمان، وامتلأ قلبه بعظمة الله، واندفع بذلك إلى امتثال أوامر الله، كان أهلا لرضوان الله ونعيمه، ومن دنس نفسه بالشرك، أو ظلمها بالمخالفة والعصيان، وكان مظلم القلب، كان من المغضوب عليهم، المخلدين فى النار، ولا تنفعهم شفاعة، ولا تقبل منهم فدية؛ اقرأ وتأمل قوله تعالى بعد النداء بطلب التقوى وابتغاء الوسيلة: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن توجهت قلوبهم إليه، ولم يعتمدوا فى قبولهم ونجاتهم إلا عليه، وأن يجعل ثمرة إيماننا زكاة نفوسنا، وثبات قلوبنا، وصلاح أعمالنا، وفكاك إسارنا ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾.

ســـــورة الأنعـــــام

- موازنة بين سورة الأنعام والسور المدنية التى سبقتها.
- موازنة بين سورة الأنعام والسور المبدوءة بالحمد فى القرآن.
- موازنة بين سورة الأنعام وسورة الأعراف.
- السورة تعالج القضايا الكبرى التى شغلت العقول: الألوهية، الوحى، البعث.
- التحليل والتحريم من شأن الله وحده.
- تحليل علمى تفصيلى للوصايا العشر.

(٦) سورة الأنعام مكية

وآياتها خمس وستون ومائة

منهجنا فى دراسة السورة:

سورة الأنعام هى السورة السادسة من سور القرآن الكريم فى الترتيب المصحفى، ولها بحكم مكيتها، وبحكم الأسلوب الذى عالجت به قضاياها الأصلية، منهج خاص يخالف منهج السور الأربع المدنية التى سبقتها فى الترتيب. وقد شاركها فى البدء بإثبات الحمد لله أربع سور مكية، وهى سورة الفاتحة، وسورة الكهف، وسورة سبأ، وسورة فاطر ومن هنا رأينا زيادة فى تشخيصها وتوضيحًا لمنهجها أن نعود فنضع أمام القارئ صورة إجمالية لما عرضت له كل سورة من السور الأربع المدنية السابقة عليها فى الترتيب. ثم نضع بإزاء ذلك صورة إجمالية لما عرضت هى له، وبذلك يتضح سبيل الموازنة بين المنهجين، ثم نقفى ثانيًا سبيلها مقارنًا ذلك بسبيل السور الأربع الأخرى التى شاركتها فى المكية والبدء بإثبات الحمد لله. ثم نوازن ثالثًا بينها وبين السورة التى تليها وهى سورة الأعراف.

عود على بدء فى شأن ما سبقها من السور:

سورة الفاتحة تتضمن الإشارة إلى جميع مقاصد القرآن:

أما سورة الفاتحة فهى - وإن كانت مكية - قد أخذت باعتبار ما تضمنته الإشارة إلى جميع مقاصد القرآن، وبذلك اختيرت فاتحة الكتاب، وأطلق عليها «أم القرآن» أخذت بهذا الاعتبار شخصية تكاد تكون مستقلة فى المنهج وفى المقصد عن سائر سور القرآن مكية ومدنية، وصارت نسبتها إلى جميع سور القرآن بهذه الشخصية واحدة، يدل كل ما فيها على كل ما فيه؛ ذلك أنها تشير إلى جانبى الحق والخير، متعلقى العقيدة والعمل، والعقيدة والعمل هما عنصر الكمال الإنسانى الذى نزل القرآن لرسم طرقه والدعوة إليه؛ ففى العقيدة بالنسبة للمبدأ جاء قوله تعالى. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفى العقيدة

بالنسبة إلى المعاد جاء قوله تعالى: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وفى العمل جاء قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وقد توجهت عقيدة الحق، وعمل الخير، بصورتين:

إحداهما: صورة تبشيرية لمن سلك الصراط المستقيم الذى يهدى إلى الإيمان بالحق وعمل الخير: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾.

والأخرى: صورة إنذارية لمن حاد عن طريق الحق والخير: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾.

ولا ريب أن كل ما تضمنه القرآن فى آياته المفصلة، وأحكامه الواضحة، وقصصه الحق، يدور على محور من بيان الحق والإرشاد إلى الخير، لا فرق فى ذلك بين مكية ومدنية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾. ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾. ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾.

وهكذا نجد كثيراً من آيات القرآن الواضحة فى مكيه ومدنيه، تعلن أن الأمر فى شرائعه وأحكامه يدور حول هذا المحور، محور «الحق والخير».

هذا هو وضع سورة الفاتحة من القرآن كله.

السور المدنية السابقة على «الأنعام» متفقة فى الهدف الأصلى مع اختلاف فى التفاصيل:

أما السور الأربع المدنية التالية لسورة الفاتحة، وهى سورة البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، فهى بحكم مدينتها تشترك كلها فى هدف واحد، وهو تنظيم شئون المسلمين بالتشريع لهم باعتبارهم أمة مستقلة، وبإرشادهم إلى مناقشة أهل جوارهم فيما يتصل بالعقيدة والأحكام، وإلى الأساس الذى يرجعون إليه ويحكمونه فى التعامل معهم فى حالتى السلم والحرب، وقلما تعرض هذه السورة المدنية إلى شىء من شئون الشرك ومناقشة المشركين، وهذه السور مع اشتراكها فى أصل الهدف العام، تختلف قلة وكثرة فيما تتناوله من التشريع الداخلى الخاص بالمسلمين، والتشريع الخارجى الذى يرتبط بهم مع من يخالفهم فى الدين.

سورة البقرة فى أسلوبها وأهدافها:

ومن ذلك نرى سورة البقرة بدأت فذكرت أوصاف الذين ينتفعون بهذا الكتاب وينتسبون إليه ويضاف هو إليهم، ثم عرضت لأوصاف الجاحدين الذين يعلنون الإنكار، والمنافقين الذين يترددون بين المؤمنين والكافرين بإيمانهم الظاهرى وكفرهم الباطنى، واقرأ فى ذلك من أول السورة إلى نهاية قوله تعالى: ﴿ **يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ الآية ٢٠، ثم توجه الخطاب إلى الناس جميعًا باعتبار إنسانيتهم العاقلة، يدعوهم إلى توحيد الله فى العبادة والألوهية، وإلى الإيمان برسالة محمد - ﷺ -، وتضمن ذلك الإيمان بالجزاء الأخروى: العذاب لمن جحد واستكبر، والنعيم لمن آمن وعمل صالحًا، وتشير إلى أن الإيمان بالحق شأن الفطر السليمة التى لم تدنس بمتابعة الهوى والشهوة، والتى لم تجر على سنن الآباء الضالين، وتنتقل من تصوير الدعوة والمجيبين لها والمعرضين عنها على هذا الوجه، فتذكر لهم قصة الإنسانية الأولى وتشير إلى أن الإنسانية وقعت فى الخلق والتكوين بين عاملين، يدفعها أحدهما إلى الخير والطاعة، والامتثال، ويزين لها الآخر إغراء الشهوة والهوى، وأن الله لهذا، وهو الرحيم بخلقه، قد أخذ على الإنسانية - بما ركب فيها من قوى الخير - العهد والميثاق باتباع الحق الذى يبعث به إليها، اقرأ فى كل ذلك من قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ الآية ٢١، إلى قوله تعالى: ﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ الآيتان ٣٨، ٣٩.

كان كل هذا فى فاتحة سورة البقرة بمثابة تمهيد، يصل به الدارس إلى الهدف الأصلى الذى عالجته السورة فيما بعد بحكم الوقت الذى نزلت فيه.

إن سورة البقرة قد نزلت فى أوائل الهجرة، وقد صار للمسلمين بالهجرة كيان خاص وجوار خاص، وبذلك كان أمامها هدفان:

الأول: نظم يأخذ بها المسلمون أنفسهم فى عباداتهم ومعاملاتهم: شخصية ومدنية وجنائية.

والهدف الآخر : إرشاد إلى طرق المناقشة فيما كان مجاوروهم يثيرونه حول الدين والدعوة من شبه وتشكيكات . وقد تجلى هذان الهدفان بصورة واضحة فى سورة البقرة، برز أحد الهدفين فى نصفها الأول، وبرز الهدف الثانى فى نصفها الأخير، واقرأ فى الأول على وجه عام من قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ الآية ٤٠ إلى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ الآية ١٧٦ ، واقرأ فى الهدف الثانى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ الآية ١٧٧ ، إلى نهاية الآية ٢٨٣ : ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ .

وقد عرضت فى هذا السبح الطويل - بعد أن أجملت أوصاف الصادقين فى إيمانهم المتقين فى أعمالهم - لجملة من الأحكام التى تسوس الأمة فيما بينها .

عرضت للقصاص، والوصية، والصيام، وعرضت لحكم القتال فى الأشهر الحرم وبعض أحكام الحج، وعرضت لحكم الخمر والميسر، وبعض أحكام اليتامى، وعرضت لحكم مصاهرة المشركين، وأحكام الإيمان، وكثير من أحكام الطلاق وما يتبعه من رضاع وعدة ومتعة، وعرضت للإنفاق فى سبيل الله وأدبه الذى يحقق فى الأمة ثمراته الطيبة، وقارنت بينه وبين استغلال حاجة الفقير بالربا، وهو بفقره يستحق الرحمة بالإنفاق فى سد حاجته .

وأخيراً، ذكرت آية فذة، عرضت فيها لطرق الاستيثاق فى الديون وحفظها من الجحد والإنكار، فأشارت إلى الكتابة والإشهاد، والرهن . وبعد هذا كله تختم كما بدئت ببيان أصول الإيمان الحق، وبيان أساس التكليف عند الله، وأن ليس القصد منه الإرهاق ولا الإعنات، ويجىء ذلك الختام فى قوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ إلى آخر السورة .

سورة « آل عمران » بين حجاج أهل الكتاب وإرشاد المؤمنين:

ثم تجىء سورة آل عمران، فتصرف عناية خاصة إلى مناقشة النصارى فى قضية

الألوهية، وإلى كشف بعض صور التزييف التى كان يصطنعها أهل الكتاب إخفاء لحق الإسلام ودعوته.

ثم ترشد المسلمين إلى ما يحفظ عليهم شخصيتهم، ويقيهم شر الوقوع فى مخالب الأعداء، وترسم لهم فى ذلك الطرق الحكيمة التى تجعل منهم قوة الكفاح فى تأييد الحق، وهزيمة الباطل.

وفى سبيل الهدف الأول تبدأ السورة ببيان أن الكتب السماوية كلها إنما نزلت لغاية واحدة هى هداية الناس للحق. ثم تقرر خاصة الألوهية الحقة من العلم الشامل والقدرة التامة، وترشد إلى منشأ الشبهة المهلهلة التى تعلقوا بها فى ألوهية عيسى، فأضلتهم، واقرأ فى ذلك من أول السورة إلى نهاية قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** ﴾ الآية ٧. ثم ترشد فى هذا الهدف إلى السبب الحقيقى الذى يرجع إليه تمسكهم بالباطل وإعراضهم عن دعوة الحق، وهو حرصهم على زخارف هذه الحياة الدنيا التى ظنوا أنها تفوتهم إذا آمنوا بمحمد ودعوته، وتذكر ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ** ﴾ الآية ١٠. وعلى هذه الأسس تسير السورة فى حجاجهم وتفنيد شبههم. فتقص ولادة عيسى، وولادة أمه، وتدعوهم إلى الكلمة المشتركة فى الرسالات السماوية كلها: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ الآية ٦٤. ثم تذكر شيئًا عن حيل اليهود وصور زيفهم، وتلبيسهم الحق بالباطل إلى أن تقول: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾.

وفى سبيل الهدف الثانى، وهو إرشاد المسلمين إلى ما يحفظ عليهم شخصيتهم، تتجه إليهم بوصف الإيمان: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ فتحذرهم من إطاعة أهل الكتاب والتأثر بشبههم الباطلة، والوقوع فيما وقعوا فيه من الاغترار بزخارف الدنيا التى حالت بينهم وبين الإيمان بالحق، وتأمرهم فى ذلك بالاعتصام بحبل الله والتضامن فى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتغريهم بالإنفاق فى سبيل الله، وتحذرهم الوقوع فى

مخالب الأعداء واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين. واقرأ في كل ذلك قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ الآية ١٠٠، إلى قوله تعالى: ﴿ **إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾. الآية ١٢٠.

ثم تنتقل السورة إلى تذكير المؤمنين بحادثتين عظيمتين من حوادثهم مع المشركين، لهم في كل حادثة منهما أكبر العظات والعبر، تذكرهم بغزوة بدر وما كان لهم فيها من النصر والظفر بسبب الصبر والتقوى مع قلة العَدد والعُدد: ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ وتذكرهم مع هذا بما أصابهم في غزوة أحد أثرًا للتنازع والفشل، وتضع ذلك أمامهم بالحادثتين صورتي الصبر وآثاره، والطمع وآثاره: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾.

ولا يفوت السورة أن تبين لهم في أثناء التذكير بهاتين الحادثتين عن شيء من صفات المنافقين اتقاء لها، وتحذيرًا منها، ويستغرق كل ذلك على وجه عام الآيات ابتداء من قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ الآية ١٢١ إلى قوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ الآية ١٨٩، ثم تختم السورة بالإرشاد إلى الطريق الذي يصل بالإنسان إلى الإيمان الحق الذي ختمت به سورة البقرة، والتي مهدت به سورة الأنعام: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾. وتذكر جزاء المؤمنين الصادقين الذين اتقوا ربهم، والذين لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلا. وتكون خاتمة المطاف في سورة آل عمران تلكم النصيحة الغالية التي هي بحق أساس كل تركيز، وعماد كل عزة وسمو: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾.

سورة النساء وعنايتها بتنظيم جماعة المسلمين:

وعلى أساس من مشاركة سورة النساء لزميلاتها المدنيات في أصل الهدف، تناولت

الأمرين : تنظيم جماعة المسلمين، ومناقشة أهل الكتاب فى موضوع الألوهية والرسالة، غير أن عنايتها بجانب التنظيم كانت أشد من عنايتها بجانب المناقشة.

ففى جانب التنظيم شرعت فى الأموال وبخاصة أموال الضعفاء : اليتامى، والسفهاء، والنساء. وشرعت فى الأسرة من زواج وميراث وحقوق، واقرأ فى ذلك كله من أول السورة إلى قوله تعالى : ﴿ إن يُريدا إصْلاحًا يُوفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾.

وذكرت أساس الحكم ومصادر التشريع ﴿ إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ الآيتان ٥٨، ٥٩.

وعرضت للذين يحاولون الخروج عن تشريع الله، وصرف الحاكم عن العمل بالحق ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ الآية ٦٠، مع الآية : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ الآية ١٠٥.

ثم عرضت للتنظيم الخارجى فى الحرب والسلم، ابتداء من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ الآية ٧١. إلى قوله تعالى : ﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ الآية ١٠٤.

أما فى جانب المناقشة، فقد عرضت لغلو بعض أهل الكتاب فى قولهم على مريم وولدها عيسى، وغلو البعض الآخر فى شأن ألوهيته. ثم تتجه إلى دعوة الناس جميعًا إلى الحق الذى أوحاه الله محمد، وأوحاه إلى النبيين من قبله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.

سورة المائدة وما تضمنته من التشريعات الداخلية:

ثم تجيء سورة المائدة، فتأخذ سبيل أخواتها أيضًا، فتشرع للمسلمين في خاصة أنفسهم، وفي معاملة من يخالطون من أهل الكتاب، مع الإرشاد إلى طرق محاجتهم والتنبيه على أخطائهم وتحريفهم للكلم عن مواضعه، وتذكيرهم بسيئاتهم مع أنبيائهم، وقد استغرق ذلك معظم السورة.

أما في التشريع للمسلمين فقد وجهت إليهم ستة عشر نداء بوصف الإيمان، لم توجد في سورة غيرها. قررت فيها مسئولية التعاقد والمحافظة على الشخصية الدينية، وما يجب القيام به حين إرادة الصلاة، كما بينت علاقة الإنسان بطيبات الحياة، وأوجبت المحافظة على العقل، وحددت موقف المسلمين مع من يعبث بحقوقهم ويتخذ دينهم هزوًا ولعبًا. كما عرضت إلى تشريعات جزئية في حلال الطعام وحرامه، وفي الاستقسام بالأزلام، وحكم الصيد بالحيوانات المعلمة، والتزوج من أهل الكتاب، وعرضت لعقوبة الاعتداء على الأمن العام الذي تقوم به عصابات الشر والفساد، كما عرضت لعقوبة السرقة، وقصت بعض التشريعات التي كانت في كتب السابقين، وأشارت إلى المبدأ الطبيعي الذي يقضي باختلاف الشرائع نظرًا إلى اختلاف الأجيال والعقليات وحذرت العدول عن الحكم بما أنزل الله، واتباع أهواء المضلين.

ولم يفتها في أثناء ذلك كله أن تشد أزر النبي - ﷺ - فيما يختص بموقفه من أهل الكتاب، وعصمة الله إياه من الناس، وتوجه إليه في ذلك الخطاب مرتين بصفة الرسالة، منبع العصمة والتأييد: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ** ﴾. ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾: ثم تذكر الجميع بيوم الجمع الذي تحدد فيه المسئوليات، وتذكر أهل الكتاب بوجه خاص بشأن يجري فيه حوار بين عيسى وربه فيما يختص بعقيدة النصارى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ؟** ﴾ الآيات. ثم تختم بهذه الآية الكريمة التي ترد الأمر كله لله، ملكا وتدبيرا وتصريفًا ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾..

رجع إلى بيان المنهج:

هذا عرض وجيز نستحضر به أصول ما تضمنته السور الأربع المدنية التى سبقت سورة الأنعام فى الترتيب المصحفى، ومنه يتضح أنها اشتركت فى هدف واحد، وهو تنظيم شئون المسلمين بالتشريع لهم باعتبارهم أمة مستقلة لها كيان خاص، وسبيل فى الحياة خاص، وبإرشادهم إلى مناقشة أهل جوارهم فيما يتصل بالعقيدة والأحكام، ومعاملتهم فيما يختص بالسلم والحرب. وقد جاءت بعد هذه السور الأربع المدنية سورتان مكيتان، هما أطول المكى فى القرآن، وهما: الأنعام والأعراف. والذى يهمنا الآن بيان منهج سورة الأنعام على وجه عام، وسيتضح لنا فيما بعد أن منهجها يخالف منهج الأعراف رغم اشتراكهما فى وقت النزول، وفى الهدف الذى رمت كل منهما إليه.

سورة الأنعام متميزة فى أهدافها عما قبلها:

وسورة الأنعام لم تعرض لهدف من الأهداف الأصلية التى تميزت بها السور الأربع المدنية قبلها:

فهى أولا: لم تعرض لشىء من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين، كالصوم والحج فى العبادات، والعقوبات فى الجنايات، والمداينة والربا فى الأموال، وأحكام الأسرة فى الأحوال الشخصية.

وهى ثانيا: لم تذكر فى قليل ولا كثير شيئا يتعلق بالقتال ومحاربة الخارجين عن دعوة الإسلام.

وهى ثالثا: لم تتحدث فى شىء ما عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكذلك لم تتحدث عن طوائف المنافقين ولا عن أخلاقهم السيئة ومسالكهم المظلمة.

وهى رابعا: لا تجد فيها مع ذلك كله نداء واحدا للمؤمنين باعتبارهم جماعة تنتظمها وحدة الإيمان، لا نجد فيها شيئا من هذا كله كما وجدناه جميعا فى السور الأربع السابقة.

أهداف السورة إجمالا:

إنما نجد الحديث فيها يدور بشدة وقوة حول العناصر الأولى للدعوة، ونجد سلاحها فى

ذلك الحجة المتكررة، والآيات المصرفة، والتنويع العجيب فى طريق الإلزام والإقناع: تذكر توحيد الله فى الخلق والإيجاد، وفى العبادة والتشريع، وتذكر موقف المكذبين، وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين. تذكر شبههم فى الرسالة. وتذكر يوم البعث والجزاء. وتبسط كل هذا بالتنبيه إلى الدلائل فى الأنفس والآفاق، فى الطبائع البشرية وقت الشدة والرخاء. وتذكر إبراهيم وجملة من أبنائه وترشد الرسول إلى اتباع هداهم وسلوك طريقهم فى احتمال المشاق وفى الصبر عليها. وتعرض لتصوير حال المكذبين يوم الحشر، وتفيض فى هذا بألوان مختلفة. ثم تعرض لكثير من تصرفاتهم التى دفعهم إليها شركهم فيما يختص بالتحليل والتحريم، وتقضي عليه بالتفنيد والإبطال، وتبين خصوص ما حرم الله من الأطعمة، وتعرض إلى تقرير الشبهة البشرية التى علقت بالعقل الإنسانى من قديم الزمان فيما يتعلق بالإيمان والشرك والطاعة والمعصية أمام التكليف والقدر.

ثم تختم السورة بعد ذلك فى ربع كامل: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ... إلى آخره** ﴾ ببيان أن ما يدعو إليه محمد عليه الصلاة والسلام هو الوصايا التى نزلت فى كل الكتب السابقة ودعا إليها كل الأنبياء السابقين؛ فهو لم يأت بجديد، ولا بما يناقض ما جاءت به الرسل إن كنتم طلاب إيمان وحق. وتنتهى إلى آية فذة، تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه فى هذه الحياة، وهو أنه خليفة فى الأرض، وأن الله سبحانه جعل عمارة الكون، تحت يد الإنسان تتعاقب عليها أجياله، ويقوم اللاحق منها مقام السابق، وأنه سبحانه قد فاوت فى المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية، وحكمة عظيمة، وهى الابتلاء والاختبار فى القيام بتبعات هذه الحياة، وذلك شأن يحقق المقصود من هذا الخلق وذلك النظام: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾.

ولعلنا بعد هذا نلمس الفرق الجلى الواضح بين منهج سورة الأنعام ومنهج السور الأربع المدنية قبلها، وهذا هو إحدى الخطوتين اللتين أردنا التمهيد بهما للحديث عن سورة الأنعام.

أما الخطوة الثانية فتتعلق بالموازنة بين سورة الأنعام وسور أربع شاركتها فى المكية، كما شاركتها فى الافتتاح بإثبات الحمد لله، وهن: سورة الفاتحة، وسورة الكهف، وسورة سبأ وسورة فاطر، وقد أطلقنا على هذه السور - المبدوءة بإثبات الحمد - عنوان: «سور الحمد فى القرآن الكريم».

عـود إلى سـور الحـمـد فى القـرآن: مظهـر الربوبيـة فى الخلق والإيجـاد وفى الهـدى والإرشاد:

ولعلنا نذكر أننا عرضنا لهذه الموازنة ونحن بصدد الحديث عن الآية الأولى من سورة الفاتحة، وأن ما كتبنا هناك يتضمن أن لله فى خلقه أنواعا من التربية:

أولاها: تربية خلقية جسمية أساسها الخلق والإيجاد، والتسوية والتصوير: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ** ﴾. ﴿ **فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾. ﴿ **ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً** ﴾.. إلى آخر الأمثلة، وقد أمد الله هذه التربية بتهيئة ما يحفظها ويقويها ويقيها، فيسر وسائل الغذاء والكساء والإيواء.

وثانيتها: تربية خلقية عقلية، أساسها منح قوى التفكير والإدراك الإنسانى العام التى بها يميز الإنسان الخير من الشر، والنافع من الضار، ويسير بها فى الحياة التى سخرت له على ضوء تلك المنحة الإلهية التى فضل بها على كثير من الخلق، ومنح مركز الخلافة فى الأرض وكان عند ربه أهلا للخطاب الإلهى والمسئولية أمامه يوم البعث والجزاء ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾.

وثالثتها: تربية تشريعية، أساسها الأحكام والنظم التى أوحى بها إلى رسله، وأنزلها فى كتبه، وبها ترسم الحدود، وتتضح السبيل التى يرتضيها الله لعباده، وبها ينكشف ما لا يسلم الإنسان - باعتبار ما ركب فيه من قوى الشهوة والغضب - من الخطأ فى إدراكه أو الطغيان فيه إذا ما ترك لعقله وتفكيره الإنسانى ﴿ **وتَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** ﴾. ﴿ **وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً** ﴾. ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾. ﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾. ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾ وهكذا إلى آخر الآيات الدالة على التربية الإلهية التشريعية.

وهذه الأنواع بجملتها هي جماع ما أنعم الله به على الإنسان، وما من خير ينعم به عليه فى جسمه أو عقله أو سعادته الفردية أو الاجتماعية إلا كان أثرا من آثار هذه النعمة الكبرى، نعمة التربية المطلقة العامة التى انتظمت الإنسان من جميع جهاته، وما من شر كان بعَرَضٍ أن يقع الإنسان فيه فيلويه عن طريق الخير والسعادة، ولكنه اتقاه وحيل بينه وبينه، فسلِمَ منه وسلم من مغبته، إلا كان أثرا سلبيا من آثار هذه النعمة الكبرى، نعمة التربية المطلقة العامة.

سر استحقاقه تعالى للحمد واختصاصه:

وإذن، فالحمد والثناء، الذى يجب أن تقابل به هذه النعمة الكبرى وأن يوجه إلى مصدرها، لا ينبغى فى عقل عاقل، ولا تقدير منصف أن يضاف إلى غير الله. فالحمد كله. والشكر كله، خاصان بمن هيأها وأفاضها وأحاط الإنسان بها، وهو الله رب العالمين.

وبتقرير هذا الحق لصاحبه وهو الله سبحانه، ولفت الأنظار إليه بذكر آثاره، وشق طريق التفكير فيها، جاءت هذه السور الخمس تقرر فى مبدئها ثبوت الحمد له سبحانه، وقد جاء منها فى النصف الثانى سورتا: سبأ وفاطر، وجاءت منها فى منتصف القرآن سورة الكهف.

مناهج السور الخمس فى بيان هذا السر: منهج فاتحة الكتاب:

مع اشتراك هذه السور الخمس فى الافتتاح بتقرير استحقاق الحمد لله على هذه النعمة الكبرى، كان لكل سورة منها منهج خاص فيما عرضت له من أنواع تلك النعمة، وقد جاءت الفاتحة بالنسبة لسائرها فى هذا الشأن، كما جاءت هى لجميع القرآن بالنسبة لكل ما تضمنته، جاءت أمّا تجمع فروع التربية وأنحاءها التى وزعت على السور الأربع، وتقاسمتها، فهى تقول ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فتربط استحقاق الحمد له بربوبيته للعالمين، والربوبية المطلقة تنتظم التربية الخلقية، جسمية وعقلية بالخلق والإيجاد، كما تنتظم التربية التشريعية بالوحى والرسالة، فكما لا خالق ولا مانح للعقل وقوى التفكير سواه، لا مشرع ولا مرشد ولا هادى سواه.

منهج سورة الأنعام:

وتجيء بعد الفاتحة سورة الأنعام، فتثبت أيضا استحقاق الحمد لله وحده. وتسير في طريق نوع من أنواع التربية العامة وهو نوع الخلق والإيجاد للكائنات وظواهرها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ثم تسير في وصف عظمة الله في آياته الكونية، في سمائه وأرضه، في نباته وحيوانه، وتعرض لاستدلال إبراهيم على وحدانية الله بظاهرة البزوغ والأفول للأجرام السماوية التي لا ينفك الإنسان عن رؤيتها وتقليب بصره فيها ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وأخيرا تقول في نتيجة هذا السبح الطويل: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

منهج سورة الكهف:

تجيء بعد ذلك سورة الكهف فتأخذ روح التربية بالوحي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ ثم تسير في طريق هذه التربية، فتخفف من الضغط على نفسه - ﷺ - بسبب إصرار القوم على الكفر بها

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ . ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ . وتذكر قصة الفتية الذين آمنوا بربهم، وقصة موسى وفتاه مع العبد الصالح، وقصة ذى القرنين، الملك القوى العادل الذى أنقذ الضعفاء من الطغاة المعتدين، وكل هذه القصص مما لا سبيل إلى معرفته والاعتبار بمغزاه إلا عن طريق الوحى وإنزال الكتاب، ثم يكون ختام السورة مقررا لمنهجها الخاص، بنوع التربية ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ .

منهج سبأ:

ثم تجىء سورة سبأ فتبدأ بإثبات الحمد لله أيضا، وتأخذ نوعا من أنواع التربية المطلقة، يرجع إلى الملك، والتصرف الحكيم، والتدبير المحكم ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ . ثم يجىء ما فى السورة مقررا للعلم الشامل، والقدرة النافذة، والإرادة الحكيمة.

منهج فاطر:

ثم تجىء بعد ذلك سورة فاطر، وهى آخر السور الخمس، فتذكر استحقاق الله وحده الحمد، وتجمع فى سبيله نوعى التربية: الجسمية والسماوية، ولكن على تفصيل لم يذكر فى سورة الفاتحة، فتذكر خلق السموات والأرض، وتذكر رسل الوحى من الملائكة، وتذكر أن الله مصدر الرحمة، بيده إمساكها وبيده إرسالها، ثم تسير فى ذكر بعض ظواهر الكائنات من إرسال الريح وإثارة السحاب وخلق الإنسان من تراب، وتصريف الليل والنهار والشمس والقمر، واختلاف الناس والدواب فى الألوان، ثم تذكر الذين ينقادون لتربية الوحى، وترشد إلى أن ما أوحى به إلى محمد هو الحق المصدق لما بين يديه، وأن الله يورث الكتاب من يصطفيهم من عباده، وهكذا تمزج التربيتين: الخلقية والتشريعية فى منهجها، واقرأ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا .... مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ .... وَاللَّهُ الَّذِي

أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ... وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا... يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ... أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ... وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ... إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾.

هذه هى الخطوة الثانية من خطوات التمهيد للكلام على سورة الأنعام، وهى خطوة الموازنة بينها وبين زميلاتها الأربع التى اشتركن معها فى الافتتاح بإثبات الحمد لله.

الخطوة الثالثة فى التمهيد: موازنة بين سورتى الأنعام والأعراف:

ومن الخير هنا بعد أن فرغنا من هذه الموازنة أن نسارع فنخطو خطوة ثالثة نوازن فيها بين سورة الأنعام وسورة الأعراف التى تليها، وهما سورتان مكيتان اشتركتا فى أصل الهدف، وهو تقرير الأصول الأولى للدعوة القرآنية، كما أنهما أطول السور المكية فى القرآن، وكانت الأعراف الثانية منهما فى الترتيب المصحفى، من الخير أن نسارع بهذه الخطوة الثالثة لنفرغ من حديث الموازنة بين سورتنا وغيرها مما يتطلب الوضع الموازنة بينهما، ولا نجد بعد ما يدعونا إلى العودة إلى حديث الموازنة، وبذلك نخلص للحديث عما تضمنته السورتان فيما يصل بجوهر الدعوة إن شاء الله.

ولعلك إذا قرأت السورتين: «الأنعام والأعراف» كما قرأتهما، توافقنى على ما رأيت بين منهجيهما من فروق لا ينبغى إهمال النظر إليها عند من يتصدى للحديث عنها، وها هى ذى الفروق:

أولا: أن سورة الأنعام تبدأ كما عرفت بإثبات الحمد لله وحده، وتقيم الحجة على التوحيد مما يلمس الناس ويرون من مظاهر الخلق والإيجاد، وتنكر عليهم مع وضوح هذه

الحجة كفرهم وعنادهم، وإعراضهم عن الله، أو تسوية غيره به في العبادة والتقديس ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ وأن سورة الأعراف تبدأ بتقرير التبليغ والتنويه بشأنه، والأمر بالتزامه، ثم تشفعه بالإنذار الدنيوي والأخروي، ثم بالترغيب عن طريق التذكير بالنعم ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾، ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ . . ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ . . ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ . . ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ .

ثانيًا: أن سورة الأنعام تفصيل فيما أحل الله وما حرم، وتعرض لتصرف القوم بالحل والحرمة على غير ما أنزل الله، وتسبح طويلا في ذلك ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ الآيات ١٣٦ - ١٥٩، في حين أن سورة الأعراف تجمل ذلك وتقف عند حد إنكار القول على الله بغير علم ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ثالثًا: أن سورة الأنعام تذكر الرسالة وتورد شبه القوم فيها وتردها عليهم ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ثم تذكر جملة من أسماء الرسل بمناسبة ذكرها لإبراهيم دون تفصيل لشئونهم مع أقوامهم، بينما تذكر سورة الأعراف مبدأ الرسالة، ثم تفصل شأن جملة من رسل الله مع أقوامهم ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ . . . . ﴾ الآيات ٥٩ - ١٧١ .

رابعًا: تذكر الأنعام الآثار الكونية الصادرة عن الله، وتلفت بها الأنظار إلى وجوب توحيده في العبادة والولاية ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . . . ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ . . . ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ بينما تنكر سورة الأعراف

الشرك عن طريق ما في معبوداتهم من نقص وعجز لا يتفق والمعبودية الصحيحة ﴿ **أيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ.....** ﴾، الآيات ١٩١-١٩٨.

خامسًا: تعنى سورة الأنعام بمعالجة نفس الرسول فتخفف وقع تكذيب القوم على قلبه، دون أن تعرض لتفصيل شيء من أوصافه التى يقضى النظر فيها - مع ما جاء به من الوحي - أن يصدقوه ويؤمنوا برسالته، وتمر على نوع هذه الأوصاف كأنها معلومة لهم، ولا حاجة تدعو إلى تذكيرهم بها ﴿ **وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾. . ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ بينما تعنى سورة الأعراف بتفصيل ما يعرفون عنه ﷺ - من الأوصاف التى تقضى بصدقه وتصديقه ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾.

سادسًا: تعرض السورتان لجانب الإنذار الأخروى، ولكن سورة الأنعام تذكره من جانب ما سيرون من العذاب، وتعلنهم به كأنه واقع بهم ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾.

أما سورة الأعراف فإنها تذكره من جانب آخر، جانب تحسرهم وجانب التشفى من المؤمنين، وترى هاتين الظاهرتين فيما تصوره السورة من محادثة الفرق الثلاث «أصحاب النار، وأصحاب الجنة، وأصحاب الأعراف» ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا** ﴾. . ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾. . ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾.

سابعًا: تعرض سورة الأنعام للحديث عن الساعة بقدر ما تصور ما يصيبهم فيها من سوء ﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ** ﴾ . . ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ .

أما سورة الأعراف فتعرض لها من وجهة وقتها التى قضت الحكمة الإلهية بإخفائه عليهم وعلى جميع الخلق، فيتجهون إلى السؤال عنه وعن تحديده فتقطع عليهم الأمل فى أن يعرفه أحد من خلقه، فضلا عمن ينكرها عنادًا واستخفافًا ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

ثامنًا: ترسم سورة الأعراف للنبى - ﷺ - وآله وسلم طريق معاملتهم، وتعنى بتوجيه الخطاب إليه فى ذلك ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ بينما لا تعرض سورة الأنعام لشىء من ذلك، وإنما تطلب منه أن يقف بنفسه وبتبليغه عند حدود ما أوحى الله من محرمات ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . . . .** ﴾ الآيات.

وأخيرًا وهو تاسع الفروق التى حددناها أن سورة الأنعام تبين سنة الله فى تعاقب الأجيال، ومجىء اللاحق منها خلفًا للسابق، ويكون هذا التعاقب - بما يدون لكل جيل - شاهدًا عدلاً على من أحسن فى خلافته وعلى من أساء فيها ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ** ﴾ ثم تتركه هكذا سنة عامة دون تفصيل أو تطبيق. أما سورة الأعراف فتذكر المثل الواقعية لتلك الخلافة بين أقوام معينين وأجيال متعاقبة، فتقول لقوم هود: ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ** ﴾ وتقول لقوم صالح: ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ** ﴾ وهكذا ترينا بالمثل الواقعية أن الحياة من مبدئها إلى منتهاها ميدان واحد عام تتناوبه البشرية كلها بأجيالها المختلفة المتعاقبة ويتركه سلفها لخلفها، والله مهيمن على الجميع يحفظ لكل جيل ما ترك فى الميدان من خير وصلاح أو شر وفساد.

إجمال بعد تفصيل:

ونستطيع أن نجمل تلك الفروق فى أن سورة الأنعام تعنى بتفصيل الشبه التى وجهت إلى الدعوة، كما تعنى بتفصيل البراهين الدالة على صدقها، وبتفصيل ما أحل الله وما حرم، وبتبكيت المعارضين فيما اتخذوه لأنفسهم من حق التحليل والتحريم. وأما سورة الأعراف فإنها وجهت عنايتها إلى تفصيل الإنذار بما أعد للمكذبين فى الدار الآخرة، وبما أصاب أسلافهم فى الدنيا من عذاب.

ولعلنا إذا نظرنا فى هذا الإجمال مع ملاحظة ما فاته من فروق، نرى أن سورة الأعراف هى أول السورتين التى نزلت على القوم، وأنها نزلت فى صدر المراحل الأولى للدعوة، فهى تعتمد على الأدلة التاريخية التى يرى القوم آثارها بأنفسهم فى ذهابهم وإيابهم وتقلبهم فى البلاد، ولا شك أن ذلك هو الذى يناسب مبدأ الدعوة الذى لم تتهيأ فيه فرص التفكير للخصم المعاند حتى يقابل فى عناده بالحجج والبراهين، وقد كان هذا هو الواقع، فإن سورة الأعراف أول سورة طويلة من السور المكية التى عرضت لتفصيل أحوال الأمم السابقين مع رسلهم، ولم يسبقها فى هذا الشأن سوى ثلاث سور من المفصل، عرضت كل واحدة منها لإجمال الحديث عن بعض الأنبياء والرسل، وقد كانت سورة «ق» أول هذه السور الثلاث التى عرضت للتذكير بمصير المكذبين ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ** ﴾ ثم جاءت بعدها سورة «القمر» ففصلت فى هذا الجانب بعض التفصيل «انظر الآيات من ٩ - ٤٢ منها» ثم جاءت سورة «ص» فذكرت جملة من الرسل، وكانت هى أول سورة عرضت فى إجمال لقصة آدم، ثم جاءت سورة الأعراف بتفصيل كثير مما أجملته هذه السور الثلاث فى ناحية التذكير بأحوال الأمم السابقة.

سر مجىء الترتيب المصحفى على غير ترتيب النزول:

بقى بعد هذا السوال عن الحكمة فى تقديم سورة الأنعام على سورة الأعراف وهو سؤال يتعلق بالترتيب المصحفى.

والواقع أن للترتيب المصحفى شأنا آخر غير شأن ما يدعو إلى النزول، ويتصل ذلك الشأن بتأليف الكتاب بعد مراحل الدعوة التى استجاب لها فريق كبير استقرت أقدامهم وتكونت جماعتهم، وصار الكتاب بهم كتاب أمة، ترجع إليه فى حفظ عقائدها، واستخراج أحكامها ومبادئ حياتها الفردية والاجتماعية، وليس من شك فى أنه وضع جديد يستدعى ترتيبًا غير ترتيب النزول الذى كان يراعى فيه حالة المدعوين ومعالجتهم لقبول الدعوة، وهو الترتيب الذى نقل به القرآن إلينا نقلا متواترًا عن النبى - ﷺ - والذى يظهر به القرآن أنه كتاب المؤمنين.

ومن هنا نفهم السر فى أنه بدئ القرآن بالسور المدنيات الطويلة، ذات الأحكام التى كلف بها من استجابوا لدعوة القرآن وتكونت جماعتهم فى ظله وتحت رايته، ونسب الكتاب إليهم كما نسبوا هم إلى الكتاب، ولعل هذا القدر من التوجيه فى حكمة الترتيب المصحفى ومخالفته لترتيب النزول يفتح باب الهدى لمن يحاول مس هذا الترتيب الذى لم يكن إلا بإلهام إلهى تلقاه الرسول، وملأ قلوب أصحابه فالتزموه، وحفظوا الكتاب وتناقلته الأجيال على هذا الوضع دون تبديل أو تفكير فى التبديل.

صفحة عامة لما تضمنته سورة الأنعام:

والآن، وبعد أن سقنا ما تيسر لنا من موازنات، نقدم صفحة عامة عما تناولته سورة الأنعام، وعن أساليبها التى اتخذتها فى سبيل تركيز عناصر الدين عند الله، وقد قلنا: إن سورة الأنعام عرضت لهذه العناصر الدينية الأولى، وهى القضايا العالمية الكبرى التى شغلت العقل البشرى منذ أن نظر، وكشفت له جهات النظر عن مشاهداته الكونية ومعقولاته فى الآفاق والنظام العالمى، وقد كانت هذه القضايا من قديم ميدانًا لاختلاف النظر، واختلاف ما يدين به الإنسان فى خلق العالم وفى منشئه وحاضره ومستقبله، والواقع أن هذه القضايا هى التى تحاول نتائجها الإجابة عن أسئلة ثلاث تتفاعل فى صدر الإنسان، وكثيرًا ما يقف العقل البشرى أمامها حائرًا مضطربًا، ولا يصل فيها إلى كلمة الحق، وإلى القول الفصل، إلا عن طريق الوحى المرشد، والنظر العقلى السليم الذى يوفق الله إليه من يعصمه من الزلل واقتفاء الهوى والشهوة.

القضايا الكبرى التى شغلت العقول:

وهذه القضايا هى :

(١) قضية الألوهية وعبادة الله وحده .

(٢) قضية الوحى والرسالة .

(٣) قضية البعث والجزاء .

وقد تناولت السور هذه القضايا التى لو عرفتها البشرية حق المعرفة، وآمنت بها حق الإيمان لتخلصت من ظلمات المادة القاتلة، وعرفت قيمتها ووصلت بها إلى أقصى درجات السعادة، وحققت حكمة الله فى خلق الإنسان، وفى إرسال الرسل إلى الناس، على أكمل الوجوه وأتمها وأرضاها عنده سبحانه وتعالى .

وقد جاء فى تضاعيف هذه السورة تصوير متكرر بعبارات مختلفة وأساليب متعددة فى هذه القضايا الثلاث .

قضية الألوهية:

فمن تصوير قضية الألوهية : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ . ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ . ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ . ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا ﴾ . ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ . ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ . ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

قضية الوحى والرسالة:

ومن تصوير قضية الوحى والرسالة : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ . ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ . ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ

الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ . ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ .

قضية البعث:

ومن تصوير قضية البعث : ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ . ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ . ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ . ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ . ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ .

هذه نماذج من تصوير سورة الأنعام للقضايا الثلاث التى دار حديثها حولها، وهو تصوير يحمل توجيهًا واضحًا وقويًا إلى الحجة والبرهان، تصوير حسب المنصف فى نظره وتدبره أن ينظر ويتدبر فيتفهمه على وجهه الحق ويدرك إشارته وإيحاءه .

الآيات الأربع الأولى تقرر هذه القضايا:

وقد بدأت سورة الأنعام فركزت اتجاهها نحو هذه القضايا الثلاث بآياتها الأربع الأولى، فقررت فى أولاها : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ما يوجب النظر فيه توحيد الله سبحانه فى الألوهية، وأثبتت له فى سبيل ذلك استحقاق الحمد بحقيقته الشاملة لجميع أنواعه وصوره، وأهابت بالعقول إلى أنه هو الذى خلق العالم العلوى والعالم السفلى فى مادته وجوهره، فى أعراضه وخواصه وآثاره، وإذن فليس أحد غيره يستحق شيئًا من الحمد والثناء، لأنه هو وحده مصدر النعم كلها ومصدر الخير كله، وليس شىء مما ينتفع به الناس من أرضى أو سماوى إلا وهو أثر قدرته، ومن فيض نعمته ورحمته، فهو إذن المنعم على الإطلاق، وهو إذن القادر على الإطلاق، والمتصرف على الإطلاق، والمدبر والمهيمن على الإطلاق . ولا يصح فى عقل أن يتجه بالعبادة والتقديس إلى غير من عظم سلطانه، ونفذت قدرته وعمت نعمته . وما أبعد هؤلاء الذين تنكبوا طريق الوجدان السليم والعقل المستقيم؛ وعدلوا أو تشككوا فى هذا الوضع البين الواضح، وعبدوا غير المنعم القادر، واتخذوا من خلقه أندادًا يعبدونهم من دونه : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ .

وقررت ثانية الآيات الأربع ما يوجب الإيمان بقضية البعث والجزاء: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ** ﴾ وإذا كان الله هو الذى خلق الإنسان من طين وعاقب عليه أطوار الخلق، وسار به فى طريق النشوء والارتقاء، حتى وصل إلى درجة الكمال العقلى التى بها يتصرف فى الكائنات، والتى يسخر فى منافعه الأرض والسموات، فكيف يمترى هذا الإنسان ويشك فى أن له نشأة أخرى، هى حياة البعث والجزاء، حياة الكمال المطلق الذى تتجلى فيه صفات الرحمة الإلهية والفضل الإلهى بأوسع معانيها؟ وما أبعد امتراء الإنسان عما يقتضيه العقل من ذلك ويحكم به النظر ﴿ **ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ** ﴾.

وتقرر الآية الثالثة خاصة الألوهية من العلم الشامل وعموم القدرة ﴿ **وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ** ﴾ وعموم القدرة وشمول العلم هما الأساسان فى فهم الحق بالنسبة إلى الألوهية، وبالنسبة إلى البعث والجزاء، وبالنسبة إلى الوحى والرسالة.

ثم تجىء الآية الرابعة فتقرر أن لله آيات يبعث بها أنبياءه إلى خلقه، وهى آيات الشرائع والأحكام، وآيات الخلق والإتقان، ولكن الناس مع وضوح هذه الآيات تأخذ بهم فتنة الحياة عنها، فيعرضون ويكذبون وهى الحق الذى تشهد به فطرهم، وجاءهم من ربهم، ثم تتوعدهم الآية على ما كان منهم من إعراض وتكذيب واستهزاء ﴿ **وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾.

أمثلة من السورة فى تفصيل هذه القضايا:

على هذه الآيات الأربع التى ركزت بها السورة فى أولها جهة الحق فى الألوهية والبعث والجزاء والوحى والرسالة، أخذت السورة فى تفصيل الحجج وتصريف الآيات، تهز بها العقل البشرى وتدفعه إلى النظر، وتؤكد له هذه المطالب مع عرض موقف المكذبين بها المعرضين عنها، ومن هنا جاء كل ما فى السورة إما متصلا بالسموات والأرض، أو متصلا بالإنسان، أو متصلا بالوحى، أو متصلا بالبعث، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ **قُل لِّمَن**

﴿ما في السموات والأرض﴾ . ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ . ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق﴾ . ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ . ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا﴾ . ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ . ﴿أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء﴾ . ﴿أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾ .

كل هذا ونحوه عرضت له السورة تفصيلا لنعم الله وآثار قدرته فيما يختص بالسموات والأرض وفيما يختص بنعمه على الإنسان .

ثم انظر قوله تعالى : ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ . ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ . ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ . ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ . ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ . ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع﴾ . ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ .

كل هذا مما عرضت له السورة تفصيلا لنعم الله فى الإنسان وإرشادًا إلى آثار قدرته فيه وسلطانه عليه .

ثم انظر قوله تعالى : ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ . ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ . ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ . ﴿ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين (٧) وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون (٨) ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ . ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس﴾ . ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ . ﴿وإذا

جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ .

كل هذا عرضت له السورة بيانًا لحكمة رسالته إلى البشر، ومهمة رسله، وبيانًا لما عرض للمعاندين من شبه وأوهام صرفتهم عن قبول الحق والاعتراف برسالة الله إلى خلقه.

وانظر بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ . ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ . ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ . ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ . ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ .

كل هذا عرضت له السورة تقريرًا لقضية البعث، وبيانًا لما سيسجلونه على أنفسهم حينما يصيرون إلى دار الجزاء ويرون بأعينهم آثارها فيهم.

استطراد موجز إلى طرق القرآن فى الاستدلال على قضية البعث:

ومن الخير أن نشير هنا إلى أن للقرآن الكريم طرقًا شتى فى الاستدلال على قضية البعث، فهو يستدل عليها بخلق السموات والأرض، ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ . ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ ويستدل بخلق الإنسان: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ

وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ويستدل بقياس الخلق الثانى على الخلق الأول: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ويستدل بإحياء الأرض بعد موتها. ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ويستدل بأن الحكمة والعدل يقضيان بالحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، كما يقضيان بأن ينال المحسن إحسانه والمسيء إساءته، حتى يطهر المسيء من دنس النفس، ويكون أهلا لرحمة الله الكاملة، وهذان شأنان مهمان، إذ كثيراً ما يرتحل الناس عن الدنيا دون أن يعرفوا الحق فيما اختلفوا فيه، ودون أن يسهل طريق النقاء لمن دسَّى نفسه، وإذن فلابد من دار أخرى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ ويستدل بأن الإعادة التى يستبعدها المعاندون لا تتوقف إلا على العلم والقدرة، وهما عند الله من مرتبة ذاته العلية، لا يعزب عن علمه شيء ولا يعجزه شيء: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

وهنا نوع آخر من الاستدلال على البعث عرضت له كثيراً سورة الأنعام بقطع النظر فيه عن كل ما تضمنته هذه الأنواع من توجيه النظر إلى العلم والقدرة وإلى ما تقتضيه العدالة والحكمة، وإنما يعرض شأن البعث باعتباره أمراً كائنًا ليس موضع إنكار، ولا محلاً لريب، وتصور فيه مواقف المنكرين وما سيكونون عليه فى ذلك اليوم، وكأن القرآن يقول لهم فى هذا النوع: أريحوا أنفسكم من الإنكار، وأريحوا الرسول من الجدل والمناقشة، وتعالوا فاعرفوا الواقع الذى سيكون، وهذا هو الأحرى بكم، وما يجب أن تعرفوه، وأن يرتسم على صفحات قلوبكم، وانظر فى هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا

وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾. ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾. ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

إلى غير ذلك مما تضمنته السورة من الوصف العيني لمظاهر البعث الذى يأخذ بالقلب، ويثير الوجدان.

عود إلى ما قبل الاستطراد:

وفى تضاعيف هذا العرض للقضايا الثلاث تعرض السورة فى صور مختلفة لموقف المكذبين من الرسل وأن التكذيب سنة قديمة، وفى هذا تعالج نفس الرسول من اليأس وضيق الصدر بتكذيبهم إياه، وتبين له حسن عاقبته، وسوء عاقبتهم: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾. ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ يعلو زبد الباطل فيخفى فى ظلمته الحق، حتى إذا ما تنبه أهل الحق واطمأنت قلوبهم إليه، وانفعلت نفوسهم به، تبددت ظلمة الباطل وانطفأت فقاقيعه، وتجلى الحق وأخذ سلطانه، واندحر الباطل وتوارى تلبيسه ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ سنة الله ولا تجد لسنة الله تبديلا.

وبينما نرى السورة تصرف الآيات والحجج فى هذه القضايا الثلاث على النحو الذى أرشدنا إليه ورسمنا خطوطه، نراها تعرض ـ لكل ما تذكر ـ هذه النتيجة البينة الواضحة ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا

تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾.

التحريم والتحليل ليس من شأن البشرية:

ثم تتابع السورة فنجدها تتناول بعض تصرفاتهم التى كانت أثرًا من آثار الشرك فى التحليل والتحريم لما خلق الله من الحرث والأنعام، وتبين لهم خطأهم الواضح فى هذا التصرف الذى تأباه طبيعة الأشياء أنفسها، وتبين لهم أن التحليل والتحريم ليس من شأن البشر وإنما هو من شأن الخالق الحكيم الذى يعلم خصائص الأشياء وخلق كل شيء لغايته: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾. ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ تشرح الآيات انحرافهم فى التحليل والتحريم وتجعله فى مستوى اعتدائهم على أولادهم بالقتل «سفهًا بغير علم» ثم تقفى كل ذلك بالتفنيد والإبطال: ﴿ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

وفى هذا السياق تبين الصورة ما حرمه الله من الطعام وتحصره فى أربعة أصناف ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وانظر هذا الحصر فى الآية ١٧٣ من سورة البقرة والآيات الأولى من سورة المائدة والآية ١١٥ من سورة النحل لتعلم أنه قرر فى مكى القرآن ومدنيه.

القرآن يفند الشبه القديمة فى الاحتجاج بالقضاء والقدر:

ثم تعرض السورة فى سياق التحدث عن تصرفهم بالتحليل والتحريم للشبه التى كانوا يتمسكون بها فى تبرير شركهم وفى التحليل والتحريم من دون الله، وهى الشبه البشرية فى

قديم الزمان وحديثه فيما يتعلق بالإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، موقف الإنسان أمام التكليف الإلهى، وما ارتسم فى نفسه من معنى القضاء الإلهى، عرضت السورة لهذه الشبه وأجابت عنها بما يضع الحق فى نصابه، ويقطع على صاحبها حبل التمسك بها، ويحول بينه وبين ما يريد أن يضع نفسه فيه من أماكن التحلل من المسئوليات، والإلقاء بكل ما يرتكب من كفر وفسوق وعصيان على كاهل القدر الذى أساء فهمه، تجيب عنها بما يبرز العدل الإلهى فى أسمى معانى العدل، ويصور الحكمة الإلهية فى أسمى معانى الحكمة: ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ** ﴾ يستدلون بشركهم وتحريمهم ما حرموا على أن الله رضيه وأمر به، أو على أنهم كانوا - بمشيئة شركهم وتصرفهم - مجبورين على الشرك والتحريم، فهم قد فهموا أن المشيئة إما آمرة طالبة، أو قاهرة مدبرة، وعلى كلا الوجهين فهم يرون بزعمهم هذا أنهم معذورون ولا ذنب لهم فى الشرك ولا فى التحريم، وقد حكى الله عنهم فى سورة النحل، وفى سورة الزخرف - وهما قد نزلتا بعد سورة الأنعام - أنهم قالوا ذلك بالفعل.

وهذه شبهة لا يزال أثرها عالقًا بالنفوس إلى اليوم، يعتذر بها المفسدون ويجادل بها المبطلون، وقد ردتها السورة عليهم من جهات: ردتها بأن أمثالهم السابقين قد كذبوا الرسل فأشركوا بالله، وحرموا ما لم يحرمه الله، واعتذروا بالمشيئة كما اعتذروا، ومع ذلك عاقبهم الله على شركهم، فلو كانت الشبهة حقًا لما عاقبهم الله على ما ارتكبوا بناء عليها ﴿ **كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا** ﴾، وردت عليهم بطلب ما يثبت صحة ما يدعون من رضا الله بالشرك أو قهرهم عليه ﴿ **قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا** ﴾ وهو فى واقعه نفى لأن يكون عندهم ما يثبت ذلك، ومن ضرورة نفى العلم بما يثبته أنهم ما اتبعوا فيه إلا محض الظن الناشئ عن التخمين والوهم ﴿ **إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ** ﴾.

وردت عليهم بأن العلم الحق الذى يجب أن تتلقوه هو ما تضمنته آيات الله من حجته البالغة ﴿ **قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ والحجة البالغة هى أن الله كلف ووعد وأوعد، وذلك يقضى بالاختيار فيما يفعلون، وبأن الله غير راض بما توعدهم عليه، وأنه لو شاء هدايتكم لخلقكم غير مستعدين للمخالفة والعصيان وكنتم كالملائكة ﴿ **لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾. ولكنه ترككم وما خلقكم عليه من

اختيار، وكلفكم بناء على ما منحكم من قوة وإرادة، ورتب جزاء المحسن على إحسانه وجزاء المسيء على إساءته، وأن علم الله بما سيكون من عبده - باختياره - ليس فيه جبر ولا إلزام، كما أنه لا يدل على الرضا والأمر، نعم: الله قادر على أن يسلب العبد قدرته على المعصية فلا يعصى أبداً، وأن يسلبه قوة الطاعة فلا يطيع أبداً، ولكن ليس ذلك من سنة الله فى الإنسان الذى خلقه ومنحه العقل وأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين.

الوصايا العشر:

ثم تنتهز السورة من الحديث فى التحليل والتحريم فرصة لدعوتهم إلى ما حرم الله فى وصايا عشر ترجع إلى العقيدة وإلى الأموال والأنفس والمعاملة والفواحش والعدل والوفاء بالعهد ثم تكون الوصية العاشرة:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

ختام السورة:

ثم تختم السورة - بعد أن تقطع أعذر المشركين وتتوعدهم على الإعراض عن الحق - بآية فذة تكشف للإنسان عن مكانته عند ربه فى هذه الحياة، خليفة فى الأرض، وأن الله جعل عمارة الكون تحت يديه تتعاقب عليه أجياله وأنه تعالى قد فاوت فى المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة، وهى الابتلاء فى مواقف هذه الحياة، وذلك شأن يرجع إليه كماله المقصود من هذا الخلق وذلك النظام: **﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾**.

أسلوبان بارزان للسورة: أسلوب التقرير:

ويجدر بنا أن نلفت النظر إلى أن السورة عرضت ما عرضت فى أسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بتلك الكثرة فى غيرها من السور، فهى تورد الأدلة المتعلقة بتوحيد الله وتفرده

بالملك والتصرف، والقدرة والقهر، فى صورة الشأن المسلَّم، الذى لا يقبل الإنكار أو الجدل، وتضع لذلك ضمير الغائب عن الحس، الحاضر فى القلب، وتجرى عليه أفعاله وآثار قدرته ونعمته البارزة للعيان، والتى لا يمارى قلب سليم فى أنه مصدرها ومفيضها وصاحب الشأن فيها: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ** ﴾.

﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾. ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ** ﴾. ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ** ﴾. ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** ﴾ ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ** ﴾. ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾. ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ** ﴾ ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ** ﴾.

هذا هو أحد الأسلوبين.

أسلوب التلقين:

أما الأسلوب الثانى فهو أسلوب تلقين الحجة والأمر بقذفها فى وجه الخصم حتى تأخذ عليه سمعه، وتملك عليه قلبه، وتحيط به من جميع جوانبه فلا يستطيع التفلت منها، ولا يجد بدا من الاستسلام لها، ففى حجج التوحيد والقدرة: ﴿ **قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾. ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ** ﴾. ﴿ **قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾. ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾. ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾. ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ** ﴾. ﴿ **قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا** ﴾. ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾.

وفى حجج الوحى وبيان مهمة الرسول، وأن الرسالة لا تنافى البشرية، وفى إيمان الرسول بدعوته واعتماده فيها على الله، وعدم اكتراثه بهم، أو انتظار الأجر منهم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾. ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾. ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾. ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾.

وفى وعيدهم على التكذيب: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾. ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ ﴿قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

وفى الرد عليهم فى التحليل والتحريم من دون الله، وتفنيد شبهتهم فى الشرك وآثاره، وفى بيان ما حرم، خاصة فى الطعام، وعامة فى نظام الله: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ﴾. ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾. ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾. ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾. ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

سر مجيء هذه السورة على هذين الأسلوبين:

هذان الأسلوبان: «هو كذا» و«قل كذا» قد تناوبا معظم ما تضمنته هذه السورة من الحجج وقضايا التبليغ، وهما وإن جاءا فى غيرها من سور القرآن إلا أنهما - وخاصة الأسلوب الثانى، وهو أسلوب «قل كذا» - لم يوجدا فى غيرها بهذه الكثرة التى نراها فى هذه السورة، وهما بعد ذلك أسلوبان من أساليب الحجة القوية التى تدل على قوة

المعارضين وإسرافهم فى المعارضة، وأنهم بحالة تستوجب تلك الشدة التى تستخرج الحق من نفوسهم وتدفعهم إليه دفعًا عن طريق الحجة التى تأخذ بالقلوب، عن طريق التحاكم إلى النظر العقلى وإلى القضايا الفطرية التى لا تكلف الإنسان فى إدراكها والإيمان بها سوى الرجوع إلى الحس الباطن وشعور الوجدان فيلمس الحق فى نفسه، ويراه فى الآفاق، وتلهمه به الفطرة المصونة من ظلمات المادة والجمود، والشهوة والتقليد.

ويدل الأسلوبان من جهة أخرى على أنهما صدرا فى موقف واحد، وإيحاء واحد، وفى مقصد واحد، لخصم واحد، بلغ من الشدة والعتو مبلغًا استدعى من القوى القاهر، الحكيم الخبير، تزويد المهاجم بعدة قوية تتضافر أسلحتها فى حملة شديدة يقذف بها فى معسكر الأعداء فتزلزل عمده، وتهد من بنيانه فيخضع للتسليم بالحق الذى يدعى إليه.

ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ذات شأن فى تركيز الدعوة الإسلامية، تقرر حقائقها وتفند شبه المعارضين لها، واقتضت لذلك الحكمة الإلهية أن تنزل - مع طولها وتنوع آياتها - جملة واحدة، وأن تكون ذات امتياز خاص لا يعرف لسواها كما قرره جمهور العلماء.

وفى ذلك يقول الإمام الرازى فى أول تفسيره لهذه السورة:

«قال الأصوليون: امتازت هذه السورة بنوعين من الفضيلة: أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة، وثانيهما، أنه شيعها سبعون ألفًا من الملائكة» ثم قال: «والسبب فى هذا الامتياز أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين».

ويقول الإمام القرطبى: «قال العلماء: إن هذه السورة أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضى إنزالها جملة واحدة».

وبعد. فهذه هى سورة الأنعام فى جملتها، وفى أسلوبها، وفى مقارنتها بسواها، وفيما امتازت به عن غيرها، ومنه يظهر أنه لا مجال للقول بأن بعضها من قبيل المدنى، ولا بأن آية كذا نزلت فى حادثة كذا، فكلها جملة واحدة، نزلت بمكة لغاية واحدة، هى تركيز الدعوة بتقرير أصولها والدفاع عنها، على الوجه الذى رسمنا.

ولنأخذ فى تفسير ما أردنا تفسيره من آيات هذه السورة، وهى آيات «الوصايا العشر» التى افتتح بها الربع الأخير منها:

قال الله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

الوصايا العشر ومكانها فى الإسلام:

رسمت هذه الآيات للإنسان طريق علاقته بربه الذى يرجع إليه الإحسان والفضل فى كل شىء ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ووضعت الأساس المتين الذى يبنى عليه صرح الأسر التى تكون الأمة القوية الناجحة فى الحياة : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وسدت منافذ الشر الذى يصيب الإنسان من الإنسان فى الأنفس والأعراض والأموال، وهى عناصر لابد لسلامة الأمة من سلامتها ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم ﴾ . ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ ﴾ . ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ . ثم ذكرت أهم المبادئ التى تسمو بالتزامها والمحافظة عليها الحياة الاجتماعية الفاضلة ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾ . ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ . ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ وختمت بأن هذه التكاليف، وتلك المبادئ، هى الصراط المستقيم، بعث به محمد يبينه ويدعو إليه، كما بعث به جميع الرسل السابقين.

وقد أطلق العلماء عليها اسم «الوصايا العشر» نظرًا لتذييل آياتها الثلاث بقول الله ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ ﴾ . وقد روى عن ابن مسعود أنه قال : من سره أن ينظر إلى وصية محمد التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ - إلى قوله : لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله - ﷺ -: «أيكم يبايعنى على هذه الآيات الثلاث؟ ثم تلا ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... إلخ ﴾

ثم قال: فمن وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئًا فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله، إن شاء آخذه، وإن شاء عفا عنه».

وروى عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال: لما أمر الله نبيه ـ ﷺ ـ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج إلى منى، وأنا وأبو بكر معه، فوقف رسول الله ـ ﷺ ـ على منازل القوم ومضاربهم فسلم عليهم وردوا السلام، وكان فى القوم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مفروق أغلب القوم لسانًا وأوضحهم بيانًا، فالتفت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، وقال له: إلام تدعو يا أخا قريش؟ فقال النبى ـ ﷺ ـ: أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنى رسول الله وأن تؤوونى وتنصرونى وتمنعونى حتى أؤدى حق الله الذى أمرنى به، فإن قريشًا قد تظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغنى الحميد. فقال له مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ** .. الآيات الثلاث﴾ فقال له مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه، فتلا رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** .. الآية﴾ فقال له مفروق: دعوت والله يا قرشى إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك.

وقال هانئ بن قبيصة: قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش ويعجبنى ما تكلمت به، فبشرهم الرسول ـ إن هم آمنوا ـ بأرض فارس وأنهار كسرى، فقال له النعمان: اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش، فتلا رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا** ﴾ ثم نهض رسول الله ـ ﷺ ـ.

هذه مكانة آياتنا الثلاث، وهذا مبلغ تأثيرها فى نفوس العرب، أهل الجاهلية كما تقول. وكيف لا تكون لها تلك المكانة، وقد جمعت بأسلوبها الآخذ بالقلوب أصول الفضائل وعمد الحياة الطيبة التى تنبع من الفطر السليمة، والتى دعا إليها كل رسول، ونزل بها كل كتاب، وأيدها كل اجتماع.

مجيئها بأسلوب السورة التلقينى كنتائج بعد المقدمات:

نزلت هذه الوصايا العشر على النبى ـ ﷺ ـ، لا نكاد نعرف شيئًا من تعاليم القرآن

وأحكامه نزل بمثله، فقد بدأت بكلمة «قل» والبدء بكلمة «قل» على وجه العموم - كما قلنا وكما يظهر من تتبعها فى القرآن - يدل على نوع خاص من العناية والاهتمام بالإرشاد أو الإرشادات التى سيقت بها: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ . ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ . ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ . ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم ﴾ . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ . ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . . . إلخ .

والبدء بكلمة «قل» وإن كان كثيراً فى القرآن، وتحظى منه سورة الأنعام دون غيرها من السور بالنصيب الأكبر، إلا أنه فى هذه الوصايا العشر قد جاء بعد أن سبحت السورة سبحًا طويلا فى حجاجها القوى وبراهينها القطعية، التى تكون هذه الوصايا نتيجة حتمية لما أثبتته تلك البراهين ودلت عليه من حقيقة هذا التشريع وصدوره عن العليم بطيات النفوس ودخائلها، الخبير بما يصلحها وما يفسدها، ولذلك كان لها وقع النتائج بعد المقدمات، والمقاصد بعد الوسائل، والغايات بعد البدايات .

ومن جهة أخرى قد اقترن هذا الأسلوب بجملة من دلائل العناية والأهمية، ترشد إليها كلماتها ودلالتها . وبذلك كان هذا الأسلوب هو الأسلوب الوحيد الذى انفرد به بيان تلك الوصايا، كما انفردت الوصايا نفسها بما لها من المكانة الكبرى فى السمو بحياة الفرد وحياة المجتمع .

هدى جامع، فى أسلوب بارع:

ولتصحبنى قليلا فى النظر إلى كلمات ﴿ تَعَالَوْا ﴾، ﴿ أَتْلُ ﴾، ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ فكلمة ﴿ تَعَالَوْا ﴾ تتضمن إرادة تخليص المخاطبين، ورفعتهم من انحطاط هم فيه إلى علو يراد لهم ويدعون إليه، وتدل فى الوقت نفسه على طلب المتكلم إقبالهم عليه، وانضمامهم تحت لوائه، فتتحد وجهتهم ولاتذهب بهم الأهواء والسبل فى مناحى الغى والفساد، وليس من ريب فى أن هذا أسلوب قد قرت فى النفوس قوته: يقرب البعيد، ويؤلف النافر، ويشعره بمعانى العطف والمحبة والرحمة، وقد امتن الله على نبيه أن هداه فى الدعوة إلى اللين والرحمة، وأشار إلى الأثر الطيب الذى يحدثه ذلك الأسلوب من إقبال الناس عليه، واستجابتهم له، والتفافهم حوله ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ . ثم أمر به كتابه وحث عليه كل من يتصدى

للدعوة إليه سبحانه ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . . ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

الترفق فى الخطاب أولى فى الموعظة:

وجدير بمن يتصدى لدعوة الناس إلى الخير وحثهم على الفضيلة أن ينهج فى دعوته وتوجيه خطابه هذا الأسلوب الذى يجمع ولا يفرق، ويؤلف ولا ينفر، وأن يعمل جاهداً فى تطهير أسلوبه من الكلمات الجافة المنفرة التى تحمل العنف والغلظة، أو الشتم والتجهيل، أو تسجل على السامعين ـ وهم مؤمنون ـ ضياع الدنيا والآخرة، واستمراء المعاصى والفسوق، إلى غير ذلك مما يحرج الصدور، ويذهب بأمل الناس ورجائهم فى عفو الله ومغفرته، أو يجعل قلوبهم فى أكنة مما يدعوهم إليه .

وفى الاقتصار على التلاوة ﴿ أَتْلُ ﴾ إيحاء قوى لتقدير المتكلم مكانة المخاطبين، وارتفاعهم إلى درجة لا تكلفه فى لفت الأنظار إلى ما يقول أكثر من أن يتلو عليهم، فهم عنده، بعقلهم وحسن استعدادهم لقبول الحق، حريصون على أن يسمعوا، وحريصون على أن يعلموا بما يسمعون، فاقتصر على أن يتلو عليهم، دون أن يكلفهم شيئًا ما حتى السماع، فضلا عن التنفيذ، وكأنه قدر أن السماع والتنفيذ مما تكفله فطرهم السليمة، دون حاجة إلى أن يؤمروا به، أو يطلب منهم، وهذا غاية فى اللطف، وغاية فى التكريم، وغاية فى حسن الموعظة وتوجيه الخطاب .

توجيه الدعوة باسم الربوبية من بواعث قبولها:

﴿ تَعَالَوْا أَتْلُ ﴾ ماذ أتلو؟ ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ وعنوان الربوبية تشع من جوانبه نعم الخلق والتربية، والفضل والإحسان، والهداية إلى طرق الخير والسعادة، وإذا كان الرب هو الذى يحرم، فهو لا يحرم ـ بمقتضى ربوبيته منبع الخير والإحسان ـ إلا ما يخرج عن الفطر، ويفسد العقول، ويحدث العداوة، ويشيع المظالم، ويقطع الأرحام، وما أروع الخطاب بعنوان الربوبية، ففيه إحياء الشعور بالضعف أمام القوة، وبالذلة أمام العزة وبالحاجة أمام الغنى، وفيه إحياء الشعور بمحبة الرب وعطفه ورحمته، وإحياء الشعور بقوة الرجاء فى التقبل واستجابة الدعاء .

وقد كان عنوان الربوبية لذلك شعار الأنبياء والمؤمنين فى دعائهم لربهم، ودعوتهم لأممهم، فإبراهيم يقول: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾. ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾. ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾. ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾. ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾. ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾. وعيسى يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾. ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ وشعيب يقول: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ وموسى يقول: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ وفى دعوة الأنبياء لأممهم ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي ﴾ وفى دعوة محمد ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ وفى الإرشاد إلى دعاء الله ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ ﴾. ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾. ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾. ﴿ رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾. ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾.

وهكذا كان عنوان الربوبية على لسان الأنبياء والمرسلين، وهكذا أحست الفطرة النقية ـ التى لم تدنسها الأهواء ولم تطمسها الظلمات ـ بروعته ودلالته القوية على معانى الرحمة والعطف والإمداد، وهكذا اتخذ وسيلة فى استمطار الرحمة وتفريج الكرب، وتليين القلوب النافرة المعرضة، وصار الالتجاء به إلى الله المنقذ الذى لا يجد الإنسان سواه حينما يعجز عن تفريج مصابه، فلا يجد بدًا من أن يقول، يارب، يارب، فتكون بردًا وسلامًا على قلبه، يملؤه بالأمل، ويشعره بمصدر الرحمة، فتقوى عزيمته فى مكافحة ما ألم به، وصار كذلك فى نزغة الفطر السلاح القوى الذى يجرده الضعيف فى وجه الظالم المتجبر، يستنصر بعظمته، ويهدد بسلطانه، فيكون للتهديد به أثره فى وجه المعتدى الجبار.

وهكذا يجب أن يكون عنوان الربوبية أسلوب الوعظ الذى يرجى نفعه، وسبيل التذكر للتخلص من غطرسة المتغطرسين، وجبروت المتكبرين، وسبيل النعمى بسكينة الإيواء إلى الرءوف الرحيم.

أوامر ونواه واضحات وإن تكلف الصناعيون:

﴿ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ وتلاوة ما حرمه الله: قراءة الآيات المشتملة على الأشياء المحرمة، واشتمالها عليها: تضمنها إياها، وإرشادها إليها.

وللآيات فى هذا الإرشاد طريقان:

أحدهما: أن يذكر المحرم نفسه مقترنا بأداة النهى والتحريم، وذلك حيث يكون الضرر مترتبا على فعله، ومنه فى آياتنا هذه، الشرك بالله، وقتل النفس والأولاد، وقربان الفواحش ومال اليتيم.

وثانيهما: أن يذكر المحرم بذكر مقابله وهو الذى يترتب الخير على فعله، ومنه فى الآيات: الإحسان إلى الوالدين، وإيفاء الكيل والميزان، والعدل فى الأقوال، والوفاء بالعهود.

وقد جاءت كل وصية من هذه الوصايا بالوجه الذى يدل على مناط الخير فيها، فمناط الخير فى الأول ترك المحرمات، فلا شرك، ولا قتل . . . إلخ فذكرت منهيا عنها، ومناط الخير فى الآخر فعل ما يقابل المحرم، الإحسان والإيفاء، والعدل فذُكرت مأمورا بها، وهكذا يكون الأسلوب الحكيم الذى يتحسس موضع الحاجة ومنشأ الخير فى التكاليف. ولعلنا بهذا البيان نستريح ونريح من عناء التخريج الصناعى واللفظى الذى شغل الناس، وشغلنا عن روح القرآن وهدايته.

تحليل علمى للوصايا العشر: الإشراك بالله:

﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ الإشراك بالله: هو أن يتخذ له سبحانه شريك فيما هو من خصائص الألوهية، وهى السلطة الغيبية المهيمنة وراء الأسباب والسنن، والتى بها يتعلق الرجاء فى الحصول على المحبوب، أو دفع المكروه، فهذه السلطة لله وحده، خالق المحبوب والمكروه خالق الأسباب وحاكمها ومدبرها، وليست أو ليس منها شىء لأحد سواه، لا بطريق الذات، ولا بطريق المنح والعطاء، حتى يصح أن يُدْعى أو يتجه إليه بالخوف أو الرجاء. وعلى هذا فمن اعتقد أن شيئا من هذه السلطة لغير الله فقد أشرك بالله، وكان فى الوقت نفسه مؤمنا بالله. ومن هنا كان الشرك بالله مقتضيا للإيمان بالله، وفى ذلك يقول الله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾.

والشرك بالله على هذا غير إنكار الربوبية والألوهية، الذى يرجع إلى إنكار مبدأ هذه السلطة على الإطلاق، وبعبارة أخرى: إنكار أن تكون سلطة غيبية وراء هذه المادة، لها تصرف واتصال تدبيرى بهذا العالم ومقتضى هذا الإنكار المطلق: اعتقاد أن هذا الكون قديم بعناصره الأولى، وأن مركباته وسيره ونموه تحصل بتفاعل هذه العناصر، وبما فيها من القوى الطبيعية التى لا علم لها، ولا حكمة لها، ولا هدف لها، ومقتضاه أيضا أن العالم لا يصل إلى العدم المطلق، وإنما ينقلب فى التحلل والالتئام، والاجتماع، والافتراق، والارتفاع والانخفاض من الأزل إلى الأبد بقواه المكتومة، دون أن يكون له مدبر حكيم، مهيمن خبير، له السلطان المطلق فى إيجاده، وفى إبقائه، وفى إفنائه.

الشرك الذى اهتم القرآن وجميع الأنبياء بمحاربته:

وإذا كان الشرك بالله على المعنى الأول الذى يقتضى الاعتراف بمبدأ السلطة الغيبية محرما وأول المحرمات، وأكبر الكبائر، كان الشرك بالمعنى الثانى أشد تحريما وأكبر جرما وأعظم كفرًا. والقرآن فى أكثر آيات التوحيد والإيمان لم يعرض لهذا النوع الثانى، لأن جهود الربوبية جهودا مطلقا ليس من فطرة الإنسان، ولا مما يساعده فى البقاء عليه شىء فى الكون. ولذلك كثيرا ما يحكى القرآن عن المشركين اعترافهم بالربوبية، مبدأ السلطة الغيبية ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾، ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾، ﴿ **فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾، ﴿ **وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ** ﴾.

وعلى هذا كانت دعوة الرسل موجهة إلى عبادة الله وحده، وإلى محاربة الذين أشركوا معه غيره فيما هو من خصائص الألوهية. وقد اتخذ القرآن فى أكثر آياته التى وجه بها دعوة التوحيد إيمان القوم بالربوبية سبيلا إلى إلزامهم بالألوهية: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾، ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾.

وفى سورة الأنعام بعد أن ذكر لهم دلائل الربوبية قال: ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾.

وقد تنوعت الشركاء عند المشركين فى جميع الأعصار حسب تنوع الأسباب التى أفسدت عليهم تصورهم لمعنى الألوهية والعبادة، وأوقعتهم فى الشرك والضلال، وطمست عليهم سبيل الفطرة التى فطر عليها الإنسان، تنوعت الشركاء، فكان منها الجسم العظيم يفيض أسباب الحياة والحس والحركة على الإنسان والحيوان والنبات، وبذلك عبدت الشمس، والقمر، والنيل، والنار. ومن هذا السبيل أو ما يشبهه عبدت المرأة والبقرة، لما رأوا فى الأولى من النسل والولادة، وفى الثانية من الحرث والزراعة. وكان منها أحياءٌ قَر فى النفوس أن لهم قربا معنويا من الله، فاتجه إليهم بالعبادة والدعاء والاستغاثة. وبذلك عبدت الملائكة والأنبياء، وقربت القرابين للأولياء، ونذر وذبح بأسمائهم، ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

ولقد ضعف إدراك قوم وضاق عقلهم عن أن يعبدوا غير مرئى ولا تدركه الأبصار فتخيلوا عظمة المعبود فى شىء مادى يصنعونه بأيديهم فى تمثال نحتوه، أو شكل رسموه، ثم عبدوا وتقربوا إلى ما نحتوا أو رسموا ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

الشرك بمختلف ألوانه شذوذ فى الإنسانية:

والشرك بجميع أسبابه وصوره وألوانه، شذوذ فى الإنسانية، ونوبة مَرَضية تلحق العقل البشرى فتجعله يتخبط فى عبادته وتدينه، وليس الشرك ظاهرة انحراف وآية شذوذ خاصة بزمن محمد، ولا بقوم محمد، ولا بعبادة الأحجار والأصنام، ولا بعبادة الشمس والقمر، وإنما هى ظاهرة ترسخ جذورها، وتمتد عروقها فى جوف الإنسانية الفاسدة اللاهية، ما دامت تخطو على جسر هذه الحياة إلى أن تقع فى دائرة الحياة الأخرى، حياة النعيم أو الجحيم.

وإن أشد أنواع الشرك بالله لهو الشرك الذى يخرج الإنسانية من مكانتها، وينزل بها كأنما خرت من السماء فتخطفتها الطير، أو هوت بها الريح فى مكان سحيق، هو شرك الهوى والغى، شرك الأثرة والانحلالية، شرك الوهم والخيال، شرك الضغط ينزل

بالضعيف من القوى، وبالفقير من الغنى، شرك الاستكانة والذلة والمهانة ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً** ﴾.

أليس كل ما ذكرت شركا؟ أليس كل شرك مما ذكرت آخذًا طريقه إلى واحد منها أو طائفة من طوائفنا؟ دعنى من كلمة «الإيمان بالله» فنحن قد نكون حقا مصدقين بوجود الله. ولكن الإيمان بالله شيء وراء التصديق بوجوده. وراء اعتقاد أنه الخالق للكون، فقد كان القوم إذا سئلوا من خلق السموات والأرض؟ قالوا: خلقهن العزيز العليم. إن معنى الإيمان بالله امتلاء النفس بسلطانه، وأنه الموجه، وأنه الحاكم، وأنه المدبر، وأنه صاحب الأمر الذى يطاع، وأنه راسم المنهج الذى يتبع ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾. أو ليس قد سجل الله على هؤلاء - مع اعتقادهم أنه الخالق - أنهم مشركون؟ وإذا كان الإيمان يجلو نوره ما غشاه من شرك الهوى وما كان به أصحابه فى حكم الله مشركين، وكان الشرك أول المحرمات فى وصايا الله، فياويلنا وقد فشا فينا الشرك بالله، واتخذنا له ألوانا وألوانا: الرياء فى عبادة الله شرك بالله. الإعراض عن شرح الله شرك بالله. التفريق بين جماعة الموحدين بالله شرك بالله. موالاة أعداء الله، الساعين فى أرض الله بالفساد، شرك بالله. الضن على عباد الله بنعم الله شرك بالله. الاعتماد على شفاعة الشفعاء فى مغفرة الذنوب، دون عمل ولا رجوع إلى الله وحده، شرك بالله. الخنوع للجبارين الطغاة، وإهمال أوامر الله فى مكافحتهم ورد طغيانهم، شرك بالله. نفاق الفرد للفرد، ونفاق الفرد للجماعة، ونفاق الجماعة للفرد، شرك بالله، ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾.

الوصية الثانية: ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾:

والآن نتنقل إلى الوصية الثانية: ﴿ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ وقد جاءت هذه بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب، وهو الإحسان: ولم تذكر بأسلوب النهى عن المحرم وهو الإساءة كما جاءت الوصية الأولى ﴿ **أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ﴾ سموًا بالإنسان عن أن تظن به الإساءة إلى الوالدين، وكأن الإساءة إليهما، ليس من شأنها، أو ليس من شأنه أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهى عنها؛ ولأن الخير المنتظر من هذه الوصية - وهو تربية الأبناء على

الاعتراف بالنعم وشكر المنعمين عليها - إنما يتحقق بفعل الواجب وهو الإحسان، لا بمجرد ترك المحرم وهو الإساءة، لهذا وذاك قال الله تعالى فيها ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ولم يقل «ولا تسيئوا إلى الوالدين» فليس من المطلوب سلب ضرر وإيذاء، وإنما المطلوب إيجاد خير ونفع بهما ترتبط القلوب، وبهما تنمو الفضيلة، وعليهما تشيد الأسرة وتمتد غصونها.

والإحسان يتعدى بحرفي الباء وإلى، فيقال: أحسن به، وأحسن إليه، وبينهما فرق واضح، فالباء تدل على الإلصاق، وإلى تدل على الغاية، والإلصاق يفيد اتصال الفعل بمدخول «الباء» دون انفصال ولا مسافة بينهما، أما الغاية فتفيد وصول الفعل إلى مدخول «إلى» ولو كان منه على بعد، أو كان بينهما واسطة، ولا ريب أن الإلصاق في هذا المقام أبلغ في تأكيد شأن العناية والإحسان بالوالدين، ومن هنا لم يعدّ الإحسان بالباء في القرآن إلا حيث أريد ذلك التأكيد؛ فنراه في قوله تعالى حكاية عن قول يوسف لأبيه وإخوته: ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ ونراه في مقام الوصية بالوالدين، وقد جاءت على هذا النحو في أربع سور: سورة البقرة، وذلك في قوله تعالى تذكيرا بالميثاق الذي أخذه على سلف بني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وسورة النساء، وذلك في قوله تعالى وهو يرشد المؤمنين إلى أصول الفضائل التي يجب عليهم أن يتمسكوا بها في عقيدتهم ومعاملتهم: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وسورة الأنعام، وذلك قوله في الآية التي نحن بصددها: ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وسورة الإسراء، وذلك قوله تعالى في بيان ما قضى به وشرع من الوصايا العامة التي لم تتغير بتغير الرسالات الإلهية: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

وفي هذه السور الأربع عُدّي الإحسان في الوصية بالوالدين بالباء التي تدل على إلصاق الإحسان بالوالدين دون واسطة ولا فصل، وجعل الأمر به بالنسبة لهما تاليا في الذكر للأمر بعبادة الله وحده، أو النهي عن الإشراك به، وفي هذا رفع لمقام الأبوة

والأمومة أيما رفع ، ولم تقف الوصية بهما عند هذا الحد وبهذا الأسلوب ، بل جاءت فى آيات أخرى بأسلوب الإيصاء ، وهو أن يعهد إلى الغير بعمل ذى بال ، وهو يدل على العناية التامة ، والاهتمام البالغ من الموصى بهذا العمل ، كما يدل على سمو مكانة العمل ، وعلى أن الموصى له شأن وحظ يعود عليه من ذلك العمل ، ومن هنا كان أسلوب الإيصاء أقوى فى البعث على الامتثال من أسلوب الأمر والتكليف ، انظر إلى قوله تعالى ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ** ﴾ وقوله : ﴿ **وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ** ﴾ وقوله : ﴿ **وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ وقوله : ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ وقوله : ﴿ **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ** ﴾ وانظر إلى تذييل آياتنا الثلاث بعد الأمر بالوصايا بقوله تعالى : ﴿ **ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ** ﴾ .

أما آيات الوصية بالوالدين التى جاءت بأسلوب التوصية ، فهى :

أولا : قوله تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا** ﴾ وهى كما ترى تبين الحالة الخاصة التى يباح فيها للإنسان عصيان والديه ، وعدم امتثال أمرهما ، وهى حالة مجاهدتهما لولدهما لأن يشرك بربه ما ليس له به علم ، وهذا أقصى ما يمكن فى مثل هذه الحالة فى أحكام دين جاء لمحو الشرك والوثنية وتقرير أن العبادة لله وحده .

وثانيا : قوله تعالى فى سورة لقمان : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ .

وثالثا : قوله تعالى فى سورة الأحقاف : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ**

وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ .

وقد أرشدت هذه الآيات الواردة فى شأن الوصية بالوالدين إلى أمور :

فآيات الإسراء أرشدت إلى أن الإحسان المطلوب يجب أن يكون باعثه الرحمة والإجلال، لا الطمع فى مالهما، ولا الاحتيال على وقوعهما فى يده، يتصرف بهما وفى مالهما كما يشاء، وتأمل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ وترشد إلى أن الإحسان لا يكون واقعا موقعه إذا كان ناشئا عن قهر الوالدين وإخضاعهما الولد لما يريدان، فإن هذا الخضوع لا يكون خفضا لجناح الذل من الرحمة، وإنما يكون خفضا لجناح الذل من القهر والغلبة. ومن هنا، ومما تجب مراعاته على الوالدين فى تربية الأبناء، وجب على الآباء ألا يتخذوا من هذه الوصايا سبيلا للتنكيل بأبنائهم، والوقوف أمامهم فى كل خير يريدونه. وكثيرا ما رأينا من الآباء من يجور على بعض أولاده، ومن يطردهم، ومن يؤثر بعضهم على بعض، ومن يتحكم فى حياتهم الزوجية، وفى توجيههم العلمى الذى يقضى به استعدادهم. والواجب أن يفهم الآباء حقوق الأبناء، كما يفهم الأبناء حقوق الآباء، وإذا كان الله قد ظهرت وصيته بالوالدين كثيرا دون الوصية بالأبناء فليس ذلك إهمالا للأبناء، ولا إباحة للآباء أن يفعلوا ما يعن لهم مع الأبناء، بل لأن طبيعة الأبوة تقضى على الآباء بالسير بالأبناء فيما يصلحهم وينشئهم على العزة والكرامة، وتكوين الشخصية، وحرية الرأى فيما يرونه خيرا لأنفسهم وفى حياتهم الخاصة.

وبهذا تبنى الأسرة كما يريد الله على تبادل الحب والإحسان، وتبادل الحقوق والواجبات، وبذلك تكون الأسرة منبعا لرجال تنتفع بهم أمتهم، وتتكون الأمة من أسر كريمة، لا تعرف الذل ولا الظلم، ولا الإرهاق ولا العنت، والقرآن الكريم لم يعن هذه العناية كلها بحق الوالدين نظرا لشخصهما فقط، بل نظرا لأنهما عمادا الأسرة، وأن الأسرة لا بد لها من التكوين الذى يستظل فيه أفرادها بلواء العزة والسعادة، ويمتد منها إلى

الأقارب والجيران، وسائر الناس والمخلوقات، حتى ملك اليمين، وبذلك تمتد الفضيلة وتبسط أشعتها على الأمة كلها، وما الأمة إلا مجموعة الأسر، يخلع عليها ثوبها: إن شرا وإن خيرا، وإن سعادة وإن شقاء.

وقد عرضت آيات لقمان والأحقاف إلى جانب خاص بالأم أظهرت به ما قاسته فى شأن الأولاد من متاعب الحمل والوضع والرضاع، وما يتبعه من مشاق التغذية والتنظيف والسهر والحدب على مصلحتهم، وشدة الاهتمام بهم فى الصحة والمرض، حتى تنسى به الأم نفسها وبيتها وزوجها ﴿ **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ** ﴾، ﴿ **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا** ﴾.

صورتان متقابلتان من الشكران والكفران:

وقد انفردت سورة الأحقاف بعرض صفحتين، إحداهما بيضاء نقية، تصور الولد البار الذى أدرك فضل الله وفضل والديه عليه، فأخذ يلهج - حين بلغ أشده واستكمل رجولته - بالدعاء: ﴿ **رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ ثم تذكر جزاءه الحسن عند الله ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** ﴾.

أما الصفحة الأخرى فسوداء قاتمة، عرضتها السورة فى مقابلة هذه للولد العاق الذى نكص على عقبيه ورفض نصح والديه؛ بل تأفف منهما وتضجر، ورمى بدعوتهما إياه إلى الخير والإيمان وراء ظهره وقال: ﴿ **مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ بعد أن يرمى فى وجوههما بحجة الكفر والإلحاد المهلهلة ﴿ **أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي** ﴾ ثم تذكر الآية ما أعد له من جزاء سيئ: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ** ﴾.

استنباط فقهى ورأينا فيه:

هذا، وقد نظر الفقهاء فى آيتى لقمان: ﴿ **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي**

عامين﴾ ، والأحقاف : ﴿حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ . مع آية الإرضاع الواردة فى البقرة : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ وجعلوا الآيات الثلاث أصلا تشريعيا لأكثر مدة الرضاع «حولين كاملين» وأقل مدة الحمل وهو ستة أشهر ، بعد إسقاط مدة الرضاع من مدة الحمل وللفصال الواردة فى سورة الأحقاف . ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ . وعلى ذلك قالوا إن الولد الذى يجىء لأقل من ستة أشهر بعد الدخول يكون غير ثابت النسب إلى الزوج ، والرضاع الذى يكون بعد مضى عامين لا يوجب التحريم . وبقى بعد ذلك أقل مدة الرضاع ، أو أكثر مدة الحمل ، وليس فى القرآن ما يرشد إلى واحد منهما ، ومن هنا اختلف الفقهاء اختلافا واسعا فى أكثر مدة الحمل ، فمنهم من رأى أنه سنتان لحديث يروى عن عائشة ، ومنهم من رأى أنه أربع سنين أو خمس أو سبع أو أكثر ، وكان اعتماد أصحاب هذه الأقوال على مجرد النقل والإخبار عن بعض النساء ، وقد تعرضت كتب المذاهب للأدلة والتوجيه ، فعلى من أرادها أن يرجع إليها .

والحق أن القرآن لم يكن من قصده فى تلك الآيات إلا أن يشير إلى المتاعب التى تلحق الأم من جهة الأبناء ، متاعب حمل ومتاعب إرضاع فى تلك المدة التى يألفها الناس جميعا ، والتى لا تزيد فى مجموعها للحمل والإرضاع عن ثلاثين شهرا ، فالذى يؤخذ من القرآن أن مدة الحمل والفصال لا تزيد عن ثلاثين شهرا ، أما ما عدا ذلك فقد وكل أمره لخبرة الأطباء وعلماء تكوّن الجنين ، على أن المذكور فى الآية لم يكن من قبيل التحديد ، وإنما كان من قبيل الشائع الكثير ، انظر قوله تعالى : ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ ، مع قوله تعالى : ﴿فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾ .

الوصية الثالثة: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾:

أما الوصية الثالثة ، وهى المذكورة فى الآيات بقوله تعالى : ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾ فهى النهى عن قتل الأولاد . وقد جاءت هذه الوصية مرة أخرى بالمرتبة الثالثة أيضا فى وصايا سورة الإسراء التى سبقت فيها الوصايا بعنوان : القضاء والحكم ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه... ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن

نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ وجاء فى سورة الأنعام أيضا نعى شديد على من يقتلون أولادهم .

جهتان فى الباعث على تلك الجريمة:

وكان ذلك من جهتين ، من جهة أنه تصرف فاسد ، ليس إلا أثرا لضعف النفس وتأثرها بتزيين الشياطين إياه ، ووسوستهم به للناس ، وتصويره بأنه عمل صالح يتقى به الإنسان غائلة الفقر التى يجلبها الإنفاق على الأولاد ، ويتقى به عار الفاحشة أو السبى فى القتال ، أو عار التزوج بزوج هو دونهم فى الشرف والمكانة ، واقرأ فى هذا التبكيت قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ وكذلك جاء فيها النعى عليهم من جهة أنه خسران عظيم لهم ، خسران لعاطفة الأبوة الفاضلة عاطفة الرحمة والشفقة ، وخسران لكثير من النعم التى يحصل عليها الإنسان فى حياته وبعد مماته ، من جهة الولد والنسل فيه العزة والنصرة ، وبه امتداد الحياة والأثرة ، وبه السرور والزينة ، ومنه المعونة فى الحياة ، ومنه البر والصلة ، كل ذلك يخسره قاتل أولاده بطيشه وحمقه ، وجهله وسوء تقديره ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ . هذا ولا يزال بعض الناس إلى يومنا هذا تتملكهم الشياطين فتزين لهم قتل أولادهم بحجة الفقر أو خوفا من الوقوع فيه ، فيصيبهم الخسران المعنوى ، وتفسد لديهم عاطفة الأبوة الشريفة ، ويصيبهم الخسران الحسى فيفقدون فى حياتهم المولى والنصير ، وفى مماتهم الأثر الطيب الذى يتمثل فى الأبناء والأحفاد ، والآية تقطع على هؤلاء وهمهم ، وتزيل خوفهم ، وتلفت أنظارهم إلى أن الرزق بيد الله وهو الرزاق ذو القوة المتين ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ .

من أسرار التعبير:

وقد جاء هذا الضمان الإلهى بالنسبة للأبناء على صورتين مختلفتين فى آيتى الأنعام والإسراء : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ و﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ وقد نظرت كل سورة منهما إلى حالة من الحالتين ، تدفع كلتاهما الآباء إلى قتل الأبناء ، فالفقر الذى كان يحدو

بهم إلى قتل الأبناء إما أن يكون حاصلا موجودا، وإما أن يكون متوقعا مرتقبا بعد كبر الأولاد وشيخوخة الآباء، وكان علاج الحالة الأولى ما جاء فى الآية الأولى: ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ** ﴾ وكان علاج الحالة الثانية ما جاء فى الآية الثانية: ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ** ﴾ ونظرا إلى أن الحالة الأولى يكون الآباء فيها هم المكلفين بالسعى والإنفاق، ناسب أن يكون علاجها: ﴿ **نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** ﴾ قدم فيها رزق الوالدين لإفادة أنهما أصحاب الشأن والعمل، وبرزقهما يرزق الأولاد ونظرا إلى أن الحالة الثانية يكون الآباء قد وصلوا إلى درجة العجز عن الكسب والعمل ويكون الأولاد هم المكلفين بالسعى وتحصيل الرزق، ناسب أن يكون علاجها: ﴿ **نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ** ﴾ فقدم رزق الأبناء الذين يعملون، وكان رزق الآباء فى تلك الحالة من رزق الأبناء، وفى تغيير الأسلوب على هذا النحو - بالنظر إلى هاتين الحالتين - إيحاء بأن رزق الله للإنسان إنما يكون مضمونا إذا كان كاسبا عاملا، وليست الكفالة مرتبطة بالرزق ولو من غير عمل وكسب!! فإن ذلك ليس من سنن الله فى كونه، ولا من أوامره وشرعه.

حكم إجهاض الحامل:

والآية بإطلاقها تتناول النهى عن قتل الأولاد الذين انفصلوا عن الأم بالوضع والولادة، وعن قتل الأجنة الذى عرف فى هذه الأيام بالإجهاض وإسقاط الحمل، وقد اتفقت كلمة الفقهاء على أن إسقاط الحمل بعد نفخ الروح فيه حرام، لا يحل لمسلم أن يفعله لأنه جناية على حى، ولذلك وجبت فيه العقوبة، أما إسقاطه قبل نفخ الروح فيه، فزعم فريق أنه جائز توهما منه أنه لا حياة فيه، فلا جناية بإسقاطه، فلا حرمة، والتحقيق أنه حرام، لأن فيه حياة محترمة، هى حياة القبول والاستعداد، وقال فيها الإمام الغزالى: «إنه جناية على موجود حاصل، وأن أول مراتب الوجود أن تقع المادة فى المحل وتختلط بالبويضة وتستعد لقبول الحياة، وإفساد ذلك جناية، وتعظم الجناية كلما انتقلت المادة من طور إلى طور، حتى تصل إلى منتهاها بعد الانفصال حيا» وجاء فى كتب الحنفية لبعض فقهائهم: «ولا أقول بالحل، إذ المحرم لو كسر بيض الصيد ضمنه، لأنه أصل الصيد، فلما كان يؤاخذ بالضمان فى الصيد، فلا أقل من أن يلحق الإثم فى الجنين» وقالوا: «إن الماء بعد ما يقع فى الرحم مآله الحياة، فيكون له حكم الحياة».

ومن هنا وجب حمل القول والإباحة على حالة ترتب الضرر الفادح، كموت الأم إذا لم تسقط الجنين. ومن هنا أيضا نرى أن علماء الشريعة يرون كما يرى الطب أن مادة التلقيح فيها حياة، وأنهم يقدرونها ويعتدون بها، ويرتبون عليها الآثار، أما الحياة التى لا تكون إلا فى الشهر الرابع فهى حياة الحس والحركة، وهى متولدة من حياة النمو والتطور، وهى التى عبر القرآن عنها بالخلق الآخر، وعبر عنها الحديث بنفخ الروح، والقرآن دائما يدور محور إرشاده حول المرئيات والمشاهدات التى تقع عليها أبصار الناس جميعا، ويعلمونها جميعا، أما ما وراء ذلك من خفيات السنن التى لا يدركها إلا أرباب البحث والنظر فإنه يتركها للبحث والنظر، ومتى ظهرت عن طريق البحث الصادق والنظر المكتنه للحقائق، أوجب عليهم أن يرتبوا الأحكام والآثار.

حكم القصاص من قاتل ولده:

هذا، ويجدر بنا فى هذا المقام أن نعرض لمسألة الحكم الدنيوى، وهو القصاص بالنسبة لقاتل ولده، بعد أن وضعت الآيات أساس عقوبته الأخروية بتحريمه والنهى عنه، ونجمل القول فى ذلك فيما يأتى:

ذهب جمهور العلماء إلى أن الوالد لا يقتل بولده، واستدلوا بحديث يروى فى هذا المقام، وهو: «لا يُقاد والد بولده» أو «لا يقتل والد بولده» وكذلك استدلوا بأن عمر بن الخطاب لم يقتل الوالد بالولد مع حضور الصحابة، ولم يخالفه أحد منهم. وذهب جماعة - منهم الإمام مالك - إلى أنه متى تعمد قتله، وخلا القتل عن الشبهة، قتل به لعموم آيات القصاص.

ونسوق هنا ملخص ما كتبه ابن العربى فى هذه المسألة، قال:

هل يقتل الأب بولده لعموم آيات القصاص؟ قال مالك: يقتل به إذا تبين قصده إلى قتله، بأن أضجعه وذبحه، فإن رماه بالسلاح لا يقتل به لاحتمال الحذق أو التأديب: وذلك لوجود معنى الشفقة الطبيعية التى تضعف احتمال القصد، وخالفه سائر الفقهاء، وقالوا: لا يُقتل به، وقد سمعت شيخنا فخر الإسلام أبا بكر الشاشى يقول: فى النظر لا يُقتل الأب بابنه لأنه سبب وجوده، فكيف يكون هو سبب عدمه؟ وهذا يبطل بما إذا زنا بابنته، فإنه يرجم وكان سبب وجودها، ثم أى فقه تحت هذا، ولم لا يكون الولد سببا فى

عدم أبيه إذا عصى الأب الله فيه؟ ثم قال: وقد تعلقوا بحديث باطل وهو «لا يقاد والد بولده».

والذى نراه هو ترجيح مذهب القائلين بالقصاص، وأن القصاص لا يقف عند حد الصورة التى نقلت عن الإمام مالك، وهى قصد القتل بالذبح والاضجاع، بل نرى الرمى بالرصاص، والرمى من شاهق، والضرب بالسيف والرض بالحجر الثقيل، والرمى فى اليمّ، كل ذلك ونحوه مما يعتبر قتلا فى العرف والعادة مع تحقق القصد إلى القتل موجب للقصاص، وإذن لا فرق بين قتل الأجنبى وقتل الوالد. أما استدلال بعض الحنفية بآيات الوصية بالوالدين؛ وبأن الوالد كان سببا فى وجود الولد فلا يكون الولد سببا فى عدمه فهذا استدلال إلى المشاغبة الجدلية أقرب منها إلى إرادة تبين الحق وإظهاره، وآيات القصاص عامة لا يخصصها إلا متواتر أو مشهور، ومرويهم، إن صح فهو آحاد لم يشتهر، وقد قال فيه الشافعى: إن طرقه كلها منقطعة. وأما حكم عمر بعدم القصاص فلعله، إن صح، كان لشبهة رآها فلم يثبت القتل المتعمد الخالى عن الشبهة، والقصاص يندرئ بالشبهات.

الوصية الرابعة: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾:

والفواحش: جملة فاحشة، والفاحشة اسم لكل ما عظم قبحه، واستقرت ـ فى نظر العقول السليمة والفطر التى لم تدنس ـ بشاعته. ومن شأنها أن الشرائع الإلهية تنكرها وتمقتها، وتنهى عنها، وترد الفطر إلى استقباحها، صيانة للأفراد، وحفظا للمجتمعات من آثارها السيئة التى تفسد على الإنسان عقله وخلقه، وتودى بحياته الفاضلة، وتصرفه عن طريق الكمال الإنسانى الذى كرم به فى هذه الحياة، وحفظ له مكانته فى الخلافة الأرضية وعمارة الدنيا على الوجه الذى يكثر خيره، ويعظم نفعه، ويتسم بسمات الرحمة لعباد الله.

الفحش والضرر علة التحريم:

وكثيرا ما يردُّ القرآن تحريم الأشياء وتحليلها إلى ما يكون لها من آثار سيئة أو آثار حسنة، فهو يقول: ﴿ **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** ﴾ ويقول: ﴿ **يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ**

وينهاهم عن المنكر﴾ ويقول: ﴿فإنه رجس﴾ ويقول فى الخمر والميسر: ﴿رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (٩٠) إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾ ويقول: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول﴾ ويقول: ﴿أحل لكم الطيبات﴾ ويقول: ﴿لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾.

وهكذا لا نكاد نجد فى القرآن تحريما لشىء أو تحليلا لآخر إلا وقد ربطه الله بما فيه من خبث وفحش، أو بما فيه من خير ومنفعة: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾.

ميزان الحل والحرمة فيما لا نص فيه:

ومن هنا كان الفحش والضرر أصلا يتحاكم إليه ـ وجوداوعدما ـ فى حل أو حرمة ما لم ينص الشارع على حله أو حرمته مما لم يكن موجودا فى زمن التشريع. وإذن فمتى عرفت للشىء آثار ضارة، أو أن ضرره أكثر من نفعه كان حكمه فى نظر الإسلام بمقتضى هذا الأصل التشريعى هو التحريم ومتى لم يعرف للشىء آثار ضارة فى ناحية ما، أو عرف له ضرر ما، ولكن عرف له خير أعظم من ضرره، كان حكمه بمقتضى هذا الأصل هو الحل، وإن لم يرد فى الحالين نص بتحريمه أو تحليله، وبذلك تكون المخدرات التى عرفت بعد زمن التشريع وعرفت بآثارها السيئة حكمها بمقتضى هذا الأصل هو حكم ما حرمه الله لخبثه وسوء آثاره، وإن لم يرد فى القرآن نص على تحريمه، وهذا هو ميزان الحل والحرمة، بيّنه فى كثير من الجزئيات التى يعهدها الناس وقت التنزيل، وتركه قاعدة عامة يرجعون إليها فى كل ما يتاح لهم، ويكشف عنه الوجود.

ويستوى فى ذلك جميع الأفعال والأقوال ظاهرة وباطنة، حتى المعانى النفسية التى تنطوى عليها الصدور ويكون لها من الآثار فى أصحابها أو فى غيرهم ما يضعف حياتهم وينزل بكرامتهم ويفسد مجتمعهم. وقد كان هذا الميزان الأصل الواضح الذى يعرف به دوام الشريعة وعموم سلطانها، وتكفلها ببيان حكم أفعال الإنسان وأقواله، وجميع ما يصدر عنه مهما امتدت الحياة، ومهما تغيَّر لونها ووجهها، وليس عمومها قاصرا على

النص على أحكام جميع ما يمكن أن يحدث فى الحياة، فإن ما يحدث لا يمكن أن ينتهى ولا أن يعد إلا بعد انتهاء الحياة، والاحتفاظ بكل ما يحدث فيها . وليس من المعقول أن يتأخر التشريع لأحداث بعد انقضاء حياتها، كما أنه ليس من المعقول أن يوضع تشريع لكل هذه الأحداث المتجددة المتعاقبة فى كل كتاب يجب بمقتضى الحكمة أن يكون محدود العبارة فى استطاعة الإنسان الإلمام به، والإحاطة بما فيه . وإذن، فلا سبيل إلى عموم الشريعة سوى هذا الطريق الحكيم الذى جاء به القرآن الكريم، وهو : النص على حكم ما عرف الناس من أحداث، ثم إفراغ ذلك الحكم فى عناوين عامة، وعلل تتحقق فى غير هذه الأحداث كما تحققت فيها، وبذلك ينتقل - بحكم الضرورة العقلية - حكم ما نص على حكمه إلى ما لم ينص على حكمه، وليس هذا من القياس الذى يعرفه فقهاؤنا، وهو إلحاق ما لم ينص على حكمه بما نص على حكمه لمشاركته إياه فى العلة، وإنما هو بطريق النص العام الذى يرجع إلى تحقيق المناط فى تحريم ما حرم أو تحليله . وعلى هذا يكون الثابت عن هذا الطريق ثابتا بالنص، وبعموم الوصف العنوانى الذى كان مناط التحريم، ولعل هذا هو موقع نظر الذين أنكروا القياس من علمائنا، فهم لم يقولوا : إن الأحكام قاصرة على الأحداث والوقائع التى كانت موجودة وقت التنزيل، وإنما يقولون : إن الشريعة عامة دائمة، وإن نصوصها لم تكن خاصة شخصية، وإنما هى عامة نوعية، وإنها من قبيل الكلى يطبق على كل أفراده، ما وجد منها بالفعل وما سيوجد منها بعد، وهذا موضع يجب تدقيق النظر فيه حتى نبعد بأنفسنا فى تطبيق الأحكام على الأحداث عن خلافات القوم «فى العلة مسالكها وشروطها، ودرجة الحكم الثابت بها، ونقضها وكسرها، وما إلى ذلك من البحوث التى ولدها الجدل حول نظرية القياس فى الأصول الفقهية» .

وإذا تناولت هذه النصوص العامة أحكام ما لم يكن موجودا فى زمن التشريع من الأحداث والوقائع، ومنها عرف حكمها، فإن هذه النصوص تدل من جهة أخرى على أن الفعل فى ذاته يحمل من صفات الصلاح أو الفساد ما يبرر - فى نظر المشرع الحكيم، العليم بخواص الأشياء وأسرارها - حله أو حرمته . وإذن ، فليس معنى المعروف الذى يأمر به الله، أو الطيبات التى يحلها الله، ما أمر الله به، أو أحله، كما أنه ليس المنكر الذى ينهى الله عنه، أو الخبيث الذى يحرمه، هو ما نهى الله عنه أو ما حرمه، ليس هذا ولا ذاك، وإنما هو ما استقرت معرفته وألف خيره فى الفطر، أو نكرانه أو شره فيها، وفى هذا تقرير

للحسن والقبح الأصليين، أي ما كان في ذات الفعل بقطع النظر عما تعلق به من أمر أو نهي، وحل أو حرمة. وبناء على ما يكون له من ذلك يكون الأمر به وحله، والنهي عنه وتحريمه، ففي الأفعال باعتبار ذاتها حسن به تطلب، أو قبح به تحرم، وبناء على ما يعلمه الله فيها من حسن أو قبح، يحلها أو يحرمها بشرائعه وفي رسالاته، وليس حسنها وقبحها أمر الشارع بها أو نهيه عنها حتى يقال: «لو انعكس الأمر وأمرت الشرائع السماوية بالزنا، وحرمت الزواج لانعكس الحكم وانعكس الوصف، وصار الزنا حسنا مطلوبا، وكان الزواج قبيحا محرما» وهذه مسألة قد بحثها علماء الأصول، ونكل الفصل فيها لأرباب العقول التي تعرف وتؤمن بحكمة الشرائع، وحكمة التحليل لما تحل، والتحريم لما تحرّم، والأمر في المسألة بيِّن واضح لا يحتاج إلى برهان، ولا يحتمل معارضة ولا مناقشة.

كلمات فاحشة، وفحشاء، وفواحش، في القرآن:

وقد جاءت كلمات «فاحشة، وفحشاء، وفواحش» في كثير من آيات القرآن عامة لا تختص بنوع معين، أو فعل خاص مما عرفت شناعته وقبحه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**﴾. ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾. ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ**﴾ وإذن، فالكلمات ليست خاصة بالاعتداء على العرض وإن كان قد أريد منها في بعض إطلاقاته، نظرا لشدة قبحه واستهجان النفوس له، وليس هذا لأنها خاصة به ولا تطلق على غيره وفي قوله تعالى: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ وقوله: ﴿**وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ في هاتين الآيتين دلالة واضحة في أن الاعتداء على العرض وزواج امرأة الأب، كلاهما فاحشة، وإذن فالزنا ليس وحده هو الفاحشة.

فاحشة الاعتداء على العرض:

هذا، وقد كان لفاحشة الاعتداء على العرض في الجاهلية شيوع ونظام، وكان الوجهاء والرءوس لا يرتكبونه إلا سرا ونادرا، ويستقبحونه علانية، وكان أراذل القوم وأدنياؤهم يألفونه ويرتكبونه في بيوت علانية تعرف بالمواخير، تعد لذلك، وتوضع عليها أعلام

تميزها عن بيوت الشريفات الحرائر . وليس فى كل ما تطلق عليه كلمة فاحشة أبشع ولا أفحش من تلك الرذيلة ، التى تجعل أفراد الإنسان الذى كرمه الله وفضله على كثير من خلقه أشبه بالحيوانات التى لا تعرف للشرف مكانة ، ولا للعرض قيمة ، ولا للأنساب فضلا وكرامة ، وقد جاء الإسلام وكرامة الإنسان أول أهدافه ، فاتخذ من الوسائل والأحكام ما يخفف ويلات هذه الفاحشة على الإنسان ، اتخذ ما لم يتخذه لغيرها من الفواحش ، فحرم على الرجال خلوتهم بالأجنبيات ، وعلى المرأة انفرادها فى السفر عن محرم يحميها ويغار عليها ويصون عرضها ، وحرّم عليها التبرج بزينتها فى الذهاب والإياب ، وحرم تقلبها فى الطرقات والمجتمعات بما يغرى بها مرضى القلوب ، كما أمر الفريقين - الرجل والمرأة - بغض البصر والاستئذان فى دخول البيوت ، وغير ذلك من سائر الوسائل التى من شأنها أن تباعد بين الناس وبين انتشار هذه الفحشاء ، وأخيرا جاء فى محكم التنزيل الدواء الحاسم لعلة انتشارها ، جاءت لها عقوبتان : عقوبة مادية اتخذت لها العلانية محلا لتنفيذها : ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ وعقوبة أخرى أدبية وهى تحريم أن يكون المؤمنين من الزانى والزانية أسرة من أسرهم يكون أبناؤها وبناتها من لبنات المجتمع الإيمانى الفاضل : ﴿ **الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ثم لم يقف بالعقوبتين عند حد الفاحشة الفعلية ، بل أثبتهما أيضا جزاء فى الاعتداء على العرض بطريق القذف والاتهام واقرأ فى ذلك أوائل سورة النور .

الوصية الخامسة: تحريم القتل:

﴿ **وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ وهذه هى الوصية الخامسة ، وهى النهى عن قتل النفس التى حرمها الله ، وهى النفس البشرية التى استخلفها الله فى الأرض وناط بها عمارتها وإظهار أسراره فيها ، وقد تكرر فى القرآن النهى عن قتلها . جاء هنا فى تلك الوصايا وجاء فى وصايا الإسراء ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا** ﴾ .

القتل أبشع الجرائم:

وقد اتفقت جميع الملل والنحل منذ بدء الخليقة على أن قتل النفس عمدا بغير حق يبرره جريمة منكرة لا يقرها شرع ولا يتقبلها وضع ولا يستسيغها اجتماع، وقد عنيت الشريعة الإسلامية بهذه الجريمة أيما عناية، وأولتها كثيرا من الاهتمام، فكررت النهى عنها، وشددت التنفير منها والنكير عليها، وبينت بوجه خاص حكمها الأخروى، وأفاضت فيه، وحكمها الدنيوى وفصلت أهم نواحيه، وجعلت لها بعد عقوبتها الأصلية وهى «القصاص» عقوبة أخرى تبعية وهى: «حرمان القاتل من ميراث المقتول إذا كان بينهما سبب من أسباب الميراث» ذلك أنها سلب لحياة المجنى عليه، وتيتيم لأطفاله، وترميل لنسائه، وحرمان منه لأهله وذويه، وهى بعد ذلك تحدٍّ لشعور الجماعة الإنسانية الذى فطرت عليه فى اعتقاد أن الحياة حق لكل حى يتمتع به حسب ما قدر له، ولا يجوز لأحد غير خالقه الذى قدر له ذلك الحق ومنحه إياه أن ينتزعه منه، وهى فوق ذلك زعزعة لما ترجو هذه الجماعة من هدوء الحياة واستقرارها، والانتفاع بجميع عناصرها وأبنائها، هى هدم لعمارة شادها الله تتكون منها ومن أمثالها العمارة الكبرى لهذه الحياة.

موقف القرآن من تلك الجريمة المنكرة:

وقد كان من أصرح وأقوى ما جاء فى حكمها الأخروى قوله تعالى فى سورة النساء: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ وقد كان مجىء هذا الوعيد على جريمة القتل فى هذه الآية هكذا مطلقا غير مقيد بالتوبة - كما هو الشأن فى سائر الجرائم، حتى جريمة الكفر - سبيلا لبعض العلماء فى تقرير أن توبة القاتل غير مقبولة متى كان المقتول مؤمنا، وقد روى هذا الرأى عن ابن عباس، وزيد بن ثابت وغيرهما من الصحابة، وجاء فى البخارى عن سعيد بن جبير أنه قال: اختلف أهل الكوفة فى قاتل العمد: هل له توبة؟ فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها، فقال: نزلت هذه الآية: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ...** ﴾ وهى آخر ما نزل فى عقوبة القتل وما نسخها شىء، وقرأت عليه آية الفرقان التى فيها: ﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا...** ﴾ فقال: هذه آية مكية، نسختها آية مدنية ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا..** ﴾ وسواء أصح هذا الرأى وصح أن الآية المدنية ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا...** ﴾ نسخت الآية المكية

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا .. ﴾ أم لم يصح - كما يقتضيه النظر الصحيح فى المقارنة بين الآيتين وأصل نظرية النسخ من وقوعها فى القرآن عامة، وفى آيات الأخبار خاصة التى منها آيات الجزاء الأخروى، والتى بطبيعتها لا تعرض لتكليف ينسخ أو لا ينسخ، وإنما تعرض لبيان ما أعد من الجزاء - سواء أصح ذلك أم لم يصح، فحسبنا فى عظم الجريمة عند الله أن الوعيد عليها جمع الخلود فى جهنم، وغضب الله ولعنته، وإعداد العذاب العظيم، وهو وعيد لم ير مثله فى جريمة أخرى.

والنفس قد ذكرت مطلقة فتعم نفس القاتل ونفس غيره، وعليه فمن قتل نفسه كان عند الله كمن قتل غيره، وقد صور النبى - ﷺ - جزاء من يقتل نفسه فيما يرويه عنه أبو هريرة: «من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بسم فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو متردٍ فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا» وأحاديث الانتحار - وهو قتل الإنسان نفسه - كثيرة مروية فى صحاح الأحاديث، ومنها يتبين أن النفس فى الآية تعم نفس القاتل ونفس غيره، فكلتاهما نفس حرمها الله وحرم قتلها.

وقد تكلم الفقهاء على معنى القتل، وكان لهم فى ذلك آراء ومذاهب، وقد لخصناها ووازنا بينها وبينّا الرأى فيها فى كتابنا «الإسلام عقيدة وشريعة» فصل «القصاص» من باب «العقوبات».

معنى «حرم الله»:

أما قوله تعالى: ﴿ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ فلنا فى تفسيره وجهان:

أحدهما: أن المراد به التحريم التشريعى الذى نزلت به الشرائع السابقة، وقد تناولت التوراة جملة من صور القتل، وبينت ما يستوجب القصاص وما لا يستوجبه، وجاء بها أن القتل أكبر الذنوب وأعظم الجرائم عند الله، وجاء فى القرآن عما كتبه الله على بنى إسرائيل: ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وقص ما جاء عنه فى التوراة: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ والقصد من التنبيه بقوله: ﴿ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ على هذا التحريم الشرعى السابق، هو الإشارة إلى أن حرمة النفس البشرية قديمة فى الشرائع السماوية، وأنها شرع عام لم يخص أمة دون أمة، ولا جيلا دون جيل، وإنما هو شرع الله منذ عرفت الأرض تشريع السماء.

حرمة النفس الإنسانية طبيعية بمقتضى الخلق:

أما ثانى الوجهين الذى نفسر بأحدهما تحريم الله للنفس، فهو التحريم بمعنى العصمة الطبيعية التى ثبتت للإنسان بمقتضى خلقه نوعًا عاقلا مفكرًا عاملا فى الحياة، خليفة فى عمارة الكون. ولا ريب أن الخلق على هذا النحو وتلك الغاية يقضى أن يكون للإنسان مناعة وعصمة يكمل بها حقه فى التمتع بالحياة، ويقوم بنصيبه فى عمارة الكون، وأن ثبوت ذلك الحق له يمنع غيره - الإنسان مثله - الاعتداء عليه بما يقطع عليه حياته أو يفسدها، وقد يشير إلى هذا الوجه ما يحكيه الله على لسان المقتول من ولدى آدم: إذ يقول لأخيه - وقد رأى منه التصميم على قتله -: ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

أدرك ولد آدم أن القتل إثم، وأن خوفه من الله يمنعه أن يمد يده إلى أخيه، وقد كان ذلك قبل أن يشرع الله لبنى إسرائيل ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وعلى هذا الوجه يكون المعنى: أن النفس التى ينهى الله عن قتلها معصومة بمقتضى الخلق والإيجاد، وأن حرمتها قارة فى النفوس ثابتة فى العقول، ليست مكتسبة من شرائع، ولا يتوقف العلم بها على رسالات، بل هى شأن يدركه الإنسان بفطرته متى عرف قيمته فى الحياة، وأدرك سر الله فى إيجاده وخلقه، وما النهى عن قتلها ونزول الشرائع به إلا تأييد لما استقر فى الفطر واستجابة لنداء الحكمة الإلهية، وصون لسر هذا الوجود المنبعث من خلق الإنسان وإيجاده، وتقرير للقانون الطبيعى الذى يكفى مجرد العقل فى معرفته والإيمان به.

وإذن فالشرائع فى جريمة القتل وأمثالها - مما تدرك قبحه الفطر - مؤيدة ومؤكدة. لا مثبتة ولا منشئة.

وهذا التقرير - الوجه الثانى فى معنى التحريم - يرشد إرشادًا واضحًا إلى أساس ما يعتمده العلماء من أن الأصل فى النفوس هو الحرمة، وأنها لا تباح إلا بحل طارئ على ذاتها تقترفه بطغيانه وهواها، وأنها فى ذلك على عكس الأموال، فإن الأصل فى الأموال هو الإباحة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾.

ومن هنا قرر العلماء أن سبق الاستيلاء ووضع اليد سبب من أسباب الملكية، أما حرمة الأموال فهي طارئة بتقرير الملكية الخاصة المبنية على أسباب وراء الخلق والإيجاد، وكان من فروع اختلاف النفوس والأموال في هذا الأصل، أن من أكره على قتل غيره بقتل نفسه، أو أصيب بمخمصة ولم يجد ما ينقذ حياته إلا أن يأكل طفلا، وجب عليه أن يصبر حتى يقتل هو أو يموت، ويحرم عليه إحياء لنفسه قتل غيره أو أكله، وأنه إذا أكره على إتلاف مال الغير، أو دفعته مخمصة إلى أكل طعامه بغير إذنه، فإنه يحل له الإقدام على ما أكره عليه أو اضطر إليه من إتلاف المال أو أكله.

الكفر وحده لا يبيح الدم:

ويرى بعض العلماء أن معنى تحريم الله للنفس، عصمته إياها بالإسلام أو العهد، ومعنى هذا: أن الأصل في النفس أنها غير محرمة، وإنما تحرم بالإسلام أو العهد، وإذن تكون النفس الباقية على كفرها التي لم تعاهد مباحة يحل قتلها. وهذه مسألة تستدعي النظر: هل الكفر بمجرده يبيح الدم؟ أو أن المبيح للدم هو المحاربة والمقاتلة؟ والذين حققوا النظر في هذه القضية خرجوا من بحثها بأن الكفر وحده ليس مبيحًا للدم، وإنما يبيحه الاعتداء. وعليه فلابد من التفسير بأحد الوجهين السابقين: التحريم السماوي السابق، أو التحريم الطبيعي بأصل الخلقة، وعلى كل فليس المراد بالتي حرم التي نهى الله عن قتلها وإلا كان المعنى: أن الله ينهى عن قتل ما نهى عن قتله، إن صح في ذاته، وصح في نهي لاحق بالنسبة لنهي سابق، فلا يصح في أول آية نزلت في هذا المعنى. وإذن فالأوفق والأجزل ما فسرنا به التحريم من أحد الوجهين السابقين.

الحق الذي يبيح الدم:

وقد أرشد قوله تعالى: ﴿إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ إلى أن الحرمة التي قررها الله للنفس إنما هي بالنظر إلى ذاتها وأصل خلقتها، غير منظور فيها إلى ما قد يصدر عنها من أسباب تبرر في الحكمة قتلها، فإن صدر عنها ما يبرر قتلها انسلخت عنها حرمتها، وكان قتلها في هذه الحال قتلا بحق غير محرم ولا منهي عنه.

وقد جاء في القرآن مما يزيل عن النفس حرمتها ويبيح قتلها: قتل النفس عمداً، وهو

المذكور بقوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى** ﴾ وقوله: ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾ ومحاربة الله بالإفساد فى الأرض وهى المذكورة بقوله تعالى: ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض** ﴾ وهاتان حالتان ذكر حكمهما فى التشريع لجماعة المؤمنين، وهناك حالة ثالثة، وهى حالة اعتداء الكفار على حقوق الإسلام والمسلمين، وهى المذكورة بمثل قوله تعالى: ﴿ **فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولائكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا** ﴾ وهذا تشريع للمسلمين بالنسبة للكافرين المعتدين.

وهناك حالات أخرى وردت بها أحاديث، وارتآها بعض العلماء تسلب النفس الإنسانية حرمتها وتبيح قتلها، غير أنها لم تنل إجماع العلماء على هذا النحو الذى نالته تلك الحالات الثلاث: «الاعتداء على النفس. الاعتداء على النظام العام. الاعتداء على جماعة المسلمين».

ومن تلك الحالات: زنا المحصن، وترك الصلاة، ومنع الزكاة، وارتكاب الفاحشة مع الجنس، والسحر الذى يفرق بين المرء وزوجه، وربما يذكر فى كتب الفقه أكثر من ذلك.

مبدآن مهمان:

ويهمنى فى هذا الموضوع لفت الأنظار إلى مبدأين:

أحدهما: أن حرمة النفس الإنسانية أصل ميتقن بنصوص قطعية لا شبهة فى ثبوتها ولا فى دلالتها.

ثانيهما: أن مثل هذه الحرمة لا يمكن أن تنسلخ عن محلها إلا بسبب يُتيقن صدوره عن ذلك المحل، وأن يكون ذلك السبب مقطوعًا بورود النص فى أنه مسقط للحرمة، ومقطوعًا بدلالة النص على ذلك.

وإذن فالأسباب التى لم يتيقن صدورها من شخص لا تسقط حرمة نفسه ولاتبيح قتله، وإذا قتل يكون قتيلا بغير حق، والأسباب التى جاءت بها نصوص غير قطعية، وإن رأى العلماء أنها تبيح، هى كذلك لاتسقط حرمة النفس ولا تبيح قتلها، ومن هنا كانت

إباحة النفس المتيقنة - وهى لا تكون إلا كذلك - قاصرة على خصوص الحالات الثلاث التى وردت بها النصوص القطعية بعد أن تكون أسبابها متيقنة الوقوع على وجه لا شبهة فيه، وهذا هو ما تقضى به الأصول البينة الواضحة للشريعة الإسلامية.

القتل لسبب شرعى خاص بولى الأمر:

ويهمنا أيضًا فى هذا المقام أن نلفت الأنظار إلى أن إباحة النفس لسبب من الأسباب القطعية، إنما هى إباحة خاصة بولى الأمر الشرعى الذى يناط به تنفيذ أحكام الله وشرائعه، وأنها ليست للأفراد، فلا حق لولى المقتول أن يقتل بنفسه القاتل، حفظًا للنظام العام، ووقوفًا بالجزاء عند حده وهو القصاص وقد كان هذا سر مجىء جزاء القتل بعنوان القصاص ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ مخالفًا فى ذلك العبارة العربية المأثورة عن الجاهلية فى هذا المقام: «القتل أنفى للقتل». نعم للأفراد الحق فى تلك الإباحة بالنظر فى حالة الاعتداء عليهم أو على أموالهم أو أعراضهم بالشرط المعروف وهو أن يكون فى حالة تلبس بالجريمة، وألا يجد المعتدى عليه سبيلا للدفاع غير القتل، وقد روى - بالنسبة لرجل يجد أجنبيًا فى حالة تلبس كامل مع امرأته - عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أنه كان يومًا يتغذى، إذ جاءه رجل يعدو وفى يده سيف ملطخ بالدم، ووراءه قوم يعدون خلفه، جاء حتى جلس مع عمر، ثم جاء الآخرون، فقالوا: يا أمير المؤمنين إن هذا قتل صاحبنا، فقال عمر: ما يقولون؟ فقال له يا أمير المؤمنين: إنى ضربت فخذى امرأتى فإن كان بينهما أحد فقد قتلته، فقال عمر: ما يقول؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين إنه ضرب بالسيف، فوقع فى وسط الرجل وفخذى المرأة، فأخذ عمر سيف الرجل وهزه ثم دفعه إليه وقال له: إن عادوا فعد.

الوصية السادسة: رعاية مال اليتيم:

وهذه الوصية السادسة، وهى الوصية الأولى من وصايا الآية الثانية: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ وهى كما نرى تتعلق بمال اليتيم، ومعناها النهى عن قربان مال اليتيم بأى حال من حالات القربان والاتصال، غير حال واحدة: وهى الحال التى هى أحسن ما ينفع اليتيم فى الحال والمآل بالنسبة لنفسه، كتربيته وتعليمه، وبالنسبة لماله، كحفظه واستثماره وإذن، فكل تصرف مع اليتيم، أو فى ماله لا يقع فى

تلك الدائرة «دائرة الأحسن والأنفع» فهو محظور ومنهى عنه، فأكل ماله طمعًا فيه، واستضعافًا له، محرم ومنهى عنه، وتجميده وعدم استثماره بالزراعة أو الصناعة أو التجارة، محرم ومنهى عنه. والإسراف به، ولو عليه، فيما لا يكسبه خيراً، محرم ومنهى عنه، وإهماله وعدم صيانته، بتمكين الناس من نهبه والاستيلاء عليه، محرم ومنهى عنه.

سر تعلق النهى بالقرب دون تعلقه بذات المنهى عنه:

وقد تعلق النهى فى هذه الوصية بالقربان من مال اليتيم دون التصرف فيه بما يفسده، وإن كان هذا هو المراد، نظراً إلى أن المال من الشئون التى تتعلق بها الشهوات، وتميل إليها الأهواء بدوافع نفسية، فاتجه بالنهى إلى هذه الدوافع نفسها، وإلى محاربتها، وإلى العمل على انتزاعها، حتى لا تدفع صاحبها إلى مد يده بالإفساد إلى مال اليتيم. وكثيراً ما يتعلق النهى فى القرآن بالقربان من الشىء، وضابطه بالاستقراء: أن كل منهى عنه، وكان من شأنه أن تميل إليه النفوس، وتدفع إليه الأهواء جاء النهى فيه عن «القربان» ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل فى النفس مكانة تصل بها إلى اقتراف المحرم، وكان من ذلك فى الوصايا السابقة النهى عن الفواحش، فقد جاء متعلقًا بقربانها لا بفعلها نفسها ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾، ومن هذا الباب: ﴿ **وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** ﴾. ﴿ **فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** ﴾. ﴿ **لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى** ﴾. ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ** ﴾. ﴿ **وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ** ﴾:

أما المحرمات التى لم يؤلف ميل النفوس إليها، ولا اقتضاء الشهوات لها، فإن الغالب فيها أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه، ومن ذلك فى الوصايا السابقة، الشرك بالله ﴿ **أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ﴾ وقتل الأولاد ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم** ﴾ وقتل النفس التى حرم الله ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ** ﴾ فإنها وإن كان الفعل المنهى عنه فيها أشد قبحًا وأعظم جرمًا عند الله، من أكل مال اليتيم، وفعل الفواحش، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية يميل إليها الإنسان بشهوته، وإنما هى فى نظر العقل على المقابل من ذلك، يجد الإنسان فى نفسه مرارة من ارتكابها، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها، أو فى حكم الكاره، ولعل منشأ ذلك أن دلائل التوحيد - بالنسبة للشرك مثلا - مطبوعة فى النفوس البشرية ليس من السهل أن تتحلل منها، ولا من مقتضاها، فتكفر بها وتشرك بالله، وانظر

إلى التعبير فى قوله تعالى بالنسبة للشرك: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ وكذلك قتل النفس مع وجود دواعيه ولا يقدم عليه الإنسان إلا بمحاولة نفسية عنيفة، يتردد ويتقدم ويتأخر، ويقع من تردده وإقدامه فى حيرة واضطراب، أيفعل ويشفى نفسه، أم يعدل ويستريح؟ يقع فى نزاع بينه وبين نفسه، وفى ظلمة هذا النزاع النفسى يقدم على الجريمة فيرتكبها ثم لا يلبث أن يعود إليه شيء من الرشد، وحكم العقل، فيندم ويشتد ندمه، وانظر فى ذلك تصوير القرآن وتعبيره عن هذه المحاولة النفسية التى تملك على الإنسان قلبه وشهوته، وبالنسبة لأول جريمة قتل وقعت بين أولاد آدم: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ هذا تعبير المقتول، وعن مكافحته فى إرادته لضميره: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ﴾ ثم انظر إلى التعبير عن مآله وحسرته، وما ارتطم فيه من الندم: ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾.

وكان من آثار هذا الفرق الذى نحسه بين ما يتعلق النهى فيه بالقربان من الفعل، وما يتعلق فيه بنفس الفعل، أن الدنو من المكروه النفسى بالتفكير فيه ومحاولة فعله لا يلزمه أن يصل بالإنسان إلى ارتكابه، وذلك لعدم ميل النفس بطبعها إليه، وليس كذلك الدنو بالتفكير فيما تشتهيه النفس وتميل إليه، كالمال والفواحش، فإن الفعل يتبعه فى غالب أمره، ولا يتخلف عنه إلا برادع خاص لا يتفق لكثير من الناس، ولا فى كثير من الأحوال. ومن هنا يظهر السر البلاغى الحكيم فى مجيء النهى عن الشرك وأمثاله متعلقًا بنفس الفعل، ومجيء النهى عن المال والفواحش متعلقًا بالقربان منهما، وعلى أساس من هذه النظرة الفطرية أو التى تشبه أن تكون فطرية، نستطيع إدراك الحكمة فى المغايرة بين أسلوبى النهى فى الجانبين.

عناية القرآن باليتيم ومظاهرها:

وبعد، فقد عنى القرآن الكريم بشأن اليتيم عناية كبيرة: عنى به من جهة ذاته، فنهى عن

ازدرائه وإهانته، وجعل ازدراءه علامة من علامات التكذيب بيوم الدين: ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ** ﴾. وعنى به من جهة ماله واستثماره، ومن جهة تربيته وتعليمه، وتمرينه على التصرف حتى يبلغ أشده وقوته، ولقد ظهرت تلك العناية فى مكى القرآن ومدنيه: ظهرت فى المكى حينما عاد الوحى إلى النبى ـ ﷺ ـ، بعد أن فتر عنه مدة توجس منها أن يكون الله ودعه وقلاه، فاجأه الوحى على هذه الفترة وعلى هذا التوجس، مؤكداً له حسن رعاية الله إياه وأنه ما ودعه وما قلاه، وأخذ يثبت ذلك فى نفسه، يذكره بعنايته به قبل النبوة وهو باليتم أحوج ما يكون إلى العطف والإيواء: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى** ﴾. ثم يلفت نظره إلى جلال تلك النعمة: نعمة العطف عليه وهو يتيم، ويطلب منه شكرها، وأن يكون هذا الشكر من نوعها: ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ** ﴾. وظهرت فى المكى أيضًا فى سورة الماعون، وفى هذه الوصايا العشر التى نتحدث فى ضوئها. ولقد تأثرت نفوس القوم بهذه الوصايا المكية التى جاءت فى شأن اليتيم، وصاروا من أمره فى حرج، أيتركونه ولا يتصلون بشىء من أمره، اتقاء للوقوع فى الحرج، فيفسد شأنه، ويختل حاله، أم يقومون عليه، ويعزلونه من أبنائهم فى مأكله ومشربه، فيشعر بالذلة والمسكنة ويكون هو الازدراء نفسه؟ أم ماذا يفعلون؟

توجهت نفوسهم إلى ما ينقذهم من تلك الحيرة، ويحفظ لليتيم عزته، ويخفف عنهم عبء هذه المسئولية التى قدروا وقوعهم فيها إذا اتصلوا به وباشروا شئونه، عندئذ نزل قوله تعالى فى سورة البقرة المدنية: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ ثم تأتى سورة النساء، فتعنى عناية خاصة باليتيم فى شأنه كله، ولقد عرضنا هناك إلى تكافل الأمة ومسئولية بعضها عن بعض، ومسئوليتها بوجه خاص عن اليتامى، كما عرضنا لعناية القرآن بتقوية أخلاق اليتامى وإحسان تربيتهم، وإلى العلاقة التى يجب أن تكون بين الوصى واليتيم. وقلنا فى آخر الفصول المتعلقة باليتيم: (وقد كانت هذه الآيات الواردة فى شأن اليتيم والسفهاء أساسًا لقانون المجالس الحسبية، التى وكل إليها إقامة الأوصياء على اليتامى والسفهاء، ومحاسبتهم على تصرفاتهم فى الأموال التى أقيموا عليها).

وختمنا تلك الفصول بهذه الآية الرادعة عن إهمال شأن اليتيم، وهى قوله تعالى:

﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً**

سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

الوصية السابعة إيفاء الكيل والميزان:

تضمنت الوصية السابقة النهى عن أكل مال اليتيم، وهو ينشأ عادة عن استضعاف اليتيم وعجزه عن المحافظة على ماله . ثم جاءت الوصية السابعة، وهى المذكورة بقوله تعالى : ﴿ **وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ متضمنة النهى عن أكل أموال الناس عن طريق المبادلة المالية بنقص الكيل والميزان، اللذين اتخذهما الناس معياراً للعدل بينهم فى التعامل العام، ولا ريب أنه شأن له خطره فى الحياة الاجتماعية، والمعاملات التى لا غنى للناس عنها، لأنه أكل فى ظل صورة من العدل، ظاهرها الكيل والميزان، وباطنها انتقاص الحقوق والخديعة فى استلاب الأموال .

وإذا كان السارق بجريمته لا يجد شيئًا يستتر به فإن منتقصى الكيل والميزان يرتكبون جرائمهم باسم المعاملة، وباسم معيار العدالة، فجريمتهم أشد إثمًا عند الله وأعظم وزراً : ولولا سنة التعامل العام لكان قطع اليد هنا أحق وأولى .

التطفيف علة قديمة:

والطمع فى الأموال عن طريق الكيل والميزان علة قديمة مزمنة، عرفها أرباب الطمع والشره منذ عرف الناس البيع والشراء، وقد قص الله سبحانه وتعالى علينا من أنباء الأمم أنه أهلك قوم شعيب بما تفشى فيهم من الظلم بأكل الأموال عن طريق التطفيف فى الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم، واقرأ فى ذلك قوله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا** ﴾ .
وانظر كيف يأتى هذا النهى، وهو النهى عن الإفساد فى الأرض وقد هيأها الله بعناصر الخير والصلاح، بعد الأمر بإيفاء الكيل والميزان، واقرأ فى سورة الشعراء ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**

(١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ . واقرأ مثله أيضًا فى سورة هود .

قص الله علينا ذلك كله المرة بعد الأخرى عن قوم شعيب، وبه كان الأمر بإيفاء الكيل والميزان أصلا من أصول الرسالات الإلهية السابقة، شأن هذه الوصايا العشر كلها، وقد جاء الأمر به فى سورة الأنعام كما نرى، كما جاء فى سورة الإسراء: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ .

سورة المطففين:

وقد جاء فى القرآن سورة خاصة ترشد إلى نكال هؤلاء الذين يعيشون بحقوق الناس عن طريق المبادلات التى لا بد منها فى الحياة، والتى يكون الانتقاص فيها والسلب عن طريقها انتقاصًا للحياة كلها، وسلبًا لعوامل الأمن والطمأنينة، وقد سميت هذه السورة بسورة المطففين: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أما قوله تعالى: ﴿ بالقسط ﴾ فمعناه: أوفوا الكيل والميزان لا رغبة ولا رهبة، وإنما أوفوه بدوافع القسط الذى يملك عليكم قلوبكم، ويصير خلقًا لكم، تصدرون عنه فى جميع أفعالكم دون تكلف فى وقت دون وقت، ولا حال دون حال، أى ليكن القسط والعدل هو الدافع لكم إلى الإيفاء، فيستمر بكم داعى الخير، وتطبعوا على حب الفضيلة للفضيلة .

الإيفاء مطلوب بقدر الوسع:

ولما كانت الدقة فى الكيل والميزان التى تحقق العدل المطلق، قد لا تدخل تحت كسب الإنسان وقدرته، رفع الله الحرج فى ذلك وذيل الوصية بقوله: ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ فهى ترخيص فيما لا يملك الإنسان ضبطه فى الزيادة أو النقصان . وإذن فإبقاء

الكيل مطلوب بقدر الوسع والاستطاعة، وهذا سير مع سنة الله فى التشريع لعباده، يرفع الحرج، وينفى العسر، وهى قاعدة لها شأن عظيم فى تشريع الإسلام، وقد قررها القرآن فى غير ما آية، وفى كثير من الجزئيات، وفى التكاليف عامة ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ** ﴾ وكان لهذه القاعدة أثرها الواضح فى العبادات والمعاملات، وهى أثر من آثار رحمة الله بعباده.

الوصية الثامنة ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾:

كانت الوصية السابقة الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط الذى يدخل فى مقدور الإنسان واستطاعته، وهو بذلك نوع من العدل الذى اهتم به القرآن وحفل له، وجمع له من الأوامر والترغيبات ما جعله أصلا من أصول الدين وأوامره، وفى هذه الوصية يقصد إلى العدل بوجه خاص، ويسوقه بعبارة مستقلة عامة ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا** ﴾.

العدل فى الأقوال والأعمال:

والقول وإن كان ظاهراً، أو خاصًا فى المتعارف العام بالكلام ينطق به الإنسان، إلا أنه فى واقعه يجرى مجرى الأفعال والألفاظ، وكل ما يدور فى النفس من معان تعلن بالقول، ويتصل أثرها بالحياة، فالشاهد يشهد معبراً عما فى نفسه، والحاكم يصدر حكمه معبرًا عما فى نفسه، والفاعل يصدر فعله معبرًا عما فى نفسه، وإذن فالقول من هذه الجهة يتناول كل ما يعبر به الإنسان عما استقر فى نفسه من أخبار أو أحكام أو إرادات، فإن صح ذلك وأطلق على كل منها «قول» وخوطب أصحابها بكلمة «وإذا قلتم» فذاك، وإلا فلا أقل من أن يلحق غير القول بالقول، ويكون طلب العدل فى الأقوال التى تعبر عن المعانى النفسية، وعن الأفعال المتصلة بالحياة، يقتضى اقتضاء أوليًا طلب العدل فى تلك المعانى وهذه الأفعال.

والعدل فى الأصل معناه: «التسوية» وهى تشمل التسوية بين الناس فى إعطاء الحقوق، والتسوية بين الأقوال والوقائع، وبين الحكم وما تثبته البينة، وبين التصرف وما تقضى به أحكام القوانين والشرائع.

مكانة العدل فى القرآن:

وقد أمر القرآن بالعدل عامًا وخاصًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ وقد طلبه من الشاهد والحاكم والمتصرف، طلبه فى الأسرة، وطلبه فى الزوجات، وطلبه فى الناس جميعًا، طلبه حتى مع الخصوم والأعداء ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ والعدل مطلوب فى القرآن بقدر ما نهى عن ضده وهو الظلم، الذى يرجع إلى حرمان صاحب الحق من حقه، وقد عرض القرآن إلى بعض صلات من شأنها أن تعدل بالناس فى أعرافهم وعاداتهم عن العدل، وطلب مكافحتها فى النفس، وحذر الانحدار فى طريقها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. وقد عرض له بوجه خاص فى اليتامى وتعدد الزوجات ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ فقد أباح تعدد الزوجات إذا كان طريقًا للقسط فى اليتامى، ومنع تعدد الزوجات إذا خيف الجور بينهن، وبذلك كان العدل مبيحًا لتعدد الزوجات، وفى الوقت نفسه كان الخوف من فواته بين الزوجات مانعًا من تعددهن. ولنا أن نأخذ من هذا أن إباحة الله لشيء ما مشروطة بألا يترتب على فعل هذا المباح ضرر أو إيذاء، وأنه إذا صحبه ضرر أو إيذاء وجب منعه، وخرج عن أن يكون مباحًا، وهذه قاعدة تشريعية عامة تعمل عملها فى كل ناحية من نواحى الحياة ونواحى التشريع.

وكما طلب الله العدل فى اليتامى وبين الزوجات طلبه فى معاملة الأبناء، محافظة على تماسك الأسرة، وبعدًا بها عن الانحلال والتفرق، ومن ذلك أنكرت الشريعة على الناس تفضيل بعض الأبناء على بعض فى الإقبال والبشاشة، فضلا عن العطاء والإيثار، وقد تناقل المحدثون فى ذلك الحادثة المشهورة، حادثة تخصيص بشير لولده النعمان بالمنح والعطاء: منحه منحة لم يمنح سائر أولاده مثلها، فقالت له زوجته: لا أرضى بهذه العطية لولدى حتى تشهد عليها رسول الله، فذهب إلى الرسول ليشهده عليها، فسأله الرسول: أأعطيت كل ولدك مثل ما أعطيت النعمان؟ فقال: لا يا رسول الله، فأمره الرسول بالرجوع فى العطية، وقال له: إنى لا أشهد على جور. وقد روى هذا المعنى بتعبيرات

مختلفة، منها بعد هذا: «لا أشهد إلا على حق»، «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»، «إن لبنيك عليك حقًا أن تعدل بينهم، كما لك عليهم حق أن يعدلوا لك فى البر»، «أيسرك أن يكونوا لك فى البر سواء؟ قال: نعم. قال الرسول: فلا إذن»، وبذلك رجع بشير فى عطيته.

وكذلك طلب القرآن العدل فى كتابة الوثائق التى بها تحفظ الديون وشروط الالتزام، وأنزل الله فى ذلك أطول آية فى القرآن: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ**﴾ ثم يقول فى ثمرة هذه الأوامر التى تتلاقى كلها عند العدل وطلبه: ﴿**ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا**﴾.

وهكذا عرض القرآن للعدل فى كثير من الجزئيات، وحث عليه بأساليب مختلفة حتى وصل به إلى أن جعله الغاية من إرسال الرسل إلى الخلق، وإنزال الكتب عليهم: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾.

ثم لا يقف عند هذا الحد، وهو: ﴿**لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ بل يوحى بأن القسط مطلوب ويجب العمل على إقراره وتعميمه، ولو أدى ذلك إلى استعمال القوة واتخاذ الحديد آلة للسير بالناس فى طريق العدالة والمساواة، وانظر قوله بعد ذلك: ﴿**وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ وإذن، فالعدل هو الطريق الذى يطلبه الله فى نصرته ونصرة رسله، وتحقيق حكمته فى إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومعنى هذا أن العدل فى نظر القرآن - كما هو الواقع المحس - عماد الخير والصلاح، وعماد النظام وتمام الملك والسلطان، فلا نظام إلا بالعدل، ولا أمانة إلا بالعدل، ولا شرائع إلا بالعدل، ولا حكمة ولا رحمة إلا بالعدل، فالعدل هو غاية الغايات، وهو الأساس أو العماد الذى شاد الله عليه الكون، ليس فى الإنسان مع الإنسان فقط، وإنما فى الإنسان مع نفسه، وفى الإنسان مع ربه، وفى الإنسان مع أسرته، وفى الإنسان مع أمته، وفى الإنسان مع البشر جميعًا، وفى الإنسان مع كل ما فى الكون من جماد، ونبات، وحيوان.

هذه هى مكانة العدل فى الإسلام، وكثيراً ما حكى القرآن عن مصير الأمم التى حرمت من إدراك معنى العدل، وتفشى فيها الظلم حتى أدركها الفناء.

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ فهو أخذ بالإنسان عما جرت به عادته من التأثر بصلات القربى فى المحاباه للأقرباء والظلم لغيرهم.

الوصية التاسعة: ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾:

وإذا كان شأن العدل فى القرآن هو ما رأينا فى الوصية السابقة، فإن أساسه يرجع إلى شىء واحد، وهو الوفاء بعهد الله. ولله مع عباده عهود يجب الوفاء بكل واحد منها، وقد صورت لنا فى القرآن أنواع كثيرة من هذه العهود: أخذ الله العهد على الناس أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ وأرشد إلى أن هذا العهد قد أخذ على الإنسان بما أودع فيه من العقل، وبما ركب فيه من قوى الإدراك، وبين له من مناهج الخير والشر، ونصب له من الدلائل والأمارات. ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ وأخذ الله العهد على الأنبياء باعتبارهم رسل هداية ودعاة إصلاح، يعد السابق منهم للاحق، ويبنى اللاحق منهم على أساس السابق. ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ وهذا العهد فى واقعه ليس خاصاً بالأنبياء بعضهم مع بعض، وإنما هو عهد لكل من خصصه الوجود للقيام بطرف من مسئوليات الأنبياء، وقام بشىء من وظائفهم، فهو عهد المصلحين للمصلحين، عهد الله على اللاحقين منهم أن يسيروا فى طريق السابقين، وأن يكونوا يداً واحدة، وقلبًا واحداً، واتجاهًا واحداً فى سبيل الإصلاح، يؤمنون به جميعًا ويتعارفون عليه جميعًا، ويقر آخرهم عمل أولهم فيه، وهو عهد يقضى أن يكون للإصلاح خطة معلومة مرسومة، منشؤها أحكام الله وشرعه، يتناقلها الخلف عن السلف، ويتممها الخلف بعد السلف. ويناقض هذا العهد أو يقطعه أن يكون كل مصلح أمة فى نفسه، وحزبا برأسه، يستأنف ولا يبنى، ويهدم ولا يشيد، وذلك مفسدة للرأى، ومضيعة للخير، ونقض لعهد الله.

عهد الله للعلماء:

وأخذ الله العهد على الذين آتاهم الكتاب، ومنحهم فضل بيانه وتعليمه، أخذ عليهم العهد بالبيان بالقلم، باللسان، بكل وسيلة من وسائل الإعلام. أخذ عليهم العهد بالبيان، وتوعدهم على الكتمان، كما توعدهم على التحريف وسوء التأويل، وسبيلهم فى هذا العهد أن يذكروا للناس ما نصت عليه شريعته، وأن يجتهدوا فى معرفة حكمه بالنسبة لما لم يرد به نص. فخيانة العهد إما بكتمان ما ورد، أو بالجمود وقبض الفكر عن بيان ما لم يرد، واقرأ فى ذلك كله قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾. وليس ما بينه الله فى الكتاب خاصًا بالأحكام الجزئية التى وردت أعيانها فى الكتاب، كتحريم الخمر، وتحريم الزنا، ووجوب الصلاة والزكاة، وإنما يشمل ما بينه الله فى الكتاب: ما ذكر فى الكتاب على وجه الخصوص، وما ذكر فى قواعد التشريع العامة التى تؤخذ من جملة المنصوص عليه فى الكتاب، وعليه، فمن كتم الحق خوفًا من الناس أو طمعًا فيهم فهو ملعون، ومن بدل حكم الله رغبة فيما عند الناس أو رهبة منهم فهو ملعون، ومن وقف عند حد المنصوص ولم يستخدم مواهبه فى تطبيق القواعد التشريعية على ما جد من أحداث ونوازل وقال كفانا ما بين الأوائل، وفسح بذلك المجال للطعن فى الشريعة وأحكامها لمن يزعم قصورها عن أحكام ما يجد فى العالم، وأنها بهذا الوضع، وبهذا الجمود تكون غير صالحة إلا لعصرها الذى نزلت فيه؛ وصرحت بأحكام واقعاته ونوازله - من يقف هذا الموقف فهو فى حكم الكاتم الملعون، وعلى العموم فلله كما قلنا عهود، وأعمها العهد الذى أخذه على الناس جميعًا أن يوحدوه، وألا يشركوا به شيئًا، وأن يعملوا بشرائعه وأحكامه، وأن يقوموا بما تعاقدوا عليه من ارتباطات والتزامات على أساس من أحكام الله وشرعه ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾. ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا** ﴾. ﴿ **وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾.

الوصية العاشرة: اتباع صراط الله المستقيم:

أما الوصية العاشرة فهى الوصية العامة التى تتناول جميع أحكام الله وشرعه، وقد

أطلق الله فيها على دينه وشرعه كلمة: ﴿**الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ وقال: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ وشرع الله ودينه وحدة قائمة فى الوجود متميزة بذاتها، وحكمها وأسرارها واضحة جلية تتلقاها العقول عن الطبيعة البريئة من ظلمات المادة، ومن تقاليد الأهواء، وتتلقاها عن الوحى فى الرسالات والكتب ظاهرة ليست بخافية، بارزة ليست بمستترة، وبذلك أخذت حكم المحس المشاهد، وقيل فيها: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا**﴾ والصراط المستقيم معناه: الطريق الذى لا التواء فيه ولا انحراف، المعبد لسالكه، وهو أقرب ما يصل به الإنسان إلى مقصده دون بطء أو تعويق. ولما كان شرع الله فى الوصول إلى غايته بهذه المثابة أطلق عليه: ﴿**الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ والصراط المستقيم ورد كثيراً فى القرآن عنوانًا على شرع الله ودينه، وأضيف تارة إلى الله كما فى هذه الآية، وكما فى قوله: ﴿**وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا**﴾ وأضيف أخرى إلى الذين التزموه وساروا على مقتضاه، حتى نعموا بفضله ومزاياه وخلد ذكرهم فى الآخرين: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾.

وقد طلب الله من الناس أن يتبعوه، واتباعه: التزام أحكامه والعمل بما فيه. وهو «الاستقامة» التى أمر الله بها عباده، وأمر بها على وجه خاص نبيه: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ وهو يشمل: العقيدة، والخلق، والعمل. وكما طلب اتباعه نهى عن اتباع ما عداه. وفى التعبير عنه بضمير الواحد، والتعبير عما سواه بالجمع إيحاء إلى أن الحق واحد لا تعدد فيه، أما الباطل فذو صور شتى وأنحاء متعددة؛ فالحق منبعه الواقع، ومصدره الله، والباطل منابعه النفوس، ومصادره الأهواء والشهوات، يأتى من الأهواء تحت ضغط السلطان، وتحت ضغط العصبيات وضغط الحسيات، وضغط الجاه، وضغط الطغيان، وما إلى ذلك. وقد كان المسلمون وحدة فى العقيدة، والخلق، والمعاملة، والسلطان، والعدل، والمكانة يوم أن كان صراطهم نابعًا من الواقع، ومرسومًا من السماء، فلما غيروا وبدلوا غير الله عليهم وبدل، فتعددوا، وتنافسوا، وتكاثروا، وهبطت عزتهم، وتحطمت شوكتهم، وصاروا كما قال الرسول: «غثاء كغثاء السيل»، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تعددت مذاهبهم وفرقهم، وكثرت فتنهم، فتعددت بهم السبل، وتفرقت بهم الكلمة، وحدثت فيما بينهم ثغور استطاع الخصوم أن يلجوا منها إليهم، فضاعفوا تفرقهم، وأخذوا بهم بعيدًا عن صراط الله المستقيم.

هذا، وقد شرح رسول الله - ﷺ - هذه الآية شرحًا تصويريًا بيده الكريمة فيما يحدث به عبد الله بن مسعود، قال: خط رسول الله - ﷺ - خطًا بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيمًا» ثم خط خطوطًا عن يمين هذا الخط وعن شماله، ثم قال: «وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ الآية كلها: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾.

وبعد، فأين المسلمون اليوم حينما يسمعون هذه الآية ثم ينظرون إلى ما هم فيه من تفرق فى الآراء والأحكام والسلطان، ومجافاة لأحكام الله، وبغض لما لا يتفق وأهوائهم منها، ومن الارتماء فى أحضان غيرهم وموالاة الأعداء. أين يضعون أنفسهم حينما يسمعون هذه الآية، وحينما يسمعون قول الله تعالى بعدها: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾.

وبعد: فهذه الوصايا العشر تضع أساس العقيدة فى توحيد الله، وتبنى الأسرة على أساس من الخلق الفاضل بالإحسان إلى الوالدين، وتحفظ الاجتماع بحرمة الأنفس والأعراض والأموال والنظام العام، ثم تربط التقوى العامة المطلقة التى هى منبع كل خير، وسبيل كل فلاح بالتزام صراط الله المستقيم. فاللهم اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم، ولا الضالين.

ســـورة الأعـــراف

- مقصد سورة الأعراف؛ وأساليبها فى الدعوة.
- الوزن والميزان ومواردهما فى القرآن وما يراد بهما.
- الموازنة بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين.
- النداءات الأربعة التى اختصت بها السورة «يا بنى آدم».
- كلام المفسرين فى الحجاب والأعراف وأصحاب الأعراف والرأى الذى نختار.
- التنادى بين أصحاب الجنة وأصحاب النار.
- موقف المكذبين من الرسل، ومصيرهم فى الدنيا.

(٧) سورة الأعراف مكية
وآياتها ست ومائتان

معلومات عامة:

سورة الأعراف هي السورة السابعة فى الترتيب المصحفى، وهى إحدى السور التى بدئت ببعض حروف التهجى ﴿ المص ﴾، ولم يتقدم عليها من هذا النوع سوى ثلاث سور هى: ن، ق، ص - ويبلغ عدد السور التى بدئت بحروف التهجى تسعًا وعشرين سورة - وهى أول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم، وأطول سورة فى المكى، وهى أول سورة عرضت لتفصيل فى قصص الأنبياء مع أممهم، وقد نزلت بين جملتين من السور المكية: يكثر فى الجملة التى نزلت قبلها السور القصيرة التى تعرف بسور «المفصل»، ويكثر فى الجملة التى نزلت بعدها السور المتوسطة التى تعرف بسور «المثين».

مقصد السورة:

وتقصد سورة الأعراف إلى ما تقصد إليه كل السور المكية، وهو تقرير أصول الدعوة الدينية: توحيد الله فى العبادة والتشريع، وتقرير البعث والجزاء، وتقرير الوحى والرسالة بوجه عام. وتقرير رسالة محمد - ﷺ - بوجه خاص. وتلك هى أصول الدعوة الدينية التى كانت لأجلها جميع الرسالات الإلهية.

وفى توحيد الله بالعبادة جاء فيها قوله تعالى حكاية لتبليغ الرسل أقوامهم: **﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾**. وقوله: **﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾**.

هذا هو ربكم فيجب أن تعبدوه وحده فلا يكون لكم إله غيره **﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا**

وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ومن الاعتداء دعاء غيره أو الدعاء دون الأخذ فى الأسباب، والإغشاء جعل الليل يغشى ويغطى النهار ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾.

وقوله تعالى إرشاداً إلى أن التوحيد شأن تدعو إليه الفطرة التى خلق الإنسان عليها، وما أودع فى الكون من آيات هى فى وضوح دلالتها على التوحيد بمثابة عهد وإقرار أخذه الله على الناس فى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته وذلك قوله تعالى فى الآيات ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

وقوله فى التهكم بمن عبدوا ما لا يضر ولا ينفع ولا يبصر ولا يسمع: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾.

وهذه الآيات كما نرى من أقوى وأوضح ما يلزم المعاندين الحجة فى انحرافهم عن دعوة الحق، وهى عبادة الله وحده، وفى التهكم بهم والإنكار عليهم ـ فى عبادة ما يعبدون من أحجار وأصنام ـ أنكرت عليهم الشرك، وقررت فى ذلك أن الذين اتخذوهم شركاء لله ـ الذى خلقهم ورباهم وأنعم عليهم بقوى العلم والإدراك ـ لا يخلقون، وإنما يخلقون، فكيف يعبدون؟ وقد لا يكون الشىء قادراً على الخلق ومع ذلك يقدر أن يمد يد المعونة والنصرة إلى غيره، فأردف الأولى بقوله: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ فنفى قدرتهم على مد يد المعونة بعد أن نفى قدرتهم على الخلق، وقد لا يستطيع الشىء المخلوق نصر

غيره، ولكنه يستطيع نصر نفسه، فأردف بقوله: ﴿ **وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ** ﴾ فنفى قدرتهم على نصرة أنفسهم بعد أن نفى قدرتهم على نصرة غيرهم، وقد لا يستطيع نصر نفسه ولا نصر غيره، ولكن يتبع الهدى إذا دعى إليه، فقفى بنفى ذلك أيضًا عنهم ﴿ **وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ** ﴾ وأكد عدم اتباعهم الهدى عند الدعوة إليه باستواء حالتى الدعوة والصمت عندهم، فكما لا ينتظر منهم سمعًا إذا سكتم عن دعوتهم، لا ينتظر منهم سمعًا إذا دعوتموهم ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ** ﴾. افترض أن لهم شيئًا مما ذكر من النصر أو اتباع الهدى، وبين أنهم لا يخرجون بهذا عن أن يكونوا فى مستوى عابديهم ومماثلين لهم، لا يقدرون على ما لا يقدرون عليه، ولا يعلمون ما لا يعلمون ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ وإذن، فليسوا أمثالكم؛ لأن شأنكم أن تستجيبوا وتسمعوا لمن يدعوكم وهم ليس من شأنهم أن يستجيبوا لداعيهم. وأخذ يبرهن على نزول الشركاء عن مرتبة المماثلة للمشركين فقال: ﴿ **أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾ والمعنى: أن المعبود الذى تعنو له الوجوه، وتتجه إليه القلوب، ويناجى ويسأل، هو القادر، العالم، الذى لا يعجز قدرته شىء، ولا يغيب عن علمه شىء. وهؤلاء الشركاء قد فقدوا أضعف الوسائل العادية للقدرة والعمل، من الأيدى والأرجل، كما فقدوا أضعف وسائل العلم العادية أيضًا، من الأعين والآذان. وقد حصلتم أنتم - أيها المشركون - على تلك الوسائل، فكان لكم أرجل بها تمشون، وأيد بها تبطشون، وكان لكم أعين بها تبصرون، وآذان بها تسمعون، وبذلك كنتم أعلى شأنًا منهم فكيف تعبدونهم؟ وكيف تسألونهم؟ وإذن، ليس لكم إذا ما تمسكتم بهذا الوضع بالنسبة إليهم، إلا أن تدعوهم، وتجمعوا الرأى معهم للكيد بمن يدعوهم إلى الهدى ﴿ **قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ** ﴾. ﴿ **مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** ﴾ وهذا نهاية فى التبكيت على عدم الاكتراث بهم وبمعبوداتهم وكم لله فى كتابه من آيات ودلالات تطأطئ لها الرءوس إكبارًا، وتخر لها الجباه روعة وجلالا.

وفى توحيد الله فى التشريع، وفى أنه لا يأمر إلا بما هو حسن صالح، جاء فى السورة قوله تعالى، تفنيدًا لتحريم القوم على أنفسهم وعلى الناس زينة الحياة الدنيا والطيبات من

الرزق، وإبطالا لقولهم - تلبيسًا على الناس وإضلالا لهم إذا فعلوا الفاحشة: ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ جاء ردًا على ذلك كله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾.

وفى تقرير البعث والجزاء وتقريبه لعقولهم بما يعرفون فى أنفسهم وبما يرون من إحياء الأرض بالنبات جاء قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾. وتقول فى استبعادهم أمر الساعة واستبطائهم أمر الآخرة: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

وفى الرسالة بوجه عام جاء قوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾. وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾. وقوله: ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾. وقوله إرشاد إلى سنة الله التى يبنى عليها تنظيمه لخلقه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾. وقوله حكاية لقول الرسل السابقين لأقوامهم: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾. وقوله: ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾.

وهكذا إلى سائر ما تضمنته آيات القصص فى هذه السورة، وقد جاء فيما يتعلق بالرسالة فى هذه السورة قوله تعالى حكاية عما ينطق به أهل الجنة بعد أن يدخلوها فرحًا

بإيمانهم، واستبشاراً بمكانتهم ﴿ **لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** ﴾ وحكاية عما ينطق به أهل النار ويسجلونه على أنفسهم بعد أن يدخلوها، حسرة على ما فاتهم من إيمان، وما وقع منهم من تكذيب، وما قابلوا به الرسل من إعراض: ﴿ **قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** ﴾.

وفى رسالة محمد على وجه خاص جاء قوله تعالى فى أول السورة: ﴿ **كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾. وقوله: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** ﴾. وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾. وقوله: ﴿ **إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾. وقوله: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾.

الدعوة:

هذا مقصد سورة الأعراف، وهو كما قلنا مقصد كل السور المكية، وقد أجملت السورة دعوتها إلى هذه الأصول، وإلى كل ما تضمنه القرآن الكريم فى آية واحدة جاءت فى أولها، ووجه فيها الخطاب إلى كل من يصلح للخطاب، مشتملة على الأمر بالجانب الإيجابى وعلى النهى عن الجانب السلبى، وهى قوله تعالى: ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم. ولا تتبعوا من دونه أولياء** ﴾ طلبت اتباعهم ما أنزل إليهم ممن تولى تربيتهم خلقًا وتنمية، وإرشادًا وهداية، وقد شمل ذلك العقائد والأخلاق والأعمال، ونهت عن اتخاذ أولياء من دونه سبحانه، يرجعون إليهم فى التحليل والتحريم، أو يقصدونهم بالعبادة والتقديس، أو يعتمدون عليهم فى الشفاعة والمغفرة.

عظمة الكتاب وأثره فى تقوية الرسول:

هذا مجمل الدعوة، وقد مهدت السورة لهذا الإجمال بالإرشاد إلى عظمة هذا الكتاب الذى احتواها، وإلى الغاية التى لأجلها أنزل، وإلى ما يجب على الرسول أن يتدرع به

ليقوم بالمهمة التى ألقيت عليه كما أراد الله : ﴿ **كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

وقد كان المشركون يرمونه - ﷺ - بأنه ساحر مجنون ، وأن له تابعًا من الجن يحدثه بما يسميه القرآن ، ويزعم أنه من عند الله ، فأنزل الله كثيراً من الآيات يقرر بها أن القرآن من عند الله ولا يمكن أن يكون من صنع الشياطين فقال تعالى : ﴿ **وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ** ﴾ وإنما هو تنزيل من الله الجامع لصفات الجلال والجمال من الربوبية والرحمة والعزة والعلم والحكمة إلخ . ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ** ﴾ ، ﴿ **تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾ ، ﴿ **تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾ ، ﴿ **تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ** ﴾ ومنه قوله فى فاتحة هذه السورة ﴿ **كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ** ﴾ .

والقصد تقوية قلبه - ﷺ - بأن الذى أنزل إليه هو ربه ، فلا تكترث بما يقولون ولا بإعراضهم عنه ، وأنك لا تسأل إلا مهمتك وهى الإنذار . وقد أجرى ﴿ **وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ خبرًا عن الكتاب ، للإشارة إلى أن المؤمنين يكفيهم وصول الحق إليهم دون عناد ودون توجيه الإنذار إليهم ، ومثله ﴿ **ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ** ﴾ ، ﴿ **وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ** ﴾ ﴿ **وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ ، ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ ، ﴿ **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ أما النفوس الجامدة فلابد لها من الإنذار .

العبرة من نهى الرسول عن الحرج :

والعبرة من ذلك أن الداعى إلى الله ، والقائم على نشر دينه وأحكامه ، يجب أن يكون قوى القلب فى تحمل مهمته ، مطمئن البال على حسن عاقبته ، لا يتأثر بالمخالفة ، ولا يضيق صدره بالإنكار ، كما أنه يجب على اتباعه أن يوفروا له هدوء النفس ، وأن يبعدوا به عما يعكر الصفو ويحرج الصدر ، كى ينشط فى الدعوة ، ويسير فى طريق القيادة ، لا ترده عقبة ، ولا تقعد به كلمة .

أساليب السورة فى الدعوة : أسلوبا التذكير بالنعم ، والتخويف بالعذاب :

وقد سلكت السورة - بعد تحديد الدعوة على هذا الوجه - فى تركيزها وحمل الناس

عليها، وتنبيههم إليها. سبيل التذكير بالنعم، والتخويف بالعذاب، وهما أسلوبان يكثر استخدام القرآن لهما فى الدعوة، وقلما ينفرد فيه أحدهما عن الآخر، وكان ذلك تمشيًا مع طبيعة الإنسان التى قضت أن تكتنفه عاطفة الرغبة فيما يحب، وعاطفة الخوف مما يكره، ثم هما بعد ذلك أسلوبان عامان لجميع الطبقات البشرية، سواء منهم من كان من أهل النظر والاستدلال أم لم يكن من هؤلاء.

أسلوبا الحجة ودفع الشبهة:

أسلوبان آخران هما: أسلوب الحجة يقيمها عن طريق الأمر بالنظر فى ملكوت السماوات والأرض وما أودع الله فى الكون من أسرار وسنن، لا يستطيع عاقل بعد معرفتها إلا أن يردها للخالق القادر، المختار العليم بكل ما فى الكون. وأسلوب دفع الشبه التى يثيرها المعاندون المستكبرون بقصد التشكيك فى الدعوة أو فى جانب من جوانبها، وقد كثر هذان الأسلوبان: ـ أسلوبا الحجة ودفع الشبهة ـ فى السور التى نزلت قبلها. والحكمة فى ذلك: التدرج فى أسلوب الدعوة من العام إلى الخاص، ومما تكفى فيه العاطفة إلى ما يحتاج إلى الفكر والنظر، وهذا شأن درج عليه القرآن حتى فى تشريعه، يبدأ بالسهل اليسير، ثم يسير فى طريق الترقى بعد أن تستعد النفوس، ويفتح لها أبواب القبول، وهو شأن لا بد من مراعاته فى التعليم والتثقيف، وإن البناء على المراحل الطبيعية فى الإنسان لمن أقوى العوامل التى تثمر الثمرات المطلوبة، وتصل بالمصلحين إلى الأهداف المقصودة.

أسلوب التذكير بالنعم: نعمة التمكين فى الأرض:

ولنرجع إلى أسلوب التذكير بالنعم والتخويف بالعذاب، اللذين عرضت لهما هذه السورة: أما التذكير بالنعم فقد لفتت فيه الأنظار إلى ما يلمسونه ويحسونه من نعمة تمكينهم فى الأرض، واتخاذهم إياها وطنًا مزودًا بضروب شتى مما يحتاجون إليه فى معايشهم وما به قوام حياتهم وكمالها، يستقلون فيه بالحكم والتصرف، والانتفاع بموارده الحيوانية والنباتية والمعدنية فى ظاهر الأرض وباطنها، لا يشاركهم فيه أحد، ولا يعكر عليهم فيه أحد صفو الحياة، وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ**

فِيهَا مَعَايِشَ﴾ وهذه نعمة كبرى يجب أن تقدر، وأن تقابل بالشكر والإيمان، ولكن الناس لنشأتهم فيها وتعودهم عليها وشدة الفهم بها ينعمون فيها غير مقدرين لها، ولا عارفين فضلها، ولا شاكرين لربها ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

وقد أشار القرآن في كثير من الآيات إلى سبل المعاش التي جعلها الله للناس في الأرض، فمنها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ البقرة. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ الملك، وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾ نوح. وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ المرسلات، وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ النبأ، وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ عبس. ووجوه المنافع التي جعلها الله في الأرض ترجع على كثرتها إلى نوعين: نوع خلقه الله ابتداء كالحيوان والمعادن، ونوع أقدر الإنسان على تحصيله من مواده التي خلقها كالنبات بالغرس والصناعات وما إلى ذلك.

نعمة خلقهم من أب واحد:

ثم لفتت السورة بعد ذلك إلى نعمة خلقهم من أب واحد، يجمعهم به رحم واحدة، وبه كانوا خلفاء في الأرض وعمارة الكون، وفضلهم بذلك على كثير من خلقه، وهنا ذكرت السورة خلق آدم، وأمر الملائكة بالسجود له إظهارًا لفضله، وتنويهًا بما يكون له من شأن بعد أن سألوا عن الحكمة في خلقه وقد ركبت فيه الشهوة والغضب وبهما يفسد في الأرض ويسفك الدماء. وذكرت السورة موقف إبليس وإباءه السجود لأبيهم وامتثال أمر الله فيه، كما ذكرت قصة تأثر آدم بوسوسة الشيطان وإغرائه إياه بالأكل من الشجرة وكيف

كانت عاقبة آدم فى الهبوط من الراحة والاطمئنان إلى الكد والتعب، وإلى مكافحة عوامل الشر التى بنيت الحياة عليها وعلى ما يقابلها من عوامل الخير، ومطالبة الإنسان بأن يقف مع جانب العقل والرسالة الإلهية اللذين يشدان أزره فى التغلب على عوامل الشر، وهذا شأن يجب أن يفقهه أولاد آدم وأن يتخذوه أساسًا لحياتهم، وبه ينجون من المهالك ويفوزون برضاء الله ونعيمه.

قص الله هذه القصة أكثر من مرة، ومنها ظهر للإنسان عدوه المبين الذى ابتلاه الله به فى هذه الحياة، والذى يجب عليه - ليسلم من شره ويسعد - أن يتخذه عدوًا يتحسس نواياه ويتعرف وسوسته، ويكافحه بكل ما أوتى من قوة، يجب أن يعرف أنه عدو قد نصب له الشباك، وقعد له بالمرصاد، ورسم خطته فى إغوائه والكيد له ﴿ **لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾. بصرنا الله بهذه العداوة، وحذرنا منها: ﴿ **قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ ثم ذكرنا بما كان من أثر عداوته لأبينا آدم وبما كان من آدم من التنبه لكيده، ورجوعه إلى ربه: ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ وعبرتنا من هذا أنه يجب أن نربط نسبنا بأبينا فنعرف كما عرف كيد الشيطان، وأن نطهر أنفسنا من وسوسته كما طهر أبونا نفسه من وسوسته. وقد خلقنا فى الأرض كما خلق الله آدم، وابتلانا بالشهوات وتعارض الرغبات على نحو ما ابتلى آدم، وقام الشيطان بيننا يضل ويكيد، ويفرق ويغرى، ونظم حياته معنا على قوى الإفساد كما فعل كل ذلك مع آدم. وإذن فلنحذره ولنتق شره، ولنعتصم بدعوة الله الواقية التى دعا بها آدم، وفى ذلك كله يقول الله تعالى: ﴿ **اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** ﴾ وقد رتبت السورة على هذه القصة إرشادات أربعة لبنى آدم، وهى بمثابة المغزى لقصة أبيهم مع إبليس، ويبدأ هذا السياق من قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ** ﴾. الآية الحادية عشرة إلى قوله تعالى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ**

النار هم فيها خالدون﴾ . . الآيتان الخامسة والثلاثون والسادسة والثلاثون، وسنعود إلى شرح هذه النداءات الخاصة ببني آدم التي وردت في هذا المقام وبيان ما تضمنته من حكم وأسرار وإرشاد وهداية .

التخويف بالعذاب:

هذا مجمل ما عرضت له السورة في جانب التذكير بالنعم، أما ما عرضت له في سبيل التخويف فهو إنذارهم نوعين من العذاب، إذا هم ظلوا متمسكين بجانب الإعراض والاستكبار عن قبول الدعوة والسير بأنفسهم في طرق الغي والضلال: «أحدهما» دنيوي، مضى وصار تاريخًا يعلمونه ويتحدثون عنه، وهو ما حل بالأمم السابقة حينما كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها . «وثانيها» أخروي يقع في يوم البعث والجزاء وهو ما أعد للمكذبين في دار العذاب . وقد أجملت السورة العذاب الدنيوي في الآيتين الرابعة والخامسة وهما قوله تعالى : **﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون (٤) فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾** . ثم عادت السورة إلى هذا الإجمال بتفصيل طويل بدأ من الآية التاسعة والخمسين **﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾** . وانتهى بالآية الخامسة والسبعين بعد المائة . وهي قوله تعالى : **﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾** إلى قوله : **﴿ ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾** .

وفي هذا التفصيل ذكرت السورة نوحًا وتوجيه دعوته إلى قومه وتكذيبهم إياه إلى أن قالت : **﴿ فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين﴾** ، وذكرت كذلك هودًا وقومه، وما ذكرهم به من نعم الله عليهم، إذ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وزادهم في الخلق بسطة وما كان منهم من التهكم بوعده إلى أن قالت فيما تحكيه عن هود : **﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب . .﴾** إلى أن تقول : **﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾** وذكرت صالحًا وقومه إلى أن قالت : **﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٧٨) فتولى**

عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ .
وذكرت لوطًا وقومه إلى أن قالت : ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين (٨٣) وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ . وذكرت شعيبًا وقومه : ﴿ الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين (٩٢) فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ . ثم ذكرت موسى وفرعون : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ . وقد سبحت فى هذه القصة سبحًا طويلا وبذلك كانت أوسع قصة فى السورة، كما كانت أخطر رسالة لأخطر قوم في الوجود، وختمتها السورة بقوله تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ .

أما العذاب الأخروى فقد أجملته السورة فى الآيات من السادسة إلى التاسعة : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين (٦) فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين (٧) والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ . وسنعرض إلى تفسير ما عرضت له السورة من العذاب الأخروى، ومعنى ما يقع فيه من الحساب والميزان، ومن تخاصم أهل النار بعضهم مع بعض، ومن النداءات المتبادلة بين المصدقين أهل الجنة والمكذبين أهل النار، والفرقة الثالثة التى لم يعرض القرآن لها إلا فى هذه السورة، وهى الفرقة التى أطلق عليها أصحاب الأعراف، والتى باسمها سميت السورة سورة الأعراف . إلى ما نراه فى معنى الحجاب المذكور فى قوله تعالى : ﴿ وبينهما حجاب ﴾ ومقالة الناس فيه .

إلى خاتم الأنبياء:

هذا هو منهج السورة فى تركيز الدعوة عن طريق التذكير بالنعم والتخويف بالعذاب، وقد اتجهت بعد ذلك كله إلى ما يختص بخاتم الأنبياء والرسل محمد ـ ﷺ ـ. وقالت في جانبه، آمرة له بإعلان رسالته عامة شاملة : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. وقالت فى جانب قومه منكرة عليهم إهمال قضية العقل والتفكير فى شأنه - ﷺ -، وهو صاحبهم الذى نشأ بينهم وعرفوه بالصدق والأمانة، والعقل والحكمة، وفى شأن ما يرون من ملكوت السموات والأرض المليء بالبراهين الواضحة فى الدلالة على حقية ما يدعو إليه وعلى صدقه فى الدعوة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾. وفى شأن استبعادهم وقوع الساعة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا..﴾. وفى شأن شركهم، واتخاذهم - مع وضوح الدلائل على توحيد الله - معبودات من دونه سبحانه: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. ثم بعد تبكيت قومه هذا التبكيت الشديد على إعراضهم وتكذيبهم وعبادتهم غير الله، تعود السورة وتتجه إلى النبى - ﷺ -، وترجع إلى ما بدأت به فى أول آية منها، فتقرر ولاية الله له، وإنزاله الكتاب عليه، وترشده إلى التذرع بالصبر، ومكافحة النزغات الشيطانية التى يتسرب إليه الحرج منها، وأن يلتزم ما يوحى به إليه، وأن يكون على ذكر دائم لربه مستحضراً عظمته، ثم تؤكد له أن ما يرشده إليه فى موقفه من ربه هو خطة الملأ الأعلى، الدائم على طاعة الله، الواقف على أسراره فى كونه: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ.. خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.. قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.. وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

ولنا - بعد هذا العرض للسورة ومقصدها ومنهجها فى تركيز الدعوة وأساليبها - بضعة مواقف لا بد لنا من أن نقفها فى بعض ما احتوت عليه هذه السورة ضمن ما عرضته من تلك الأساليب الأربعة التى سقناها.

الحساب والجزاء: سؤال الرسل والمرسل إليهم:

والموقف الأول فى السؤال والوزن، وبعبارة أخرى، فى الحساب والجزاء، وقد ذكرنا

أن السورة ـ وهي بصدد التخويف بعذاب الآخرة ـ جاء فيها قوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ .

وقد نبهت هذه الآيات إلى الحساب والجزاء عن طريق السؤال والوزن، وأرشدت فيما يختص بالسؤال إلى أن الأمم الذين أرسل إليهم، وبلغتهم دعوة الله عن طريق رسله الكرام، يسألون عن الرسل، وعن تبليغهم إياهم، وعما أجابوا به من تصديق أو تكذيب، وعما عملوا من خير مطلوب، أو شر منهي عنه، وكذلك أرشدت إلى أن الرسل أنفسهم يسألون عن تبليغهم لأقوامهم وعن إجابة الأقوام لهم وموقفهم منهم . والسؤال للجانبين قد كثر ذكره في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ وقوله ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وقوله ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ وقوله ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾ وهكذا نجد كثيراً من الآيات تتحدث عن سؤال الرسل وسؤال الأمم .

والذي يهمنا هنا أن نقرر أن هذا السؤال لم يكن سؤال استفهام ولا استخبار، وإنما هو سؤال تبكيت وتنديد، فليس في السائل مظنة أن يجهل، ولا في المسئول مظنة أن ينكر . هو تصوير لما يكون من شعور المكذبين بتكذيبهم، وشعور المرسلين بتبليغهم، وهو نوع من تسجيل الحجة على من أنكرها وأعرض عنها في الوقت الذي كان يجديه الإقبال عليها والإيمان بها، وهو نوع من زيادة الحسرة، وقطع الآمال في النجاة بوضع يد المجرم على جسم جريمته، وهو في الوقت نفسه نوع من زيادة الأمن والطمأنينة للرسل في القيام بدعوتهم وتبليغهم ما أمروا بتبليغه . ولعل كل ذلك يرشد إليه قوله تعالى : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ .

الوزن والميزان: مواردهما فى القرآن وما يراد بهما:

هذا ما يختص بالسؤال:

أما الوزن، فقد دلت عليه الآية التالية لآية السؤال: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ والوزن: عمل يعرف به قدر الشيء، وقد وردت مادة الميزان والوزن فى كثير من آيات القرآن الكريم، وبتتبع مواضعها نستطيع أن نردها إلى الأحوال الآتية: جاءت كلمة الميزان، وكذلك كلمة الوزن مقترنتين بالكيل فيما يجرى بين الناس عادة من تبادل وبيع وشراء، ويراد منهما فى هذا المقام الحث على إقامة القسط بين الناس فى التعامل. وقد كان أول قوم وجه إليهم هذا الحث، فيما نعلم، قوم شعيب، وجه إليهم فى تبليغ رسالة الله وتحذيرهم من سوء المعاملة عن طريق بخس الكيل والميزان، أو طريق التطفيف فيهما، وقد جاء فى هذه السورة نفسها: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ وجاء فى سورة من القرآن، عرفت باسم سورة المطففين، قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ومن البين أن المراد بالميزان والوزن فى هذا المقام، الآلة التى يتواضع عليها الناس ويعرفون بها مقدار ما يأخذون وما يعطون، وهى الآلة المعروفة باسم الميزان.

وقد جاءت الكلمتان أيضًا مقترنتين بذكر الخلق والتكوين: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾. ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

ومن البين أن المراد فى هذا المقام بكلمتى الوزن والميزان، ما يرجع إلى إحكام النظام وتقدير الخلق وربط الكائنات بسنن من التناسب والاعتدال.

وقد جاءت الكلمتان أيضًا مقترنتين بالكتاب الذى أنزله الله وأرسله مع رسله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ وبذلك كانت سنة الله في كونه وبنائه على الوزن والإحكام، كسنته ونظامه فى شرعه، فكما أحكم الكون بالميزان، أحكم الشرع بالميزان، وإذا كان الميزان الذى أحكم به الكون يرجع إلى كمال التقدير والإتقان، والبناء على سنن ثابتة مطردة، تجعل العالم وحدة متضامنة متكافلة على الخير المادى للبشرية، فإن الميزان الذى أنزله مع كتبه يرجع إلى روح تقدير ما فى هذه الكتب من مصالح، وإلى حسن تطبيق أحكامها على الأعمال والأحداث، وبذلك يسعد الناس بروح التضامن والعدل، بروح التقوى التى تؤهلهم لسعادة الآخرة، فيحصلون على متعة المادة والروح عن طريق السنن، وفى رسالة هو صراط الله المستقيم الذى أبدعه فى كونه عن طريق لا انحراف فيه عن طريق الأحكام والشرائع. ولعل الميزان الذى يقترن بالكتاب والشرائع والأحكام لا يبعد كثيراً عن أمر القائمين بالشرائع وتطبيقها على الأحداث.. من مراعاة الدقة وحسن الاجتهاد فى معرفة الأحداث وما تتطلبه من أحكام تحقق المصالح التى ربطت بها تلك الأحكام فى سياسة الناس وسلوكهم. لعله لا يبعد عما أشارت إليه بعض الآيات ووكلته إلى القائمين بأمر الشرائع فى فهمها وتطبيقها مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ وليس من ريب فى أن قيام الناس بالقسط لا يكون إلا بتشريع. هو ما دل عليه الكتاب، وبحسن تقدير لهذا التشريع من جهة تطبيقه على الأحداث والمعاملات، وهو الميزان، وقد ذكر الحديد فى آية ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ وقد يكون من إيحاء ذكره فى هذا المقام أن بعض النفوس تأبى تنفيذ هذه الأحكام المطبقة بالميزان على حوادثهم. وهنا يجد القائمون بالأمر ـ تقريراً لمظاهر القسط بين الناس ـ فى «الحديد» قوة يحملون بها الناس على تنفيذ تلك الأحكام.

وإذن، يكون أساس القيام بالقسط هو تشريع حكيم، وتطبيق دقيق، وحمل للمعرضين على التنفيذ، وبذلك تتحقق الغاية المرجوة من الكتاب ومن الميزان.

وأخيراً، جاءت الكلمتان: الوزن والميزان ـ فى القرآن الكريم ـ مقترنتين بالأعمال فى يوم الحساب: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ ومن ذلك قوله تعالى فى سورتنا هذه: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ وقوله: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وقوله ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ

﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ وهذا هو الميزان الذى يبنى عليه الحساب الأخروى ويوقع بناء عليه إما العذاب، وإما النعيم.

وقد تكلم الناس فى هذا الميزان وأكثروا من الخوض فيه من جهة أنه مادى أو معنوى، ومن جهة أن الذي يوزن هو الأعمال بعد تجسيمها، أو أن الذى يوزن هو صحائف الأعمال. ولقد ذهب أناس إلى الخوض فى هذا المقام حتى صوروه بلسان وكفتين، ووصفوا مادته الذى اتخذ منها، وعينوا مكانه الذى يوضع فيه إلى أقصى حد يسعف فيه الخيال صاحبه بما يوجه نفسه إليه. والذى أعتقده أن كل ذلك قد تجاوز فيه القوم حدود ما يصح للإنسان الخوض فيه وكشف أستاره التى استأثر الله بها، فهو دون شك - مع تفاصيل يومه وأعمال الله فيه - شئون غيبية يجب أن يفوض الأمر فيها لله وحده، وهو بعد مما لا حاجة للناس إليه بعد الإيمان بمعناه العام وبالمقصود منه، وأنه هو الوسيلة فى تجلية الحق لمنكريه، وتجلية العدالة فى معاملة المصلحين والمسيئين على الوجه الذى يعترف فيه المحسن بحقية ما نسب إليه من إحسان، والمسيء بحقية ما نسب إليه من إساءة. ويرجع تقدير تلك الوسيلة ومعرفة حقيقتها إلى الله وحده إن لم تكن تمثيلا للعدل التام فى محاسبة الناس وتقدير ما به يكون الجزاء على حسب النتائج التى يعرفها الناس فى دنياهم من التحاكم إلى ميزانهم المحسوس الذى يلجئون إليه فى ضبط معاملاتهم وحقوقهم، وإذن فعلينا أن نؤمن بأن فى الآخرة وزنًا للأعمال، وأنه على مقدار ما يظهر يكون الجزاء، وأنه وزن أو ميزان يليق بتلك النشأة الأخرى، ميزان توزن به الأعمال والإيمان والأخلاق والعواطف وكل ما يجرى فى النفس ويستقر فيها. وعلينا أن نعفى أنفسنا من محاولة الكشف عن أمر غيبى لم يرد لنا فى حقيقته قاطع من كتاب أو سنة.

هذا أول المواقف التى أردنا أن نقفها فى بعض ما احتوت عليه هذه السورة.

نداءات للبشر بوصفهم «بنى آدم»:

أما الموقف الثانى، فهو يتعلق بأربعة نداءات إلهية، وهى النداءات الوحيدة التى نودى بها الناس جميعًا فى القرآن الكريم بوصف النبوة لآدم، وقد جاءت هذه النداءات عقب قصة آدم وإبليس، وهى قوله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾ .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

سر النداء بهذا الوصف ودلالاته:

ويهمنى أولا لفت الأنظار إلى دلالة هذه النداءات، فهى ترجع بالناس جميعًا إلى رحم واحدة، وأبوة واحدة، ومن شأن اتحاد الأصل تقارب الفروع وتعاطفها، فهى تغرس فى نفوس الناس أنهم مهما تنوعت أجناسهم واختلفت لغاتهم وتباينت أقاليمهم، أبناء رجل واحد، ركضوا جميعًا فى صلبه ثم تناسلوا منه أبناء وأحفادًا وأحفاد أحفاد إلى يوم الدين، وهذه رحم ينبغى أن تعرف فتشكر وتقدر بالتعاطف والتراحم لا بالتخاصم والتحارب. وهذا هو أول ما يضعه القرآن من سبل الوحدة الإنسانية البشرية التى ترجع بالناس جميعًا إلى منبع واحد، وتضعهم جميعًا فى مستوى واحد دون تفاضل بينهم إلا بما قد يكون منهم من تفاوت فى الفضل والعمل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

وما انفتح باب الشرور على البشرية وتفاقمت ويلاتها إلا من يوم أن أغمضت عينيها عن هذه الوحدة البشرية التى تردهم إلى أصل واحد، وتخضعهم لمعبود واحد، تقاطع الناس بالقوة والضعف، والغنى والفقر، والعلم والجهل، والبياض والسواد، وما إلى ذلك من العوارض الطارئة التى لاحظ لها فى تكوين البشرية العابدة أمام الألوهية المعبودة.

موقف إبليس من أبيهم يقتضيهما الحذر منه:

ذكرت السورة موقف إبليس من أبى البشرية آدم، وأنه أبى واستكبر وقال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ

مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ ومن ذلك الحين ظهر للإنسان عدوه المبين الذى ابتلاه الله به فى هذه الحياة، والذى يجب عليه ليسلم من شره ويسعد، ويحصل على رضا مولاه أن يتخذه هو أيضًا عدواً، يتحسس نواياه، ويتعرف وسوسته، ويكافحه بكل ما أوتى من قوة، يجب أن يعرف أنه قد نصب له الشباك، وقعد له بالمرصاد، ورسم خطته فى إغوائه والكيد له حتى أغراه بالمخالفة فوقع فيها، ثم لم يلبث أن عاد إليه رشد الإنسانية فتنبه إلى كيد الشيطان والتجأ إلى ربه معترفًا بذنبه وخطيئته ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هكذا قوبل الإنسان لأول عهده بالحياة. وهكذا أشرق نور الهدى فى قلبه فأضاء له الطريق واستغفر لذنبه فتاب الله عليه.

وهكذا يجب أن يسير الأبناء فى خطة أبيهم، يجب أن يربط الأبناء نسبهم بأبيهم فيعرفوا كما عرف كيد الشيطان الذى عرفه أبوهم، وأن يطهروا أنفسهم من وسوسته وإغوائه كما طهر نفسه منهما أبوهم، ويجب أن يعرفوا أن الله خلقهم فى الأرض وابتلاهم بالشهوات وتعارض الرغبات، وقام الشيطان بينهم، يغوى ويضل، ويكيد ويفرق، ونظم حياته على قوى الإفساد. فليحذروه وليتقوا شره، وليعتصموا بدعوة الله الواقية لعلهم يرحمون: ﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

الخير والشر جانبان فى الإنسان:

قص الله علينا نبأ آدم مع إبليس، وكان مغزاه تقرير أن الإنسان له جانب خير يتلقى به أمر ربه وينفذه فيصل إلى سعادته وإلى رضا مولاه. وله جانب شر به يستجيب لوسوسة الشيطان وإغوائه فيبعد به عن سعادته ويصيبه غضب الله.

وأولاد آدم من آدم، تكوينهم من تكوينه، واستعدادهم من استعداده، وتأثرهم من تأثره، فلهم كأبيهم جانب خير يقودهم إلى الوحدة والاعتصام بأوامر الله وهدايته، وجانب شر يغرى بينهم العداوة والبغضاء، ويوقعهم فى المخالفة والعصيان. وإبليس الذى ابتلى الله به أباهم - فنشأ على عداوته، يغريه ويوسوس له - قد ابتلاهم به أيضًا، فأضمر لهم العداوة وأعد نفسه لأن يصنع معهم ما صنع مع أبيهم، يكشف لهم عن عورات وسوءات كما كشف لأبيهم من عورات وسوءات.

لهذا كله، وجه الله إليهم أربعة نداءات متتالية بوصف البنوة للأبوة الواحدة التى من شأنها أن تسد عليهم أبواب الشر، وتقيهم أثر وسوسة الشيطان وإغوائه. أرشدهم فى تلك النداءات إلى نعمته عليهم، وحذرهم بها من عدوهم، وإلى أن هدايته لهم وتمسكهم بها هى وحدها سبيل عصمتهم من الوقوع فى كيده، ويذكرهم مع هذا بأن الحرمان من النعيم الذى أصاب والديهم إنما كان بنسيانهما نعمة الله، وباستجابتهما للشيطان وإغفالهما هداية الله الرحيم.

وحى الامتنان باللباس والزينة:

امتن الله عليهم فى أول هذه النداءات بأن هيأ لهم سبيل الحصول على الملبس الذى يسترون به عورتهم، ويريشون به أنفسهم فى مناسبات التجمل، هيأ لهم مادته من القطن والصوف والحرير وما إليها، وألهمهم بما خلق فيهم من غرائز طرق استنباتها وطرق صناعتها بالغزل والنسج والخياطة، ولفت أنظارهم إلى أن تقوى الله فى الانتفاع بتلك النعمة والوقوف بها عند الحد الذى رسم، هو أساس الرضا، وأساس الشكر، وهو الذى يحفظ السوءات من أن تظهر أو ترى، وهو الذى يجمل الحسى والنفسى ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾.

وإذا كان للقرآن دلالاته الصريحة التى تدل عليها كلماته بمقتضى اللغة العربية، فإن له بعد تلك الدلالة إيحاءات، جدير بالناظرين فيه وبالمتعرفين على نواحيه أن يتنبهوا إليها، وأن يسيروا فى طريق معرفتها والانتفاع بها. وهذه آية اللباس وإنزال مادته وتمكين الناس منها تحدث عن اللباس الموارى للسوأة وعن الرياش، وعن لباس التقوى، وهى بعد توحى لتحقيق ثياب المواراة والرياش بالصناعة وبالجد فى تحصيل موادها، وتوحى بأن ستر العورة وزينة التجمل من أهداف الحكمة الإلهية فى تمكين الإنسان من مادة اللباس وصناعته، ومن طلب التقوى ومراعاة حق الله.

العرى والتبرج تلبية للشيطان:

ولعل فى هذا الإيحاء تعريضًا بأن عادة العرى التى يألفها بعض القبائل المتوحشة،

وعادة إبداء شيء من مفاتن الجسم كما يراه دعاة الحضارة الفاسدة، مخالف للأدب الإنساني والإرشاد الإلهي. وأرجو أن يكون لهؤلاء وهؤلاء من هذا الإيحاء الواضح ما ينبه وعيهم إلى هذا الأدب الذي يضعه الله بأصله ويرشد إليه في هذا النداء الكريم. أرجو أن يكون لهم من هذا الإيحاء ما ينبههم إلى أن الحضارة الحقة ليست في كشف المفاتن، ولا في إظهار العورات المثيرات للغرائز، وإنما الحضارة الحقة في السير على سنة الله، وعلى مقتضى ما أودع في الإنسان من الشعور الفاضل النزيه. أرجو أن يجدوا في هذا ما يحيي وعيهم، ويرشدهم إلى أن النزوع إلى هذه التقاليد الفاسدة ـ التي سرت إلى جماعة المسلمين من قوم حرموا من النظر في آداب الله وإرشاداته ليس إلا تلبية لفتنة الشيطان الذي فتن بها والديهم من قبل، وذلك هو ما تضمنه النداء الثاني من النداءات الأربعة: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا** ﴾.

توسط الإسلام في شأن الزينة:

ثم يجيء النداء الثالث: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ فيكشف عن المعنى الإنساني في اللباس، وأنه من الزينة التي تحفظ على الإنسان مكانته، وتميزه عن سائر الحيوان. ويأمر باتخاذها في المساجد وما يماثلها من المجتمعات الإنسانية، ثم يضم الأكل والشرب إلى اللباس، ويأمر بهما حفظًا للقوة واستدامة للصحة، ويعقب كل ذلك بالنهي عن الإسراف في الملبس والمأكل والمشرب، وفي كل شيء، وليس من ريب في أن ثلاثتها ضرورة بشرية، وعماد قوى لقيام الإنسان بواجبه في هذه الحياة، وهداية الله فيها كهدايته في كل شيء، وسط بين «تفريط» يقع فيه فريق من الناس يحرمون به أنفسهم من التمتع بنعمة الله، إما شحًا وبخلا، وإما تنطعًا وتقشفًا، «وإفراط» يقع فيه المترفون، يلبسون ويأكلون ويشربون فوق الحاجة، وفوق الزينة المعقولة، ثم تمتد شهوتهم بعد ذلك إلى ما حرم الله. أما هداية الله في ذلك فهي الاقتصاد مع مراعاة الأحوال والظروف. أما الحرمان والإسراف فكلاهما ينكره الله ويمقته ولا يرضاه، وقد كشف عن ذلك قوله تعالى بعد هذا النداء الثالث: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ كما أرشد من الآيات نفسها إلى ما

حرمه الله حقيقة، وإلى أنه الجدير بتطهير النفوس من مقارفته بقوله: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾.

الحد الفاصل بين المتقين المصلحين والمكذبين المستكبرين:

ثم يجيء النداء الرابع ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ فيضع الحد الفاصل بين أهل رضاه ونعيمه وإكرامه من عباده، وبين أهل غضبه ومقته وعذابه منهم. ويرد الأمر فى ذلك كله إلى التقوى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وإصلاح ما فسد من النفوس والأعمال، وإلى عكس ذلك بالتكذيب للحق والاستكبار والترفع عن الخضوع لأوامر الله وأحكامه.

هذان موقفان من المواقف التى أردت أن أقفها فى بعض نواحى ما تحدثت عنه هذه السورة الكريمة.

ثم ننتقل - بعد هذه النداءات إلى بنى آدم - إلى موقف آخر من مواقف السورة المكية، وهو تصويرها لبعض المشاهد المهمة التى تكون يوم القيامة.

الآيات التى تعرض مشاهد القيامة:

تعرض السورة هذه المشاهد المهمة من حين الوفاة إلى حين استقرار أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار. ويأتى ذلك فى خمس عشرة آية تبدأ بالآية السابعة والثلاثين، وتنتهى بالآية الحادية والخمسين.

يقول الله تعالى فى هذه الآيات الكريمة:

﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ**

الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

أساس الجريمة الكبرى التى استحق بها الكفار العذاب:

وهنا نجد أول ما عنيت به الآيات هو التمهيد بلفت الأنظار إلى أساس الجريمة التى استحقوا بها العذاب، فقررت أنه لا أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته، فافتراؤهم على الله الكذب أنهم كانوا يقولون عن شركائهم ﴿ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ ويقولون: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ . ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ ومنهم من قال: ﴿ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾، ومن قال ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ فهذه كلها أكاذيب مفتراة على الله بغير علم، وهى تصدر عن لون من الإجرام خبيث يستحق أصحابه عليه أشد العذاب، وأما تكذيبهم بآيات الله؛ فذلك صادق بتكذيبهم بالآيات الكونية، حيث يقطعونها عن دلالتها، ويباعدون بينها وبين نتائجها، ويقفون منها موقف الجمود والتحجر والاستكبار وعدم الاعتبار، وصادق أيضًا بتكذيبهم بالآيات القولية، كما كانوا يقولون عن الرسول والقرآن: ﴿ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ أو ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ أو سحر أو شعر أو لا يحقق إصلاح البشرية، أو نحو ذلك مما يقوله المكذبون المعاندون قديمًا وحديثًا.

وإذا كانت هذه هى جريمتهم وواقع أمرهم فى الافتراء على الله، والتكذيب بآيات الله، وكانت هذه الجريمة أبشع الجرائم، وصاحبها هو أكبر المجرمين ظلمًا، فهم إذن يستحقون العذاب أشد العذاب.

تصوير حيرة الكافرين بعد الموت:

وبعد هذا التمهيد تعرض الآيات لمشاهد العذاب، فيكون أول ذلك عرض حالة المكذبين المفترين بعد الوفاة، حين تبدو أمامهم الحقائق مسفرة، ويصيرون من أمرهم فى

حيرة، فيسألهم رسل الله: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ليشفعوا لكم؟ فيكون جوابهم ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ فلم يهتدوا إلينا ولم نهتد إليهم، ويشهدون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين.

وهنا يصدر عليهم الحكم النافذ: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ وتصف الآيات تلاعنهم ومحاولة كل منهم التبرؤ من التبعات، والتنصل من المسئوليات، معرفتهم أنهم جميعًا مشتركون فى العذاب سواء فى ذلك من ضل ومن أضل.

وقد جاء فى القرآن كثير من الآيات يصور لنا موقف التابعين والمتبوعين بعضهم مع بعض حينما يصيرون جميعًا فى النار. فمن ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

وفى سورة إبراهيم: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

وفى سورة الأحزاب: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

وفى سورة سبأ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ

وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

وفى سورة الصافات: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾.

وفى سورة (ص): ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾.

وفى سورة غافر: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾.

وبعد أن تعرض الآيات أمرهم هذا العرض، تعيد ذكر أسباب الحكم عليهم لتقر هذه الأسباب مرة بعد أخرى، ثم لتبنى عليها لونًا جديداً من العذاب فتقول: ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾.

فهنا حرص واضح على ذكر الأسباب، وعلى أنهم يستحقون ما ينزل بهم بما كانوا يكسبون، وبكونهم كذبوا بالآيات واستكبروا عنها، وبكونهم مجرمين، وبكونهم ظالمين.

ثم هنا تصوير واضح أيضًا لإحاطة العذاب بهم: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ

غواش﴾ وتصوير واضح لحرمانهم مما به تكون السعادة، فسعادة الأرواح إما بنزول الخيرات عليها من السماء أو بصعودها أو صعود أعمالها إلى السماء، وذلك أن السماء موضع البهجة ومكان التطلع النفسى إلى المنح والنعم، ومنها تنزل الخيرات، وإليها تصعد الأرواح، والأخبار بأنهم محرومون من تفتح أبواب السماء لهم، ومن أن يدخلوا الجنة، لاشك أنه غاية فى الوعيد.

تعرض الآيات الكريمة هذا كله، وتصف أحوالهم فى حيرتهم الكبرى، وفى تلاعنهم وتلاومهم، وفى شعورهم بالحسرة واليأس، كل ذلك فى عبارات تجعل الغائب فى صورة المحس المشاهد:

- أين ما كنتم تدعون من دون الله؟ أين هم ليشفوا لكم أو لينقذوكم من عذاب الله؟

- لقد ضلوا عنا، إننا لا نراهم، إنهم لا يروننا!

- ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار.

يا للهول! ما هذه الأمم المتزاحمة المتساقطة فى النار كأنها الفراش المتهافت، ما بالها تتلاعن؟ ما بال التابعين يحملون على المتبوعين: ﴿ **رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ** ﴾ وما بال المتبوعين يتبرءون من التابعين ﴿ **فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ** ﴾، وما بال المتعارفين تناكروا؟ وما بال المتعاونين تقاطعوا وتدابروا؟ وما هذا النداء المجلجل المؤيس:

- ﴿ **لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ** ﴾!.

- ﴿ **فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ** ﴾.

الموازنة بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين:

ولا تقف الآيات الكريمة عند هذا الحد فى تصوير هذه المآزق الحرجة التى سيقع الظالمون المكذبون فيها، ولكنها تمضى فى لون آخر من التخويف وتحريك النفوس عن طريق الموازنة بين أحوالهم وأحوال المؤمنين بالدعوة، العاملين بمقتضى الإيمان:

فيقول الله عز وجل:

﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ**

فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

وأول ما نراه فى هذه الموازنة أن الله تعالى يبين مصير المؤمنين، وهو الجنة، ذلك المأوى العظيم المزود بكل أسباب النعيم والترف والرفاهية، فى مقابل ما ذكر من قبل عن مأوى الكافرين فى جهنم، حيث المهاد منها، والغواشى فيها.

ثم يصف صفاءهم الروحى، وسمو أنفسهم، وما أفاضه الله عليها من الجمال والرضا، وأنها خلصت من دفائن الحقد، وظواهر الغل. وذلك فى مقابل ما ذكره من قبل من تلاعن الكافرين وتلاومهم، ومحاولة كل من التابعين والمتبوعين إلقاء المسئولية على أصحابه.

ولا شك أن للموازنة على هذا النحو تأثيراً عظيماً، فإن الإنسان مطبوع على حب الخير لنفسه، وعلى الرغبة فى إبعاد السوء عنها، وإذا علم أن أحداً فاز أو سيفوز بالخير من دونه، تحركت فى نفسه عوامل الغيرة والتنافس، وكذلك إذا شعر بأن أحداً سينجو من السوء حين يقع هو فيه، فإنه يفكر فى ذلك تفكيراً يسوقه إلى شىء من الحذر.

فالقرآن يريد بإبراز هذين الموقفين: موقف الكافرين، وموقف المؤمنين، عن طريق الموازنة والمقابلة فى كثير من آياته، إثارة العوامل النفسية التى ترجع إلى حب الإنسان نفسه، وحرصه على أن يفوز بالخير، وينجو من الشر، وأن يكون فى صف السعداء الفائزين، لا فى صف الأشقياء الخاسرين.

ثم يبين الله تعالى بعض ما يحيط بالمؤمنين من نعيم: ﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ**﴾ فى مقابل المهاد والغواشى الجهنمية، ويبين فرحهم بهذا النعيم، وإيمانهم بمصدره الذى أنعم عليهم به، فيعترفون له بالحمد والثناء، وأنهم يشعرون بهذه النعمة فيتلذذون بذكر الحق الذى كان إيمانهم به سبباً فيها، وفى ذلك مقابلة بينهم وبين الكفار الذين حدث الله عنهم أنهم يعترفون على أنفسهم بالكفر حين يرون ضلال شركائهم عنهم: ﴿**وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ**﴾ .

ثم يقرر المؤمنون ـ بعد الحمد لله، والثناء عليه ـ توفيق الله لهم، وأنهم يؤمنون بأن هذا

التوفيق الإلهى هو السر فى اهتدائهم، ولولاه ما كانوا مهتدين ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾.

وهنا ينطلق نداء الحق سبحانه تحية لهم وتكريمًا ﴿ **أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾.

إنهم يسمعون هذا النداء، ويسمعون أنهم منحوا نعمة الله بعملهم الصالح، وفى ذلك مقابلة بينهم وبين الكافرين الذين قيل لهم: ﴿ **فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ** ﴾ وهكذا يرفع المؤمنون بأعمالهم، ويكرمون بذكرها واحتسابها لهم، ويخفض الكافرون بأعمالهم ويهانون ويقرعون باحتسابها عليهم وإذاقتهم العذاب بسببها ﴿ **كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ** ﴾.

التكليف بحسب الوسع:

وينبغى أن نلتفت هنا إلى أمور ثلاثة:

أولا: فائدة قوله تعالى وهو بصدد جزاء المؤمنين: ﴿ **لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾.

وهذه الفائدة هى زيادة التبكيت وإيقاع الحسرة فى قلوب الكافرين، إذ فاتهم ذلك الجزاء العظيم مع أنهم لم يكلفوا فى سبيل الحصول عليه ما ليس فى وسعهم، وقد فعله المؤمنون ولم يفعلوه هم.

معنى كون الجنة ميراثا للمؤمنين:

ثانيًا: التعبير عن نيل المؤمنين للجنة بقوله ﴿ **أُورِثْتُمُوهَا** ﴾.

والمعروف فى الإرث أنه انتقال الملك أو الاختصاص من مستحق إلى آخر بسبب موت السابق.

وقد استعمله القرآن الكريم هكذا فى الحكم، والعلم، والنبوة، والمال، والملك، والنساء: ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ** ﴾، ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** ﴾، ﴿ **وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ** ﴾، ﴿ **وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ** ﴾، ﴿ **لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا** ﴾.

وقد جاء اللفظ مضافًا إلى الله سبحانه فى مثل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ ، ﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ .

والتعبير فى هذا مبنى على اعتبار أن للناس ملكا وتصرفًا فيما مكنهم الله منه ، ثم بعد انقراضهم وفنائهم يرجع الأمر فى ظاهره - كما هو فى حقيقته - ملكا وتصرفًا إلى الله سبحانه الواحد القهار ، الباقى الذى لا يفنى .

أما فى آيتنا هذه : ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ وما ماثلها من قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ﴾ ، فقد نظر فى هذا التعبير إلى أن الناس جميعًا - بما أودع فيهم من العقل وقوة النظر وفطرة الإيمان ، وما يسر لهم من دلائل فى أنفسهم وفى الآفاق حتى صاروا بذلك متمكنين من الإيمان والعمل الصالح - كأنهم قد مكنوا من جزاء الإيمان ، واستحقوا دار النعيم ، فلما أعرض بعضهم وكذبوا وأهملوا النظر والاستدلال ، واستبدلوا الكفر بالإيمان ، حرموا ذلك الجزاء ، وصار إلى الآخرين الذين حافظوا على فطرتهم فصدقوا وعملوا .

على هذا الاعتبار جاء التعبير بالإرث فى حصول المؤمنين على الجنة ، ولعل هذا يفسر ما يروى فى هذا المقام من أنه ليس من مؤمن ولا كافر إلا وله فى الجنة منزل ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ودخلوا منازلهم ، رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها ، فقيل لهم : هذه منازلكم لو كنتم عملتم بعمل أهل الجنة ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، رثوهم بما كنتم تعملون ، فيقتسم أهل الجنة منازلهم .

على أن لفظ «الميراث» يلمح منه معنيان :

الأول : عظم المال الذى يصير إلى الوارث دون عناء ولا مشقة ، وهذا شأن الجنة ، تصير إلى أربابها بدين كله يسر وسهولة ، يأبى العسر والتشدد ، وفى التلميح إلى ذلك تقول الآية : ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ .

والمعنى الثانى : صيرورة هذا الموروث إلى الوارث دون منازع ، وهكذا تنال الجنة ، يتمتع كل مؤمن بمنزلته فيها دون أن ينازعه أحد .

ومما قيل فى المعنى المراد هنا ، ما ذكره الإمام الرازى من أن المراد بقوله تعالى :

﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ صارت إليكم، كما يصير الميراث إلى أهله، والإرث قد يستعمل فى اللغة ولا يراد منه زوال الملك عن الميت إلى الحى، كما يقال: هذا العمل يورثك الشرف، أى يصيرك إليه.

هل يدخل الناس الجنة بأعمالهم أو بمحض الفضل الإلهى؟

ثالثًا: التعبير بقوله ﴿ **بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ يدل على أن العمل سبب في الحصول على الجنة.

وكما جاء التعبير فى هذا المقام بالباء الدالة على السببية جاء التعبير فى آيات أخرى باللام الدالة على الملك ﴿ **لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ وجاء التعبير فى آيات أخرى بأنها جزاء أو أجر ﴿ **وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا** ﴾، ﴿ **تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾.

وكثيراً ما يجيء إثبات الجنة لموصوفين بوصف الإيمان والعمل الصالح، وهذا أسلوب يدل على علِّيَّة الوصف لنيل الجزاء، ومن ذلك قوله تعالى فى آيتنا هذه: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ وأمام هذه الأساليب ـ وكلها يدل على العلية والسببية ـ لا نستطيع أن نقول: إن العمل لا دخل له فى الجزاء.

وقد رأت طائفة أن المؤمن لا يجب له بعمله وطاعته ثواب، ويذكرون فى ذلك.

أولا: الحديث المروى فى الصحيحين: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته».

وثانيًا: أن الطاعة إنما حصلت بفعل الله، ولا يوجب فعل الله على الله شيئًا.

وثالثًا: أن نعم الله على العبد لا تعد، وهى توجب الشكر، فهذه الطاعات قد وقعت فى مقابلة النعم، فيبقى الثواب غير مقابل.

وهكذا استدلوا على إبطال شيء أثبته القرآن بأساليب مختلفة فى آيات متعددة، وهى نظريات نشأت من الخلط بين ما يجب لكونه من مقتضى الحكمة الإلهية التى لا يمكن أن

يتخلف حكمها، وبين ما يجب على الله بمعنى أن موجبًا أوجبه عليه وألزمه به. والوجوب إذا كان معناه عدم التخلف لاقتضاء الحكمة إياه، لا يقال فيه ذلك، وحصول الطاعات لا ينكر أحد أن للعبد دخلا فيه، أقله توجيه العبد واختياره الصالح للطرفين إلى أحدهما بعينه.

والطاعات وجبت بإيجاب مستقل عن النعم التى كانت بمحض الجود الإلهى الذى لا يطلب له مقابل.

أما الحديث فمعناه: أن هذا الجزاء الذى يحصل عليه الطائع ليس بدلا مماثلا لطاعته، وليس جزاء مساويًا كالشأن بين البدلين، وإن كانت الطاعة هى التى أوجبته وتسببت فيه، فالمعنى: لن يدخل أحدكم الجنة بعمل يساويها وما فيها من نعيم، ففضل الله عظيم سابغ باعتبار جعله الجنة بدلا من عمل محدود قليل لا يطاولها، ولا يقابلها فى ذاته.

مخاطبة أهل الجنة لأهل النار تبكيتا لهم وتسجيلاً عليهم:

بعد هذا نرجع إلى بقية الآيات لنرى بقية المشاهد:

يقول الله عز وجل:

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾.

أصحاب الجنة يريدون بما وعدهم ربهم الجنة نفسها وما فيها من نعيم مقيم، وقد جاء الوعد بذلك فى مثل قوله تعالى: **﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾**، **﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾**، **﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ﴾**.

ويريدون بقولهم لأهل النار: **﴿ فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾** النار وما فيها من العذاب، وإنما لم يضف الوعد إلى أهل النار لأنه تبين أنهم لم يكونوا محلا لهذا الوعد، فسألوهم عن الوعد المطلق الموجه فى الدنيا إلى الناس كافة، وهذا بناء على أن الوعد خاص بالخير، وكذا يصح على أنه عام فى الخير والشر، ويكون المعنى: هل وجدتم ما وعد ربكم المؤمن والفاجر حقًا، وهو ما يدل عليه حذف المفعول.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد ﴿ أوعدكم ﴾ وإنما عبر بالوعد للمشاكلة، وحذف المفعول إيذانًا بانحطاط درجتهم عن المخاطبة.

وقد جاء الوعد متعلقًا بالشر فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ وفى قوله تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ وقوله ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ إشارة للبعث، وخرج كل ذلك على التهكم فى الأول، والمشاكلة فى الثانى، والتغليب فى الثالث.

وفى قوله تعالى: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ نكر المؤذن لأن معرفته غير مقصودة، بل المقصود الإعلام بما يكون هنالك من الإعلام، ولم يرو عن النبى - ﷺ - شىء فيه، وهو من الغيب الذى لا يعلم إلا بالوحى القطعى.

وفى هاتين الآيتين تعرض السورة لمرحلة أخرى من مراحل العذاب، وهى نداء أصحاب الجنة لأصحاب النار نداء يسجل عليهم الخزى والنكال، ويشعرهم بالحسرة والندامة، إذ كذبوا بما يرونه الآن واقعًا فى مقابلة النعيم الذى صار إليه أهل الإيمان، وأحسوا به كذلك واقعًا.

وفى هذا نرى صورة أخرى من الحديث الذى يمثل الرضا والاطمئنان واللذة من جانب، ويمثل الحسرة والذلة والقلق من جانب آخر، ويصور الحكم النافذ الذى لا مرد له، ولا محيص عنه، يؤذن به مؤذن لا يدرك كنهه، ولا يعلم من هو؟ ولا ما صوته؟ ولا كيف يلقى أذانه؟ ولا كيف يكون أثر هذا الأذان فى نفوس سامعيه؟

وإنه لتصوير قوى بارع، يحرك إليه النفوس، ويهز المشاعر، ويبين أن النهاية الأليمة المتوقعة لهؤلاء المكذبين إنما هى تسجيل اللعنة عليهم، والطرد والحرمان من رحمة الله، مشيرًا إلى أسباب ذلك الحرمان الماثلة فى ظلمهم الذى كونه صدهم عن سبيل الله، وبغيهم إياها عوجًا وانحرافًا، وكفرهم بدار الجزاء.

الصد عن سبيل الله وألوانه:

وهنا نقف وقفة يسيرة نتحدث فيها حديثًا موجزًا عن «الصد عن سبيل الله» فنقول:

كثيرًا ما عرض القرآن الكريم للصد عن سبيل الله:

فمن ذلك فى حق المشركين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾، ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾.

ومن ذلك فى حق المنافقين: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾.

ومنه فى حق أهل الكتاب: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

وفى شأن الأحبار والرهبان: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

إلى غير ذلك من الآيات.

وإذا تأملنا هذه الآيات وجدنا أن الذين يصدون عن سبيل الله هم:

(١) أرباب الأموال يستخدمونها فى إغراء الناس بالتكذيب.

(٢) وأصحاب الآراء والتوجيه، من الأحبار والرهبان، وأرباب الشكوك والشغب.

(٣) المنافقون الذين يلقون فى روع الناس أن أحكام الله ودينه ليست كفيلة بإسعاد المجتمعات، ولا صالحة للتطور الزمنى والمدنى.

(٤) المعوقون للحركات الإصلاحية جمودًا منهم على ما ألفوا، أو خوفًا على أنفسهم من ضياع مصالح لهم.

كل هؤلاء صادون عن سبيل الله، باغون لها عوجًا، والله تعالى يذكر لنا مصيرهم، تحذيرًا لهم، وتحذيرًا منهم.

وصدق الله العظيم حيث يصف كتابه الكريم، فيقول جل جلاله:

﴿ كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد (١) الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد (٢) الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك في ضلال بعيد (٣) وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾.

مشهد آخر من مشاهد الآخرة:

يقول الله تعالى بعد الكلام عن نداء أهل الجنة لأهل النار: ﴿ وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون (٤٦) وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين (٤٧) ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون (٤٨) أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾.

وفى هذه الآيات يجيء ذكر لفرقة لم يتحدث عنها القرآن الكريم باسمها ومكانها وندائها إلا فى هذه السورة، وفى هذه الآيات، وهى الفرقة التى سميت «بأصحاب الأعراف» وسميت السورة باسمها.

وذلك وصف لمشهد آخر يبين أن بين أهل النار وأهل الجنة حجابا، وأن هناك جماعة على الأعراف ينادون أهل الجنة بالتحية والتكريم، ويستعيذون بالله من أن يجعلهم مع أهل النار ﴿ ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ وهو دعاء تذلل ولهم فيه مع ذلك لذة، ولأهل النار منه حسرة، ثم يأخذ أصحاب الأعراف فى تبكيتهم من جهة ما كانوا يجمعون من جموع ليصدوا عن سبيل الله، وما كانوا يبدون من استكبار عن تقبل دعوة الحق، وأن هذا وذاك لم يغنيا عنهم من شيء، ثم من جهة موقفهم من المؤمنين فى الدنيا حيث كانوا يستهزئون بهم ويقسمون الأيمان الغليظة على أنهم لا يمكن أن يكونوا صالحين، وأن ينالهم الله برحمة منه.

كلام العلماء فى الحجاب الذى بين الجنة والنار وفى الأعراف وأصحابها:

وقد تكلم العلماء فى هذا المقام كثيرًا: تكلموا فى الحجاب الذى بين الجنة والنار، وتكلموا فى الأعراف ورجاله، وكان لهم فى ذلك آراء وصلت فيما كتب المفسرون إلى اثنى عشر قولاً:

فمن قائل: إن الحجاب الذى بين الجنة والنار، أو بين أهليهما، هو السور المذكور فى سورة الحديد: ﴿ **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾، وإن الأعراف أعالى ذلك السور، مأخوذ من عرف الديك، أو عرف الفرس.

ومن قائل إن الأعراف هى شرف الصراط.

ومن قائل إن المقصود بالأعراف جبل أحد، ويذكرون فيه حديثًا «إن أحداً جبل يحبنا ونحبه، وإنه يوم القيامة يمثل بين الجنة والنار، ويحبس عليه أقوام يعرفون كلا بسيماهم، هم إن شاء الله من أهل الجنة» وحديثًا آخر «إن أحداً على ركن من أركان الجنة» وحديثًا ثالثًا «أحد جبل يحبنا ونحبه، وإنه على ترعة من ترع الجنة».

ومن قائل إن رجاله هم الملائكة، أو الأنبياء، أو عدول الأمم الشهداء على الناس، أو العباس وحمزة وعلى وجعفر، أو أهل الفترة، أو الذين تستوى حسناتهم وسيئاتهم.. إلى غير ذلك من الأقوال التى نراها فى كتب التفسير.

الرأى الذى نختاره فى الحجاب والأعراف:

والذى يجب علينا أن نقف عنده هو: أن هناك حجابًا بين الجنة والنار، قد يكون ماديًا، وقد يكون معنويًا، والله أعلم بحقيقته، والمقصود أن بين الجنة والنار ما يحجز بين الفريقين، وأن هذا الحجاب الحاجز لا يمنع من وصول الأصوات عن طريق المناداة، وأن هناك مكانًا - أو مكانة - له صفة الامتياز والعلو، وأنه يكون على هذا المكان رجال لهم من المكانة ما يجعلهم مشرفين على هؤلاء وهؤلاء، ينادون كل فريق بما يناسبه: يحيون أهل الجنة، ويبكتون أهل النار.

أصحاب الأعراف هم عدول الأمم والشهداء على الناس:

وإنما رجحت أنهم ليسوا من الملائكة لقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ وهو تعبير لم يعهد عن الملائكة، وهو يوحى أيضًا بأن أصحاب الأعراف على صفة ممدوحة، ولهم منزلة مرموقة على حد قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

وليس أصحاب الأعراف ممن تساوت حسناتهم وسيئاتهم كما جاء فى بعض الأقوال، لأن ما نسب إليهم من الأقوال لا يتفق مع انحطاط منزلتهم عن أهل الجنة، انظر قولهم للمستكبرين: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ فإن هذا كلام لا يصدر إلا من أرباب المعرفة الذين اطمأنوا إلى مكانتهم.

أما قوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فليس حديثًا عنهم، ولكن عن أهل الجنة.

ولذلك أرجح أن رجال الأعراف هم عدول الأمم، والشهداء على الناس وفى مقدمتهم الأنبياء والرسل، وقد جاء التصريح بهؤلاء فى كثير من الآيات، مثل قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أسئلة وأجوبتها:

وهنا قد يسأل بعض الناس فيقولون: إن كل آيات القرآن تجعل الناس فريقين، فريقًا فى الجنة، وفريقًا فى السعير، فما بال هذه الآيات تجعل الناس فرقًا؟

وبالتفسير الذى فسرناه يعلم أنه لا محل لهذا السؤال، إذ ليس معنا إلا فريقان، فريق الجنة، وفريق السعير، نعم من فريق الجنة هؤلاء الذين خصوا بهذه المنزلة.

وقد يسأل بعض الناس سؤالا آخر فيقولون: إذا كانت الجنة فى السماء والنار فى الأرض - كما يقولون - فكيف يمكن أن يبلغ هذا النداء؟ أو كيف يصح أن يقع؟

وأجاب عنه بعض المفسرين بأن الله قادر على أن يقوى الأصوات والأسماع فيصير البعيد كالقريب، وبأنه يحتمل أن الله يجر إحدى الدارين إلى الأخرى، إما بإنزال العليا، أو برفع السفلى.

المنهج السليم فى الإيمان بالشئون الغيبية:

وإنى لأعجب من مثل هذه الأسئلة وأجوبتها، فكأن هؤلاء قد علموا المواقع الجغرافية لكل من الجنة والنار، وعرفوا النسبة بينهما، وعرفوا حقيقة الحجاب، وكيفية أصوات أهل الجنة وأصوات أهل النار، ومثل هذا لا يستحق النظر!.

وكذلك يسأل بعضهم فيقول: كيف يرى أهل الجنة أهل النار، أو العكس، مع أن بينهما حجابًا؟

ويقولون فى الجواب عن ذلك: يحتمل أن سور الجنة لا يمنع الرؤية لما وراءه لكونه شفافًا كالزجاج، أو أن فيه طاقات تحصل الرؤية منها.

وهكذا شغل بعض المفسرين الناس عن معانى العظة والاعتبار، والتخويف والإنذار، وصوروا لهم المعانى الغيبية التى استأثر الله بعلمها على نحو ما يشاهدون ويألفون، ولو أن التاريخ تقدم باختراع «الراديو» ناقل الأصوات، و«التليفزيون» ناقل الصور، لرأينا من يجيب عن سؤال الأصوات باستعمال الراديو، وعن سوال الرؤية بالتليفزيون!:

والمنهج السليم هو الإيمان بالغيب على ما جاء وفى حدود ما جاء دون تزيد أو محاولة لقياس الغائب على الشاهد، ولا يجب الإيمان فى ذلك إلا بما صح وأفاد العلم من كتاب أو سنة.

المشهد الأخير بين أصحاب الجنة:

بقى من مشاهد العذاب الأخروى ذلكم المشهد الأخير الذى تضمنته هاتان الآيتان: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾.

يستجدى أهل النار ـ بعد أن أحاط بهم العذاب ولفحتهم حرارة النار، واشتد بهم الظمأ وهم فى سموم وحميم ـ أهل الجنة أن يمنحوهم شيئًا مما يتمتعون به من شراب وطعام، ويقابل أهل الجنة هذا الاستجداء بما يقطع عليهم الأمل فى الحصول على ما يطلبون، ويؤكدون لهم أن الله حرمهما على الكافرين. وليس القصد تحريم التكليف والنهى، وإنما القصد تحريم المنع بطريقة القهر، وذلك على حد قوله تعالى: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾. فهو تحريم فعلى قضى الله به عليهم جزاء لموقف العناد والتكذيب، ثم وصفهم أهل الجنة بالوصف الذى اختاروه لأنفسهم وكان سببًا فى ذلك الحرمان: ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾.

اتخاذ الدين لهوًا ولعبًا والغرور بالدنيا:

والقرآن كثيرًا ما يضيف هذا الوصف إلى الكافرين ويعلن أنه سبب نكبتهم وسوء مصيرهم، والمعنى أنهم اتخذوا دينهم صورًا ورسومًا لا تزكى نفسًا، ولا تطهر قلبًا، ولا تهذب خلقًا، ولا تصلح فاسدًا. اتخذوا دينهم هكذا، وكان اشتغالهم به على هذا النحو صرفًا للوقت فيما لا يفيد وهو اللعب، أو شاغلا لهم عن الجاد النافع وهو اللهو. وقلبوا بذلك فى الوقت نفسه حقيقة الدين، وسلخوه عما أراد الله به من تطهير النفوس وتزكية القلوب وإصلاح المجتمع، ثم أرشد بقوله: ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ إلى العلة الحقيقية ـ التى لوت بهم الطريق، وعدلوا بها عن حقيقة الدين ـ وهى اغترارهم بزخارف هذه الحياة الدنيا، وانصراف قلوبهم إليها، وظنهم أنها الحياة ولا حياة لهم بعدها، فعكفوا على الجانب المادى المظلم وحرموا أنفسهم من الجانب الروحى المضىء، فعاشوا فى ظلمة حالكة فى الدنيا، وسيصيرون إلى ما اختاروا لأنفسهم فى الآخرة.

جماعة الماديين:

ولعل أظهر طائفة يصدق عليها هذا الوصف فيما بيننا هم جماعة الماديين، الذين أنكرت قلوبهم معانى الرحمة والعطف، وكفروا بما يجب أن تكون عليه صلة المخلوق بالخالق. هؤلاء الذين يتمثلون اليوم فى الطغيان المالى الفردي «الرأسمالية الفردية»، وفى الطغيان المالى الحكومى «الرأسمالية الدولية» فكلتا الطائفتين قد غرتهم الحياة الدنيا بحق، واتخذوا اللهو واللعب دينًا، به يتعبدون، وباسمه ينافقون، وإليه ينتسبون.

وإذا كانت الرأسمالية الفردية تستغل حاجة الفقير وتموت أمام طغيانها فضيلة الرحمة بالإنسان الضعيف، فالرأسمالية الدولية تستلب من الفقير المتكسب حقه، ومن العامل المجد أجره، وتركز المادة فى بضعة من الرجال القائمين بالحكم تحت ستار زائف هو ستار «العدالة الاجتماعية».

فليحذر من ينشق غبار هؤلاء وهؤلاء، كما تحذر طوائف أخرى ليسوا عنا ببعيد، اتخذوا دينهم صوراً ورسومًا بها يلهون ويلعبون: ينتهزون لها الأعياد والمواسم والاحتفالات التى خلعوا عليها اسم الاحتفالات الدينية، والحلقات التى خلعوا عليها اسم حلقات الذكر، والمواكب التى يسيرون بها فى الطرقات وقد أحاطت بهم الشياطين من كل الجهات، وخلعوا عليها اسم موكب الخليفة!! فليعتبر هؤلاء كما يعتبر هذا الفريق الثالث الذين يقيمون حفلات الملاهى باسم أعمال الخير التى يدعو إليها الدين. كل هؤلاء يصدق عليهم من قريب أو بعيد ﴿ **اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا** ﴾.

بعد هذا يسمعون الحكم الإلهى العادل ﴿ **فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** ﴾ جحدوا آيات الكون فلم تتفتح لها عيونهم، ولم تشتغل بها أفكارهم، ولم تتجه إليها قلوبهم وجحدوا آيات التشريع فلم يسمعوا لها ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ** ﴾ وأعرضوا عن حكم الله، وإرشاد الله، وأخلاق الله، وبذلك نسوا لقاء يومهم هذا، فوقعوا فيما وقعوا فيه، وحقت عليهم الكلمة، وباءوا بالخسران المبين.

لا عذر لهؤلاء بعد أن جاءهم كتاب الله:

وبعد هذه المشاهد يأتى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى**

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾.

تأتى هذه الآية فتقطع أعذارهم، وتبطل حججهم، وتبين أنهم هم الذين جنوا على أنفسهم، فقد بينا لهم وفصلنا فى كتبنا وعلى ألسنة رسلنا ما نعلم أنه سبيل سعادتهم، وجئناهم به واضحًا لا لبس فيه ولا غموض، مطابقًا للحق الذى نعلمه سبيلا للسعادة، فما كان منهم إلا أن تنكبوا الصراط ونبذوا ما فصلناه على علم وراء ظهورهم مؤثرين عليه إملاء الشهوات والأهواء، وإملاء الحياة الدنيا الفانية. فماذا ينتظرون؟ أينتظرون حقًا غير الحق الذى فصلناه لهم على علم منا ولا حق سواه، وقد ارتضيناه وأكملناه؟ أم ينتظرون باطلا غير الباطل الذى هم فيه؟ لم يبق لهم سوى أن ينتظروا عاقبة الأمر وما يؤول إليه الشأن حينما ينكشف لهم الحق ويعترفون به ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ يقولونها تندمًا وتحسرًا على ما ضيعوا من جانب ذلك الحق، وعندئذ يلتمسون شفعاءهم فلا يجدونهم، أو أن يردوا إلى الدنيا فيعملوا غير الذى كانوا يعملون، وهيهات فقد طويت حياة العمل، ومضت حياة الإيمان، وسجل عليهم الخزى والوبال و﴿ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ وبهذا عادوا إلى قولهم الأول حينما جاءتهم رسل الله يتوفونهم وقالوا لهم: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾.

التخويف بمصير المكذبين فى الدنيا:

لعلنا نذكر ما قلناه من قبل أن نعرض لهذا التصوير القرآنى لمشاهد يوم القيامة، وهو أن هذا التصوير يراد به التخويف من عاقبة الكفر ومصير الكافرين فى الآخرة، وأن السورة كما خوفت بهذا خوفت أيضًا بمصير الكافرين المكذبين فى الدنيا، فجاء فيها قوله تعالى:

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾.

وجاء فيها استعراض تاريخى لما كان بين الرسل وأقوامهم، وما صار إليه أمر هؤلاء الأقوام بعد تكذيب الرسل، والخروج على أمر الله ويبدأ ذلك من قوله تعالى فى الآية التاسعة والخمسين من هذه السورة:

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ** ﴾.

ويستمر هذا العرض التاريخى لمشاهد النضال والدعوة من الرسل، ومشاهد الكفر والتكذيب من المرسل إليهم وعواقب هذا التكذيب التى حلت بالمكذبين، فتذكر السورة «عادًا» وأخاهم «هودًا» و«ثمود» وأخاهم «صالحًا» و«لوطًا» وقومه و«شعيبًا» وقومه، وتفرد بعد ذلك نحو سبعين آية لتاريخ «موسى» و«بنى إسرائيل»، وكم عنى القرآن بتاريخ (بنى إسرائيل) وبيان ما لهم من ماض عريق فى الإفساد والتكذيب، والتلاعب والعبث بالآيات، واللىّ، والتحريف، والكتمان، والتآمر، وغير ذلك من الأخلاق والأعمال التى تدل على الأصالة فى التمرد والعصيان، والعراقة فى الكفر والطغيان.

تذكر السورة كثيرًا من مواقف هؤلاء مع نبيهم موسى، وما أصابهم من العواقب السيئة، كما تذكر فرعون وتكذيبه وتحديه وما حاق به، كل ذلك تضعه أمام أعين المكذبين بمحمد - ﷺ -، لتخوف بالعذاب الدنيوى الذى يحل بالمستكبرين، كما خوفت بالعذاب الأخروى فى عرض المشاهد التى ساقتها عن أهل الجنة وأهل النار وأصحاب الأعراف وغير ذلك.

وبهذا وذاك استكملت السورة ناحيتى التحذير والتخويف، فخوفت بالمصير الدنيوى، وخوفت بالمصير الأخروى، وجلّت الخطر الذى يتربص بالمكذبين تجلية عظمى ليس بعدها عذر لمعتذر!

ختام هذا السياق متسق مع البدء:

ثم ختمت السورة هذا العرض لمصائر الأمم التى كذبت رسلها، بمثل ضربته لأهل الجحود والجمود الذين لا تجدى معهم الموعظة، ولا تثمر فيهم النصيحة، فقالت:

﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾.

ومن حسن التناسق أن هذا المعنى الذى ختم به ذلك العرض التاريخى لمصائر الأمم المكذبة، قد جاء أيضًا فى ابتداء الكلام حيث يقول الله تعالى قبل قوله ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا** ﴾.

﴿ **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ** ﴾.

فهذه الآية تقرر أن الأمر أمر معادن وطبائع، فما كان معدنًا خبيثًا فلا ينضح إلا الخبيث، وما كان معدنًا طيبًا فلا ينضح إلا طيبًا، وهى شبيهة بمثل الذى أوتى الآيات فانسلخ منها وأخلد إلى الأرض تجاوبًا مع طبيعته المتأبية على الخير، اللاصقة بالفساد والشر.

تبكيتهم على موقفهم من الرسول ودعوته:

ثم أخذت السورة بعد هذا فى تبكيتهم على موقفهم من الرسول ومن دعوته فى التوحيد والبعث، وترد موقفهم هذا إلى إهمالهم قضية النظر فى صاحب الرسالة، وقضية التفكير فيما يدعوهم إليه: أهملوا التفكير فى صاحب الرسالة وتناسوا أنه صاحبهم الذى نشأ فيما بينهم، ورموه بالجنون تخلصًا من الإيمان به والاستماع إليه: ﴿ **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ** ﴾. وأهملوا النظر فى شأن الكون وما يدل عليه، وأشركوا بخالقه ما لم ينزل به سلطانًا وما لا يخلق شيئًا وهم يخلقون، ونددوا بالساعة فسألوا عنها

متهكمين مستهزئين ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ فتوجه السورة إليهم فيما يتعلق بالرسول: ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين ﴾.

الرمى بالجنون سلاح قديم للمكذبين:

وقد كان الرمى بالجنون هو أول سلاح يجرده القوم المكذبون فى وجوه الرسل، قصه القرآن عن قوم نوح لنوح ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين (٢٤) إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾ وحكاه عن فرعون لموسى ﴿ إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين (٣٨) فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ﴾، ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ وحكاه عن جميع الأمم التى كذبت رسلها ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون (٥٢) أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾.

وإذا كان الباطل متشابه الصور والألوان، والقلوب المنكرة ذات معدن واحد فى كل الأمكنة والأزمان فليس بدعا أن يقول قوم محمد لمحمد: «إنك لمجنون».

أوائل محمد تدل على أواخره:

وقد رد القرآن عليهم فحاكمهم إلى معرفتهم بمحمد منذ الصغر، وإلى أنه صاحبهم الذى نشأ بينهم وعرفوه بالعقل والحكمة، والصون والأمانة وسداد الرأى، وظل معروفًا بخلال العقل الراجح إلى أن بلغ الأربعين، لم تعرف عنه كلمة نابية، ولا هنة صغيرة، وأنه هو الذى دعاهم إلى التوحيد وتزكية النفوس وإلى الإيمان بالبعث والجزاء. وليس معقولا أن يظل معروفًا فيما بينهم هذا العمر الطويل بالعقل والحكمة ثم يصاب بالجنون بين عشية وضحاها، لا لشىء سوى أنه يدعوهم إلى التوحيد وإلى ما يطهرهم ويزكيهم ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴾. ﴿ ن والقلم وما يسطرون (١) ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾. ﴿ والنجم إذا هوى (١) ما ضل صاحبكم وما غوى (٢) وما ينطق عن الهوى (٣) إن هو إلا وحي يوحى (٤) علمه شديد القوى ﴾. ﴿ إنه لقول رسول كريم (١٩) ذي قوة عند ذي العرش مكين (٢٠) مطاع ثم أمين (٢١) وما صاحبكم بمجنون ﴾ فلا تيأس ولا تحزن ﴿ ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾؛ فتلك عادتهم، وتلك عادة أسلافهم مع إخوانك

المرسلين، ولابد أن يقال لك ما قيل لهم من قبلك، فطمئن نفسك ولا يضيق صدرك، ولك من إخوانك السابقين خير قدوة ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ . . ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ .

وليس من عجب بعد هذا إذا رمى أرباب الشهوة والهوى فى كل زمان دعاة الخير والمصلحين بالتهور والجنون، والخروج عن حد الاعتدال، فإنه سلاح سهل ميسور يلجأ إليه المفسدون وقد أعيتهم الحجة، ومقابلة الدليل بالدليل.

فعلى المصلحين ألا ييأسوا ولا يحزنوا، وليصبروا كما صبر أسلافهم من الأنبياء والمصلحين.

تبكيتهم على إهمال النظر:

ثم توجه إليهم السورة شديد التبكيت على إهمالهم النظر فى دلائل الوحدانية التى يدعوهم إليها، وفى كل شيء له آية ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ وكثيراً ما حث القرآن فى سبيل التوحيد على تدبر الكون علويه وسفليه، بسيطه ومركبه، وما أودع فيه من أسرار وحكم تدفع بالعقل إلى الإيمان بأن للكون مصدراً قد أفاض عليه الوجود، وبه كان بحق هو المعبود.

ثم تستنهض الآية هممهم، وتستعجل منهم النظر والاستدلال مخافة حلول الأجل؛ ومخافة الفوات بالموت: ﴿ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وعظتنا من هذا أن يسارع المؤمن إلى التخلص من ذنوبه وآثامه، وإلى مغفرة ربه ورضوانه، فإنه لا يدرى متى ينزل به القدر. وتطوى عليه الحياة.

ثم تعرج السورة على تقرير الحق فى وقت الساعة التى ينهمكون فى السؤال عنها ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ . فتبين أنها غيب لا يدخل العلم بها فى مهمة الرسالة وهى الإنذار بعذابها، والتبشير بنعيمها ﴿ وَلَوْ

كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

دستور خلقى للرسول ولكل مصلح:

وتتجه السورة بعد هذا إلى شخص الرسول، وترسم له طريق معاملته للخلق على وجه يقيه شر الحرج والضيق الذى كان يتعرض له من جراء موقفهم منه ومن دعوته. وتأمره بهذا الدستور الخلقي العظيم، وهو توجيه وأمر إلى كل من يخلفه فى الدعوة إلى الله : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ تأمره باللين وترك الغلظة، وتأمره باللطف والرفق : خذ من الناس السهل اللين، ولا تكلفهم ما لا يطيقون، ولا تحرجهم بما به يضيقون ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ . . ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ .

وترشده إلى الأمر بالعرف، بيانًا لما تعارف عليه العقل والشرع، وتأمره بالإعراض عن الجاهلين فيما يبدر منهم من أنواع السفاهة والإيذاء، وهذا هو شأن الربانيين ﴿ **وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** ﴾ . . ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** ﴾ .

وهذه الآية على قصرها تشتمل - كما قال العلماء - على مكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الإنسان مع أخيه الإنسان، وأنها سبيل لكل ما تطلبه الإنسانية الفاضلة لأبنائها الأبرار.

القول بالنسخ غير مقبول:

ولا يعرف معنى المبادئ الخلقية التى يضعها الإسلام لكل زمان ومكان ومع كل الجماعات والأفراد حتى الأعداء المحاربين، من يرى أن هذه الآية ومثيلاتها مما نسخته آيات القتال. وإن تقرير مبدأ الناسخ والمنسوخ في القرآن الذى رأى به بعض الناس أن مثل قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ كان فى صدر الإسلام ثم نسخ لجدير من العلماء - الغيورين على العنصر الأول من عناصر الدين وهو عنصر الخلق الكريم - بإعادة البحث والنظر فيه.

وبعد أن ترسم السورة للنبى ﷺ طريق المعاملة على هذا الوجه تضع له ولأمته الوسيلة التى تقيهم شر الخروج عن حدود هذا الطريق ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾.

يهيج الإنسان بطبعه عند الغضب الناشئ عن سفاهة الجاهلين، وواجبه عندئذ أن يتحصن بالله، وأن يرجع بالأمر كله إليه، وأن يذكر عظمته وسلطانه فيطمئن قلبه ويشرق عليه نور الحق، فيتضح له الطريق، ويسير فيما رسم الله ولا يندفع مع نزغ الشيطان ووسوسته ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ يتمسكون بالحق، ويسترشدون ببصائر الله التى أوحى بها إلى عبده ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

الاستماع والإنصات إلى القرآن:

ثم توجه إليهم الأمر بالاستماع والإنصات إذا تلى عليهم القرآن، ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. فلا يقولون كما اعتادوا: ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ ولعلهم إذا استمعوا وأنصتوا وقفوا على حقيقته وظهرت لهم أسراره، وعرفوا أنه المعجزة التى لا تطلب بعدها معجزة؛ فيستغنون به عن طلب المعجزات، ولا يقولون إذا لم تأتهم بآية من الآيات التى يقترحونها ﴿ لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ اختلقتها وافتلعتها من تلقاء نفسك كما اختلقت القرآن.

استنباطات الفقهاء من الآية ورأينا فيها:

هذا هو الوجه الذى ينبغى أن تفهم به هذه الآية الكريمة، ولا يعجبنى تخريجها على أنها تشريع خاص للمؤمنين فيما يختص بتحريم الكلام فى الصلاة، أو بالسكوت عند الخطبة، أو بالقراءة خلف الإمام، كما يذهب إليه كثير من العلماء، ويجعلونها مثار جدل ونقاش حول هذه المسائل الثلاث، فإنها على أى وجه من هذه الوجوه لا تلتئم مع السياق، ولا مع وقت النزول. والقراءة خلف الإمام سراً أو جهراً من المسائل الجزئية التى تختص بالمؤمنين فى صلاتهم، ويبعد كل البعد أن يوكل بيان عدد الركعات والكيفيات الأولى للصلاة إلى بيان الرسول عن طريق الوحى الباطنى دون أن يتعرض القرآن لشىء

من ذلك، ثم يعنى القرآن بخصوص القراءة خلف الإمام سرًا أولا سرًا ولا جهرًا!! فما أبعد هذه الآية عن هذه المسألة، وما أبعد هذه السورة فى موضوعها وفى وقت نزولها عن الاهتمام بمثل هذا!!

استحضار عظمة الله دائمًا:

وبعد أن تأمر السورة بهذا العلاج فيما يختص بالمعاملة، وفيما يختص بقراءة القرآن، تأمر بملاك الأمر كله وهو ذكر الله فى القلب بعظمته وجلاله رجاء لثوابه، وترشد إلى أن يكون بهدوء واطمئنان لا بجهر وإزعاج، حتى تهدأ الأعصاب ويسبح الفكر فى معانى الجلال والجمال، كما ترشد إلى أن يكون ذلك شأنك فى كل وقتك: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ** ﴾.

استحضر عظمة ربك من مشاهداتك فى سننه الكونية، وآثاره العلوية والسفلية، وإنعاماته المادية والروحية، فتعرف على ربوبيته، وتذلل أمامها بعبوديتك ﴿ **تَضَرُّعًا وَخِيفَةً** ﴾ واذكر ربك على هذا الوجه هادئ النفس، مطمئن البال، غير مزعج لنفسك، فتفاض عليك لذائذ الأسرار الروحية، وتصير ميدانًا للفيوضات الإلهية، فيبعث منك وإليك الخير، وتكون فى مراقبة دائمة، وشهود مستمر ﴿ **وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ** ﴾.

وليعتبر بهذا هؤلاء الأقوام الذين يزعجون أنفسهم ويزعجون الناس بأصواتهم المنكرة وحركاتهم العابثة، وأجسامهم الملتوية باسم ذكر الله فى الطرقات، فى الحفلات الصاخبة بالناى والعود، فى المساجد. وقد بلغ العبث بذكر الله - الذى وضعه سبيلاً لاطمئنان القلوب، واستحضار عظمته - أن يعرض فى المذياع بالناى والعود تمثيلا لا حقيقة، وتلهية لا تصفية، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم تختم السورة بالإرشاد إلى أن الملائكة مع نهاية شرفهم وسمو مرتبتهم، معترفون بذل عبوديتهم، خاضعون لعز الربوبية، لا يخالجهم فى عبادتهم كبر، ولا يأخذهم عنها صلف، بل هم دائمًا يسبحونه وله يسجدون. فما أحوج الإنسان وقد ركبت فيه مبادئ الشهوة والغضب أن يتخذ إلى ربه سبيلا، وما أضعف عقله حينما يتجه إلى الملائكة أنفسهم بالعبادة والتقديس فضلا عن الأصنام والأحجار.

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ** ﴾.

وهذه إحدى الآيات التى طلب من المؤمنين أن يسجدوا عند تلاوتها أو سماعها وهى أربع عشرة آية فى القرآن الكريم، وهذه السجدة المعروفة عند الفقهاء والمسلمين بسجدة التلاوة: وهى سجدة بين تكبيرتين: تكبيرة لوضع الجبهة على الأرض وتكبيرة للرفع من السجود دون تشهد ولا تسليم، ويشترط لها ما يشترط للصلاة من الطهارة والنية واستقبال القبلة. وعلى من أراد تفصيل أحكامها ومعرفة أحوالها أن يرجع إلى كتب الفقه.

الحكمة من سجود التلاوة:

والحكمة فيها ـ كما ظهر لنا من الآيات ومواردها ـ نستطيع أن نجملها فى هذه الكلمة القصيرة:

هى نوع من التربية العملية الروحية فى إعلان التمسك بالحق والإعراض عن الباطن، ومراغمة المبطلين، والسير فى طريق المثل العليا للذين حملهم الله أمانة الحق والدعوة إليه؛ وبذلك كانت سجدة التلاوة ـ رغم إهمال المسلمين لها ـ شعاراً عامًا للمؤمنين فى إعلان تقديسهم لمبادئهم، وتقديس كتابهم، وشدتهم فى مخالفة الباطل والمبطلين كلما قرءوا القرآن وكلما سمعوه.

أما تفصيل هذه الحكمة فهو كما يأتى:

١ ـ المسايرة لروح العبودية العام الذى أخضع الله عليه الكون، وذلك كما تراه فى آية الرعد: ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ** ﴾.

٢ ـ التلبية لمقتضى الإيمان والعلم كما تراه فى آية الإسراء: ﴿ **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾.

٣ ـ مراغمة الكافرين الذين أبوا أن يسجدوا لله حين أمروا بالسجود لله، وهذا كما نراه فى آية الفرقان: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا** ﴾.

٤ ـ التحذير من السجود لأرباب العظمة الفانية وتخصيص السجود لله الواحد القهار،

وذلك كما في آية فصلت: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾.

٥ ـ المبادرة إلى التأسي بالرسول ـ ﷺ ـ في إعراضه عمن كذب وتولى، وائتماره بالسجود لله والاقتراب منه: وذلك كما في سورة العلق ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾.

٦ ـ الاقتداء بالأنبياء والسير في طريقهم، إظهاراً لوحدة الدين عند الله وذلك كما في آية مريم: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

٧ ـ التشبه بالملأ الأعلى الدائم السجود لله عند تقرير سجودهم لله، وذلك كما في هذه الآية التي تختم بها سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

جعلنا الله من المسبحين بحمده، الساجدين له، المقتدين بأنبيائه، المتشبهين بالملأ الأعلى، إنه سميع قريب.

ســـــورة الأنفـــال

- سورة «بدر».
- السورة تحل مشكلات المؤمنين بعد بدر.
- مبادئ حربية تضعها السورة.
- شبهتان لخصوم الإسلام والجواب عنهما.
- «يسألونك» فى القرآن.
- مبادئ توجيهية وتشريعية مستنبطة من تتبع آيات السؤال والجواب فى القرآن.
- صفات المؤمنين وحكمة تفريقها على سور القرآن.
- نداءات إلهية للمؤمنين.

(٨) سورة الأنفال مدنية
وآياتها خمس وسبعون

السور السابقة ونوعها:

هذه هى السورة الثامنة فى الترتيب المصحفى من القرآن الكريم، وقد تقدمتها سورة الفاتحة وهى مكية، وجاء بعد الفاتحة أربع سور مدنية متتالية، هن أطول السور المدنية فى القرآن: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة. ثم تلت هذه الأربع سورتان مكيتان، هما أطول السور المكية فى القرآن: الأنعام، والأعراف. ثم جاءت سورتنا هذه: الأنفال، والتى بعدها سورة التوبة، وهما مدنيتان.

موضوع السور المكية:

ومن المعلوم أن المكى - وهو ما نزل قبل الهجرة - يتضمن أصول الدعوة، وهى قضايا التوحيد، والوحى، والبعث. كما يتضمن الإرشاد إلى أمهات الأخلاق الفاضلة، وقد عنى فى سبيل ذلك بتوجيه الأنظار إلى أدلة القضايا الثلاث، ومناقشة حجج المشركين فيها بما لم يدع شبهة لمشرك فى إشراكه، ولا لمنكر البعث فى إنكاره، ولا لمعرض عن تصديق الرسول فى رسالته. والمكى بعد هذا يعرض كثيراً لقصص الأولين ونتائج تكذيبهم لرسلهم، أخذاً بالقوم إلى مواضع العظة والعبرة بمن وقفوا موقفهم وعاندوا عنادهم. نرى كل ذلك فى سورتى الأنعام والأعراف وما شاركها فى النزول قبل الهجرة.

موضوع السور المدنية:

أما السور المدنية فإنها قد عنيت - فيما يتصل بالمخالفين - بمجادلة أهل الكتاب الذين كانوا يجاوزون الرسول فى المدينة، ويثيرون الشكوك والشبه فيما يختص برسالته. كما عنيت فيما يختص بالمؤمنين بتفصيل كثير من الأحكام التى ينظمون بها شئونهم الداخلية

والخارجية . ونرى ذلك فى سور : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وما شاركها فى النزول بعد الهجرة .

موضوع سورتى الأنفال والتوبة:

وقد جاءت سورت الأنفال والتوبة تعالجان بعض النواحى الحربية التى ظهرت إثر بعض الغزوات ، وقد تضمنتا كثيراً من التشريعات الحربية والإرشادات التى يجب على المؤمنين اتباعها فيما بينهم بعضهم وبعض ، وفيما بينهم وبين المحاربين والمسالمين .

سورة «بدر»:

وأولاهما : وهى سورة الأنفال ، نزلت بمناسبة غزوة بدر ، وقد أطلق عليها لذلك بعض الصحابة «سورة بدر» ومن المعلوم من تاريخ الغزوات أن غزوة بدر كانت فى رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكانت هى الجولة الأولى من جولات الحق فى تقليم أظافر الباطل ، ورد البغى والطغيان ، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين قعد بهم الضعف فى مكة وأخذوا فى الضراعة إلى الله ﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾ .

وقد استجاب الله ضراعتهم فهيأ لهم ، كما هيأ لكلمة الحق ولتخليص بيته من سلطان أعداء الله ، هيأ لهم ظروف تلك الغزوة التى تم فيها النصر للمؤمنين ، على قلة فى عُددهم وضعف عددهم ، وعلى عدم تهيئهم للقتال ، وبها عرف أنصار الباطل أنه مهما طال أمده ولمع برقه ، وامتد سلطانه ، وقويت شوكته ، فلا بد له من يوم يخر فيه صريعًا أمام روعة الحق وقوة الإيمان ، وهكذا كانت غزوة بدر ، كانت نصراً للمؤمنين وهزيمة للمشركين وكانت فى الوقت نفسه حافزة للقلوب الحية المؤمنة أن يجد سيرها فى طريق الهدى والرشاد ، وقاطعة للأمل على ذوى القلوب المريضة أن يستمر لهم سلطان أوتعلو لهم كلمة أو تثبت لهم قدم .

الجو الذى نزلت فيه السورة:

وقد كان للمسلمين فى تلك الغزوة شئون ، كان لهم فى أولها حينما طلب إليهم

الرسول أن يخرجوا لمصادرة العير القرشية شأن، هو: أيخرجون إطاعة للرسول؟ أولا يخرجون، حرصًا على أموالهم في المدينة؟ وكان لهم بعد أن خرجوا ـ ووجدوا العير قد مرت وفاتهم أن يحصلوا عليها ـ شأن، هو: أيستجيبون للرسول ويقاتلون قوى الشرك التي تكتلت وخرجت من مكة لقتالهم، أو يرجعون لأنهم لم يخرجوا عند أنفسهم للقتال ولم يستعدوا للنضال؟ وكان لهم بعد أن أمدهم الله بروح من عنده ـ وأمكنهم من عدوهم القوى بالقتل والأسر والغنيمة ـ شأن: ففى الأسرى أيقتلونهم أم يطلقون سراحهم بالفداء؟ وفى الغنائم التى حصلوا عليها: أيختص بها الشبان المحاربون أم يشاركهم فيها الحراس وأصحاب الرأى؟

مجمل ما عرضت له السورة:

كانت هذه الشئون هى الجو الذى نزلت فيه سورة الأنفال فعنيت ببيان الحلول فيها، وقد بدأت بمسألة الأنفال ليكون مطلع الحديث تسجيلا لنعمة النصر التى ساقت إليهم تلك الأنفال، وإيحاء إلى أن حصولهم على تلك الأنفال كان يجب أن يكون من بواعث الطاعة لا من بواعث المخالفة، وبواعث الائتلاف لا من بواعث الاختلاف، وهكذا بدأت السورة بحل مشكلة الأنفال ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ** ﴾ والأنفال فى هذا المقام هى الغنائم التى حصلوا عليها من غزوة بدر، وقد أرشدتهم السورة إلى أن الشأن فى توزيعها لا يرجع إلى آرائهم وإنما هو لله ورسوله: ﴿ **قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ فيها يحكمان، ولها يوزعان، وقد جاء الحكم بعد فى قوله تعالى من السورة نفسها: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾.

واجب المؤمنين:

ثم انتهزت السورة هذه المناسبة وأرشدتهم إلى ما يجب أن يتحلوا به حتى يحصلوا على الظفر الدائم والنصر المستمر، وهو القوة المعنوية التى بينت عناصرها بقوله: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ**

يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

ثم تعود السورة بعد هذا إلى موقفهم الأول حينما أمروا بالخروج ، وتذكر أن الذين كرهوه وتلكئوا فيه ، وأخذوا يتعللون مرة بالأموال ، وأخرى بعدم الاستعداد ، قد انحرفوا عما يوجبه الإيمان عليهم من الطاعة والامتثال ، وعما يجب على المؤمنين الصادقين أن يلبوا دعوته ، وهى دعوة القوة والشوكة ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

وفى شأن الأسرى وفدائهم أو قتلهم تقول : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . وهكذا حلت سورة الأنفال المشكلات التى اعترضت المسلمين بمناسبة غزوة بدر .

تذكيرهم نعم الله عليهم:

وقد انتهزت هذه الحلول وتلك المشكلات فذكرتهم بنعمة الله عليهم فى تلك الغزوة من الإمداد بقوى النصر واستجابة الدعاء : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ . ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ .

وكما تذكرهم السورة بنعم الله عليهم فى الغزوة ، تذكرهم بسابق نعمه عليهم قبلها حينما آواهم وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات ، بعد أن كانوا مستضعفين فى الأرض ، وحين مكر الكفار برسولهم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ

مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ .

وكما تذكرهم السورة بنعم الله عليهم فى الغزوة وفيها تذكرهم أيضًا بحالة أعدائهم الذين آثروا الكفر والعناد على الإيمان والطاعة، وانطمست قلوبهم عن الحق، وانقلبوا على أنفسهم يلتمسون العذاب إن كان ما يدعوهم إليه محمد هو الحق من عند الله : ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم تؤكد لهم أن أعداءهم مهما أنفقوا من أموال فستكون عاقبتها الدمار والنكال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ .

مبادئ حربية:

وقد انتهزت السورة أيضًا فرصة هذه الغزوة فأرشدت المسلمين إلى جملة من المبادئ إذا تمسكوا بها وحافظوا عليها حالفهم النصر وصاحبهم التوفيق. وفى هذا الجانب بينت السبب الذي يبيح الحرب، والغاية التى تنتهى عندها : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ . وأمرت بإعداد العدة ضمانًا للسلم وإرهابا للأعداء : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ .

وقررت إيثار السلم على الحرب متى وجد السبيل إليه ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وأمرت بالمحافظة على العهود وبإعلان النبذ عند إرادته، كما أمرت بطاعة الرؤساء والقواد، والاحتفاظ بأسرار الدولة والثبات فى الحرب. واقرأ

في كل ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾. ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ ﴾.

الولاية بين المؤمنين:

وأخيراً بينت السورة أن المؤمنين فى ظل هذه المبادئ وتلك الإرشادات مهاجريهم وأنصارهم بعضهم أولياء بعض، وأن عليهم نصر الذين يستنصرونهم من المؤمنين الذين لم يهاجروا، وأنه لا ولاية بينهم وبين الكافرين، فالذين كفروا بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ـ من هاجر منهم ومن نصر ـ بعضهم أولياء بعض. ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

وانظر كيف بدأت السورة وختمت بأوصاف المؤمنين حقًا، وفى هذا، وفيما ذكرت من نعم الله على المؤمنين يتضح لنا مدد النصر الذى يعده الله لعباده المخلصين، وهو مدد دائم يتبع الإيمان والإخلاص أينما وجدا، فجدير بالمؤمنين أن يعملوا للحصول عليه بتقوية الإيمان بالله والإخلاص لدعوة الله فيمكن لهم إقرار الحق، وبث العدل، وإقامة النظام على الوجه الذى يسعدهم ولا يشقيهم، ولو علم الناس آثار هذا المدد الإلهى، وطهروا به نفوسهم لسخروا من وسائل التخريب والتدمير التى يتفانى فيها رجال العصر الحاضر، والتى لا يخرج منها الفريقان إلا بالهزيمة المنكرة والضعف الشامل.

هذا هو الجو الذى نزلت فيه سورة الأنفال، وهذا هو مجمل ما تضمنته من مبادئ وإرشادات.

شبهتان لخصوم الإسلام:

ويجدر بنا قبل أن ندخل فى تفصيل هذا الإجمال أن نقدم مقدمة تتضمن أمرين، نرى الكلام عليهما ضروريًا قبل الحديث عن سورتى الأنفال والتوبة، لا سيما وقد اتخذ منهما خصوم الإسلام وسيلة للطعن فى الإسلام، محاولين بذلك أن يثيروا على الناس فتنًا تصرفهم عن هذا الدين، وتصوره لهم بصورة كريهة منافية لما تتشدق به ألسنة هذا العصر من محبة للسلم، ورأفة بالإنسانية مما يقولون بأفواههم وتنكره أعمالهم.

الشبهة الأولى فى سبب الحرب:

الأمر الأول: إن الإسلام بمشروعية الحرب اتخذها سبيلا لإكراه الناس على اعتناقه، فهو لم ينتشر إلا بحد السيف، ولم تقبله الأمم إلا تحت سلطان القهر والإلجاء.

الشبهة الثانية فى سبب غزوة بدر:

الأمر الثانى: قالوا: إن المسلمين لم يخرجوا حين خرجوا لغزوة بدر باسم الانتصار للدين، أو إعلاء كلمة الله، أو للدفاع عن النفس، أو المحافظة على الوطن، وإنما خرجوا فى هذه الغزوة كما خرجوا فى سراياهم من قبل قاصدين السلب والنهب، وقطع الطريق على تجارة قريش التى كانت تتردد فى ذلك الحين بين مكة والشام، وقد اضطروا بظروف خارجة عن تفكيرهم وتدبيرهم إلى الالتحام فى هذه المعركة مع أرباب الأموال الذين خرجوا للدفاع عن أموالهم.

منشأ الشبهتين:

هاتان شبهتان أثارهما خصوم الدين، تتصل بمشروعية الحرب فى الإسلام، وتتصل الأخرى بالخروج إلى بدر. وعند التأمل نجد أن منشأ الشبهتين عند هؤلاء الخصوم أمر واحد، هو اقتران ظهور الدين الإسلامى وانتشاره بالحرب التى وقعت فى أيام الدعوة بين المسلمين وغيرهم، واقتران غزوة بدر بحادثة العير الراجعة من الشام.

اتخذ المثيرون لهاتين الشبهتين من هذا الاقتران دليلا على أن الحرب لم تكن فى الإسلام إلا لقصد إكراه الناس على اعتناقه، وعلى أن غزوة بدر لم تكن إلا بسبب محاولة الاستيلاء على أموال قريش.

إن اقتران شيء بشيء في الوجود لا يدل بمجرده على سببية أحدهما للآخر: يعلم هذا أصحاب العقول المتوسطة كما يعلمه أصحاب العقول الراجحة. وإن الشأن في معرفة الأسباب والمسببات إنما هو الفحص والتعمق، وعدم الاكتفاء بالنظرة السطحية.

إننا لو نظرنا إلى هذا الموضوع نظرة منصفة فاحصة لتبين لنا أن الزعم الذي زعموه في هاتين المسألتين باطل.

تفنيد الشبهة الأولى:

أما في المسألة الأولى فلما يأتي:

إن حقيقة الإيمان ترجع - دون منازعة أحد - إلى الإذعان القلبي، والاطمئنان إلى حقيقة من الحقائق بحيث لا يقترب منها شك. فإذا وجد هذا المعنى في القلب وجد الإيمان وتحقق، وإذا لم يوجد لم يوجد الإيمان ولم يتحقق.

لا سلطان للإكراه في الإيمان:

ولا ريب أن الإكراه ليس له سلطان على القلوب، وإنما سلطانه على الجوارح، والظواهر، والأعمال.

فهل نستطيع أن نقرر أن الغاية التي كان يعمل لها الإسلام هي مجرد إخضاع الجوارح وإكراهها على أن تُظهرَ صورة الإيمان؛ وحسب محمد هذا في تبليغه رسالة ربه؟

لا نستطيع ولا يستطيع أي منصف أن يجيب بنعم، ذلك أن نصوص الإسلام في كتاب الله جل وعلا صريحة في أن الإكراه لا يكون في الدين.

يقول الله تعالى: ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ حقيقة يقررها القرآن، ويواجه بها الذين شرع قتالهم، وليس من المعقول أن يواجههم بها وهو يعمل على نقيضها. ويقول للرسول - ﷺ -: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾.

وهذا أيضًا تقرير للحقيقة نفسها عند الرسول - ﷺ -، وإرشاد إلى أن الله سبحانه وتعالى ترك الناس واختيارهم في الإيمان والكفر، وأنه لو شاء أن يكونوا جميعًا مؤمنين لخلقهم على طبيعة الإيمان بحيث لا يستطيعون أن ينخلعوا منه إلى الكفر.

ويقول فى شأن فرعون حين أدركه الغرق فآمن: ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ يريد أن هذا الإيمان الذى نطقت به فى تلك الحال التى رأيت فيها ما رأيت من العذاب لا يعتد به ولا ينفعك، ولا يتقبله الله وهو يدل على أن الإيمان المعتد به ما كان نابعًا من القلب.

ويقول: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾.

وهذه أيضًا آية صريحة فى تقرير الحقيقة وهى إهدار دعوى الإيمان تحت سلطان البأس والقوة.

وكما نجد هذا فى إهدار الإيمان تحت سلطان القهر والقوة نجد عكسه فى القرآن أيضًا. نجد إهدار مظهر الكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان، وفى ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

من هذا كله يتبين أن الإسلام يأبى أن يعترف بمظهر الإيمان الناشئ عن القهر والإلجاء، كما لا يعبأ بمظهر الكفر تحت الضغط والإكراه مع اطمئنان القلب بالإيمان.

الرسول ليس مسئولاً عن الكافرين:

هذا، ونرى القرآن الكريم من ناحية أخرى حرص على أن يبرز مهمة الرسول فى التبليغ بالإنذار والتبشير. أبرز ذلك فى مكى القرآن يوم كان المسلمون قلة لا حول لهم ولا قوة، وأبرزه فى مدنيه يوم أن صارت إليهم القوة وأصبحوا أولى بأس شديد، فمن المكى قوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ وقوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ ومن المدنى قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾.

هذه الآيات وأمثالها واضحة فى تقرير أن الرسول غير مسئول أمام ربه عن كفر من كفر، وعناد من عاند، حتى يتخذ القهر والإلجاء طريقًا للإسلام.

ذيوع الإسلام عن طريق الأسفار:

وهناك وراء ما يستفاد من هذه النصوص وأمثالها فى تقرير تلك الحقيقة أمر واقعى يشهد به التاريخ فى أحوال الذين دخلوا الإسلام، ذلك أن كثيراً من الأقطار الإسلامية قد دخلها الإسلام عن طريق التجارة، والسياحة، وتبادل الزيارات من غير أن يكون للحرب دخل فى إسلامها، وأن كثيراً من هؤلاء وغيرهم الذين دخل الإيمان فى قلوبهم تقلبت عليهم عوامل الضغط والإلجاء لإخراجهم عن دينهم، وإكراههم على التخلى عنه، فلم تنجح هذه العوامل، ولم تزدهم إلا تمسكا بدينهم، وقوة فى إيمانهم.

السبب فى مشروعية الحرب:

هذا ما تشهد به النصوص، وهذا ما يشهد به التاريخ قديمه وحديثه، فلنتجه إذن إلى البحث فى تعرف السبب الذى لأجله شرع الله الحرب فى الإسلام.

ولنذكر مراحل الدعوة من مبدئها إلى أن أذن الله بالحرب للمسلمين: بدأت الدعوة سراً، فآمن نفر قليل كانت تجمعهم والنبى - ﷺ - وشائج الرحم، أو الصداقة، ثم أخذت طور الجهر فوجهت إلى العشيرة الأقربين، ثم إلى الناس أجمعين، ورآها المشركون تسرى ويكثر معتنقوها فلم يطيقوا عليها صبراً، فبدءوا بمساومة الرسول وإغرائه على ترك دعوته بما يطلب من مال أو جاه أو ملك فكانت كلمته المأثورة: والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه، فاتجهوا إلى العنف والاضطهاد، وقد دون التاريخ من حوادث التعذيب للمسلمين الأولين ما تقشعر لهوله الجلود، وما دفع المسلمين إلى أن يفكروا فى الخلاص بدينهم ووقاية أنفسهم ودعوتهم، فهاجروا إلى الحبشة مرة ومرة، والتجئوا إلى الطائف، فلم تنفعهم الهجرة، ولم ينقذهم الالتجاء، واشتد ضغط الكفار عليهم فى الإيذاء حتى ائتمروا أخيراً بالنبى - ﷺ - وقرروا فيما بينهم قتله، فكانت الهجرة إلى المدينة، وبالهجرة أخذت الدعوة تسرى، بما تحوى فى طبيعتها من جلال وجمال، حتى كونت لنفسها أنصاراً من شباب يثرب عاهدوا الرسول على الموت فى سبيل نشرها وحمايتها.

وهنا سقط فى أيدى المشركين، واشتد حنقهم على المسلمين، وأخذوا يتحينون الفرص للكيد للمهاجرين وإخوانهم فى المدينة، ويصبون العذاب من جهة أخرى على المؤمنين المستضعفين الذين لم يجدوا سبيلا إلى الهجرة من مكة.

هذه مراحل الدعوة، وهذه مواقف المشركين من محمد وصحبه، ولو أنهم تركوه يقوم بدعوته فيؤمن بها من يؤمن، ويصدف عنها من يصدف، ولم يعنفوا عليه وعلى متبعيه، ولم يضيقوا عليهم حتى يخرجوهم من ديارهم، ويحرموهم من أوطانهم التى شبوا بها وترعرعوا - وحب الأوطان لاصق بالنفوس - ولو لم يحولوا بينهم وبين بيت الله الحرام الذى كان محل تقديس عام من العرب، وتقديس خاص من المؤمنين: نقول: لو أنهم تركوا المسلمين وشأنهم هكذا لما أريقت قطرة من دم، ولا انتشرت دعوة الإسلام بما تحمل فى طبيعتها من قوة ووضوح وجلاء، وبما تجد من إقبال الطبائع المستقيمة عليها، ولو أن محمداً - ﷺ - قبع بعد الهجرة فى المدينة، والأنباء تأتيه بما يدبر له القوم، وبما يتربصون به وبأصحابه من الإغارة عليهم فى المدينة، ومحاولة أن يطاردوهم منها كما طاردوهم من مكة - نقول: لو أنه - ﷺ - قبع فى المدينة - ولم تبد منه أمارات القوة والحيطة والحذر والتهيؤ لرد العدوان - لما استقامت له دعوة، ولفاجئوه فى عقر داره.

ولم يكن لمحمد - ﷺ - والمؤمنين معه بد من أن يقدروا هذه الظروف كلها، وأن يذكروا المستضعفين فى مكة، وأن يذكروا أوطانهم وأموالهم، وأن يذكروا أن دعوتهم - وهى دعوة الحق - يجب أن تنشر، وأن يعودوا بها إلى مكة، وأن يطهروا بيت الله من الأصنام والأوثان، وأن يفسحوا المجال أمام الدعوة حتى تسرى وتعم كما أمر الله.

آية الإذن بالقتال:

قدر محمد كل هذه الظروف وتكاملت أسباب الحيطة والحذر فأذن الله لهم فى الحرب. وجاء الإذن لها فى آية تحمل أسبابها ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾.

جاء الإذن في هذه الآية الكريمة بالقتال ولم تعلله بنشر الإسلام أو إلجاء الناس إليه، وإنما عللته بما وقع على المسلمين من ظلم، وما أكرهوا عليه من الهجرة والخروج من ديارهم من غير حق إلا أن يقولوا كلمة الحق، ثم لا تقف الآية الكريمة عند هذا الحد، بل تبين أن هذا الإذن موافق لما تقضي به سنة التدافع بين الحق والباطل حفظًا للتوازن ودرءًا للطغيان، وتمكينًا لأرباب الخير والصلاح من التمسك بعقائدهم وأداء عبادتهم، ثم ترشد إلى أن الله إنما ينصر بمقتضى سنته من ينصره ويتقيه فلا يتخذ الحرب أداة للتخريب والإفساد، ولا يترك عوامل الشهوات والمطامع تخرب وتدمر، وأنه لا ينصر إلا من إذا تمكن في الأرض قام بحق الله وحق العباد وحق المجتمع.

هذه آية واضحة، وهي أول آية نزلت في القتال، ليس فيها شائبة من شوائب الإكراه في العقيدة، وإنما هي على العكس تقرر أن الحرب أمر لا بد منه حفظًا للنظام، وتقليمًا لأظافر البغي والطغيان، ولولاها لفسدت الأرض وهدمت فيها أماكن العبادة، ومن الغريب أن الآية لا تنظر في هذا الشأن إلى المسلمين خاصة بل تقول: ﴿ **لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ** ﴾.

آيات صريحة في سبب القتال:

وعلى هذا الأساس جاءت آيات القرآن الواردة في القتال صريحة في تحديد سبب الحرب، وفي جعله خاصًا بالاعتداء على الدولة، ومحاولة فتنة الناس في دينهم، مع التحذير من الاعتداء: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾. ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾. ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾. ﴿ **وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾.

ومن يتتبع آيات القرآن الواردة في القتال يجدها جميعها واردة على هذا المبدأ: تقرر أن

سبب القتال فى الإسلام ينحصر فى رد العدوان، وحماية الدعوة، وحرية الدين وتطهير الأرض من الطغيان والمظالم، وأن القتال لم يقصد به إذلال الضعفاء، ولا اتخاذه طريقًا للإكراه على العقيدة والإيمان.

إباحة البر بغير المعتدين:

على أن الإسلام يذهب إلى أبعد من هذا ولا يقف عند مجرد الكف عن العدوان حيث لا عدوان، ولكن يبيح للمسلمين أن يحسنوا ويقسطوا مع الذين يخالفونهم فى الدين ما داموا لم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من ديارهم.

﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾.

إباحة معاملاتهم ومصاهرتهم:

بل يذهب إلى أكثر من هذا. يذهب إلى مخالطة أهل الكتاب فى الطعام والشراب، وإلى إحلال مصاهرتهم وما أدراك ما المصاهرة؟ هى العلاقة التى تتكون بها الأسر، وبها يمتزج الطرفان ويشتركان فى التناسل والمسئولية عن تربية الأبناء، وهذا أسمى ما يتضاءل أمام روعته أحدث مبدأ فى العلاقات الدولية العامة.

ومن هنا يتبين ما قررناه من أن الحرب فى الإسلام لم تكن للإكراه على الدين، وأن اقترانها بانتشار الدعوة ليس دليلا ولا شبه دليل على سببية الحرب فى هذا الشأن.

شبهة فى آية وحديث:

بقى أن بعض الخصوم تمسك بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً** ﴾ وزعموا أن الدين الإسلامى يأمر بقتال الكفار عامة، حصل اعتداء منهم أم لم يحصل، حتى يؤمنوا ويدينوا بالإسلام.

وكما تمسكوا بظاهر هذه الآية تمسكوا بحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» والواقع أن الآية ليست واردة فى بيان سبب القتال، وإنما جاءت إرشادًا لخطة

حربية عملية يجب أن يترسمها المسلمون عند نشوب القتال المشروع، فهى ترشدهم إلى وجوب البدء عند تعدد الأعداء بقتال الأقرب فالأقرب، عملا على إخلاء الطريق من الأعداء المناوئين، وتسهيلا لسبل الانتصار، وهذا المبدأ الذى قرره القرآن من المبادئ التى تعمل بها الدول المتحاربة فى العصر الحديث، فلا تخطو دولة محاربة إلى دولة أو قوة بينها وبينهم دول أو قوى محاربة، عملا على الاطمئنان إلى زوال العقبات من الطريق.

وأما كلمة «الناس» فى الحديث فالمراد بها هؤلاء المشركون أو الكفار الذين أباحت الآيات ـ التى تلونا ـ قتالهم، وبذلك اتفقت الآيات بعضها مع بعض، واتفقت مع الحديث وسقط ذلك الزعم الباطل.

تفنيد الشبهة الثانية:

ولننظر على هذا النحو أيضًا فى اقتران غزوة بدر بموضوع مصادرة أموال الأعداء، ولا ريب أن الحرب ليست خاصة بالقتل والقتال، ولكنها كما تكون بذلك تكون أيضًا بتخضيد شوكة الأعداء عن طريق مصادرة أموالهم التى عليها يعتمدون، وأظن أن هذا نوع من الحرب معروف فيما بين دول العصر الحاضر، وقد صودر المسلمون فى أموالهم وأخرجوا من ديارهم، وأذن لهم أن يفعلوا بأعدائهم مثل ما فعلوا بهم: مصادرة بمصادرة، وتربص بتربص وأكبر دليل على أنهم لم ينبعثوا عن رغبة فى السلب والنهب والاستيلاء على الأموال أنه لم يؤثر عنهم التفكير ولو مرة واحدة فى أن يتجهوا إلى غير قريش فيسلبوا وينهبوا، وقد كانوا يعيشون مع اليهود فعاهدوهم وأمنوهم وأحسنوا جوارهم، وظلوا محافظين على جوارهم وعهودهم إلى أن نقض هؤلاء عهودهم واتصلوا بمشركى قريش وألبوا عليهم. فلو كان المسلمون يصدرون عن طبيعة حب السلب والنهب لوجدوا فى أموال غير قريش ما وجدوه فى أموال قريش، ولاتجهت نفوسهم إلى السلب من كل ما يمكنهم أن يتجهوا إلى سلبه، فاتخاذهم أموال قريش غرضًا خاصًا ليس له سبب ما إلا أنهم وجدوا أنفسهم فى حرب معهم، كما تشهد به الأطوار التى مرت بهم وهم فى مكة حتى أخرجوا منها، وقد سبقت هذه الغزوة سرايا لم تكن للمال، ولا لترصد التجارة، وإنما كانت مناورات واستطلاعات كالتى تتقدم بين يدى الحروب فى العادة تحرشًا بالأعداء الذين ثبتت عداوتهم ووقع منهم الاعتداء.

على مبدأى الاستطلاع والمصادرة تحرش المسلمون وهم فى المدينة بأعدائهم المكيين، فقصدوا أموالهم وتجارتهم واستطلعوا أخبارهم ونواياهم، ولكن لا للمال والتجارة وإنما لغاية أسمى وهى تحطيم قواهم، وفتح باب مناوشتهم والدخول معهم فى حرب يسترد بها المسلمون أموالهم وديارهم وعزتهم، ويأمنون بها ما يدبره لهم خصومهم من الاعتداء عليهم فى وطنهم الجديد، كما اعتدوا عليهم فى وطنهم الأول، ويفتحون بها الطريق أمام دعوة الحق فتطهر أرض الله من عبادة غير الله.

بهذه الروح وقع القتال بين المكيين والمسلمين، واتصلت الغزوات بعد ذلك حتى كللها الله بالنجاح، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا.

النتيجة:

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن اقتران غزوة بدر بمسألة التجارة ليست دليلا ولا شبه دليل على أن إرادة السلب والنهب هى التى كانت تسيطر على المسلمين دون إرادة رد الطغيان والعدوان عن دين الله والمؤمنين بالله. وهذا ما يجب أن يعرفه كل مؤمن ليكون فى حصانة من الشبهات والدعوات الضالة. ولنأخذ بعد هذه المقدمة فى الكلام على تفصيل بعض ما اشتملت عليه سورة الأنفال.

عودة إلى مطلع السورة:

قلنا إن الأسباب المباشرة لنزول السورة ترجع إلى معالجة شئون حدثت بين المسلمين فى غزوة بدر، فمنها كراهتم الخروج فى بدر حينما دعاهم الرسول إلى الخروج، وكراهتهم القتال حينما وصلوا إلى بدر وتحتم عليهم أن يقاتلوا.

ومنها: اختلافهم بعد تمام النصر فى قسمة الغنائم.

ومنها: اختلافهم فى الأسرى وما به يعاملون: أيفدون أم يقتلون؟

وفى جو هذه الشئون عرضت السورة لما يجب أن يكون عليه المسلمون فى خاصة أنفسهم من جهة امتثال الأمر والإخلاص فيه، والحيطة والحذر من الأعداء، وتذكر نعم الله عليهم والآداب التى يجب مراعاتها أثناء القتال، وفيما يتصل به من إعداد العدة

والمحافظة على العهود وعلاقة بعضهم ببعض حتى يكونوا أهلا لما وعدهم الله من النصر والتأييد، وحتى يفوزوا بدرجات المغفرة والرضا عند الله.

درس فى تطهير النفوس من حب الدنيا:

وقد بدأت السورة بموضوع الأنفال واختلافهم فى قسمتها وسؤالهم عنها فساقت فى ذلك أربع آيات. هن:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

عالجت بها نفوس المؤمنين وتطهيرها من الاختلاف الذى ينشأ عن حب المال والتطلع إلى المادة، ولا ريب أن حب المال والتطلع إلى المادة من أكبر أسباب الفشل، وما من جماعة من الجماعات، ولا أمة من الأمم شغلت بهذا الجانب من الحياة إلا وتفرقت كلمتها، وضعفت شوكتها، وزالت عزتها، وتمكن منها أعداؤها، ومزقوهم شر ممزق. فكان من مقتضيات الحكمة الإلهية - فى نصرة المؤمنين، واحتفاظهم بعزتهم وكرامتهم، وللعمل على تركيز سلطانهم - أن يتلقوا فى مبدأ حياتهم هذا الدرس القوى الذى يقتلع بذور الشح والطمع وحب المادة من قلوبهم، ويصرفهم إلى المثل الأعلى فى نصرة الحق والفضيلة والتجرد عما يلوى عنانهم عن طرق الهدى والفلاح.

الحكمة فى مخالفة الترتيب الواقعى للحوادث:

ولأهمية هذا الموضوع فى حياة المؤمنين بدأت به السورة، وإن كان اختلافهم فى قسمة الأنفال متأخراً فى الوجود عن اختلافهم فى الخروج إلى بدر، وقتال الأعداء. وقد عرفنا من سنة القرآن فى ذكر القصص والوقائع أنه لا يعرض لها مرتبة حسب وقوعها؛ وذلك لأنه لا يذكرها على أنها تاريخ يعين لها الوقت والمكان، وإنما يذكرها لما فيها من العبر والمواعظ، وما تتطلبه من الأحكام والحكم، ونجد نظائر لذلك فى القرآن منها: قصة البقرة

التى أمر فيها موسى قومه أن يذبحوا بقرة، فقد أخر فيها سبب ذلك الأمر وقدم الأمر بذبح البقرة فى النظم القرآنى على ذلك السبب إبرازًا من أول الأمر لموقف القوم من موسى، وأن من شأنهم العناد والمكابرة فى كل شيء، حتى فيما يختص بحسم النزاع والخلاف الذى يقع بينهم. انظر قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً** ﴾ إلى آخر موقفهم أمام هذا الأمر حيث قالوا: ﴿ **الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ انظر هذا مع قوله بعد فى سبب هذا الأمر، وهى الجريمة التى وقعت فيما بينهم واختلفوا فى فاعلها: ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾.

براعة مطلع:

على أن فى موضوعنا هنا فائدة أخرى للبدء بمسألة الأنفال، وهى المسارعة من أول الأمر بنتائج النصر الذى كفله الله للمؤمنين، وليس من تربية النفوس أن نبدأ الكلام معها بما يدل على الاضطراب والفزع والتردد أمام وسائل العزة والشرف متى وجد لهم بجانب هذا التردد ما يدل على مواقف الشرف والكرامة، فجاء البدء بالحديث عن الأنفال أشبه بما يقولون من «براعة المطلع» التى تشوق السامع وتدفعه إلى التحلى بالأوصاف المذكورة للمؤمنين حتى يفوزوا بالنصر والغلب.

ولا كذلك إذا بدئت بعلاج تثاقلهم فى الخروج إلى الغزوة. وانظر كيف كان يكون وقع المطلع إذا جاء على هذا الوجه؟: ﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ** ﴾.

لا ريب أنه مطلع شديد الوقع على النفوس، يصور علاقة المؤمنين بنبيهم فى صورة يأباها إيمانهم به وامتثالهم لأمره. يصورهم فى شقاق واختلاف مع قائدهم ورسولهم، ويصورهم فى ثوب الكراهة الشديدة لمعالى الأمور وعز الحياة.

لهذا كله جاء ذلك الأسلوب فى سرد الوقائع غير مكترث بمخالفة ترتيبها فى الوجود الخارجى.

النظرة إلى قصص القرآن:

ويجب أن ينظر إلى قصص القرآن فى جميع موارده هذه النظرة، فلا يعاب على القرآن إهمال الأماكن والأشخاص فيما يقص، ولا إهمال الترتيب بين الحوادث؛ فإن هذا وذاك من شأن المؤرخ الذى يعنى بالقصص كتاريخ لا كعظات وعبر. أما القرآن فليس كتاب تاريخ، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد، يذكر تارة القصة ويشير إلى بعض وقائعها فى موضع، ويشير إلى البعض الآخر فى موضع آخر، ويستقصى مرة، ويقتصر أخرى، وهكذا يفرق القصص، ويفرق القصة الواحدة فى أماكن متعددة وفى سور مختلفة باعتبار المناسبات والعبر التى يدعو إليها المقام الذى يتحدث فيه، ومن هنا نرى أن القصة الواحدة قد تذكر على وجوه مختلفة فى أماكن متعددة مختلفة بين الطول والقصر، والإجمال والتفصيل، والاقتصار والإكمال.

«يسألونك» فى القرآن:

بدئت هذه السورة بكلمة ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ فدل ذلك على أن ما تضمنته الآيات بعدها جاء جوابا عن سؤال توجهوا به إلى النبى - ﷺ - فى شأن الأنفال، وقد دعانا ذلك إلى تتبع الكلمة «يسألونك» فى القرآن الكريم فوجدناه يحتوى على عدة من الأسئلة الموجهة إلى الرسول والأجوبة التى نزلت بمناسبة هذه الأسئلة. وقد رأينا أن نستطرد فى هذا المقام ونعرض لها ولو على سبيل الإجمال، لفتًا للأنظار إليها، وتنبيهًا على أسلوب القرآن فيها، وإرشادًا لما تضمنته من أحكام وحكم ومعان لها فى حياة المؤمن الخاصة والعامة ما لها من أثر حسن، وتوجيه قيم مفيد.

استطراد فى تتبع السؤال والجواب:

هذا، وقد جاء من هذه الأسئلة فى سورة البقرة ما يأتى:

أولا: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن

تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ .

رابعًا: قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ .

خامسًا: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ .

سادسًا: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ .

سابعًا: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ ﴾ .

ثامنًا: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

وجاء من هذه الأسئلة في سورة النساء:

أولا: قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ.... ﴾ إلى آخر الآية ١٣٠ . . وفيها الفتوى فيما إذا خافت المرأة نشوزاً من بعلها، والفتوى في بيان معنى العدل المطلوب بين النساء.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا

ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم ﴾ .

وجاء من هذه الأسئلة فى سورة المائدة :

﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ .

وجاء منها فى سورة الأعراف :

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وقد جاء هذا السؤال فى سورة الأحزاب : ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ وجاء فى سورة النازعات : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها (٤٢) فيم أنت من ذكراها (٤٣) إلى ربك منتهاها (٤٤) إنما أنت منذر من يخشاها (٤٥) كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ .

وجاء من الأسئلة فى سورة الأنفال الآية الأولى منها التى نفسرها : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ .

وجاء منها فى سورة الإسراء :

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ .

وجاء منه فى سورة الكهف :

﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ﴾ .

وجاء منها فى سورة طه :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ .

مقارنات بين عبارات الأسئلة والأجوبة:

هذه هي جملة الأسئلة والأجوبة التي جاءت في القرآن ، ونلاحظ على وجه عام :

أولا : أنها دارت بين التعبير «بيسألونك» وهو الغالب ، و«بيستفتونك» وقد جاءت في موضعين اثنين .

ثانيًا : أن الجواب جاء في جميعها مسبوقًا بكلمة «قل» إلا في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ .

ثالثًا : أن كلمة «قل» في مواردها جاءت مجردة عن الفاء إلا في السؤال عن الجبال إذ جاء الجواب ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ .

رابعًا : أيضًا أن السؤال عن الساعة في سورة النازعات أخذ جوابه أسلوبًا غير الأسلوب المعتاد في الجواب إذ جاء : ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ .

خامسًا : أن السؤال جاء في بعضها مسبوقًا بحرف العطف وهو الواو ، وفي بعضها غير مسبوق به ترى ذلك واضحًا في سورة البقرة إذ جاءت أربعة منها بدون الواو متعاقبة :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ﴾ . ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ . ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ ﴾ . ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ وجاءت ثلاثة بعدها بالواو : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ وجاء في إحدى صيغتي الاستفتاء بالواو وهي الأولى منهما ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ﴾ وجاءت في الأخرى بدونها ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ .

وجاءت في الإسراء والكهف وفي طه بالواو ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ . ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ . ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ .

سادسًا : أن المسئول عنه جاء تارة مصرحًا به في السؤال وذلك في مثل : «عن الشهر الحرام قتال فيه» ، «عن المحيض» ، «عن اليتامى» ، «عن الخمر» ، «عن الأنفال» ، «عن

الساعة أيان مرساها»، «عن الجبال»، «عن الأهلة»، «عن ذى القرنين»، وهو الكثير الغالب، وجاء تارة غير مصرح به فى السؤال، ولكن الجواب أو المقام يرشد إليه: فمما يرشد إليه الجواب ﴿ **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ** ﴾، ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ** ﴾ ومما يرشد إليه المقام ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ** ﴾.

سابعًا: أن أكثرهم جاء فى الأحكام والمسائل الفرعية: الإنفاق منفقًا ومصرفًا، القتال فى الأشهر الحرم، حل الخمر، معاملة اليتامى، قربان النساء فى الحيض، ما يختص بشئون الزوجات، التوريث، المطعومات.

وجاء فيها ما يتعلق بالإله سبحانه قربًا وبعداً، وما يتعلق بفائدة بعض المظاهر الكونية كالسؤال عن الأهلة.

وجاء فيها ما يتعلق باليوم الآخر وقوعا كالسؤال عن الجبال، وزمانًا كالسؤال عن الساعة.

وجاء فيها ما يتعلق ببعض الشخصيات التاريخية كالسؤال عن ذى القرنين.

وجاء فيها ما يتعلق ببعض الحقائق الإلهية كالسؤال عن الروح.

الفرق بين السؤال والاستفتاء:

هذه سبع ملاحظات عامة، ويجدر بنا أن نذكر كلمة عن كل واحدة منها قضاء لحق البحث، وتنويرًا للباحثين فى فهم القرآن والوقوف على أسرار أسلوبه، واعتباراته البلاغية.

أما عن الفرق بين السؤال والاستفتاء فنرى أن الاستفتاء هو طلب معرفة ما أشكل أمره واشتد خفاؤه، لا فرق فى ذلك بين أن يكون من الأحكام أو من الحقائق الكونية؛ ولذلك تراه جاء بالنسبة للأحكام كما فى آية النساء وفى غيرها كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا** ﴾. ﴿ **فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا** ﴾. ﴿ **فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ** ﴾. ﴿ **أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ** ﴾. ﴿ **قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي** ﴾.

وبهذه الشواهد الكثيرة يتبين أن من قيد الإفتاء بالأحكام لا حق له.

أما السؤال فهو طلب معرفة المجهول ليعرف، أو ما وقع فيه الشك والتردد بين وجوه مختلفة ليتعين الوجه المطلوب، وخص تبيين المشكل باسم الفتيا، لأنه بالبيان يقوى ويبرز ويأخذ من الفتى شبابه وقوته، فكأنه يقوى ويشب ويصير فتيًا قويًا.

ولعلنا بعد هذا إذا نظرنا فى موضوعى ﴿ **يَسْتَفْتُونَكَ** ﴾ الواردان فى النساء وقارناهما بموضوعات ﴿ **يَسْأَلُونَكَ** ﴾ الواردة فى بقية سور القرآن تظهر لنا الحكمة جلية فى استعمال كلمة ﴿ **يَسْتَفْتُونَكَ** ﴾ فى هذين الموضوعين المتعلقين بالأسرة ومشاكلها وحقوقها، واستعمال يسألونك فى غيرهما مما كان المطلوب فيه مجرد المعرفة.

أما مجىء كلمة «قل» فى صدر الجواب فهو الأصل، وهى تحدد معنى الرسالة بين الله والعباد كما تحقق الأمر بأداء الرسول وحى الله إلى عباده.

الحكمة فى خلو الجواب من كلمة «قل» فى السؤال عنه سبحانه:

أما خلو قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ** ﴾ من كلمة «قل» ـ وهى الموضوع الوحيد الذى لم يصدر فيه الجواب بها ـ فللدلالة على رفع الوساطة بين العباد السائلين وبين المسئول عنه ـ ربهم وخالقهم ـ وقد قال الرازى فى هذا المقام كلمة لها سر عظيم فى تصوير العلاقة بين الله والعباد. قال:

«وكأنه سبحانه وتعالى ـ بعدم الإتيان بكلمة «قل» فى هذا المقام ـ يقول: يا محمد إذا سئلت عن غيرى فكن أنت المجيب وقل كذا وكذا، وإذا سئلت عنى فاسكت لأكون أنا القائل».

نعم هو قريب ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾، ﴿ **فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ** ﴾.

﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾.

ليس القرب بمعنى العلم:

وليس القرب الإلهى قرب مكان ـ سبحانه ـ فنسبة الأمكنة والأزمنة وما فيهما إليه واحدة، فهو تعالى قريب من كل شيء، إذ منه كل شيء وإليه كل شيء، وليس القرب مجرد العلم بكل شيء، فالله قال: ﴿ **ولَكن لاَّ تُبْصِرُونَ** ﴾، ولم يقل ولكن لا تعلمون. والذى من شأنه أن يبصر إنما هو الذات لا العلم.

ولعل فى ذلك أقوى رادع لمن يتخذون الوسطاء والشفعاء بينهم وبين الله، فيدعونهم ليقربوهم إليه، ويتجهون إليهم ليغفر لهم، ولينظروا قوله بعد: ﴿ **أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ فلا نيابة، ولا مساعدة، ولا وساطة فهو قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه. كما أن الآية تقف برفع الصوت فى الدعاء والتكبير إلى الحد الذى طلبه الشارع.

الحكمة فى تصدير الجواب بالفاء مع عدم الشرط:

أما مجيء «الفاء» فى خصوص قوله تعالى: ﴿ **ويَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا** ﴾ مع التجرد منها فيما عداها فقال بعض المفسرين: إنما جاءت الفاء هنا لأن السؤال لم يقع، وعليه يكون المعنى: إذا سألوا عن الجبال فقل.

وخير منه أن يقال: إن مجيء الفاء فى هذا المقام دل على طلب سرعة الإجابة، أى أجب ولا تمهل حتى لا تذهب بهم الشكوك فى أمر هو من أصول الدين، وهو البعث، وذلك لما فى دلالة الفاء على التعقيب والمباشرة.

أسلوب الجواب عن سؤال الساعة فى النازعات:

أما مجيء الجواب عن سؤال الساعة فى سورة النازعات على غير أسلوب الجواب فلعل سببه يرجع إلى أن هذا السؤال صدر منهم أولا، وجاء جوابه بالأسلوب المعتاد فى سورة الأعراف: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي** ﴾.. إلخ ما جاء، وكان الجواب واضحًا جليًا فى أن الله قد استأثر بعلمها ولا شأن للرسول بها، فلم يكن سؤالهم عن ذلك مرة أخرى إلا نوعًا من العناد والمكابرة، فجاء الجواب على أسلوب من التهكم والتبكيت والتجهيل لهم بوظيفة الرسول ويدل عليه قوله بعد:

﴿ **إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا** ﴾.

الحكمة فى وجود العاطف فى البعض دون البعض:

أما وجود العاطف فى بعضها فهو يرشد على اتصال السؤال بما قبله، وعدمه فيما لم يوجد فيه يدل على استئنافه وانقطاعه عما قبله وأنه فائدة جديدة. فالسؤال عن الأهلة، والسؤال عن الإنفاق، والسؤال عن الشهر الحرام، والسؤال عن الخمر أسئلة عن أشياء لم يكن بينها اتصال وإنما بينها تباين وتقاطع لا يحسن معهما العطف.

أما السؤال عن الإنفاق الوارد بعد السؤال عن الخمر والسؤال عن اليتامى والسؤال عن المحيض فهى أسئلة تجتمع حول شأن واحد وهو «النفقة، ومعاملة اليتيم، ومؤاكلة الحائض، وشرب الخمر» أى أحوال تجتمع فى خاصة الإنسان ومعاملته لمن يتصل به.

أما القول بأن الواو تدل على أن الأسئلة المتعاطفة وقعت فى وقت واحد ولا كذلك الأسئلة التى تجردت منها فيعوزه الدليل على اتحاد وقت السؤال.

وقد اقتضى المقام العطف فى ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ ﴾ وفى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ وفى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ ولا كذلك فى ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾، ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ وذلك كما يظهر بالرجوع إلى المقام الذى وردت فيه.

أما التصريح بالمسئول عنه تارة فى السؤال والاكتفاء بمعرفته من الجواب أو المقام تارة أخرى، فلا نستطيع أن نجزم بغير ما يقوله كثير من المفسرين من أنه تفنن فى العبارة، وهو لون من ألوان الأداء امتازت به اللغة العربية، والقرآن أعظم مظهر لأسرار تلك اللغة فاحتوى على كل ما هو معهود فى اللغة من أساليب الأداء المختلفة. وهذا لا يمنعنا من النظر فى استطلاع اعتبارات خاصة يوحى بها المقام، أو مكانة المسئول عنه فى الأهمية، أو ظهوره ظهوراً لا يحتاج معه إلى التصريح به.

أكثر الأسئلة الواردة فى الأحكام العملية:

وقد دل مجيء أكثرها فى الأحكام على شدة حرصهم فى تحرى الحق، الذى يرضى الله ويكون له أثر صالح فى حياتهم وبخاصة الحياة الشخصية والاجتماعية. انظر سؤالهم عن الإنفاق مرتين، وعن الخمر والميسر، وعن اليتامى، والمحيض، وعن النساء، وعن ماذا أحل لهم، وعن الأنفال. وهى كلها شئون عملية لها نفعها فى الحياة، وهذا شأن المؤمن

يتطلب سبل العمل فيتجه إلى معرفة ما يحل ويحرم، ومعرفة ما يضر وينفع، فيسأل ليعلم إن كان جاهلا، أو ليتيقن إن كان متردداً.

أما الاشتغال بالسؤال عن النظريات البحت التى لا يتعلق بها نفع فى الدنيا ولا ثواب فى الآخرة، فهذا ليس من شأن المؤمنين العاملين، فلا ينبغى أن يسأل عن الأرواح بعد مفارقتها للأجساد أين تكون؟ وماذا تعمل؟. ولا ينبغى أن يسأل عن كيفية عذاب القبر أللجسم وللروح؟ أم للروح فقط؟ ولا بحياة كاملة أو ناقصة؟ ولا ينبغى أن يسأل عن كيفية الميزان، ولا كيفية الوزن، ولا عن الوزن، ولا عن أرض الجنة، ولا عن سمائها، وما إلى ذلك مما شغل به المسلمون أنفسهم، وملأ كثير من علمائهم به كتبهم، وصرفوا به الناس عن معرفة الخير وعمل الخير.

أما ما جاء من الأسئلة عن غير الأحكام فمنها السؤال عن الأهلة وهو ظاهر أنه سؤال عن فائدتها، ولا ريب أن لها ارتباطا - كما جاء فى الجواب - بحياتهم العملية: فبها يرتبط الصوم، والحج، وعدة النساء، وآجال العقود؛ فإن التوقيت بها يسير على الناس جميعًا بدو وحضر فهى مواقيت لجميع الناس، أما السنة الشمسية فإن شهورها لا تعرف إلا بالحساب، ولا تصلح توقيتًا إلا للحاسبين. والقرآن يرشد إلى الوسائل الطبيعية التى تعم الناس أجمعين بمقتضى طبيعتهم، لا بمقتضى تقدمهم وارتقائهم، فإن تقدموا وارتقوا إلى معرفة وسائل أخرى تؤدى ما تؤديه الوسائل الطبيعية فلا عليهم أن يتعلقوا بها، وبخاصة إذا ذاعت وعمت وارتبط بها أغلب الناس فى المعاملات.

الأسئلة الواردة عن العمليات مع قلتها ليست من المؤمنين:

أما السؤال عن الساعة، وعن الجبال، وعن الروح، وعن ذى القرنين، فيظهر أنها صادرة من المخالفين الذين لم يؤمنوا، وقد ورد أن اليهود أوعزوا إلى المشركين أن يسألوا الرسول عن ثلاث: عن الروح، وذى القرنين، والساعة. قالوا: إن أجاب عن جميعها فليس بنبى، وإن لم يجب عن واحدة منها فليس بنبى. فسألوا عن الساعة ففوض علمها إلى الله كما عندهم، وسألوا عن الروح ففوض علمها إليه سبحانه كما عندهم، وأجاب عن ذى القرنين كما هو عندهم. وفى رواية ذكر أهل الكهف فى هذا الشأن، وقد أجاب عنها وحقق أمرها، واختلافهم فيهم.

مختارنا فى المراد بالروح المسئول عنها فى سورة الإسراء:

ونحن نرى أن الروح المسئول عنها فى سورة الإسراء ليست الروح التى بها حياة الإنسان، وإنما المراد به القرآن نفسه، فإن الله قد سماه روحًا ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾. ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾، فالقرآن حياة الأرواح والعقول. ولا ريب أن القرآن أحدث رجة عظيمة فى نفوسهم، وزعزعة فى عقائدهم، وأقض عليهم مضاجعهم، وهو كلام من جنس الكلام فما هو، وما شأنه؟ كان بذلك جديرًا أن يسألوا عنه وهم أرباب البلاغة وأساطين البيان. ويرشد إلى أن اللائق بالروح فى هذا الموضع هو القرآن أن الحديث قبل السؤال وبعده كان عن القرآن ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾. ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾. ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾.

فإذا كان الله أطلق على القرآن كلمة روح، وكانت الآية الواردة قبل السؤال عن الروح، والآيات الواردة بعده فى وصف القرآن والحديث عنه، كان من اللائق حمل الروح المسئول عنه على القرآن؛ إذ هو الذى ظهر على يد محمد وأحدث فى نفوسهم ما أحدث، ولم يأتهم محمد معلنًا أنه معلم للحقائق الكونية والشئون الطبيعية التى خلقها الله، أو الأسرار الإلهية التى أودعها فى خلقه، ولقد كانت أول كلمة وجهت إليه ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ وتوالت الآيات التى تحدد مهمته فى التبليغ عن ربه والإنذار والتبشير. ومن هذا كله ترجح لدينا حمل الروح المسئول عنها فى سورة الإسراء على القرآن الكريم.

قواعد تشريعية مستنبطة من الأسئلة وأجوبتها:

وبالنظر فى الأسئلة التى وجهها المسلمون إلى الرسول فى مدة التشريع نجدها لا تتجاوز اثنى عشر، آخرها فى الوجود السؤال عن الأنفال، وبالتأمل فيها وفى أجوبتها فى القرآن الكريم نجدها قد اشتملت على مبادئ توجيهية وقواعد تشريعية يجدر بنا أن نقف عليها.

السؤال عن الأحكام لا عن الحقائق الكونية:

وأول ما يتبين لنا من ذلك أنها كانت تتعلق دائمًا بالأحكام فيما يحتاج إليه الناس فى خيرهم وسعادتهم على الوجه الذى يرضى الله ويقربهم إليه، وأنه لا يوجد شيء منها يتجه إلى بيان الحقائق الكونية، حتى أن ما كان منها يدل بظاهره على طلب ذلك قد صرف القوم بالإجابة عنه إلى الجهة التى تنفعهم، وينبغى أن يسألوا عنها، وذلك كما روى فى السؤال عن الأهلة، كانوا يسألون عن علة بدوّ الهلال صغيرًا ونموه شيئًا فشيئًا إلى أن يتكامل، ثم عودته إلى الانتقاص إلى أن يخفى، فجاء الجواب يرشدهم إلى الحكمة فى الخلق على هذا الوجه، وأنها مما يرجع إلى فائدتهم من جهة أن الأهلة مواقيت يعرفون بها أوقات الصوم، والحج، وعدد النساء، وآجال العقود، ولا ريب أن التوقيت بها يسهل على الناس جميعًا فهى موافقة لهم فيما يضربون له آجالا، وليس ذلك متحققًا بالنسبة للسنة الشمسية التى لا تعرف إلا بالحساب، ولا ينتفع بالتوقيت بها إلا الحاسبون.

بناء الأحكام على الوسائل الطبيعية:

ومن ذلك نعلم أن القرآن فى أحكامه وإرشاداته ينظر إلى الوسائل الطبيعية التى تعم الناس أجمعين بمقتضى طبيعتهم لا بمقتضى تقدمهم وارتقائهم. ومن ذلك نرى الشريعة تربط الحكم بدخول الأشهر برؤية الأهلة إن لم يكن بالسماء غيم، وبعدد الأيام إذا كان بها غيم، ويربط السفر الذى يترتب عليه تغير الأحكام بالسفر الطبيعى وهو سير الأقدام والإبل.

الحكم فى الوسائل الإنسانية الحديثة:

والمسألة ذات النظر الآن هى: هل يبقى الناس متمسكين بهذه الوسائل الطبيعية إذا ما تقدمت الإنسانية وارتقت، وعرفت بالعلوم والمعارف وسائل غير هذه الوسائل الطبيعية، أو يصح لهم أن يعدلوا عن هذه الوسائل الطبيعية إلى الاعتماد على تلك الوسائل الإنسانية الجديدة؟

ومعنى هذا: هل يصح لهم اعتماد الحساب فى معرفة الشهور وترك الرؤية جانبًا، والاعتماد فى تقدير السفر على ما أحدث من وسائل سريعة كالقطارات، والطيارات، أو

يظل الأمر على ما كان عليه فلا نصوم إلا بالرؤية، ولا نقدر السفر المبيح للترخص إلا بسفر الأقدام والإبل؟

هذا محل نظر واجتهاد، وقد تناوله فقهاء المتأخرين، فتمسك الجمهور بالأصل، ورأى آخرون السير مع ما أحدث، وليس الخلاف إلا خلاف وسائل، والمعول عليه العلم والتحقق من دخول الشهر، أو المشقة وعدمها فى السفر، والحكم معروف والحكمة بينة. وقد عرضنا لهذه المسألة رجاء بحثها ومعرفة ما يطمئن القلب فيها.

الرسول جاء لبيان الأحكام:

وفى صرف السائلين عن العلة إلى الحكمة يتبين أن الرسول إنما جاء لبيان الأحكام لأفعال المكلفين لا لبيان الحقائق الكونية، فلا ينتظر أن يسأل: ما رأى الدين فى جوهر السماء ولا طبقات الأرض، أو ما رأى الدين فى صلاحية القمر أو المريخ للسكنى أو عدم الصلاحية، أو ما رأى الدين فى كروية الأرض أو عدمه، ولا منابع النيل ولا كيفية سيره، ولا كيف تتكون الأمطار، ولا كيف يحدث البرق والرعد والصواعق، فإن ذلك ونحوه قد تركه الله للإنسان يبحثه بعقله فيصل به إلى ما يصل إليه إن خطأ وإن صوابا، ولا حرج عليه فى شىء من ذلك، وهو نظير البحث فى كيفيات الزراعة والصناعة والتجارة والعلاج والحروب وما إليها من الشئون التى وكل الله معرفتها وتحرى المفيد منها إلى تجارب الإنسان وتقديره، وهذان نوعان لا سلطان للتشريع الإلهى عليهما، ولعلهما هما المقصودان بما يؤثر عن الرسول من قوله «أنتم أعلم بدنياكم».

السؤال عن الواقع لا عن الفروض:

وكما أن الأسئلة لا يصح أن يقصد بها بيان الحقائق لا يصح أن يطلب بها بيان أحكام الفروض؛ فإن أسئلة المؤمنين التى وردت فى القرآن لم يتجه شىء منها إلى مفروض يقدر حصوله ثم يطلب الجواب عنه، وقد جرى على هذا المبدأ علماء الإسلام فحافظوا على أن يكون اشتغال المسلمين بالسؤال والجواب فى دائرة الواقع الذى ينفعهم فى دينهم ودنياهم، فلم يعرف عنهم أنهم فرضوا مسائل وكلفوا أنفسهم البحث عن أجوبتها، وإنما كانوا يبحثون عن أجوبة ما وقع أو ما هو بصدد الوقوع فى مجرى العادات، ولكن قد جاء

الخلف بعد ذلك فشغلوا أنفسهم بتخريج أجوبة لفروض وتقديرات على القواعد المذهبية للمتقدمين .

ولعل ذلك كان أثرًا لشيوع فكرة إغلاق باب الاجتهاد، مضمومًا إليها حب التنافس فى التخريج للفقه المذهبى، وحب الظهور بالعلم ودقة البحث أمام الأمراء والولاة .

لا وساطة بين الله وعباده:

وكما أخذنا هذين المبدأين من وحى هذه المسائل، أخذنا أيضًا من وحيها أنه لا وساطة بين الله وعباده، كما دل عليه أسلوب قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ وبذلك بطلت الوساطة الكنسية، ووساطة التوسل بالأنبياء والأولياء، فضلا عن الاستغاثة والاستعانة بهم فيما لا يملكه أحد من العباد ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ .

ارتكاب أخف الضررين:

وكما أخذنا من وحى المسائل هذه المبادئ الثلاثة :

مبدأ السؤال عما يقع، ومبدأ عدم الوساطة بين الله وعباده، ومبدأ أن الرسول جاء لبيان الأحكام لا لبيان الحقائق الكونية. أخذنا منه مبدأ رابعًا وهو الإرشاد إلى ارتكاب أخف الضررين إذا لم يكن بد من أحدهما، وذلك كما رأيناه فى السؤال عن القتال فى الشهر الحرام، فإن القرآن مع تقريره أنه ذنب كبير وإثم عظيم، قد قرر أن غيره مما ارتكبه المشركون من الصد عن سبيل الله والكفر بالله والصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه، وما يرتكبونه من الفتنة عن دين الله، أشد عند الله من القتل فى الشهر الحرام، فلا بأس فيما ارتكبه الذين قاتلوا فى الشهر الحرام لهذه الاعتبارات التى هى أشد منه جرمًا وأعظم إثمًا .

وقد كان لهذا المبدأ آثار عظيمة فى التشريع الإسلامى، فقد أبيح به أكل الميتة للمضطر، وشرب الخمر لإساغة اللقمة، كما أبيح به تشريح أجسام الموتى لمعرفة علة الموت وتحديد

مسئولية الجناية، ونرى هذا المبدأ مطبقًا فى كثير من أفعال الإنسان فى أوقات الضرورة والحاجة.

التحريم للضرر الغالب وإن وجد نفع مادى:

وكما أخذنا من وحى هذه المسائل هذه المبادئ الأربعة أخذنا مبدأ خامسًا وهو: أن تحريم الله للفعل إنما يكون للضرر الخالص أو الإثم الغالب، وإن كان فيه بإزاء هذا أو ذاك نفع فى جهة ما، وذلك كما يتبين من السؤال عن الخمر والميسر. ﴿ **قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾.

اعتماد المشروعية وعدمها على الصلاح والفساد:

وأخذنا أن العبرة فى المشروعية وعدمها بما يتضمنه الفعل من الصلاح والفساد، ولا عبرة بصورته ومظهره، فليس فى تجافى اليتيم وعزلته فى مأكله ومشربه خير حتى يكون ذلك التجافى مشروعا، وليس فى مجرد مخالطته شر حتى تكون تلك المخالطة ممنوعة، إنما الخير فى أن تحفظ نفسه، وأن يحفظ ماله، وأن يعنى بشأنه وتقويمه، وهذا هو الأساس فى المشروعية، فما كان فيه صلاحه فهو خير ومشروع، وما كان فيه فساده فهو شر وممنوع ﴿ **قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ** ﴾.

هذه بعض المبادئ التشريعية العامة التى أردنا الإشارة إليها بمناسبة الحديث عن أجوبة الأسئلة الواردة فى القرآن، وهى مبادئ مقررة فى الشريعة يجب تطبيقها ورعايتها فى معرفة أحكام الله لكل ما جد ويجد من حاجات الإنسان وضروراته.

المسئول عنه فى آياتنا:

قلنا إن الأسئلة: - التى وجهت فى القرآن إلى الرسول - ﷺ - كانت بالنسبة لتحديد المسئول عنه، أو جهة السؤال مختلفة الألوان والأساليب. فمنها ما كان محددا للمسئول عنه، كما فى السؤال عن الشهر الحرام، ومنها ما عرف المسئول عنه من الجواب وذلك كما فى السؤال عن الخمر، وعن اليتامى. وعن المحيض، ومن هذا القسم السؤال عن الأنفال

فى قوله تعالى: ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ فإنه فى ذاته يحتمل أن يكون سؤالا عن الأنفال من جهة حلّ أكلها والانتفاع بها، وأن يكون سؤالا عن كيفية قسمتها وعمن ترجع إليه قسمتها، ولكن الجواب المذكور بعد يدل على أن المقصود هو السؤال عنها من الجهة الثانية لا من الجهة الأولى، وذلك من وجوه:

الأول: أن كونها لله والرسول لا يدل على حلها ولا على حرمتها، وإنما يفيد أن حكمها من حلّ أو حرمة يستفاد منهما لا من غيرهما. أما ما هو ذلك الحكم على التعيين - وهو الذى يُسأل عنه - فلا يستفاد منه ولا يدل عليه، فهو إذن لا يصلح أن يكون جوابا.

الثانى: أن قوله بعد: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ يشير إلى أنهم ارتكبوا ما ينافى التقوى، ووقع بسببه نزاع فيما بينهم، وخرجوا عن طاعة الله والرسول، ولا شك أن السؤال عن حلها أو حرمتها ليس مما ينافى التقوى ولا مما يقع بسببه، كما أنهم لا يخرجون به عن طاعة الله ورسوله، وإنما هو بالعكس يؤكد التقوى وجمع الكلمة والحرص على الطاعة، فهو بجملته وتفصيله لا يصلح أن يقع جوابا عن سؤال الحلّ أو الحرمة، وإذن فليس السؤال عن الحل أو الحرمة.

ويؤيد ذلك ما ورد من أن المسلمين اختلفوا فى غنائم بدر وفى قسمتها: أهى للمهاجرين، أم للأنصار، أم لهم جميعا؟ أو أنها للشباب الذين أبلوا يومئذ بلاء حسنا فقتلوا وأسروا وقالوا نحن المقاتلون فلنا الغنائم، أم للشيوخ الذين كانوا عند الرايات، وقالوا كنا لكم ردءا وفئة تنحازون إليها فلنا الغنائم؟ اختلفوا على هذا النحو أو ذاك فسألوا رسول الله، أو صاروا بحالة تستدعى سؤاله: كيف تقسم الغنائم، ولمن الحكم فى قسمتها؟ فجاء الجواب هكذا: قسمتها لله وللرسول فهما صاحبا الحكم فيها، وليس لأحد سواهما الحق فى قسمتها، فاتقوا الله ولا تختلفوا فيما لا شأن لكم فيه، وامتثلوا أمر الله وحكمه إن كنتم مؤمنين.

هذا، وقد جاء فى السورة نفسها تفصيل حكم الله فى الغنائم: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾.

وهذا هو ما ذهب إليه جماعة من المفسرين، وعليه يكون السؤال سؤال استعلام لحكم الأنفال وقسمتها، وتكون الأنفال هى الغنائم نفسها لا خصوص ما كان يشترطه الإمام لمن يقوم فى القتال بعمل نافع مفيد.

وقد رأى فريق آخر أن السؤال سؤال استعطاء، وأن كلمة «عن» زائدة، وأن الأنفال هى ما يشترطه الإمام لمن يعمل عملا بارزا فى الحرب كقوله تحريضا على القتال: «من قتل فلانا أو تسلق الحصن أو أغار على كذا فله كذا» وقد كان النبى قد فعل ذلك فقام بكثير منه الشبان الأقوياء، فقال الشيوخ حينما تم النصر ورأوا أن الشبان سيأخذون كثيرا من الغنيمة بطريق التنفيل: المغنم قليل، والناس كثيرون، وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك والمعنى: فأعطنا من هذه الأنفال فجاء الجواب: ﴿**الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ أى «تعطى بمقتضى الشرط» فاتقوا الله ولا تتمنوا حق غيركم أو تلتمسوا أن ينقض الرسول عهده، وأصلحوا ذات بينكم ونفذوا أوامر الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

والجواب وارد فى موضعه، يلتقى مع حالة السائلين؛ وعلى هذا يكون السؤال كما قلنا سؤال استعطاء لا سؤال استفهام، وتكون الأنفال «ما ينفله الإمام» لا الغنائم. وتكون آية الغنائم الآتية بعد غير متصلة بهذه الآية، وموضوعها الباقى بعد التنفيل، ولا اعتراض لنا على هذا الوجه سوى الحكم بزيادة كلمة «عن» والاعتماد فى الحكم بزيادتها على قراءة ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ**﴾ اعتماد على شاذٍّ لا تنهض به حجة.

وقد رد أبو السعود هذا الوجه بأن ما فى الآية من إضافة الأنفال لله والرسول والأمر بتقوى الله تعالى إلى آخره، لا يلتئم مع سؤال الاستعطاء؛ لأنهم على فرضه لا يستعطون إلا ما صار حقا لهم بمقتضى الشرط، ولا محذور فيه ولا مخالفة إلى آخر ما قال، تلك هفوة منه منشؤها ظنه أن السائلين هم الذين اشترطت لهم الأنفال، وليس كذلك، كما دلت عليه رواية حال الشيوخ مع الشبان؛ فإن الذين سألوا هم الشيوخ فقط، والكلام لهم والرد عليهم، وهو رد سليم يتفق والواقع، ويقرر انحراف الشيوخ أو محاولة انحرافهم عما اشترطه الرسول مع الشبان.

الغنيمة والفىء ومكانهما من النظام المالى فى الإسلام:

وبمناسبة الغنائم والأنفال: يجدر بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن الغنيمة نوع من أنواع

الأموال في الدولة، ومنها الفيء وهو ما حصل عليه المؤمنون من أموال الأعداء عفوا من غير حرب، كمال الصلح، والجزية، وكالأرض يرتحلون عنها للمسلمين، ومنها الصدقات، والزكاة، والخراج، والعشور والمعادن، والركاز. وهذه هي مصادر الأموال في صدر الإسلام. وقد ذكرت مصارف الغنيمة في سورة الأنفال. وذكرت مصارف الفيء في سورة الحشر: ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ... لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ.... وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ.... وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا...** ﴾ الآيات من ٧ - ١٠ سورة الحشر.

قال عمر: لولا من يأتي من آخر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله - ﷺ - خيبر. ويروى أنه دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتح الله عليه من ذلك وقال لهم: تثبتوا الأمر وتدبروه ثم اغدوا عليَّ، ففكر في ليلته، فلما غدوْا عليه قال: مررت البارحة بالآيات التي في سورة الحشر وتلا: ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ**... إلى قوله: **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ** ﴾ فلما بلغ قوله: ﴿ **أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ قال: ما هي لهؤلاء فقط وتلا قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ** ﴾ ثم قال: ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك. ومعنى هذا أن عمر لم يقسم الفيء على المقاتلين ولا على المسلمين الموجودين، وإنما اتخذ منه معاشا للحاضرين وعدَّة للمقبلين، وانظروا قوله تعالى: ﴿ **كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ** ﴾ والدُّولَة: اسم الشيء الذين يتداول؛ والمعنى: «فعلنا ذلك في الفيء كيلا تقسمه الرؤساء والأغنياء بينهم دون الفقراء والضعفاء» قرطبي.

تنبيه:

«المعادن»: ما يوجد من الحديد والفضة والذهب والنحاس.

«الركاز»: ما وُجدَ مدفونا من الكنوز، وخمسهما لبيت المال والباقي لمالك الأرض إن كان لها مالك، وإن لم يكن لها فللواجد.

«العشور»: هى عشر ما يسقى بالأمطار، وما يؤخذ من التجار منسوبا إلى العشر.

«الخراج»: ما يوضع على الأرض الخراجية، ومنه ما يفرض على الأرض فى كل سنة، ويسمى خراج توظيف أخرجت أم لم تخرج، ومنه ما يؤخذ مما تخرجه الأرض نفسها ويسمى خراج مقاسمة. والفرق بينه وبين الجزية أن الجزية توضع على الرءوس وتسقط بالإسلام، أما الخراج فيوضع على الأرض وقد لا يسقط بالإسلام. والفرق بينهما وبين الزكاة أن الزكاة واجب دينى على المسلمين لا يسقطه شىء من الضرائب.

عود على بدء:

ولنرجع بعد ذلك إلى الكلام على ما تضمنته الآية: تضمنت الآية الأمر بتقوى الله، وبإصلاح ذات البين، وإطاعة الله ورسوله. وسنتناول معنى تقوى الله، ونشير إلى أساليب القرآن فى الأمر بها، ومعنى إصلاح ذات البين وموقف القرآن من الحث عليه والإرشاد إليه فى الأسرة والجماعة، ومعنى إطاعة الله والرسول. ثم نتناول تعليق هذه الثلاثة على الإيمان فى قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

معنى التقوى:

أما تقوى الله تعالى فهى ترجع فى معناها العام إلى اتقاءالإنسان كلَّ ما يضره فى نفسه وفى بنى جنسه، وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والكمال الممكن فى الدنيا والآخرة.

ذلك أن الله خلق الإنسان ومنحه العقل، ويسر له سبيل العمل، ومكنه من وسائل الكمال، ثم شد أزره بالرسالات الإلهية يبعث بها الأنبياء وينزل بها الكتب، كل ذلك ليبلغ الإنسان الكمال الممكن، والغايات الحسنة، ولا ريب أن كل ما شرعه الله فى آخر رسالاته أمرا أو نهيا فهو وسيلة لهذا الكمال الذى أعده للإنسان فى آخر أطواره، ومن هنا صح ما يقوله العلماء فى تعريف التقوى من أنها: ترك جميع ما نهى الله عنه، وفعل ما يستطاع من الخير والطاعة. ويلاحظ هنا أن الله أمر بعبادات لتصفية الروح وتهذيبها، ونهى عن المعاصى التى من شأنها أن تدنّس الروح، وكان فعل الأوامر وترك النواهى تقوى، فإنه وضع أسبابا للمسببات وربط حصول المسببات بها، وحث على فعل الأسباب، وبذلك كان فعل الأسباب ليحصل الإنسان المسببات تقوى. ومن هنا يظهر أن

السير فى الحياة على ما وضع الله فيها من سنن، من التقوى، وأن التقوى ليست خاصة بنوع من الطاعات ولا بشىء من المظاهر وإنما هى كما قلنا اتقاء الإنسان كل ما يضره فى نفسه، وفى جنسه، وما يحول بينه وبين الكمال الممكن.

ثمـرة التقـوى:

وقد جاء فى هذه السورة نفسها أن من ثمرات التقوى حصول الفرقان: «ما يفرق به المرء بين الخير والشر والضار والنافع» فى هذه الحياة، فالعلم الصحيح والقوة والعمل النافع والخلق الكريم وما إلى ذلك من آثار التقوى، فالتقوى هى الشجرة والفرقان هو الثمرة.

وقد جاء هذا المعنى فى آخر الوصايا التى وجهها الله بأسلوب النداء إلى المؤمنين فى هذه السورة وهى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾.

والآية صريحة فى أن ثمرة التقوى وجزاءها الطبيعى أمران: إيجابى وهو بحصول الفرقان، وسلبى وهو بمحو مدنسات النفوس والتجاوز عن العقاب عليها، وقد أطلق على القرآن فرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾.

أساليب القرآن فى الأمر بالتقوى:

وقد كثر فى القرآن الكريم أمر الناس بتقوى الله، وجاء ذلك على أساليب مختلفة وتنبيهات متعددة، يذكر حينا بنعمة الخلق، وحينا بنعمة الرزق، وحينا بهول الساعة ويوم الجزاء ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾.

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ .

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ . إلى غير ذلك .

وقد كان الأمر بالتقوي شأنا عاما على ألسنة جميع الرسل، كما أن موجبات تقوى الله والخوف منه عامة فى جميع الأمم، وبذلك التقت الرسل أولهم مع آخرهم على هذه الكلمة ﴿ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

ولكون التقوى بهذه المثابة من العموم صحّ الإتيان بها فى التحذير عن كل مخالفة، ومن أقوى المخالفات أثرا فى بعد الأمم عن الخير هو الاختلاف والتنازع، وبخاصة إذا كان الاختلاف يدور حول شأن مادى وحكم دنيوى، كالذى حصل فى شأن الأنفال وقسمتها .

إصلاح ذات البيـــن:

أما إصلاح ذات البين فمعناه إصلاح الأحوال التى بينكم، وإصلاحها هو السير بها على مقتضى ما أمر الله، وعدم التمسك فيها بالشهوات والأغراض . وهو إنما يكون بالوفاق، والتعاون، والمواساة، وترك الأثرة .

وقد أمر الله بإصلاح ذات البين فى مواضع كثيرة : أمر به في الأسرة بين الزوجين، وفرض له الطريق السليم بقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ . وأمر به فى الأمة بين الطائفتين والحزبين بقوله : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

وقد وعد الله القائمين بإصلاح ذات البين بالأجر العظيم والنعيم المقيم ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ . ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

حكم الدين فى الساكتين عن إصلاح ذات البين:

وإذا كان التنازع بين المتنازعين إثما يغضب الله ويفسد أحوال الأمم، فإن سكوت الناس عن إصلاح ذات بينهما مع القدرة عليه أشدُّ إثما وأعظم ذنبا، ورضا بالآثار السيئة التى تنزل بهما أو بالأمة من جراء ذلك التنازع، ومن ذلك قيل: «الساكت عن الحق شيطان أخرس».

الموقدون لنار العداوة بين الناس:

هذا شأن الساكتين عن إصلاح ذات البيْن، فما بال من يوقدون نار العداوة والبغضاء بين الناس، ويؤجِّجون نار الفرقة بما يجمعون من حطب الفتنة ليوقظوها وهى نائمة، ويشعلوا لهبها وهى راكدة؟!

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾.

إطاعة الله والرسول:

أما إطاعة الله والرسول فهى الاعتصام بحبل الله، والتمسك بأوامره، والنزول على بيان الرسول فيها. وإطاعة الله فيما نص فيه واجب عام لجميع المسلمين حيث لا احتمال فيه، وطاعته فيما فيه احتمال تكون بما يفهمه المجتهدون الواقفون على أسرار الشريعة وأساليب القرآن، ومن هنا تعددت الآراء والمذاهب، وكل ذى رأى أو مذهب طاعة الله بالنسبة إليه أن يعمل بما أدرك، ولا عليه أن يترك رأى الآخرين. وهذا هو معنى الطاعة فى الأوامر والنواهى، وهناك طاعة يصح لى أن أطلق عليها طاعة كونية، على أنا لا نكاد نجد سببا كونيا لمسبب مطلوب إلا وقد أمر الله باتخاذه.

للرسول جانبان:

أما إطاعة الرسول فينبغى أن نعلم أن للرسول جانبين:

١ ـ جانب المبلغ عن ربه ما أمر بتبليغه وإطاعته فيه إطاعة الله فى آياته القرآنية من جهة النصّية والاحتمال، فكما لا رأى للإنسان فى منصوص القرآن لا رأى له أيضا فى منصوص السنة متى صحّ سندها، وثبتت روايتها.

وكما منح المجتهد حق الاجتهاد فى محتمل القرآن، ووجب عليه أن يعمل بما يدرك منه مُنح أيضا هذا الحق فى محتمل السنة.

٢ ـ أما الجانب الآخر فهو جانب الإمامة والقيادة العامة للمسلمين فى تنظيم شئونهم، وطاعته فى هذا الجانب واجبة أيضا للنظام العام واتقاء الفوضى[1]. وقد أمره الله تعالى فى هذا الجانب الذى لا ينزل عليه وحى فيه أن يشاور أمته، وذلك كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ وأشرك معه فى هذا الشأن أولى الأمر حيث لا نص من كتاب أو سنة، وأوجب على الناس إطاعتهم فيما يجمعون عليه بعد المشاورة، كما أوجب على المؤمنين الأولين إطاعة الرسول فيما يختاره بعد التشاور: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾.

وقد كان ينزل بالمؤمنين الأمر ولا ينزل فيه وحى، فيعرضه الرسول عليهم، فيتشاورون، وكان تارة يرجع عن رأيه إلى رأى غيره، وكان تارة يأخذ الآراء وينفذ ما يرشده الله إليه ويشرح له صدره ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾.

وقد وقع المسلمون فيما وقعوا فيه من الهزيمة يوم أحد بسبب مخالفة الرماة لأمره ـ ﷺ ـ، وهذا هو شأن كل مخالفة لما انعقد عليه الإجماع، وقضت به المشورة الصحيحة.

تعليق الأوامر الثلاثة على الإيمان:

أما تعليق هذه الأوامر الثلاثة بقوله تعالى: ﴿ **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ فذلك أن الإيمان يقضى بكل واحد من هذه الأوامر، إذا هو تصديق بعظمة الله، وعظمة أوامره، وقد أوجب الله التقوى، وإصلاح ذات البيْن، وإطاعته، وإطاعة رسوله، فالإخلال بواحد منها إخلال بتقديس الأوامر، والإخلال بتقديس الأوامر إخلال بتصديق الأمر، وبعظمته، وهو إخلال بالإيمان نعم قد يعرض للمؤمن ما يغلبه على أمره أحيانا من ثورة شهوة أو ثورة غضب فتقع منه المخالفة، لكن لا يلبث أن يذكر الله فُيبصر جُرم نفسه فيرجع إلى الله ويتوب مما عرض له: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم**

---

(١) راجع كتابنا «الإسلام عقيدة وشريعة» باب «السنة» موضوع: السنة تشريع وغير تشريع.

مُبْصِرُونَ ﴾، ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾.

الذنب لا يخل بالإيمان:

فالإيمان بل كمال الإيمان لا ينافيه ولا يخلّ به الوقوع فى الذنب على هذا النحو، وإنما ينافيه ويُخلّ به الاسترسال فى المخالفة، واستمرار الشهوات والذنوب والآثام على وجه يطفئ نور الإيمان من القلب، ويدنس النفس ويحول بين الإنسان وبين الرجوع إلى ربه والتبصر فى عاقبة أمره، وبذلك صح التعليق وظهر أن عدم الطاعة على هذا الوجه مناف للإيمان، وأن الإيمان يقضى بالطاعة والاستغفار والندم.

سنة القرآن فى ذكر أوصاف المؤمنين:

جرت سنة الله فى القرآن أنه إذا ذكر كلمة ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أو ما يلتقى معناه بمعناها: كمتقين أو مخبتين، أردفها بذكر جملة من الصفات التى تناسب المقام مما يتحقق به مدلول تلك الكلمة.

نرى ذلك فى أول سورة البقرة:

﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

ونراه فى سورة آل عمران:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ... ﴾ الآيات ١٣٣ - ١٣٦.

ونراه فى سورة الحج :

﴿ ..وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

ونراه فى أول سورة المؤمنين :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

ونراه فى سورة الحجرات :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .

هدف أوصاف المؤمنين المفرقة فى القرآن:

وهكذا نجد القرآن الكريم حينما يذكر أوصاف المؤمنين يقتصر مرة ويطيل أخرى على حسب المقام الذى سيقت لأجله الأوصاف . والذى يستوعب الآيات يجدها تدور حول تحديد المؤمن ـ الذى يريده الله ـ بمن يجمع بين سلامة العقيدة، وسلامة الخلق، وصلاح العمل، وبمن يكون فى ذلك كله مثالا صادقا وصورة صحيحة لأوامر الله وإرشاداته، وعلى هذه السنة جاء بعد قوله تعالى فى الآية السابقة من سورة الأنفال : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قوله تعالى على سبيل الاستئناف بقصد البيان لمعنى المؤمنين الذين من شأنهم تقوى الله وإصلاح ذات البين، وإطاعة الله ورسوله قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

خمس صفات فى آية الأنفال:

وتلك خمس صفات: وجلُ القلوب عند ذكر الله، وزيادة الإيمان عند تلاوة آياته، والتوكل على الله وحده، وإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزق الله. ثم بين أنهم بهذه الأوصاف يكونون من أهل الإيمان الحق، واستأنف مبينا جزاءهم بقوله: ﴿ **لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾.

الصفة الأولى: وجل القلوب:

والصفة الأولى تدل على أن من خصائص المؤمنين عند ذكر الله الوجل والخوف، والخوف على قسمين: خوف العقاب، وخوف العظمة والجلال. وخوف الجلال والعظمة لا يفارق قلب المؤمن، لأنه يرى بإيمانه أن الله غنى وما سواه محتاج، قوى وما سواه عاجز، عال مطلع على خفيات النفوس وما سواه جاهل لا يحيط بشيء من علمه. فإذا استحضر الإنسان فقره وحاجته وضعفه وعجزه وجهله أمام عظمة الغنى القوى المحيط بكل شيء امتلأت نفسه وقلبه بوجل الهيبة والجلال، والعظمة والجمال، سواء تذكر عصيانا يخشى عقابه، أم تذكر طاعة يرجو ثوابها.

وجل المؤمنين عام فى كل الأحوال:

ومن هنا قد يتبين أن هذا الوجل ليس خاصا بتذكر العقاب بل هو عام فى سائر الأحوال، أما الاطمئنان الذى جاء فى القرآن أنه أثر من آثار ذكر الله فى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ فإنه اطمئنان اليقين، وكمال المعرفة.

الوجل والاطمئنان:

ولا منافاة بين الوجل وبين الاطمئنان حتى يقال: إن آيتنا محمولة على حالة تذكر العقاب، وآية الاطمئنان محمولة على حالة تذكر الثواب، فاطمئنان القلب ووجله لازمان من لوازم الإيمان وكمال المعرفة بالله وعظمته، وهما متحققان عند كل مؤمن إذا ذكر الله، ولو كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا.

وقد جمع الله بين الوجل والاطمئنان في قوله: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾.

الصفة الثانية: زيادة الإيمان:

والصفة الثانية زيادة الإيمان عند تلاوة الآيات، وللإيمان إطلاقان: يطلق ويراد منه التصديق فقط، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ ويطلق ويراد منه جميع عناصر الدين من تصديق وإقرار وعمل، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾ وزيادة الإيمان بالمعنى الثاني مما لا سبيل إلى إنكاره، لأن من أجزائه العمل ولا ريب أنه يزيد وينقص، وبزيادته يزيد الإيمان، وبنقصه ينقص الإيمان، كالرجل يكمل خلقه فيقال كامل الخلق، وكالرجل يفقد بعض أعضائه فيقال ناقص الخلق أو مشوه الخلق.

التصديق ينقص ويزيد:

أما الإيمان بمعنى التصديق فقط، فقد اشتهر أنه لا يقبل الزيادة ولا النقصان، لأنه اليقين وعدم احتمال النقيض، فإذا نقص عن تلك الدرجة لم يكن تصديقًا، بل كان شكًا أو ظنًا، وهما غير الإيمان المفسر بالتصديق.

والحق أنه يقبل الزيادة والنقص من جهات ثلاث:

من جهة وسيلته، ومن جهة متعلقة، ومن جهة ثمرته، فوسيلته الأدلة، وتأثر النفس بالأدلة كتأثر الأجسام الصلبة بالحفر والنقر، فكما أن آلة الحفر إذا كانت حادة، وكانت ضربات الحفار متكررة كان الأثر أشد غوراً وأبعد عمقًا، كذلك كلما كان الدليل أوضح وأقرب، وكلما تكاثرت الأدلة كان العلم أشد رسوخًا في النفس، وأعمق أثرًا في القلب، فلا تزلزله الشبهات، ولا تزعزعه العوارض والفتن، ولا كذلك إذا كانت الأدلة ضعيفة. وفي قول الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ أوضح دليل على أن الإيمان يقوى بقوة البرهان إلى درجة الاطمئنان.

أما متعلقة وهى القضايا المصدق بها فإنه لاشك أن الإيمان بها عن طريق إجمالى لا يساوى الإيمان بها عن طريق تفصيلى، فإن الأول إيمان لم يتناول الجزئيات، والثانى إيمان تناول الجزئيات، ومن ذلك تكون قوة من آمن بتفصيل القواعد فوق إيمان من آمن بها جملة.

وفى الآيات الصريحة فى زيادة نفس الإيمان قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ وقوله: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾.

أما من جهة أثره وهو العمل فإنه لاشك أن تكرار العمل بمقتضى الفكرة مما يثبت الفكرة ويزيدها رسوخًا فى النفس، وأن إهمال العمل بمقتضى الفكرة يورث ضعف الفكرة فى النفس حتى يصل بها إلى درجة الزعزعة أو المحو. ومن هنا يتضح أن زيادة الإيمان زيادة حقيقية للتصديق وتكون بتلاوة الآيات أو بسماعها وتدبرها، وهى أعم من الآيات الكلامية أو الآيات الكونية.

الصفة الثالثة: التوكل على الله:

والصفة الثالثة: التوكل على الله وحده. والتوكل أعلى مقامات التوحيد، وإن من مقتضيات الإيمان بأن الله هو المدبر للأمور، التوكل عليه فى كل ما يحتاج إليه المؤمن فيما وراء مقدوره. وليس من متناول التوكل ترك الأسباب وتنكب سنن الله فى الخلق، فمن يترك الطعام والشراب باسم التوكل على الله فى حفظ حياته فهو جاهل بالله، ومن يترك العمل للحصول على الرزق وما به قوت أولاده باسم التوكل على الله فهو جاهل بالله، ومن يترك إعداد العدة للدفاع عن الأوطان وإعلاء كلمة الله باسم التوكل على الله وباسم أن الله يدافع عن الذين آمنوا فهو جاهل بالله.

الصفة الرابعة: إقامة الصلاة:

والصفة الرابعة: إقامة الصلاة، وإقامتها عبارة عن أدائها مقومة الأركان، ظاهرة من قيام وركوع وسجود وذكر، وباطنة من خشوع ومراقبة وتدبر، وهذه هى الصلاة التى

جعل الله من ثمرتها طهارة المؤمن من الفحشاء والمنكر، وتبديل غرائز الخير بغرائز الشر ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ . . . ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾.

الصفة الخامسة: الإنفاق مما رزق الله:

الصفة الخامسة : الإنفاق مما رزق الله ، فقد قضت حكمة الله ـ ابتلاء لخلقه ـ أن يجعل فيهم الفقير والغني ، وأن يربط الفقير بالغني برباط أخوة الدين والإنسانية ، وأن يكلف الغني بمقتضى ذلك الرباط أن يسد حاجة الغير ، حقًا له في ماله وواجبًا دينيًا في ذمته ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

وبذلك يكمل التعاون ، وتطهر القلوب ، وتصفو النفوس من الأحقاد التي يولدها الجشع وينميها الشح . والآية بعمومها تطلب الإنفاق من كل ما رزق الله وهو يشمل كما فصل الفقهاء : النقدين ، والزروع ، والمواشي ، والبضائع التجارية .

تلازم الزكاة في كثير من الآيات:

هذا ، ولا نكاد نجد آية عرضت للصلاة إلا وتذكر الإنفاق في سبيل الله ، كما أنا لا نكاد نجد آية تعرض لأوصاف المؤمنين وتهملهما أو تهمل إحداهما فقد جعل الله إقامة الصلاة مثالا لبذل النفس في سبيله ، وجعل الإنفاق مثالا لبذل المال في سبيله ، واقتصر في كثير من المواضع عليهما من جهة الأعمال الظاهرة ، كما تراه في آيتنا هذه ، وقد ذكر قبلها من أحوال القلوب ثلاث مراتب : الأولى : الوجل من هيبة الله وجلاله ، الثانية : نمو هذا الوجل وامتلاء النفس به ، الثالثة : الاعتماد القلبي على الله وحده في جميع الشئون .

الجزاء المعد لأرباب هذه الصفات:

وبعد أن ذكر هذه الأوصاف ختم لأصحابها بخاتم الإيمان الحق الذي لا شية فيه للباطل فقال : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وأثبت لهم بهذه الأوصاف درجات عند ربهم . وإذا

كانت الأحوال الباطنة والأحوال الظاهرة متفاوتة فى ذاتها، وهى التى بها وعلى قدرها استحقاق الجزاء، كانت الدرجات متفاوتة بتفاوتها، فبقدر ما يكون عند المؤمن من هذه الصفات يكون له عند الله من هذه الدرجات.

ثم عطف على هذه الدرجات مغفرته لهم ورزقه الكريم إياهم، أما المغفرة فهى محو ما يكون منهم من سيئات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، والتجاوز عن عقابها حتى لا يعكر عليهم صفو هذه الدرجات. والرزق الكريم هو المنحة الإلهية التى لا يعلم حقيقتها ولا يحيط بكميتها إلا خالقها ومانحها، فهى رزق كريم من رب كريم.

نداءات إلهية للمؤمنين:

ذكرنا من قبل أن سورة الأنفال نزلت تحل مشكلات المؤمنين فى غزوة بدر من الغنائم والأسرى وغير ذلك، وتذكرهم بنعم الله عليهم فى الغزوة وفيما قبلها، ولم يفت السورة مع هذا كله أن تعرض لما يجب أن يكون عليه المؤمنون ـ وخاصة فى أوقات الجهاد ـ بالنسبة للأعداء من شجاعة وثبات وصمود، وبالنسبة لله ورسوله من الطاعة وسرعة الانقياد والأمانة والتقوى، وبالنسبة لأنفسهم من وحدة وتعاون وصبر وصدق نية، حتى يظفروا بالنصر والفلاح، ويحصلوا على العزة التى جعلها الله لعباده المؤمنين.

وفى سبيل هذا ناداهم الله ست مرات بوصف الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تذكيراً بأن ما كلفوه فى تلك النداءات من مقتضيات الإيمان الذى تحلوا به، وأن تركه أو الإهمال فيه إخلال بالإيمان ونقض لعهده الوثيق.

النداء الأول:

انتهزت السورة تفكير بعض المسلمين فى الرجوع دون مقابلة الأعداء الذين خرجوا من مكة لقتالهم، واختلافهم فى ذلك، وفى توزيع الأنفال، واتخذت ذلك فرصة لتوجه إليهم جملة من النداءات الإلهية بوصف الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تتضمن تلك النداءات أهم أسس الحرب الظافرة؛ فحذرتهم، أولا: من الفرار أمام الزاحفين عليهم، وقد كانت فكرة الرجوع دون مقابلة الأعداء تحقق ذلك الفرار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ وتوعدت الآيات الذين يولون الأعداء

ظهورهم - بروح الخوف والهزيمة لا بروح الاستعداد والتجمع - بأشد العذاب: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وأراهم أن فتح الله عليهم فى هذه الموقعة إنما كان بإخلاصهم لله وثباتهم على أمره واستغاثتهم إياه، فلا ينبغى التعويل على كثرة، أو الخوف من قلة، فإن الله مع المؤمنين الصادقين، ينصرهم مع قلتهم ويقويهم مع ضعفهم ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

النداء الثانى:

ويتضمن النداء الثانى أمرهم بطاعة الله ورسوله فيما بلغهم الرسول عن ربه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ والطاعة هى العنصر المحقق لفائدة التشريع، وهى العنوان الصادق على الإيمان الحق، والإيمان الذى يفقد عنوان العمل تعوزه الحجة والبرهان، وهو بعد عرضة للضعف والزوال، ويقرب بصاحبه إلى الكفر والنفاق، ومن هنا جاء النهى عن الإعراض والتولى مؤكدًا للأمر بالطاعة ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ وأشعروا بأن عدم امتثالهم - وإن كانوا فى واقعهم مؤمنين - يجعلهم فى النتيجة العملية كهؤلاء الذين خلت قلوبهم من نور الحق، وقالوا سمعنا وهم لا يسمعون؛ فهاهم أولاء الكفار يقول الله فيهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وها هم أولاء المنافقون يقول الله فيهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾. ثم تزيدهم الآيات تنفيرًا من أن يكون سماعهم كسماع هؤلاء الجاحدين؛ بأن هؤلاء كانوا فى حكم الله وتقديره - بوضع أنفسهم هذا الوضع الخاسر الذى فقدوا به نعمة السمع فكانوا «صمًا» لا يسمعون و«بكما» لا ينطقون و«غلفًا» لا يعقلون - من شر ما يدب على وجه الأرض من الحشرات التى لا تسمع ولا تنطق ولا تعى، وهى مصدر الشر والإيذاء لخلق الله ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ثم يرشد النداء إلى أن حرمانهم من الحق ونوره كان من أنفسهم، ومن تحكم شهواتهم فى ضمائرهم، حتى صارت غير مستعدة لقبول نور الحق الذى لا يشرق إلا على قلب يتجه

إليه ويتعلق به، وهذه سنة الله في هداية عباده وضلالهم: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ**﴾ وأفاض عليهم من الحق بمقتضى سنته ما يناسب استعدادهم والحق الذي لديهم، فهم بمقتضى سنته لا يسمعون: ﴿**وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ منصرفون عن تدبر ما سمعوا والانتفاع به، فقدوا نور الفطرة، وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

أيها المؤمنون:

هذا هو النداء الثاني أدى مهمته في السابقين، فانقادوا لأحكام الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله وهو باق في كتابه الخالد، تكليفًا للاحقين بالطاعة والامتثال، ووثيقة يمليها عليهم الإيمان في كل زمان ومكان، وفي كل شأن وحال. فاسمعوا وأطيعوا، ولا تكونوا كالذين لا تدفعهم حاجة إلى سماع القرآن، ويتشاغلون عنه إذا تلي عليهم بلهو الحديث، وثقافة المشككين، اسمعوا وأطيعوا، ولا تكونوا كهؤلاء الآخرين الذين رأوا أن طاعتهم للقرآن ليست سوى الاهتزاز بنغمات القارئ فيصيحون، ويستعيدون، ويصفقون، ويعيدون بذلك شأن المعرضين الأولين في عبادتهم ﴿**وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**﴾ - صفيرًا وتصفيقًا.

النداء الثالث:

ثم بعد أن يركز لهم الأمر على أساس من الطاعة والتحذير من المخالفة يناديهم مرة ثانية بإنهاض الهمة وتقوية العزيمة، والمبادرة إلى الطاعة والامتثال دون إبطاء أو تسويف، ويرشدهم إلى أن ما يدعون إليه فيه حياتهم: بالعلم والمعرفة، بالشرف والعزة، بالسلطان وعلو الكلمة بالسعادة الحقة والنعيم المقيم ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ وفي سبيل التحذير من التسويف في الطاعة يلفتهم إلى ما يوجب عليهم المبادرة بها، حتى لا يدركهم ما قد ينحرفون به عن الصراط المستقيم، يلفتهم إلى أن الإنسان عرضة للتأثر بالهوى الذي يضعف إيمانه ويحول بينه وبين إرادة الخير الذي يمتلئ به قلبه، وإلى أن هذه الحياة هي ميدان العمل، والإنسان لا يدري متى يحل أجله، وعسى أن يكون قريبًا، وعندئذ يكون الحشر، ويكون السؤال والجزاء، أمران لا بد أن يحذرهما الإنسان: مسارقة الهوى، ومسارقة الأجل، وفيهما يقول الله: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ**

﴿ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾، وفي جو الأمر بالاستجابة، وتقوية العزيمة فيما يحييهم، يرشدهم إلى اتقاء ناحية كثيراً ما تكون سبباً في عموم البلاء، ولا يقتصر شرها على من يلهب نارها، هي السكوت عن الفحشاء والمنكر يشيعها في الأمة أفراد معروفون، فتفسد الأخلاق، وتتعرض الأمة لخطر يدهمها في عزتها ويسلبها مجدها وسعادتها: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾، والأفراد في نظر القرآن مسئولون عن خاصة أنفسهم، ومسئولون عن أمتهم، وإن هم قصروا في أحد الجانبين أو فيهما فقد عرضوا أنفسهم وعرضوا أمتهم للدمار والهلاك، وتلك سنة الله: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾، ثم يشفع هذا التحذير بتذكيرهم نعمة الله عليهم حينما استجابوا لله وتضامنوا في المسئولية والحرص على إعلاء كلمة الله، وكيف نظر الله إليهم على قلتهم فكثرهم، وضعفهم فقواهم، وخوفهم فأمنهم، وفقرهم فأغناهم ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وتلك سنة الله، لا تختص بزمان دون زمان، ولا بقوم دون قوم.

النداء الرابع:

ثم يناديهم مرة رابعة وينبههم إلى أن مخالفة الله في أوامره ـ ومن أشدها إفشاء سر الأمة للأعداء ـ خيانة لله ولرسوله وخيانة للأمة، وحسب الخائنين سقوطاً عند الله قول الله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، ثم يحذرهم شهوة النفس في الحرص على المال والولد، حرصاً يفوت عليهم القصد والاعتدال في تحصيل الأموال وإنفاقها وتربية الأبناء وإسعادهم، ويزج بهم في مهاوي الفتنة والخيانة، ويعدهم إذا سلكوا في الأموال والأولاد مسلك القصد ومسلك التضحية في سبيل الله، بالأجر العظيم، والحياة الطيبة السعيدة: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

النداء الخامس:

ثم يجيء النداء الخامس فيلفت النظر إلى أساس الخير كله، وهو تقوى الله في أحكامه وسننه، وإلى أن التقوى شجرة مثمرة، أعظم ثمارها الفرقان والنور الذى يبصركم بالحق، والعدل، والصلاح، والذى به تهتدون، وبه تنصرون وتسعدون، وبه تمحى السيئات وتسد منافذ الشر والفساد، وبه تفتح لكم أبواب السماء، ويغمركم الفضل الذى لا يحد ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ .

النداء السادس:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ .

وأخيراً يأتى هذا النداء السادس يؤكد ما تضمنته النداءات السابقة من مبادئ وأسس ضرورية للحصول على النصر . يأمرهم فى هذا النداء بالتزام الفضائل والأخلاق التى لا بد من التحلى بها فى ساعة اللقاء :

وأولها الثبات أمام الأعداء، وهو أمر إيجابى مؤكد للنهى عن الفرار السابق فى النداء الأول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ** ﴾ .

ثم يأمرهم بمعتصم روحى يعينهم على الثبات، ويمنحهم رباطة الجأش ساعة تزيغ الأبصار وتضطرب القلوب، ذلكم هو ذكر الله كثيراً، وذكر الله ليس نطاق اللسان فحسب، إنما هو قبل ذلك استحضار عظمة الله التى لا تحد، وقوته التى لا تقهر، ووعده الذى لا يتخلف، وبهذا الذكر والاستحضار تقوى العزائم، وتثبت الأقدام .

ثم يأمرهم بطاعة الله ورسوله، وهو ما سبق أن دعت إليه السورة وأكدت طلبه فى النداءات السالفة، بل من أول آية فيها : ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ .

وإذا كانت طاعة الله ورسوله واجبة فى كل الأوقات، فإن وقت الحرب إذا دارت رحاها، والتقى الجمعان وجهًا لوجه ـ تكون الطاعة فيه أوجب، والامتثال ألزم.

فكل مخالفة تؤخر النصر، وتفتح ثغرة لعدو الله، ثم يعقب هذا الأمر بنهى وتحذير يسد به نافذة خطرة يهب منها الشر والفساد عليهم، فيتركون طاعة الله ورسوله، ذلك هو التنازع الذى ربطت الآية به الفشل، وذهاب الريح، ربط المسبب بالسبب والنتيجة بالمقدمة: ﴿ **وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ قاعدة مطردة من قواعد الاجتماع، وسنة ثابتة من سنن الله. ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ولقد رأينا مصداق هذا فى غزوة أحد حين تنازع الرماة على الغنائم، وعصوا أمر الرسول فتركوا الجبل، وأخلوا ظهورهم للمشركين، فانكسروا فى نهاية المعركة بعد أن انتصروا فى الجولة الأولى، وذكرهم القرآن بذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ..** ﴾.

ثم يتوجه إليهم بعد هذا النهى المقرون بسببه آمرًا بالصبر، وهو عدة الكفاح ووسيلة النجاح، وإذا كان الصبر لازمًا للنجاح فى كل أمر، ولكل إنسان، فهو ألزم ما يكون للمقاتل فى ساحة اللقاء ـ وقد قيل: «الشجاعة صبر ساعة» ولذلك تقفى الآية على هذا الأمر بهذه الجملة المؤكدة: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ وهى معية نصرة ومعونة من الله، ومن كان الله معه فلن يخذل ولن يضيع.

ثم ينهاهم أخيرًا أن يكونوا كأعدائهم الذين خبثت نيتهم، وساءت غايتهم، ولم يكن لهم من وراء الحرب هدف نبيل، وإنما هو البطر ورياء الناس والصد عن سبيل الله.

وإذن فعلى المؤمنين أن يخلصوا النية ويصدقوا العزيمة، ويتجردوا للغاية التى آمنوا بها، وهى أن تكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وبذلك يتميزون عن فريق الضلال وحزب الشيطان: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ** ﴾.

وحسبنا هذه الجولة فى سورة الأنفال، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

سورة التوبة

- هدفان أصليان للسورة.
- مهمتها التاريخية مع سورة الأنفال.
- التصفية النهائية للشرك فى جزيرة العرب.
- وضع الأساس فى معاملة أهل الكتاب.
- الدعوة العامة للجهاد فى سبيل الله.
- كلمة فى معنى «سبيل الله».
- كشف الغطاء عن فتن المنافقين وأساليب النفاق وألوانه.
- التعاقد بين الله والمؤمنين.

تذكير بموضوعات السور السابقة:

تحدثنا فيما سبق عن سورة الفاتحة، وهى سورة مكية، وبينا وجه تسميتها بأم الكتاب، من أنها اشتملت إجمالا على كل ما فصل فى القرآن الكريم من عقائد وعبادة ونظام للحياة وترغيب وترهيب، ثم تحدثنا عن سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، وكلهن من السور المدنية التى عالجت شئون المسلمين بعد أن تركزت لهم - بهجرتهم إلى المدينة - وحدة مستقلة لها شعارها الخاص فى العقيدة والعبادة، ولها منهاجها الخاص فى الحياة، وبعد أن صار لهم بذلك جوار جديد غير جوارهم الذى كان بمكة. ومن ذلك عنيت هذه السورُ على وجه عام ببيان الأحكام التى اختارها الله للمسلمين فى عباداتهم ومعاملاتهم فيما بينهم بعضهم مع بعض، وفيما بينهم وبين غيرهم ممن لا يدينون بدينهم، وعنيت على وجه خاص ببيان الحق فيما كان بينهم وبين أهل الكتاب من اليهود والنصارى من خلاف فى مسائل الألوهية، ورسالة محمد، وحلال الأطعمة وحرامها.

ثم تحدثنا عن سورتى: الأنعام والأعراف، وهما أطول السور المكية فى القرآن الكريم، عالج الله فيهما أصول الدعوة الإسلامية بالبراهين العقلية والوجدانية، والتذكير بعاقبة الأمم التى كذبت رسلها وأعرضت عن دعوتهم والتذكير باليوم الآخر وما أعد فيه للمصدقين والمكذبين من ثواب وعقاب.

ثم تحدثنا عن سورة الأنفال، وهى سورة مدنية عرضت لأول غزوة من غزوات النبى - ﷺ - للمشركين وهى غزوة بدر، وبهذه المناسبة أرشدت إلى ما تستدعيه حالة الحرب من أحكام تتعلق بنفس القتال والإعداد له، كما عرضت لأحكام الغنائم والأسرى، وربطت بين المؤمنين على اختلاف ألوانهم بولاية الإيمان، كما ربطت بين الكفار بولاية الكفر، وقطعت بذلك ما بين المؤمنين والكفار من موالاة: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾، ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾.

سورة التوبة:

وهذه «سورة التوبة»، وهى السورة التاسعة فى الترتيب المصحفى، وهى من السور المدنية، وقد نزلت فى أواخر السنة التاسعة، والسنة التاسعة هى السنة التى خرج فيها النبى - ﷺ - بالمسلمين إلى تبوك بقصد غزو الروم، وخرج فى أواخرها أبو بكر على رأس المسلمين لحج بيت الله الحرام.

هدفان أصليان:

وقد كان للسورة بحكم هذين الحادثين العظيمين - فى تاريخ الدولة الإسلامية - هدفان أصليان:

قانون الإسلام فى معاملة المشركين وأهل الكتاب:

أحدهما: تحديد الروح المعنوى، أو القانون الأساسى الذى تشاد عليه دولة الإسلام، وذلك بالتصفية النهائية بين المسلمين ومشركى العرب بإلغاء معاهداتهم، ومنعهم من الحج، وتأكيد قطع الولاية بينهم وبين المسلمين، وبوضع الأساس فى قبول بقاء أهل الكتاب فى جزيرة العرب وإباحة التعامل معهم.

شرح نفسيات القوم عند غزوة تبوك:

ثانيهما: إظهار ما كانت عليه نفوس أتباع النبى - ﷺ - حينما استنفرهم ودعاهم إلى غزوة الروم، وفى هذه الدائرة تحدثت السورة عن المتثاقلين منهم والمتخلفين والمثبطين، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين وما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد وما قاموا به من أساليب النفاق وألوانه.

وقد عرضت السورة من أولها للهدف الأول، واستغرق ذلك إلى الآية السابعة والثلاثين منها. ففى نبذ عهود المشركين وبيان أسباب ذلك النبذ وما يجب على المسلمين بعد إعلانهم به جاء قوله تعالى: ﴿ **بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾، الآية الأولى إلى الآية الثامنة والعشرين ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ**

نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾.

وفى تحديد الأساس الذى تبنى عليه علاقة المسلمين بأهل الكتاب جاء قوله تعالى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾. الآية التاسعة والعشرون إلى الآية الرابعة والثلاثين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

وعرضت السورة للهدف الثانى: شرح نفسيات المسلمين بمناسبة موقفهم من دعوة الرسول إلى غزو الروم والخروج إلى تبوك ابتداء من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ الآية الثامنة والثلاثون إلى الآية السابعة والعشرين بعد المائة فى أواخر السورة: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾.

ثم يكون ختام السورة بهاتين الآيتين: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾.

هذان هما الهدفان الأصليان اللذان استدعيا نزول «سورة التوبة»، وقد عرضت السورة فى تضاعيف الحديث عنهما إلى بيان كثير من الأحكام والإرشادات التى تحتاج إليها الدولة الناشئة الغنية فى علاقاتها الخارجية مع غيرها، وعلاقاتها الداخلية فيما بين أفرادها بعضهم مع بعض، وفيما بينها وبينهم.

مهمتها التاريخية مع الأنفال وحكمة اقترانهما:

والواقع أن سورة التوبة ـ فى الوقت الذى ترشدنا فيه إلى هذه الأحكام وتلك الأسس التى لا بد منها للمسلمين فى حفظ كيانهم الداخلى والخارجى من حربى واجتماعى ـ

تعطينا في الوقت نفسه مع سورة الأنفال ما يشبه أن يكون صورة تاريخية مجملة لدعوة النبي - ﷺ - وجهاده إلى أن أقرّ الله عينه بثمرة ذلك الجهاد وتبليغ تلك الدعوة.

ومن اليسير أن نقرأ سورة الأنفال فنرى أنها تضع أولا الأوصاف التي بها تتحقق إجابة الدعوة، ثم تشير إلى حالتهم قبل الهجرة: ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾، ثم تشير إلى تدبيرهم الذي كان سببا مباشرًا للهجرة: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾، ثم تذكر غزوة بدر وما بدا من اليهود في نقض العهود: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ** ﴾. ومن المنافقين في التهكم بخروج المؤمنين إلى بدر مع قلتهم ﴿ **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ** ﴾.

وبينما نرى سورة الأنفال تشير إلى هذه الأحداث الأولى نرى سورة التوبة تشير إلى مشاهد النصر وتخص منها يوم حنين بالذكر: ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...** ﴾ الآيات، كما تذكر صراحة حادث الهجرة: ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ الآية، ثم تصف مواقف المشركين أهل الكتاب، وتصف بالتفصيل مواقف المنافقين وتذكر غزوة تبوك التي ترشد إلى واقعة مؤتة، هذه الواقعة التي تذكر بعهد كتب الدعوة التي وجهها النبي إلى الملوك بعد صلح الحديبية.

ولعل قيام السورتين بالإرشاد إلى هذه المراحل كان هو الحكمة في وضعهما مقترنتين في الترتيب المصحفي، ولعل قيام سورة التوبة بمهمة التصفية النهائية بين المؤمنين والطوائف المعارضة، مع وضع أسس الحياة الفاضلة العزيزة للمسلمين، يحقق أنها آخر سورة أحكامية نزلت من القرآن الكريم، وأنه لم ينزل بعدها سورة كاملة إلا سورة النصر التي سجّلت نصر الله لعباده وأوجبت عليهم تسبيحه بحمده: ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾.

وقد صحّ أن النبى - ﷺ - لم يلبث بعد نزولها إلا قليلا حتى التحق بالرفيق الأعلى مطمئنا قلبه، طيبة نفسه بما أدى من رسالة، وبما قام من دعوة وجهاد.

مراحل الدعوة والجهاد السابقة:

ولمعرفة الوضع التاريخى الذى نزلت فى جوه سورة التوبة، والذى يعين على فهم المقصود منها، نرى أن نعرض سراعا للمراحل العملية للدعوة والجهاد، من وقت بعثة الرسول - ﷺ - إلى الوقت الذى نزلت فيه، لنعرف منها كيف تدرّجت حالة المسلمين إلى ما يستدعى هذا العلاج الذى قامت به تلك السورة، ووضعت أحكامه ومبادئه فيما يختص بالأساس النهائى الذى يستقر عليه الأمر فى معاملة المشركين وأهل الكتاب فى جزيرة العرب، وفيما يختص بالتنبه واليقظة بالنسبة لما يتخلل الدولة من عناصر التخذيل والنفاق فى كل وقت وفى كل مكان.

الدعوة بمكة:

بدأ النبى - ﷺ - دعوته فى مكة بأنه رسول الله، يدعو الناس إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، والعدل والإحسان وسائر العمل الصالح. وقد تدرج فى دعوته من السرية إلى الجهرية، فقابله قومه بالإنكار، وساوموه على ترك العبادة بما يطيب له، ثم انتقلوا معه إلى العنف والاضطهاد، وقد دوَّن التاريخ من حوادث التعذيب والإيذاء له ولمن يلبى دعوته ما تقشعرُّ من ذكره الجلود. وظل بمكة ثلاث عشرة سنة يعانى فيها هو وصحبه ما يعانى من ألوان العذاب وصور التنكيل.

الهجرة:

وأخيرا اعتزموا قتله بطريقة تفرق دمه فى القبائل، فهيأ الله له سبيل الهجرة إلى المدينة التى انتقلت دعوته إليها بواسطة الوفود، وأخذت تسرى فى القلوب بما تحمل من جلال وجمال، حتى كونت لها من شباب المدينة أنصاراً أربابَ قوة وفتوة، عاهدوا الرسول على الموت فى سبيل نصرته ونشر دعوته، وبهذه الهجرة سقط فى أيدى المشركين وتضاعف حقدهم على محمدٍ وأصحابه الذين نجوا من الفتك بهم بعد أن هيئوا فرصته واتخذوا عدته.

سُقَط فى أيديهم، وطاشت عقولهم، وأخذوا يبعثون عيونهم للتجسس على محمد وأصحابه. ومعرفة ما عساه أن يكون منهم بعد أن أخرجوا من مكة والتقوا مع أنصارهم بالمدينة، وبذلك صار شأن محمد شغلهم الشاغل الذى لا ينامون عنه ولا يطمئنون إليه، وبخاصة حينما علموا أنه استقر بالمدينة التى تأخذ عليهم طريقهم بأموالهم إلى الشام.

هاجر النبى - ﷺ - ولم يكن فى مكة طلب سلطان ومُلْك حتى يكتفى بسلطان المدينة ومُلكها، وإنما كان صاحب الدعوة الإلهية العامة التى تهدف - من أول رسول بعثه الله إلى خلقه - إلى إقرار توحيد الله فى القلوب، والقضاء على الشرك، وتركيز عناصر الخير والعدل بين الناس جميعا.

هاجر إلى المدينة وهذه دعوته، فتلقاه أنصار بايعوه على النصرة وعلى السمع والطاعة، وترك هو وأصحابه ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله بنشر دعوته على عباد الله، وخلفوا فى مكة - بين المشركين أرباب القلوب القاسية - إخوانا ملأ الإيمان قلوبهم، ولكن قعد بهم ضعفهم المادى عن الهجرة مع إخوانهم فى الله، حتى صارت دعوتهم الوحيدة: ﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾.

حالة الحرب بين المسلمين والمشركين:

وبحكم هذا الوضع لا يمكن أن تكون الحالة بينه وبين مشركى العرب إلا حالة حرب وتربص، لا يألوا فيها أحد الطرفين جهده عن الفتك بصاحبه والقضاء عليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ومن هنا نشأت تحرشات واستطلاعات وتكتلات جزئية هى أشبه فى وقتنا الحاضر بالكتائب التى تبعث لأغراض خاصة ليس من مهمتها أن تشتبك فى حرب حقيقية مع العدو.

غزوة بـدر:

وظل الأمر كذلك حتى هيأ الله بهذه المناوشات للمسلمين فى السنة الثانية من الهجرة غزوة بدر التى زلزلت عناصر الشرك ووضعت حجر الأساس فى بناء الدولة الإسلامية،

وقد نزل فى هذه الغزوة أول سور الغزوات، وهى سورة الأنفال، التى تلتها مباشرة فى الترتيب المصحفى «سورة التوبة»، التى تضمنت كما قلنا إعلان آخر الأمر. وبذلك جاءت السورتان المتواليتان تصوران ـ كما قلنا ـ مبدأ عزة المسلمين، وإقرار عناصر تلك العزة.

غـزوة أحـد:

وبغزوة بدر استمرت رحى الحرب دائرة بين المشركين والمسلمين، وكان من أهم الوقائع بعدها غزوة أحد التى قد أوقد المشركون نارها فى السنة الثالثة أخذًا بثأر بدر. وقد ابتلى الله فيها المؤمنين وألقى عليهم بها درسا نافعا فى حروبهم التالية، وبهذا الاعتبار كانت نصرا فى معناها، وإن كانت هزيمة فى صورتها، وقد تحدثت عن هذه الغزوة سورة «آل عمران». اقرأ فيها قوله تعالى:

﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾. وإلى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾.

غزوة الأحزاب:

ومرت السنة الرابعة وجاءت بعدها السنة الخامسة وفيها تحالف مع قريش عدّة قبائل من المشركين وبعض طوائف اليهود على حرب رسول الله، وكانت «غزوة الأحزاب» أو «غزوة الخندق»، وقد جاء الحديث عنها فى سورة من القرآن تُعرف بسورة «الأحزاب» ومما

جاء فيها تصويرا لنعمة الله على المسلمين بالإنقاذ، ورد كيد الأعداء فى نحورهم قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا** ﴾.

صلح الحديبية:

ومما يروى فى هذا المقام أن النبى - ﷺ - قال فى نهاية تلك الغزوة: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا» وقد كان ذلك من نور النبوة الذى كان يخبر به عليه السلام عن أحداث المستقبل، فقد جاءت السنة السادسة تحمل فى جوفها صلح الحديبية. وذلك حينما قصد النبى ومعه المسلمون مكة لأداء العمرة فمنعهم المشركون عن دخولها، ودارت بين الفريقين مفاوضات انتهت بالصلح على وضع الحرب بين المسلمين والمشركين عشر سنوات، وبشروط: أن يرد المسلمون إلى قريش من يجىء منهم مسلما دون أن يلزم المشركون برد من يجيئهم من المسلمين، وأن يرجع المسلمون عن دخول مكة فى هذا العام إلى العام المقبل، وأن من أراد أن يدخل فى عهد أحد الطرفين من العرب دخل فيه، فدخلت بهذا الشرط خزاعة فى عهد الرسول، ودخلت بكر فى عهد قريش، وعلى هذه الشروط رجع المسلمون وفى قلوبهم ما فيها من قسوة هذه الشروط عليهم، ولكن الله قد شرح صدورهم وطمأنهم على مستقبلهم وأنزل عليهم فى هذا الصلح «سورة الفتح» ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴾ وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه: «ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قَصُر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد».

ومضت السنة السابعة، وقضى المسلمون فيها العمرة وطافوا بالبيت آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين، وبذلك تحققت رؤياه عليه السلام، وعرف المؤمنون نعمة الله عليهم: ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾.

فتــح مكـــة:

وما كادت تنتهي السنة الثامنة حتى عدا البكريون حلفاء قريش على الخزاعيين حلفاء الرسول - ﷺ - واستعانوا فى حربهم بأوليائهم من قريش، فأمدتهم قريش سرا بالعدة والرجال، وهنا استنجد الخزاعيون حلف رسول الله، ورأى الرسول أن ذلك من قريش نقض للعهد، وبذلك عادت حالة الحرب بينهم وبين المسلمين، فجهز النبى جيشه، وأخذ عدته لفتح مكة. وفى زلّة حاطب بن أبى بلتعة قبل خروج الجيش من المدينة؛ وقد بعث بخطاب إلى قريش مع ظعينة مسافرة إليهم يخبرهم بما أجمع عليه النبى أمره من نجدة الخزاعيين وفتح مكة. . نزل أول سورة الممتحنة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾.

غزوة ثقيف وهوازن:

وبفتح مكة تقلمت أظفار الشرك وخضعت قريش لمحمد وأصحابه، ولكن لا يزال للشرك فى جزيرة العرب دعاة وأنصار تتزعمهم ثقيف وهوازن من قبائل العرب، هالهم أن يفتح محمد مكة، وخشوا عاقبة ذلك على أنفسهم، وعقدوا أمرهم بينهم على غزو المسلمين قبل أن يغزُوهم، وجمعوا لهم من كل صوب، فخرج النبى إليهم بجيش جرار فيه ألفان من أهل مكة حتى وصل حنينا «واديا قريبا من الطائف» وقد داخل بعض جيش المسلمين شىء من الغرور بكثرة عددهم فأصيب بهزيمة ثبت فيها الرسول، شأنه فى كل المواقع الحربية، وثبت معه بعض الأنصار والمهاجرين، وأخذ النبى يسترد بقوته الروحية جماعة المنهزمين، وحملوا على الأعداء حملة واحدة تفرق بها المشركون شذرمذر، وتم

النصر لأولياء الله، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة التوبة: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وبالقضاء على ثقيف ومن معهم من هوازن فى غزوة الطائف التى أعقبت غزوة حنين هذه، تمت الكلمة فى جزيرة العرب لدين الله.

اليهود بالمدينة:

هذا هو وضع المشركين بالنسبة لمحمد - ﷺ - وأصحابه من وقت البعثة إلى وقت الفتح الأكبر، بل إلى ما بعده كما أرشدت إليه حوادث ما بعد الفتح وهو - كما قلنا - وضع المحاربين الناكثين، الشامتين، العاملين على هزيمتهم فى كل وقت وبكل مناسبة.

وإذا كان هذا هو وضع المشركين بالنسبة لمحمد وأصحابه فقد كان وضع أهل الكتاب - بالنسبة للمؤمنين من يوم أن استقرت أقدامهم فى المدينة - لا يقل عن وضع المشركين إن لم يكن أشد منه ظلما وأعظم طغيانا وأبعد خيانة.

فقد عاهدهم النبى - ﷺ - من يوم أن دخل المدينة على حرية التدين، وعلى الأمن والاستقرار، وعلى أن لا يعينوا عليه عدوًا، ولكن ما لبثوا أن نقضوا العهد، وظاهروا المشركين فى حروبهم للنبى - ﷺ -، وكان بنو قينقاع أول طائفة منهم نقضت العهد، وأظهرت البغى والعدوان بانتهاك حرمة سيدة من نساء الأنصار، وكان ذلك فى السنة الثانية عقب غزوة بدر، ونزل فيهم قوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

فدعا النبى رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغى إن استمروا، فقالوا يا محمد: «لا يغرنك ما لقيت من قومك فإنهم قوم لا علم لهم بالحرب، ولو لقيتنا لعلمت أننا نحن الناس» وقد تشبث بحلفهم ابن أُبَىّ وقال: «إنى رجل أخشى الدوائر» وفى تحذير المسلمين عن مثل صنيع ابن أُبَىّ نزل قوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ

وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ وقد انتهى أمر حصارهم بجلائهم إلى أذرعات «قرية بالشام» كما انتهى أمرهم بالهلاك العام.

ثم تلا بنى قينقاع فى نقض العهد بنو النضير حينما دبروا اغتيال النبى - ﷺ - وهو فى ديارهم، فطلب منهم الرسول الجلاء عن المدينة، كما جلا عنها بنو قينقاع، وقد أرسل إليهم ابن أبَىّ يشجعهم على البقاء فنزلوا على وعده، وأبوا أن يخرجوا حتى داهمهم النبى - ﷺ - وشتت شملهم، وكان ذلك فى ربيع الأول من السنة الرابعة، وقد نزلت فيهم «سورة الحشر» وذلك حيث يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾.

كما تناولت السورة موقف ابن أبَىّ منهم ونكوصه على عقبيه، ومثلته بالشيطان: ﴿إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وصنع مثل صنيع هؤلاء وهؤلاء بنو قريظة، وقد قبلوا حكم سيدهم سعد بن معاذ فيهم، فحكم بقتلهم. وهكذا تتبع المسلمون بقية اليهود فى الجزيرة حتى أبادوا منهم من أبادوا وشتتوا من شتتوا. وبذلك نكست فى جزيرة العرب راية اليهود، كما نكست فيها راية المشركين.

الـــروم:

وبعد ذلك توجه المسلمون للقصاص من الروم؛ إذ قتلوا الرسول الذى أرسله النبى - ﷺ - بكتاب إلى ملك الروم يدعوه به إلى الإسلام، ويحمله - إن تولى - إثم الرعية.

فجهز النبى - ﷺ - جيشه وأنفذه إليهم، وكانت موقعة حامية هى موقعة «مؤتة بالشام» استشهد فيها ثلاثة من قواد المسلمين، ولولا مكيدة حربية ألهم بها خالد بن الوليد

ما نجا من الجيش أحد . وكان ذلك فى السنة الثامنة قبل فتح مكة . كما كانت هذه الغزوة أول الغزوات بين المسلمين والروم .

وفى السنة التاسعة تتابعت الأخبار بأن الروم جمعوا للمسلمين الجموع واعتزموا غزوهم، فتجهز النبى - ﷺ - وخرج بجيشه قبل أن يفاجئوه فى بلده، ولما وصل إلى «تبوك» وجدهم قد عدلوا عن فكرتهم، فأقام هناك عدة أيام عاهد فيها بعض الأمراء، بقصد تأمين الحدود بينه وبين الروم .

ثم عاد إلى المدينة وهو يفكر فى أمر الروم، اعتقادا منه أنهم لا يعدلون عن غزو المسلمين، فجهز الجيش الذى أنفذه من بعده - ﷺ - خليفته الأول أبو بكر رضى الله عنه .

المنافقــون:

وقد منيت الدعوة بجانب هؤلاء وهؤلاء بطائفة ثالثة فاحت رائحتها الكريهة عقب أن استقرت قدم النبى - ﷺ - وأصحابه بالمدينة، وهم المنافقون، فقد استجاب لدعوته من أهلها من لم تكن لهم مصلحة دنيوية تحجب عن بصائرهم نور الإسلام، أما الذين لهم هذه المصالح فقد تظاهروا بالدخول فى الإسلام وكانوا نواة لجماعة المنافقين. وظل الخوف على هذه المصالح يُشعل نار الحقد فى قلوبهم حتى بدا ذلك فى ميولهم إلى المشركين لأول موقعة حربية وهى غزوة بدر. وقد أشارت سورة الأنفال إلى ذلك حيث تقول: ﴿ **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ . تهكموا من أن يخرج المؤمنون مع قلتهم وضعف عدتهم إلى المشركين مع كثرتهم فى العدد والعُدد. ثم توالت الوقائع بين المسلمين والكفار : مشركين وأهل كتاب، ولم يترك المنافقون فيها فرصة يلحقون فيها الأذى بالمسلمين إلا انتهزوها . كما لم يفتهم أن يكون لهم مع الكفار ضد المسلمين ضلع فى كل موقعة منها، فكان لهم مع المسلمين شأن عام يثيرون به الفتن عليهم، وكان لهم شأن خاص فى غزوة أحد، وتحدثت عنهم فيه سورة آل عمران، وكان لهم شأن خاص وأى شأن فى غزوة الأحزاب، وتحدثت عنهم فيه سورة الأحزاب، وهكذا استمر شأنهم مع المؤمنين، وتحدث عنهم كثير من سور القرآن، وقد يكون ما جاء عنهم فى السورة التى سميت باسم «المنافقون» أقل مما جاء عنهم فى

غيرها، واستمر شأنهم هكذا إلى أن استنفر النبى أصحابه إلى غزو الروم فتجلت نياتهم الفاسدة وظهرت فى أقبح صور العداء.

سورة التوبة ترسم الطريق:

فى هذا الجو، ولمعالجة هذا الوضع الذى صار إليه المسلمون وتخليصه من آثار الشرك والمشركين، ومفاسد أهل الكتاب، وذبذبة المنافقين ـ نزلت سورة التوبة ترسم للمؤمنين ما يتخذونه أساسًا لدولتهم، ومنهاجًا لحياتهم، حتى تستمر عزتهم، ويتركز سلطانهم بقوى الخير الخالصة والإيمان القوى.

والواقع أن من يتدبر هذه السورة يجدها ترسم للمؤمنين الصادقين خطط حياتهم بالنسبة للمشركين، وبالنسبة لأهل الكتاب، وبالنسبة للمنافقين، وترسم لهم المثل الأعلى ليكون هدفهم فيما يختص بأنفسهم وقيامهم بالإصلاح الإلهى للعالم كما هو مقتضى الإيمان.

ففى علاقتهم بالمشركين ما جاء فى أول السورة ومنه قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾.

وفى تنبيههم على الطغيان المالى لأهل الكتاب يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ** ﴾.

وفى حثهم على الجهاد وسبيل العزة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ** ﴾، وفى ولاية بعضهم لبعض: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ**

﴿ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ وفى بعثهم على الجهاد فى سبيل الله: **﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ...... ﴾**. الآيتان.

أسماء السورة:

ويجدر بنا الآن وقد فرغنا من هذا التقديم أن أعود فأقول:

إن هذه السورة قد عرفت من العهد الأول بجملة أسماء، تدل بمجموعها على ما اشتملت من المبادئ والمعانى التى تجب مراعاتها فى معاملة الطوائف كلها، مؤمنهم، ومنافقهم، وكتابيهم، ومشركهم.

ومن تلك الأسماء وهو أشهرها: «التوبة» وهو يشير إلى ما تضمنته السورة من تسجيل توبة الله وتمام رضوانه على المؤمنين الصادقين، الذين أخلصوا فى مناصرة الدعوة، وصدقوا فى الجهاد مع النبي - ﷺ - حتى وصل بهم إلى الغاية، وذلك فى قوله تعالى من السورة: **﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾**.

ولا ريب أن تسجيل هذه التوبة للمؤمنين - بعد أن كابدوا ما كابدوا فى سبيل نصرة الحق والدين - لمما يقوى روح الإيمان فى قلوبهم، ويبعد بهم عن مزالق المخالفة أو التقصير، وسنعلم كيف فعلت هذه التوبة فى نفوس هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك. وهذا نوع من التربية القوية التى تحفز النفوس إلى الاستمرار فى عمل الخير، وتشجعها على اقتحام ما يكون من عقبات فى طريق الفوز برحمة الله ورضوانه.

ومن الأسماء «براءة» وهو يشير إلى ما تضمنته السورة فى أولها من قطع عصمة مشركى جزيرة العرب على الإطلاق، وعصمة غيرهم حتى يخضعوا لسلطان الإسلام، والعودة بالجميع إلى حالة الحرب التى كانت بينهم وبين المسلمين قبل معاهدات السلم والأمان، وذلك فى قوله تعالى: **﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾** وقوله: **﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾**.

وقد عرفت بعد هذين الاسمين بأسماء: كالحافرة، والمثيرة، والفاضحة، والمنكّلة، وغيرها مما احتفظت به كتب التفسير، وهى ألقاب أطلقت عليها باعتبار ما قامت به من حفر قلوب المنافقين، وإثارة أسرارهم، وفضيحتهم بها، وتنكيلها لهم، وقد ورد عن ابن عباس - وقد ذكرت له التوبة - أنه قال: هي الفاضحة؛ مازالت تنزل فيهم وتنال منهم حتى ظننا أنها لا تبقى أحدًا إلا ذكرته: ومنهم، ومنهم، ومنهم. ويشير بهذا إلى ما جاء فى السورة من أصناف المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾. ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾. ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾. ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

سورة مستقلة:

وهذه الأسماء وغيرها مما ثبت إطلاقه على السورة من الصدر الأول، لم يعرف إطلاق واحد منها على السورة التى قبلها وهى سورة الأنفال، كما لم يعرف أن أطلق اسم الأنفال على هذه السورة، وبذلك احتفظت كل من السورتين منذ العهد الأول بما لها من اسم لم تشاركها فيه صاحبتها، وكما احتفظت كل من السورتين بما لها من اسم، احتفظت كل منهما بوقت نزولها، فسورة الأنفال نزلت بعد غزوة بدر أى فى السنة الثانية من الهجرة، وسورة التوبة نزلت بعد تبوك وبعد خروج أبى بكر على رأس المسلمين إلى الحج، أى فى أواخر السنة التاسعة. وكما احتفظت كل منهما بهذا وذاك، احتفظت كل منهما بهدفها الخاص، فسورة التوبة عالجت شئونا حدثت بعد زمن طويل من نزول سورة الأنفال، ومعرفتها باسم سورة الأنفال، وسورة الأنفال عالجت شئونًا حدثت قبل نزول سورة التوبة ولم يرد لها ذكر فيها.

ولا شك أن كل هذه الاعتبارات الواضحة البينة والمحققة فى السورتين من الصدر الأول، تدل دلالة واضحة على أنهما سورتان منفصلتان، وأن عّدهما سورة واحدة رأى لا قيمة له، كما لا قيمة لاشتباه فى استقلال كل منهما حتى يقال تركت البسملة بينهما نظرًا لاحتمال وحدتهما، وتركت بينهما فرجة نظراً لاحتمال انفصالهما.

ترك التسمية فى أولها:

أما ترك التسمية بينهما فلأنها لم تنزل بينهما كما نزلت بين كل سورة وسابقتها. ولم تكن كتابتها بين السورتين أو تركها إلا بتوقيف ووحى. وقد عرف مع ترك التسمية بينهما - كما قلنا - أنهما سورتان مستقلتان من عهد النبى - ﷺ - إلى يومنا هذا. وقد جاءنا كذلك فى المصاحف الأولى: مصحف عثمان، وعلى، وابن عباس، فلا معنى بعد هذا كله لإثارة آراء قد تمس من قرب أو بعد قداسة تنظيم كتاب الله وترتيبه بناء على روايات ضعيفة أو موضوعة.

ولعل حكمة ترك التسمية فى أولها هى ما قاله على لابن عباس حينما سأله عن عدم كتابتها: «من أن التسمية أمان ورحمة. وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهود وليس فيها أمان»[1].

ونحن نؤمن من بعد دراسة كتاب الله أنه فى تفصيل سوره وآياته وترتيب سوره وآياته. لم يكن أثرًا لاجتهاد مجتهد. وإنما كان توقيفًا ووحيًا أمر به النبى - ﷺ - ونفذه قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى.

وإذ فرغنا من الكلام على أسماء السورة وعلى وحدتها واستقلالها فلنتناول موضوعاتها بالتفصيل المناسب.

---

(١) ولا يرد على هذه الحكمة أن سورة المطففين، والهمزة، والمسد، نزلت التسمية فى أولها ولا تناسب بين الويل والهلاك، وبين الرحمة والأمان، لأن المقصود من سورة التوبة رفع الأمان الدنيوى عن جماعة المشركين وتسليط المؤمنين عليهم بالقتال، ولا كذلك تلك السور. والله سبحانه وتعالى أعلم.

تقديم لإعلان البراءة من المشركين:

قلنا: إن سورة التوبة آخر سورة أحكامية نزلت من القرآن الكريم، وقلنا: إن نزولها كان فى السنة التاسعة، وهى السنة التى تمت فيها مراحل الجهاد المحمدى فى سبيل تأمين الدعوة والعمل على بعث التوحيد فى القلوب والتى كمل فيها بفتح مكة إحساس المشركين قوة المسلمين ونجاح دعوتهم وغلبة سلطانهم، فقد فتحوا قبلها مكة وعادوا إليها بعد أن أخرجوا منها، ودخلوا المسجد الحرام بعد أن صدوا عنه وحيل بينهم وبينه، وانتصروا فى حنين، وحاصروا الطائف، وفيها انسحب الروم داخل بلادهم ليتحصنوا من جيش المسلمين الذى خرج لغزوهم بتبوك. والروم هم الذين غلبوا الفرس واستردوا منهم الصليب، وجاءوا به إلى بيت المقدس. وكان لهذا الانسحاب هزة عنيفة فى شبه الجزيرة، دفعت بكثير من القبائل العربية إلى المسارعة بالدخول فى حوزة الإسلام. وفى تلك السنة أيضًا، وفى شهر ذى القعدة منها، أمر النبى - ﷺ - أبا بكر على المسلمين فى أداء فريضة الحج لأول مرة يؤدونها بصفة عامة بعد أن خلص لهم السلطان على مكة، وعلى مشاعر الحج كلها. ولكن مع هذا كله لا تزال فلول المشركين المتفرقة فى شبه الجزيرة تقصد - على ما عهدت من قبل، وعلى ما بين العرب والرسول من عهد: ألا يصد أحد عن البيت وألا يخاف أحد فى الأشهر الحرام - لا تزال هذه الفلول بمقتضى هذا تقصد بيت الله الحرام لتؤدى مناسكها على منهاجها الجاهلى: شرك فى السجود، شرك فى التلبية، عُرى فى الطواف. ولا ريب أن اجتماع منهاج العبادة الشركية الضالة مع منهاج العبادة التوحيدية المستقيمة فى بيت الله الواحد - الذى بعث الرسل من مبدأ الخليقة لدعوة الناس إلى توحيده وإخلاص العبادة له، والذى بوأ هذا البيت لإبراهيم ﴿**أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾. وفى الوقت الذى خلصت فيه ولاية هذا البيت لعباده المؤمنين الموحدين - اجتماع لا يقره عقل ولا يقبله سلطان. وما كانت الرسالة المحمدية التى ختم الله بها رسالاته إلى خلقه، وما كان هذا الجهاد الذى قام به محمد وصحبه، إلا وسيلة لتطهير العالم من هذه العبادة الشركية الضالة، التى زل بها العقل البشرى وأودت بكرامة الإنسان، والتى كانت فى حقيقتها ومعناها تمثل - بما لها من تقاليد وعادات - أفحش نظام عرفه البشر إلى يومنا هذا، كان فيه وأد البنات وإكراههن على البغاء، وعضلهن عن التزوج طمعًا فى مالهن، وإرث النساء كرها. كان فيه استغلال حاجة المحتاجين فى أقبح صور الاستغلال، كانت فيه الإباحة الخلقية والجنسية إلى حد تخجل منه الإنسانية.

فالشرك بما يحمل فى طياته من هذه الشرور والمآثم ثورة جامحة على الإيمان وما يحمل فى طياته من خير وصلاح، وليس من المعقول أن يبقى منبع الشر العام إزاء منبع الخير العام، وإلا اضطرب الخير واستهدف لتيارات الشر والتوت طرق الهدى والصلاح ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾.

وليس من المعقول أيضًا ـ وقد وقف المشركون مع المؤمنين الموحدين هذه المواقف الشديدة التى قصها التاريخ علينا، والتى كان منها صدهم عن المسجد الحرام، والسخرية بهم فى عبادة الله الواحد ـ أن يترك المشركون ينفثون غازاتهم السامة فى جو الإيمان الطاهر النقى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾، ﴿ **هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ** ﴾، ﴿ **وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾.

لهذا كله اقتضت الحكمة الإلهية التى تهدف إلى تطهير الأرض من الشرك، وتهدف إلى الإصلاح البشرى العام ـ وقد وصل المسلمون بفضل الله إلى ما وصلوا من السداد والحكمة والسلطان والقوة، ومُكّن لهم فى الأرض ـ أن يوضع حد نهائى لهذه العبادة الباطلة وما يتبعها من نظم فاسدة، وأن يحدد للمؤمنين ـ أولياء الله فى أرضه ـ الروح المعنوى أو القانون الأساسى الذى يسيرون على مقتضاه بالنسبة إلى هؤلاء الذين عرفت ثورتهم بعقيدتهم ونظمهم على التوحيد، وعلى نظم الخير والصلاح، وعلى الفضيلة الإنسانية، وعلى مصدر التحليل والتحريم.

وما هو إلا أن خرج أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فى هذه السنة التاسعة على رأس المسلمين لتأدية فريضة الحج حتى نزلت أوائل سورة «براءة» ترشد إلى ما وضعه الله أساسًا فيما يجب أن يعامل به أرباب الثورة الجامحة وهم المشركون، وفيما يجب أن يعامل به هؤلاء الآخرون الذين حالفوهم على الكيد والإيقاع بالمسلمين أكثر من مرة، والذين انحرفوا عما أنزل إليهم من أهل الكتاب.

علی يؤذن فی الناس يوم الحج الأكبر بآيات البراءة:

وقد انتهزت فرصة هذا الاجتماع العام فی موسم الحج لتبليغ الإنذار الإلهی الكريم، إذ ألحق النبی - ﷺ - ابن عمه عليًا - رضی الله عنه - جريًا علی عادة العرب فيمن يبلغ عن الرئيس - ليبلغ الناس عنه هذه الآيات، ويؤذن بها فيهم يوم الحج الأكبر، ولم يكد علی يقترب من أبی بكر فی المسير حتی سمع أبو بكر رغاء فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله - ﷺ - ولما وصل إليه علی قال له: أمير أم مأمور؟ فقال علی: مأمور. فمضيا، ولما كان يوم التروية خطب أبو بكر بصفته إمام الحج، وعرف المسلمين مناسكهم وحثهم عليها. وفی يوم النحر قام علی - رضی الله عنه - بإرشاد أبی بكر - عند جمرة العقبة وقال: يأيها الناس إنی رسول رسول الله - ﷺ - إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية: أوائل سورة التوبة ثم قال: أمرت بأربع: لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله فهو إلی مدته، وبتلاوة علیّ لهذه الآيات، وما نادی به الناس بعد، أعلنت الكلمة النهائية للإسلام فی شبه الجزيرة، وتمت التصفية بين الشرك والإيمان وقد أثر هذا الإعلان ثمرته الطيبة المباركة، فلم يكد يرجع الناس وينتشر أمر هذا التبليغ، ويصل إلی أطراف البلاد، حتی ازدحمت المدينة بوفود القبائل الباقية علی شركها معلنة إسلامها، وبذلك تمت كلمة ربك للموحدين. وهكذا يفعل الحزم، وتفعل أوامر من عرفوا بالحزم، وحسبهم أن يعلنوا أمرهم وإن فيه لأعظم غناء عن توقيع العقوبة التی يكفی إعلانهم إياها فی تطهير الجو من أسبابها.

المفاضلة بين أبی بكر وعلی:

هذا، وقد شغل جماعة من المفسرين والمؤرخين الناس بحديث المفاضلة بين أبی بكر وعلی فی هذا المقام، حتی خرجوا بهم عن النظر فيما يوحی به موقف الخليفتين من وجوب التعاون وجمع الكلمة، وتوحيد الخطة فيما يركز الدعوة، ويركز الدولة، ويرد عنها طغيان المعتدين. ولست أعتقد أن مؤمنًا بهذا الرعيل الأول وفضله كله فی الإسلام، يزج بنفسه إلی تجريد هذه المواقف السامية عن معانيها الفاضلة، ثم يدفع بها إلی نزاع شخصی فی تفضيل علیّ علی أبی بكر أو أبی بكر علی علیّ، فلكل من الخليفتين مواقفه وتاريخه، ولكل من الخليفتين مكانته وفضله، ولو أن المسلمين لم تدخل عليهم عوامل

التفرقة التي نرى أصولها مدونة بأيديهم في كتبهم، لما وصلت حالهم إلى ما نحن فيه اليوم من تفرق الكلمة وضعف السلطان، وانحياز كل فريق منهم إلى فريق، ولكن هكذا قدر وهكذا كان، والأمر لله من قبل ومن بعد!.

هما عينا جمال وجلال:

ويروقني ما قرأته لبعض العلماء في حكمة إقامة أبي بكر أميرًا للناس في حجهم، وفي نيابة علي - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - في هذا التبليغ الإلهي. قال: إن الصديق - رضي الله تعالى عنه - كان مظهرًا لصفة الرحمة والجمال، كما يرشد إليه موقفه في حادث أسرى بدر، وما جاء عنه من قوله - ﷺ -: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر» فأحال إليه عليه الصلاة والسلام أمر المسلمين في حجهم الذي هو مورد الرحمة. أما علي فقد كان - كرم الله وجهه - أسد الله ومظهر جلاله؛ ففوض إليه نقض عهد الكافرين الذي هو من آثار الجلال وصفات القهر، فكانا معًا في هذا الموسم كعينين فوارتين، تفور من إحداهما صفة الجمال، وتفور من الأخرى صفة الجلال، فيتلقى المسلم في هذا الحفل من عين الجمال، ويتلقى الكافر فيه من عين الجلال. وهكذا العزة تعتمد الجلال والجمال، فلا غنى بأحدهما عن الآخر. فرحم الله عليًا ورحم الله أبا بكر.

آيات المشركين:

هذا، وقد تضمنت الآيات التي أرسل بها علي وتلاها على الناس - مما يختص بالمشركين - ما يأتي:

أولا: تقرير البراءة ورفع العصمة عن الأنفس والأموال.

ثانيًا: منحهم هدنة مقدارها أربعة شهور.

ثالثًا: إعلان الناس جميعًا يوم الحج الأكبر بهذه البراءة.

رابعًا: إتمام مدة العهد لمن حافظ منهم على العهد.

خامسًا: بيان ما يعاملون به بعد انتهاء أمد الهدنة أو مدة العهد.

سادسًا: تأمين المستجير حتى يسمع كلام الله.

سابعًا: بيان الأسباب التى أوجبت البراءة منهم وصدور الأمر بقتالهم.

ثامنًا: إزالة وساوس، قد يخطر فى بعض النفوس أنها تبرر مسالمة المشركين أو البقاء معهم على العهود.

وقد استغرقت هذه الموضوعات الأساسية من أول السورة ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إلى نهاية الآية الثامنة والعشرين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

آيات أهل الكتاب:

وتضمنت الآيات فيما يختص بالمنحرفين من أهل الكتاب ما يأتى:

أولا: الأمر باستمرار قتالهم الذى بدءوا به حتى تبدو عليهم آية الخضوع لسلطان الإسلام وذلك بدفع الجزية للمسلمين.

ثانيًا: بيان صفاتهم التى بها قرر استمرار قتالهم بعد عدوانهم حتى يخضعوا.

ثالثًا: أرشدت الآيات - فى هذا السياق - إلى خطة رؤسائهم الدينيين فى سلب أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله، وأشارت إلى سوء ذلك وسوء عاقبة كنز الأموال وعدم إنفاقها فى سبيل الله، تحذيرًا للمؤمنين عن الوقوع فى خطتهم الممقوتة.

وقد استغرقت هذه الموضوعات من الآية التاسعة والعشرين: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ إلى نهاية الآية الخامسة والثلاثين: ﴿ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾.

ثم قفت الآيات ببعض تصرفات فى الحل والحرمة كان يفعلها المشركون فى الأشهر الحرم إمعانًا فى تلبية الهوى والشهوة، وأهمها «النسىء» الذى قال الله فيه: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾.

وبذلك كانت الآيات التى عرضت لهذه الموضوعات والتى بلغها علىّ للناس فى حج السنة التاسعة: «سبعًا وثلاثين آية» هذا هو الإجمال.

أما التفصيل فإليكم القول فيه:

آية تقرير البراءة:

ففى الأول وهو تقرير البراءة ورفع العصمة بالنسبة للمشركين يقول الله تعالى: ﴿ **بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾. والبراءة من الشيء التخلص منه والتباعد عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾، ﴿ **وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ ومنه ﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ** ﴾ والمعنى أن الله قطع ما بينه وبين المشركين من صلات؛ فلا عهد، ولا تعاهد، ولا سلم، ولا أمان، وتركهم تعمل فيهم سيوف المؤمنين حتى يقوِّموهم أو يبيدوهم. ولا يدخل فى هذا التبرى قطع رحمته العامة عنهم، التى كتبها على نفسه من جهة أنه الخالق المربوب، وأنهم المخلوقون المربوبون، فهو مع هذا التبرى لا يزال من هذه الجهة يرحمهم بمنح الحياة وموارد الرزق والتمكين من العمل، حسب تقديره العام وسننه الشاملة فى خلقه. ولو أن التبرى كان على إطلاقه لما عاش كافر طرفة عين، ولما استطاع كافر أن يقف فى وجه مسلم. فالآية تقرر حكمًا تكليفيًا للمسلمين فى شأن معاملة المشركين، ومعناه أن يحظر على المسلمين أن يعاهدوهم أو يبقوا على ما بينهم وبينهم من عهد، ويرشد إلى هذا ضم الرسول - ﷺ - إلى الله سبحانه فى هذه البراءة، والرسول لا شأن له مع الله فى سننه الكونية التى هى من مقتضيات الربوبية العامة، وفى القرآن ما يشير إلى أن كثرة الرزق، وعرض الحياة الدنيا، والتقلب في البلاد، قد تكون عند الله من وسائل الإملاء وتهيئة الطغيان للكافرين المفسدين ﴿ **لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾، ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** ﴾، ﴿ **وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾.

واعتبار أن الآية - كما قلنا - تقرر حكمًا شرعيًا، والمشرع هو الله، أضيف صدور البراءة إليه سبحانه، ولمكانة الرسول في العرب منه والتبليغ عنه وتنفيذ ما يبلغ، عطف عليه في هذا المقام وقيل: ﴿ **بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾.

ولما كان التعاهد بين المؤمنين وغيرهم تنفيذًا لأمر الله به، وأصله حق لجماعتهم، وإنما يقوم الإمام به نائبًا عن الجماعة، أضيف إلى جماعة المسلمين، وقيل: «عاهدتم» وكثيرًا ما ينسب القرآن الأحكام العامة لجماعة المؤمنين: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى** ﴾، ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا** ﴾.

وحتى قد يبدأ الخطاب للنبي - ﷺ - ثم تخاطب الجماعة بالحكم:

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ** ﴾ وهذا ونحوه - وهو كثير في القرآن - تقرير لمبدأ: أن الجماعة مصدر السلطات، وأن الإمام يقوم بالنيابة عنها في التشريع والتنفيذ بما يراه محققًا لمصلحتها، التي فوضت إليه النظر فيها.

ويؤخذ من تقرير البراءة من المشركين في هذه الآية جواز نبذ العهود لمن كان بيننا وبينه عهد متى رأى الإمام مصلحة الأمة في ذلك، كأن خيف منهم خيانة أو نقضوا شيئًا من شروط المعاهدة، أووضعت المعاهدة على غير شرط احترامها الشرعي، وذلك كله أخذًا من هذا المقام، ومن قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ** ﴾.

كما يؤخذ أن عقد المعاهدات إنما هو حق للجماعة، يوافق عليه أصحاب الرأي والاختصاص في موضوع المعاهدة وما هو في مصلحة الجماعة، ثم يباشرها الإمام بعد ذلك نيابة عن الجماعة.

آية المهلة:

وفي الثاني - وهو تقرير إعطاء المهلة - يقول الله تعالى: ﴿ **فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ** ﴾ والسياحة في الأرض: التنقل فيها حيث يشاءون، والمراد منها منحهم حرية السير والتنقل دون أن يتعرض أحد لهم، والخطاب فيها للمشركين على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الحضور، لقصد تهيئة

خطابهم بالوعيد المذكور بعد: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ وقد عاد فى الثانية إلى الغيبة بسبب ذلك الوعيد وهو الكفر بالله ودينه: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ وإرشاداً إلى أن الخزى لا يختص بهؤلاء المشركين الحاضرين المخاطبين، وإنما هو شأن الله وسنته مع كل من تحقق فيه الكفر إلى يوم الدين ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾، ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴾ ومنه فى هذه السورة ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ ﴾.

الحكمة فى المهلة:

والحكمة فى إعطاء هذه المهلة. أولا: تمكينهم من النظر والتدبر لاختيار ما يرون فيه مصلحتهم من الدخول فى الإسلام أو الاستمرار على العداء.

وثانيًا: تحقق رحمة الله بهم حيث لم يضيق عليهم أمر المهلة على رغم أنهم مشركون، وأنهم ناكثون، وأنه لا وفاء لهم.

ومن البين أن الأشهر الأربعة المذكورة تبتدئ حين إعلامهم بهذا الوضع الجديد، وليس المراد منها الأشهر الحرم المعروفة، ولا محل للخلاف فى هذا، وإن أكثر المفسرون فيه. ثم ذيلت الآية بما يقرر فى نفوس المشركين أن ذلك الإمهال ليس عن تردد أو خوف، وأنهم وإن تمكنوا به من جمع العدد والعُدد لمحاربة المؤمنين إذا استقر رأيهم على المحاربة ـ فإنه لا يفوت ما يريد الله بهم إذا أصروا على الشرك، وأنهم ـ منحوا مهلة، أم أخذوا غرة ـ غير قادرين على تعجيز الله عنهم، أو تخليص أنفسهم منه، فلا مفر لهم أينما كانوا وكيفما كانوا، ولا بد أن تلحقهم سنة الله فى الكافرين من الإخزاء والإذلال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَٰئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ٢٠، ٢١ المجادلة.

الحكمة فى التقدير بأربعة أشهر:

ولعل الحكمة فى تقدير تلك المهلة بأربعة أشهر أنها هى المدة التى كانت تفى - إذ ذاك بحسب ما يألفون - لتحقيق ما أبيح لهم من السياحة فى الأرض، والتقلب فى شبه الجزيرة على وجه يمكنهم من التشاور والأخذ والرد مع كل من يريدون أخذ رأيه فى تكوين الرأى الأخير، وفيه فوق هذا مسايرة للوضع الإلهى فى جعل الأشهر الحرم من شهور السنة أربعة ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾. على أنا نجد فى القرآن جعل الأربعة الأشهر أمداً فى غير هذا، فمدة إيلاء الرجل من زوجه أربعة أشهر، وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر. ولعل ذلك - وراء ما يعلم الله - أنها المدة التى تكفى بحسب طبيعة الإنسان لتقليب وجوه النظر فيما يحتاج إلى النظر، وتبدل الأحوال على وجه تستقر فيه إلى ما يقصد فيه.

ويؤخذ من تقرير الهدنة للأعداء فى هذا المقام تقرر مبدأ الهدنة والصلح فى الإسلام، طلبها العدو أم تقدم المسلمون بها، وأصل ذلك مع هدنة المشركين هذه قوله تعالى فى سورة الأنفال: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾، وأن مدتها تكون على حسب ما يرى الإمام وأرباب الشورى المقررة فى قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾.

آية إعلان البراءة:

وفى الثالث: - وهو إعلان الناس بهذه التصفية - يقول الله تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. وأسند الأذان - وهو الإعلام بالبراءة - إلى الله ورسوله، كما أسندت البراءة إليهما إعلاء لشأنه وتأكيداً لأمره، وإشارة إلى أن البراءة، وإن كانت أثراً من آثار الغضب الإلهى وقد أضيفت إلى الله أيضًا، فإن إعلانها بهذه المدة، وعلى هذا الوجه، رحمة منه فى الغضب، وقد زاد مقتضى رحمته هنا على مقتضى غضبه، ففتح لهم باب القبول والسلامة من عاقبة هذا الإنذار وإعلانه، وأطمعهم فى التوبة عن الشرك ومخازيه، وأردف الأذان بذلك فقال: ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ثم عطف عليه الوعيد بالخزى فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة إذا لم يلبوا دعوة السلم، ويطهروا أنفسهم بالتوبة والإيمان ﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ

فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . وفى هذا إيحاء بسلوك طرق السلم والإصلاح عن طريق الوعظ والإرشاد قبل التهديد بالعقوبة والأخذ بالشدة، وكثيراً ما تغنى الموعظة الحسنة عن العقاب الذى لا يقصد لذاته : **﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾** . وإنما جعل إعلان البراءة وما يتبعها إلى الناس جميعًا مؤمنهم وكافرهم لأنها مما يجب أن يعلمها الناس جميعًا لتعلق أحكامها بالجميع ، ومن هنا جعل وقتها يوم الحج الأكبر ، الذى يضم أكبر عدد يمكن إذاعة الخبر عن طريقه فى جميع أنحاء البلاد، وكانت هذه هى الطريقة الوحيدة للتبليغ العام . وأصح ما قيل فى يوم الحج الأكبر أنه يوم النحر ، وقد صحت الروايات بأن عليًا ـ رضى الله عنه ـ أذن بالبراءة عند جمرة العقبة ، وذلك فى منى يوم النحر .

وفى الالتفات من الغيبة أولا إلى الحضور ثانيًا تهيئة الجو لامتثال النصح والحذر من العقاب . ودل قوله : **﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** بالخطاب لمحمد ـ ﷺ ـ على أن المراد بالعذاب الأليم هو عذاب يوم الدين الذى لا يعرف إلا عن طريق الوحى وتبليغ الرسول ، وهو غير الخزى الناجز الذى يصيبهم فى الدنيا والذى توعدوا به فى خطابهم ، باعتبار وصف الكفر فى قوله : **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾** .

ويؤخذ من هذا أن الإسلام يقرر فى حالة نبذ العهود لزوم إعلان العدو بذلك النبذ ، على وجه يمكن العدو من إيصال خبر النبذ إلى أطراف بلده وأنحاء مملكته ، وفى ذلك يقول الكمال بن الهمام الفقيه الحنفى وهو بصدد قوله تعالى : **﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾** : إنه لا يكفى مجرد إعلانهم ، بل لا بد من مضى مدة يتمكن فيها ملكهم بعد علمه بالنبذ من إنفاذ الخبر إلى أطراف مملكته ، ولا يجوز للمسلمين أن يغيروا على شىء من أطرافهم قبل مضى تلك المدة . وذلك كله أثر من آثار وجوب رعاية العهد ، والبعد عن النكث بكل ما يستطاع .

آية إتمام مدة العهد للموفين:

وفى الرابع : وهو إتمام مدة المعاهدة بالنسبة لمن حافظ عليها ولم يعرف بالنكث ـ يقول الله تعالى استثناء من المشركين السابقين : **﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾** .

والآية تدل على أن المراد بالمشركين الذين تبرأ الله ورسوله منهم وأعطوا مهلة الأربعة الأشهر، هم الذين عرفوا بنكث العهود، إما إخلالا بشروطها، أو انتقاصاً لشيء منها، أو معاونة الأعداء على المؤمنين. أما الذين عاهدوا ولم يخلوا بشرط من الشروط، ولم ينتقصوا المعاهدة شيئًا مما حوته، ولم يظاهروا ولم يعاونوا على المسلمين أحداً ما بشيء ما من عدة أو عدد أو رأى، فإن هؤلاء يجب إتمام عهدهم إلى مدتهم، وفاء بوفاء، وعهداً بعهد، وكرامة بكرامة. ثم تذيل الآية بما يرشد إلى أن إتمام العهد إلى مدته مع الموفين بعهدهم من تقوى الله التى يحبها لعباده، ويحب بها عباده ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾.

والآية صريحة فيما قررناه من جواز إباحة إلغاء المعاهدة متى أخل فيها أحد الطرفين بشيء من التزاماتها. وفى تنكير كلمة «شيئًا» وكلمة «أحدًا» فى الآية، دلالة على أن انتقاص المعاهدة أى شيء ـ عظم أو حقر، وأن المظاهرة ولو لفرد واحد، وبأى وسيلة كانت ـ مبيحة لنبذ العهد. وهذا مبدأ فطرى تقرره العقول السليمة والطبائع المستقيمة، ولا يأباه ويثور عليه إلا من فسدت نيته، واتخذ العهد بينه وبين الناس دخلا بينهم ﴿ **أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ** ﴾. وهكذا الإسلام يحذر من اتخاذ المعاهدات للاحتيال على استلاب الضعفاء: ﴿ **وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾، ﴿ **تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ** ﴾.

هذا هو الأساس الذى يجب أن تكون عليه المعاهدات فى نظر الإسلام. فلينظر الناس ما تقوم به أمم الحضارة الحديثة من معاهدات كانت مصدراً لنكبة العالم، وليعتبر بذلك أولو الأبصار.

آية معاملة المصرّ والتائب:

وفى الخامس: ـ وهو بيان ما يعامل به المشركون بعد انتهاء الهدنة أو تمام المدة ـ يقول الله تعالى: ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾.

سبق أن الله أعطى المشركين الناكثين هدنة قدرها أربعة أشهر وأوجب إتمام مدة العهد للمحافظين، وبذلك كانت الأربعة الأشهر محرما فيها قتالهم، فهى بالنسبة إلى قتالهم أشهر حرم، وهذه الآية تقرر أنه إذا انسلخت هذه الأشهر وانطوت صفحتها، وظل المشركون على شركهم وعنادهم، فإنه يجب أن تفعلوا بهم كل الوسائل المعهودة فى القتال: «اقتلوهم» فى أى مكان تظفرون بهم ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ وهو كناية عن «الأسر» وكانت العرب تعبر عن الأسير «بالأخيذ». ﴿ وَاحْصُرُوهُمْ ﴾ وهو منعهم من الخروج إذا تحصنوا فى معاقلهم، ومحله إذا كان فى مهاجمة الحصون ضرر كبير على جيش المسلمين، وإلا وجبت المهاجمة. وعلى كل فالأمر فى ذلك يرجع إلى رأى القيادة الحكيمة ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ والمرصد موضع الرصد، والرصد: الاستعداد للترقب، أى اقعدوا فى مواضع المراقبة، وهو كناية عن أخذ الطرق عليهم، وسد السبل فى وجوههم، حتى تنقطع عنهم وسائل العيش، ويحال بينهم وبين التقلب فى البلاد، فتضعف شوكتهم، وينزل بهم الدمار. والقعود لهم فى كل مرصد يشمل ما كان ظاهراً جليًا على مرأى منهم ومسمع، وما كان خفيًا عن أنظارهم من الكمون لهم فى أماكنهم، أو مسالكهم، أو أينما كانوا.

ولا ريب أن هذه الوسائل الأربع هى الوسائل الطبيعية الفطرية فى مهاجمة الأعداء ولا يخلو منها قتال فى عصر، والآية بهذا العموم فى إباحة هذه الأنواع ترشد إلى إباحة استعمال ما يجد من وسائل الكيد للأعداء، والعمل على هزيمتهم، بشرط عدم تجاوز الحد الإنسانى، مادام العدو لم يتجاوزه، وإلا فغارات بغارات وذرية بذرية ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ فإذا أسرفوا وتجاوزوا إلى ما لا تستطيع البشرية الفاضلة احتماله - مما لا يتفق وحرمات الله - ضاعفنا عقابهم بما لا ينتهك الحرمات المقدسة.

ثم ذيلت الآية على نحو ما سبق بما يفتح لها باب القبول عند الله ويرفع عنهم سيف الحق ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾، والقصد: إن تحقق دخولهم فى جماعة المسلمين فلبوا دعوة الإيمان، والتزموا أحكامه، سواء ما يرجع إلى حق العبودية وأساسه «الصلاة» وما يرجع إلى الجماعة وأساسه «الزكاة» فخلوا سبيلهم، وكفوا عن قتلهم، وسرحوهم، وافتحوا لهم المسالك والطرق، ولا تعاملوهم بما كان منهم، فقد جب إسلامهم شركهم وعصيانهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

آية الأمان:

وفى السادس ـ وهو تأمين من استجار منهم ـ يقول الله تعالى : ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

بينت الآية السابقة حكم المصرّين على شركهم ، وهو أنهم يقاتلون أو يؤخذون . . إلخ ، وبينت حكم التائبين عن الشرك الذين لبوا الدعوة ، ودخلوا فى جماعة المؤمنين «فإن تابوا . . إلخ» .

وجاءت هذه الآية تبين لنا حكم الفريق الثالث ، وهو الفريق الذى لم يصر على الشرك ، ولم يتب عنه ؛ وإنما هو مشرك يطرق باب الفهم والمعرفة حتى يطمئن قلبه ، وهو لذلك يطلب الجوار والأمان ، فهذا يرى الإسلام أن يمنح الجوار والأمان ، ويسمح له بالدخول فيما بين المسلمين ، والتعامل معهم ، والاختلاط بهم حتى يفهم حكم الله ودعوته ، فإن اطمأن ودخل الإيمان قلبه التحق بالمؤمنين ، وصار فى الحكم كالتائبين ، وإن لم يشرح صدره للإسلام وأراد الرجوع إلى جماعته حرم اغتياله ، ووجبت المحافظة عليه حتى يصل مكان أمنه واستقراره ، وبذلك يصير فى الحكم كالمصرين على الشرك ، يعامل بما به يعاملون ، من حل دمه وماله .

هذا ، وقد روى عن ابن عباس أنه قال : إن رجلا من المشركين قال لعلى رضى الله عنه : إذا أراد الرجل منا أن يأتى محمداً بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أو لحاجة قُتل؟ قال على : لا ، لأن الله يقول : ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** ﴾ . وهذا يدل على أن المشرك إذا طلب الجوار يعطاه وإن لم يكن لأجل سماع كلام الله . وعلى ذلك تكون «حتى» فى قوله تعالى : ﴿ **فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** ﴾ للغاية لا للتعليل .

توسع الإسلام فى الأمان:

وهذه الآيات كانت أصلا عند الفقهاء فى إباحة تأمين المشرك ، وقد توسع الإسلام فى باب الأمان فقرر به عصمة المستأمن ، وأوجب على المسلمين حمايته فى نفسه وماله وما دام فى دار الإسلام ، وجعل لأفراد المسلمين حق إعطاء ذلك الأمان «يسعى بذمتهم

أدناهم»، ولم يشترط فى ذلك إلا ما يضمن على المسلمين سلامتهم بأن لا تبدو على المستأمن مظاهر الركون إلى التجسس على المسلمين. ولا ينسى الإسلام ـ وهو يعطى هذا الحق للأفراد ـ حق الإمام المهيمن على شئون المسلمين، بل جعل له بمقتضى هيمنته العامة، وتقديره لوجوه المصلحة، حق إبطال أى أمان لم يصادف محله، أو لم يستوف شروطه، كما له أن ينتزع ذلك الحق من الأفراد متى رأى المصلحة فى ذلك.

والإسلام يبيح بهذا الأمان التبادل التجارى والصناعى والثقافى، وفى سائر الشئون ما لم يتصل شيء منها بضرر الدولة. ومن هذا يحرم عليهم بيع السلاح والعتاد الحربى إلى أعداء الإسلام. وقد كان للإسلام من مشروعية الأمان وسيلة قوية لنشر دعوته وإيصال كلمة الله إلى كثير من الأقاليم النائية من غير حرب ولا قتال. ويقرر الفقهاء أنه يجب على الإمام ملاحظة اليسر على المستأمن فى توقيت مدة الإقامة، بحيث لا تكون قليلة كالشهر أو الشهرين، فإن فى ذلك إلحاق العسر به، خصوصًا إذا كانت له معاملات يحتاج فى قضائها إلى زمن طويل، على أن المدة القليلة لا تفى بالغرض الدينى المقصود، وهو تفهمه لحقيقة الدعوة عن كثب.

وقد ذيلت الآية بهذه الجملة: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ أى أننا أبحنا لكم أو أوجبنا عليكم إجابتهم إلى الجوار، رأفة بهم وشفقة عليهم، ورعاية لحالتهم التى نشئوا فيها، وهى حالة الجهل الذى يصح أن يعذر به صاحبه، ولا يؤاخذ بما اكتسب فى حضانته، وفيه إرشاد إلى معاملة أرباب الجهالة المتأصلة بالحلم والعفو والتيسير، وذلك كله من مبادئ الإسلام ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾.

وفى السابع: وهو بيان الأسباب التى أوجبت البراءة من عهودهم، ونبذ التعاهد معهم، وصدور الأمر بقتالهم ـ يقول الله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِن نَّكَثُوا

أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

بيان الحكمة من الأمر بالنبذ والقتال:

تضمنت الآيات الست التى افتتحت بها سورة التوبة أمرين أساسيين:

أولهما: البراءة من المشركين، ومعناها - كما قلنا - نبذ عهودهم القائمة وعدم استئناف تعاهد جديد معهم.

ثانيهما: وهو مرتب على الأول - الأمر بقتالهم والتضييق عليهم حتى تطهر البلاد من شركهم، إما بإسلامهم، وإما بقتلهم.

وقد يبدو لقصار النظر أن نبذ عهودهم، أو عدم التعاهد معهم مما لا يتفق ومبدأ الوفاء بالعهد، ومبدأ الجنوح إلى السلم، متى جنحوا إليها وظهرت رغبتهم فيها. وهما مبدآن قررهما القرآن، وجاءت أوامره فيهما صريحة واضحة، كما قد يبدو لهؤلاء أيضًا أن الأمر بقتالهم - بعد أن غلبوا على أمرهم وفتح المسلمون مكة، وظهرت شوكة الإسلام فى شبه الجزيرة - من باب التحدى لمن ظهر ضعفه، وبدا عجزه، وقلمت أظافره، وصار المسلمون فى مأمن من ثورته وطغيانه. وقتال أمثال هؤلاء قتال لمن ألقى السلاح، وهو لا يتفق مع تحذيرات القرآن المتكررة من الاعتداء وعدم قتال من لم يقاتل.

هذه اعتبارات أو خواطر قد تحضر بعض الأذهان وتعلق فيها، وهى اعتبارات لو استقرت فى النفوس تجعل من آثارها عدم اطمئنان القلوب نحو صحة هذا الوضع الجديد، وفى هذا غفلة عظيمة عن التقدير الحق فى هذا الموقف، موقف المؤمنين مع هؤلاء المشركين، وكثيراً ما يصحب تلك الغفلة التهاون فى تنفيذ هذه الأوامر كما قد يصحبها سريان هذه الاعتبارات الفاسدة إلى الجمهور، وقد تشتد الغفلة عن التقدير الحق فى

الموقف فيزداد البعد عن إدراك الحق، وبذلك يقع المؤمنون فى براثن المنافقين، وتحت تأثيرهم، بهذه الخواطر الفاسدة، وفى هذا هدم لبناء شيد، وزلزلة لعرش استقر، لهذا كله ـ وتطمينًا للمؤمنين على حكمة هذا الوضع الجديد، وبيانًا لحقيته وسداده ـ أردف الله سبحانه وتعالى الأمر بنبذ العهود، والأمر بالقتال بما يجلى الحكمة فى هذين الأمرين، ويغسل قلوب المؤمنين من هذه الوساوس وتلك الخواطر الفاسدة، التى تنفذ إليهم من جانب قصر النظر وضعف الإدراك والتقدير الحق فى مثل هذا المقام.

عناية القرآن بتوجيه التشريعات وتعليلها:

وفى عناية الله بتوجيه هذا التشريع وبيان حكمته إيحاء قوى بأن من تمام قيام الحجة على الناس فيما يفرض عليهم من تشريع، أن يقدم التشريع إليهم مصحوبًا ببيان حكمته والدواعى التى تقتضيه وتدعو إليه، أو الثمرات التى ترجى منه ويكون التشريع وسيلة إليها.

ومن هنا لا نكاد نجد تشريعًا فى القرآن إلا وأردفه الله بحكمته، وأرشد إلى فائدته التى تعود على الناس فى حياتهم ونظامهم، وانظر قوله تعالى بعد تشريع القصاص: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ وقوله بعد تشريع الصيام وإباحة الفطر للمريض والمسافر: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ وقوله بعد الأمر بكتابة الدين واتخاذ وسائل الاستيثاق: ﴿ **ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا** ﴾ وقوله تعالى فى وجوب الاستعداد الحربى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ وقوله تعالى فى تحريم الخمر والميسر: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ وقوله فى النهى عن البخل والإسراف: ﴿ **وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾.

وهكذا نجد القرآن فى معظم تشريعاته ـ إن لم يكن فى كلها ـ موجهًا ومعللاً ومرشدًا

إلى الحكمة التى كان لأجلها التشريع، والتى تدفع بالناس إلى المسارعة فى التنفيذ والامتثال. وجريًا على هذه السنة - سنة تعليل الأحكام وتوجيه التشريع بالأسباب والمعانى التى تستوجبه - أردف الله التشريع الذى تضمنته الآيات الست السابقة ببيان حكمته فى الآيات، من الآية السابعة إلى الآية السادسة عشرة، وبالنظر فى مجموع هذه الآيات العشر تتضح الحكمة فى تقرير نبذ عهد المشركين، وعدم التعاهد معهم، وتقرير الأمر بقتالهم حتى تطهر شبه الجزيرة من الشرك، ويصير بيت الله الحرام فى مأمن من ولاية المشركين عليه، أو دخولهم فيه بعباداتهم الضالة التى تفسد على المؤمنين إيمانهم، ولا يمكن أن تجتمع مع عبادة المؤمنين الصادقين لله فى بيت الله.

وفى تعليل الأمر بنبذ العهود جاءت الآية السابعة: ﴿ **كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ** ﴾ إلى نهاية الآية العاشرة ﴿ **لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ** ﴾.

وفى تعليل الأمر بالقتال جاءت الآيات إلى نهاية السادسة عشرة.

تعليل الأمر بنبذ عهود المشركين:

فالآية الأولى من آيات توجيه الأمر بنبذ العهود تقرر:

أن هؤلاء المشركين بما عندهم من الشرك ليسوا أهلا لأن يكون لهم عهد يحافظ عليه عند الله وعند رسوله، وذلك أن الشرك بما يحمل من إباحية مطلقة لا يدع طريقًا يسلكه الخلق الفاضل إلى القلوب، أو يتسرب منه إليها خوف الله وتقواه؛ فصاحبه يستبيح فى سبيل شهوته وهواه الغدر والخيانة كلما سنحت له الفرصة، أو ظن بنفسه قوة. وقد نقض بالشرك واتخاذ الهوى إلها عهد الفطرة، عهد الخلق والتكوين، وما نصب الله للإنسان فى الأنفس والآفاق من أدلة التوحيد. ولا ريب أن هذا الوضع الذى خلق الله الإنسان عليه ومكنه به من النظر من أقوى العهود والمواثيق التى تنطق بها فطرته، ومع هذا فقد أشرك وانسلخ من هذا العهد الفطرى الذى يحسه بوجدانه، واتخذ الصنم إلهًا يعبده من دون الله متحللا من طبيعة خلقه وتكوينه: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا**

﴿غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

وإذا كان الشرك نقضًا لهذا العهد الفطرى؛ ويحمل التحلل من مقتضيات الإيمان الحق والخلق الفاضل؛ فمن طبيعته ألا يحترم عهداً، ولا يخاف صاحبه عاقبة، وإنما عهده الشهوة والهوى. وكما خان المشركون عهد خالقهم بعبادة الهوى فإنهم ينقضون عهد من يعاهدون بالغدر والخيانة. ولا ريب أن مثل هؤلاء الذين لا يؤمنون بحرمات ولا يذعنون لمثل عليا لا يمكن فى نظر العقل الصحيح أن يكون لهم عهد محترم يحافظ عليه، وجدير أن يكون التفكير فى التعاهد معهم أو المحافظة على عهودهم محل إنكار شديد، ومدعاة للتعجب. وهذه المعانى هى التى تنبعث من وصف «المشركين» وهى التى يشير إليها الإنكار المذكور فى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ والمعنى بأى حال وعلى أى وضع يكون للمشركين عهد؟ ليس له حال يوجد عليها، وإذا لم يوجد له حال يوجد عليها فإنه لا سبيل إلى وجوده، فالاستفهام إنكارى للأحوال التى يكونون عليها، ومتى انتفت الأحوال التى يكون عليها الشىء ولا يوجد إلا بها انتفى وجود ذلك الشىء. فالآية تقرر نفى وجود العهد على الطريق البرهانى كما يقولون، وهو أبلغ أنواع الإنكار.

وترشد الآية الثانية من هذه الآيات: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ إلى أن الشأن فى تقرير نبذ عهودهم لم يكن قاصراً على النظر إلى عقيدتهم الشركية وعدم إيمانهم بتشريع إلهى، أو خلق فاضل يحتم عليهم الوفاء بالعهد، كما تضمنته الآية السابقة، وإنما يرتبط أيضًا بما عرف عنهم وصار سجية لهم وشأنًا من شئونهم، وهو أنهم عند قوتهم وغلبة سلطانهم لا يراعون شيئًا من حقوق الإنسانية الخاصة أو العامة، كالقرابة والعهد. وإن فى مواقفهم معكم، حينما كانوا يشعرون بالقوة، أكبر شاهد على أن قلوبهم لا تحمل أية قيمة لقرابتكم بهم، أو لعهدكم معهم، ويرشد ما بعدها إلى أن ما يُسمع منهم من عبارات السلم والقرابة وعبارات العهد والولاء، لا يخرج عن أنه نوع من خداعهم الذى مرنوا عليه فى حال ضعفهم، والذى لا يتجاوز ألسنتهم إلى قلوبهم، فهم به ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ أن يدخل فيها شىء من معانى الوفاء، ذلك بسبب ما طبع عليه أكثرهم من الخروج عن حدود الفضيلة الإنسانية ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ثم

ترشد الآيات بعد هذا إلى أن خروجهم عن حدود الفضيلة الإنسانية ليس شأنًا فطريًا فى الإنسان، وإنما هو شأن يلحقه بسبب إيثاره زخرف الحياة الدنيا ومظاهرها الكاذبة عن تلبية الحق حينما يظن أن تلبية الحق ستمنعه التمتع بهذا الزخرف الزائل، فينبذ آيات الله، ويعرض عن النظر فيها والإيمان بها والنزول على مقتضاها، وبذلك يكون كمن باع سلعة ثمينة قيمة، تنفعه فى جميع شأنه، بثمن بخس زهيد لا غناء له فى الدنيا ولا فى الآخرة. وذلك قوله تعالى: ﴿ **اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾.

وإذا كان الذى دفعهم إلى هذه الحالة معكم هو شركهم - الذى أوقعهم فيه فسقهم وخروجهم عن حدود الفضيلة، ومحبتهم الزخارف الفانية على المعانى الباقية - فهى حالتهم مع غيركم من كل مؤمن بما لم يؤمنوا به، فهم قوم دلت عقيدتهم، ودل تاريخهم معكم، ودلت وجهتهم فى الحياة على فساد طبيعتهم، وتنكرهم للحق وأهله، وعلى أنه لا يرجى منهم مع بقائهم على الشرك ومقتضياته - لا لكم ولا لغيركم - وفاء ولا صدق ﴿ **لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ** ﴾.

بينت هذه الآيات طبيعتهم بالنسبة للمخاطبين، وبالنسبة لغير المخاطبين، ورجعت بتلك الطبيعة الفاسدة إلى عقيدتهم الشركية الضالة، وإلى محبتهم للدنيا محبة آثروا بها الفانى على الباقى، وخرجوا بها عن حدود الفضيلة، ولا ريب أن مثل هؤلاء لا ينبغى الركون إليهم ومعاهدتهم، كما لا ينبغى الاطمئنان على عهودهم القائمة وقد عرف أن من طبيعتهم الغدر والخيانة.

فلا يصح لعاقل يريد خير نفسه وخير أمته، بل يريد للحق أن يستقر فى قلوب الناس، وأن تسطع أنواره فى أرض الله، أن يفكر بأى وجه من الوجوه فى التعاهد مع أمثال هؤلاء، فنبذ عهودهم هو الحكمة التى ليس بعدها حكمة، وهو الواجب الذى ليس بعده واجب.

طريقان:

بعد أن بينت الآيات الحكمة فى تقرير الأمر الأول وهو نبذ عهودهم رسمت لهم طريقين، وفرضت لهم فرضين: إما أن يشعروا بما هم عليه من فساد وانحراف وشذوذ،

فيفكروا فى التوبة والإقلاع عما هم فيه من الشرك ومدنساته ويمدوا أيديهم للحق، ويفتحوا قلوبهم للدعوة، فيؤمنوا بالله ويندمجوا فى جماعة المؤمنين، يصلون كما يصلون، ويزكون كما يزكون، وإما أن يظلوا سادرين فى غلوائهم متنكرين للحق، مستمرين على الضلال والبهتان ومحاربة الفضيلة. أمران، أو فرضان لا ثالث لهما، فإن جنحوا إلى الأولى وقاموا بشعائر السلم الحق كانوا منكم: لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وربطت بينهم وبينكم أخوة الدين التى تطهر القلوب من العداوة والبغضاء، وإن أبوا واستمروا على الأخرى فلا سبيل لكم معهم سوى القتال حتى يخضعوا للحق، وينتهوا عن الشرك، أو تطهر منهم أرض الله، وفى هذين الغرضين اقرأ قوله تعالى من هذه الآيات:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾.

وبهذا انتهى توجيه الأمر الأول، وهو تقرير نقض العهود، وتجيء الآيات الأخرى تبين الحكمة فى الأمر الثانى وهو «تقرير قتالهم إذا لم يتوبوا ويصيروا إخوانكم فى الدين».

فى الهدف الثانى للسورة:

قال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾**.

هذه هى الجملة الأولى من الآيات التى نزلت شرحًا لنفسيات المسلمين حينما دعاهم

النبى - ﷺ - للخروج إلى تبوك بقصد غزو الروم، وتتصل الآيات بعد هذه الجملة فى هذا الشأن كما قلنا إلى آخر السورة.

الاحتكاك بين المسلمين والروم:

قبل التحدث عن هذه الآيات وما تضمنته من العظات والعبر، والأحكام والآداب، يحسن بنا أن نستذكر ما أجملنا من قبل، فنرجع إلى صفحات التاريخ لنستمليها الخطوات والأسباب، التى حملت النبى - ﷺ - على دعوة المسلمين لغزو الروم.

معركة مؤتة:

فى أواخر السنة السادسة، بعد أن أمنت الطرق بصلح الحديبية، أخذ النبى - ﷺ - يرسل كتبه إلى ملوك الأرض وأمرائها يدعوهم إلى الإسلام، وكان ممن أنفذ إليهم كتاب الدعوة أمير بصرى، أحد أمراء الروم، ولما بلغ رسوله مؤتة، وهى قرية من قرى الشام، تعرض له شرحبيل الغسانى، وعرف مهمته، وعرف أنه من رسل محمد، فأمر به فضربت عنقه، وكان هو الرسول الوحيد الذى قتل من رسل النبى - ﷺ - وحاملى كتبه، وقد حزن النبى لمقتله حزنًا شديداً، وكان العرب والناس جميعًا متواضعين على أن قتل الرسول من أكبر أنواع الغدر التى تشن الحرب لأجلها. وهذا فوق ما توجبه الحكمة فى تأمين طريق الدعوة. وقد قدر الروم أنفسهم أن محمداً وأصحابه لا يسكتون على قتل الرسول. فأخذوا حذرهم. وحشدوا من الروم ومتنصرى العرب قوة يستأصلون بها أمر محمد. وحينما علم الرسول بذلك جهز جيشًا يضعف به من حدة الثائرين عليه. الهازئين بدعوته. وأنفذه إلى الروم. فوجد الحشد على قوة واستعداد. وكانت الموقعة المعروفة بموقعة مؤتة. وقد استشهد فيها ثلاثة من قواد المسلمين عقد النبى لهم لواء الجيش على الترتيب وهم: زيدبن حارثة. فجعفر بن أبى طالب. فعبد الله بن رواحة: وقال: إن قتل عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون لإمارتهم رجلا من بينهم. وفعلا قتل عبد الله بن رواحة. وهم بعض المسلمين بالرجوع، ولكن بادرهم عقبة بن عامر بقوله: يا قوم: يقتل الإنسان مقبلا خير من أن يقتل مدبراً. فتراجعوا واتفقوا على تأمير القائد، سيف الله فى أرضه، خالد بن الوليد. وبمهارته الحربية أنقذ جيش المسلمين - وكان عدده ثلاثة آلاف - من جيش الروم الذى كان عدده حوالى مائة وخمسين ألفًا.

غزوة تبوك وظروفها:

سلم الجيش ورجع إلى المدينة، وكانت هذه الموقعة أولى المواقع بين المسلمين والروم. وبعدها فتح المسلمون مكة. ثم جاءت السنة التاسعة. وتوالت الأنباء للنبى - ﷺ - بأن الروم جمعوا للمسلمين الجموع، واعتزموا غزوهم فى بلادهم. فأمر النبى أن يتجهز المسلمون ويأخذوا عدتهم ويخرجوا إلى تبوك لقتال الروم فى بلادهم قبل أن يفاجئوه فى بلده.

أعلن النبى النفير العام. وأعلن على خلاف العادة أن تبوك هى الوجهة التى يقصد، ويعلم المسلمون أن بينهم وبين تبوك أربع عشرة مرحلة «تقدر بنحو ٦٩٢ كيلو» تقطع فى صحراء جرداء. يقل ماؤها، ويجف ضرعها، ويشتد حرها، والعدو معروف بوفرة العدد وكثرة العدد. وهو بعد فى بلاده، تسرع إليه المؤونة والذخيرة. والوقت وقت نضج الثمار وجنيها فى المدينة، والمسلمون فى أعقاب حرب الطائف وحنين.

أمام هذه الاعتبارات، وفى المسلمين مؤمنون صادقو الإيمان، يضحون براحتهم وأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله. وفيهم ضعفاء تهزهم مشقة الطريق وشدة الحر وبعد الشقة، والحرص على الثمار، ورهبة العدو القوى. وفيهم منافقون أعلنوا الإسلام رغبًا أو رهبًا، وسخروا فى نفوسهم من محمد أن يدعو لقتال بنى الأصفر، وأخذوا يثبطون، ويعتذرون، ويثيرون الفتن والأراجيف ويدبرون الكيد ويضعون العراقيل.

أمام هذا كله سارع المؤمنون المخلصون إلى تلبية الدعوة بأموالهم وأنفسهم يجهزون الجيش، ويعدون العدة. وقد خرج أبو بكر حينئذ من كل ما يملك، كما قام بنصيب الأسد فى التجهيز عثمان بن عفان. بذل الآلاف، وجهز المئات من البعير والخيل. وجهز هو وغيره الفقراء الأقوياء الذين جاءوا إلى النبى بأنفسهم ليحملهم فقال لهم: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾.

أما الآخرون، فمنهم من استأذن الرسول فى التخلف، ومنهم من انتحل الأعذار، ومنهم من أخذ يثبط همم الضعفاء من المسلمين، ويثير الفتن والأراجيف. وعلى الرغم من كل ذلك فقد أكمل الله لرسوله ما أراد، وتم إعداد الجيش. وخرج فى رجب من تلك السنة يدفع بعضه بعضًا، وتتدافع جنباته فى جوف الصحراء، مثيرًا أمامه وعلى جانبيه من النقع ما كاد يصل إلى القوم نبؤه. حتى وقع الرعب فى قلوبهم، والذعر فى نفوسهم،

والنكوص في نيتهم، وآثروا الرجوع إلى بلادهم، والالتجاء إلى حصونها خوفًا من سطوة المؤمنين الصادقين.

وصل الجيش إلى تبوك ولم يجد للروم أثرًا، وأقام بها أيامًا يتحدى بقوة الإيمان من تحدثه نفسه بالنزال أو المقاومة. وقد انتهز النبى الفرصة وأخذ يعمل على تأمين الحدود؛ فعاهد أمراءها، وأقام بهذه المعاهدات المعاقل بينه وبين الروم. ثم عاد الجيش إلى المدينة بعد أن حصن رقعة الإسلام من إغارة المغيرين، ذلك التحصن الذى لم يفقه سره المنافقون، أو فقهوه وملأهم حقدًا وضغينة، فأخذوا ينفثون سموم حقدهم وضغنهم فى ضعاف المسلمين، وكان منهم ما كان من صور الكيد والإيذاء التى دبروها للنبى وأصحابه فى الخروج وفى الذهاب وفى المدينة، والتى لأجلها، ولتطهير المسلمين من آثارها نزلت تلكم الآيات، وكانت هذه آخر أهبة، وآخر خروج للغزو فى حياة الرسول. وهى وإن لم يحصل فيها غزو ولا جهاد فقد حصن المسلمون بها حدودهم، وكشف الله بها عيوب المنافقين، وأدب بها ضعاف المسلمين.

وقد ظل النبى - ﷺ - مشغولاً بأمر الروم اعتقادًا منه أنهم لا يعدلون عن غزو المسلمين فجهز فى آخر حياته لغزوهم الجيش الذى أنفذه - من بعده - ﷺ - خليفته الأول أبو بكر - رضى الله عنه - بقيادة أسامة بن زيد، وبه توالت الفتوحات الإسلامية فى الروم والفرس، وامتدت كلمة الله على معظم أجزاء المعمورة فى عهد خلفائه الراشدين.

إنكار تقريع للتثاقل عن دعوة الجهاد:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ** .... إلخ ﴾.

ينكر الله على المؤمنين تثاقلهم، وإخلادهم إلى الأرض حين دعوتهم إلى الجهاد، ويسوق ذلك في صورة الاستفهام عما أصابهم وهم مؤمنون، فألهاهم عن واجب الإيمان: ﴿ **مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ** ﴾[1] ثم يفترض ألا سبب يحملهم على ذلك التثاقل سوى مالا يختاره عاقل، وهو الرضا بحياة الذل

---

(١) ضمن الفعل معنى الميل والإخلاد، والأرض، إما متاع الدنيا أو أرضهم وبلادهم و(من) معناها (بدل) ولم يذكر متاع الآخرة للدلالة على أن الآخرة لذاتها أبقى من الدنيا مع ما فيها من متاع.

والاستعباد عن حياة العز والقوة: ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ فمتاع الدنيا متاع لا يسلم من تنغيص، وهو بعد زائل. أما متاع الآخرة فمتاع العز والشرف، وهو متاع دائم وكثير.

الأمة كلها جيش:

ويدل توجيه الخطاب إلى المؤمنين عامة على أن الجيش فى الإسلام هو كل الأمة، ولا يعفى من الجندية سوى من ذكروا فى قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ حصر سبب المعافاة فى الضعف بعجز أو شيخوخة، وفى المرض وفى عدم القدرة على الإنفاق، وهذا الأخير كان بحكم النظام السائد إذ ذاك من أن المجاهد يجهز نفسه، وقد صار الآن إلى غير ذلك والدول هى التى تجهزه.

وفى القرآن آيات تشير إلى كثير من قواعد التنظيم العملى للحرب وقد أوردناها فى رسالتنا «القرآن والقتال» كما تحدثنا فيها عن سبب القتال فى الإسلام، وعن القوة المعنوية والقوة المادية وحث القرآن عليها توفيراً لأسباب النصر. وفى سورة النساء والتوبة والأحزاب عناية تامة بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان. وإذا كان الجيش فى الإسلام هو كل الأمة فتطهيره هو تطهير الأمة.

وإنما بنى الفعل للمجهول فجاء (إذا قيل لكم) - وإن كان القائل معلومًا وهو الرسول - للدلالة على أن التثاقل عن دعوة الجهاد فى سبيل الله من أى داع كان لا ينبغى أن يكون من المؤمنين، فيشمل الرسول وغيره من كل من يدعو إلى الجهاد فى سبيل الله.

سر توجيه الإنكار إلى الجماعة وفيها المخلصون المسارعون:

ولعل سائلا يسأل هنا ويقول: كيف يوجه هذا الإنكار وذلك التوبيخ إلى جماعة المؤمنين، وفيهم من لبى نداء الدعوة وبذل المال دون أن يتثاقل، ودون أن يؤثر متاع الدنيا على متاع الآخرة، بل لباها، وأسرع إليها، ابتغاء مرضاة الله، وإعراضًا عن متاع الدنيا الفانى، وإيثاراً للمتاع الباقى؟.

وفى جوابه نقول: هو وإن كان إنكاراً وتوبيخًا لجماعة المسلمين إذ ذاك، غير أنه تعليم عام، وإرشاد شامل لجميع المسلمين فى كل مكان وفى كل عصر، وهو بذلك يقرر شأنًا للمؤمنين لا ينبغى أن يزايلهم، وهو مسارعتهم لدعوة الجهاد وعدم الإخلاد إلى الأرض. وإذا كان المسلمون جميعًا فى ذلك الوقت لا يصدق عليهم موجب هذا الإنكار، فإن أطوار المسلمين التى أعقبت هذا الجيل الأول منهم قد تحقق فيها موجب ذلك الإنكار بالنسبة لجميعهم، وما عهدنا الحاضر إلا أكبر مظهر من مظاهر التثاقل التى انضوى تحت ظلها جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، فهو الآن خطاب لهم جميعًا، وخطاب واقعى بالنظر إلى ما صاروا إليه من التفرق، وشتات الأمر، وضعف السلطان. اثاقلوا، وأخلدوا إلى الأرض، ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة.

على أن خطاب المؤمنين فى ذلك الوقت، وفيهم من لبى الدعوة، دليل واضح على التضامن الذى يجب أن يكون بين المؤمنين، وعلى أن تثاقل نفر منهم محسوب على الجميع، وأن جماعتهم مسئولة عن أفرادهم، وهذا هو الشأن العام فى التكاليف الإلهية، ومن هنا كان التواصى بالحق، والتآمر بالمعروف، والتناهى عن المنكر، من المبادئ التى يشاد عليها صرح الحياة الإسلامية.

ومن هنا كان من وصايا القرآن: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾.

ومقتضى هذا وجوب تعهد الجماعة لمن يبدو عليه من أفرادها شىء من أمارات الضعف والتخاذل بما يقويه ويرفع من معنويته، ويجعله عضواً عاملا قويًا مخلصًا فى حياة الجماعة.

التذكير بنتائج التثاقل عن الجهاد:

مضت سنة الله فى هذه الحياة على أن البقاء، والعزة، والسلطان، وعلو الكلمة، إنما يكون للعاملين المجاهدين، أما المتباطئون، والمتثاقلون الذين يؤثرون حياتهم، ويضنون بأنفسهم وأموالهم، ويخلدون إلى الأرض، ويعرضون عن دعوة الجهاد فى سبيل حريتهم وبقائهم، فإنهم ولا بد ذاهبون، وهم لا محالة مستذلون مستعبدون.

﴿ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يذلكم ويستعبدكم لغيركم: يسومكم سوء العذاب، يستلب أموالكم، وينتهك أعراضكم، ويذبح أبناءكم. هذا التعذيب جزاء

طبيعى للجبن وعدم القيام فى وجه العدو وللتثاقل عن الجهاد، وليس هو الجزاء الأخروى الذى أعده الله لمن يخالف أمره حتى يقال: دلت الآية على أن الأمر بالشىء ليس مقتضاه سوى طلب الفعل، أما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من الأمر ولا يقتضيه، وإنما يدل عليه بالخبر عنه كما تقول: إن لم تفعل عذبتك، وكما جاء فى هذه الآية. نعم هو كذلك بالنسبة للأوامر فيما يختص بالأخروى. أما آيتنا فهى تشير إلى الجزاء الطبيعى لعدم امتثال الأمر، وهو لازم للأمر أخبر به أم لم يخبر. ويدل على أن المقصود ما ذكرنا قوله فيما بعد: ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ فإنه صريح فى ذهابهم والإتيان بغيرهم بدلا عنهم، وكل ذلك فى الدنيا. وليس معنى إذلال المتثاقلين من المؤمنين أن يضيع الحق الذى رسم الله أن يكون بين عباده وبعث به رسله، وأنزل كتبه؛ فالحق لله، وهو لا بد لحقه ناصر، فإن لم ينصر بسواعد قوم رضوا بالحياة الدنيا، وذهب بهم الضعف والخور، فسيهيئ الله لحقه من يدعو إليه، ويحافظ عليه، وهذا ما يقصد من قوله تعالى: بعد ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يؤمنون بالدعوة، ويؤمنون بوعد الله ونصره للمؤمنين، ونظير هذا قوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ وقوله: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ ووصف القوم بالغيرية للدلالة على المغايرة الذاتية، أى قومًا مطيعين، يؤثرون الدار الآخرة على متاع الدنيا. والأسلوب يدل على شدة السخط عليهم، كما يتضح من آية المائدة وآية: ﴿ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾.

﴿ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾.

ورد مثل هذا فى القرآن مخاطبًا به النبى - ﷺ -:

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾. ﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ﴾.

وجاء منسوبًا إلى الله: ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾.

وإلى المؤمنين: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾.

نصر الله لنبيه لا يتوقف على المتخاذلين:

بعد أن أنكر الله على المؤمنين التثاقل فى تلبية الدعوة إلى الجهاد، وأشار إلى أن التثاقل مما يأباه الإيمان، وأن الإيمان جدير بأن يدفع المؤمنين إلى الجهاد ورد كيد الأعداء، وهددهم بأن نتائج هذا التثاقل لا بد أن تقع بهم، وأنه لا يضر الحق الذى كفله الله. بعد هذا أخذ يقرر أن نصر رسوله على أعدائه لا يتوقف على نصرهم إياه، ولا على خروجهم معه، فقد عوده الله النصر، ونصره في مواطن عدة، ولم يكن له من الأتباع فى تلك المواطن مثل ما له الآن، فقال: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾.

ذكرهم فى هذه الآية بتاريخ عنايته ونصره لرسول الله - ﷺ - فذكرهم بإيذاء قريش له وتضييقهم عليه حتى ألجئوه إلى الخروج من مكة، وهذا هو ما يدل عليه كلمة ﴿ **أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ فقد خرج من ذلك النطاق الذى ضرب حول بيته بالحديد والنار، خرج ظافراً منتصراً وقد باء القوم فى مكرهم بالفشل. وهذا هو ما تشير إليه آية الأنفال: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾.

نصره فى ذلك الوقت حالة كونه بعيداً عنكم: وليس معتمداً عليكم، وإنما كان ثانى اثنين، أحد اثنين، لا ثالث لهما منكم. فى ذلك الوقت الذى ضمه هو ومن معه الغار، وكانا فيه موقع أبصار القوم - لو نظروا تحت أرجلهم - فحول الله أبصارهم، وأخذوا يرمون بها فى الصحراء ورمالها. كما أعمى بصائرهم من قبل، وخرج الرسول من بينهم بعد أن تحلقوا حول بيته. نصره وقت أن اشتد خوف صاحبه عليه وهما فى الغار، فأخذ يطمئن صاحبه، ويقول له: ﴿ **لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ والمراد بها الولاية الدائمة التى لا تنقطع، والتى لا تحوم حول صاحبها شائبة شىء من الحزن، وخرج هو وصاحبه أعزلين لا سلاح معهما، ولا قوة لهما حتى تلقاهما الأنصار فى المدينة بالتهليل والتكبير.

ثم فصل (بالفاء) مصدر هذا النصر وأنه أمران: باطنى، يرجع إلى إنزال الله السكينة فى قلبه والثقة بتمام نصر الله له، وبها خرج من مكة، ووصل إلى الغار وأقام فيه مع

صاحبه وطمأن صاحبه، وبها خرجا منه، وبها وصلا إلى المدينة، وبها رتب شأنه ودخل مع القوم فى الحروب.

وخارجى، وهو التأييد بالجنود التى لم يرها القوم، وإنما كانوا يرون أثر ذلك فى نهاية الغزوات حتى أكمل الله دينه وجاء نصر الله والفتح، وكانت النتيجة أن ﴿ **وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا** ﴾.

ولا ريب أن هذا «الجعل» لا يكون بمجرد الاتجاه فى حادث الهجرة، وإنما كان بنصره إياه فى المواقع الحربية التى حصلت بعد ذلك، وقد أشار إلى هذا بقوله: ﴿ **وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا** ﴾.

وهذه الجملة تشير إلى غزوة بدر، والمسلمون فى قلة من العَدد والعُدد وقد خرجوا للعير لا للقتال، وقد أراد الله أن تكون لهم ذات الشوكة، وأدركوا ضعفهم، وأخذ النبى يستغيث ربه فاستجاب له ﴿ **أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ وفيها يقول: ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾. وقد تم لهم بذلك النصر والتأييد.

وتشير إلى ما حصل فى غزوة الأحزاب، إذ جاءتهم الجنود من فوقهم ومن أسفل منهم، وإذ زاغت أبصارهم وبلغت القلوب منهم الحناجر، فأيدهم الله بنصره وأرسل على أعدائهم ريحًا وجنودًا لم يروها، وفى هذا تقول سورة الأحزاب: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾.

وتشير إلى ما حصل فى غزوة حنين حينما تفرق شمل المؤمنين فأيدهم الله ونصرهم، وفى ذلك تقول سورة التوبة: ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾.

ثم أشارت الآية بعد ذلك إلى نتيجة هذا التأييد فى بقاء علو كلمة الله، وانحطاط كلمة الذين كفروا، وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾. عزيز لا يغلب حقه باطل، حكيم يدبر الأمر، ويرتب المقدمات والأسباب، ويصل إلى النتائج، ويرد كيد العادين. والأسلوب يدل على أن كلمة الله لها العلو والرفعة والنفاذ. أما كملة الكفر والجحود، فقد يبدو لها طغيان ومظاهر الغلب، ولكن لا تلبث أن ترد إلى حضيضها، وتبقى كلمة الله الواحد القهار.

السكينة فى القرآن:

هذا، وقد ذكر الله فى القرآن إنزال السكينة فى أربعة مواضع، هذا أحدها. وهى - والله أعلم - السكينة التى أنزلها الله على قلب رسوله وضمن له بها النصر وتبليغ الرسالة، وهى شأن الله العام مع نبيه. وقد تعددت آراء المفسرين فى مرجع الضمائر فى «تنصروه، سكينته، وأيده» وكلامهم جميعًا يدل على أن الآية تصوير لحادثة الهجرة فقط، ولكنا نرى أنها تصوير عام لحالة النبى منذ إرساله واشتداد أمر قريش عليه، إلى أن من الله عليه بالفتح وتطهيره الجزيرة.

وذكرت فى هذه السورة أيضًا فى آيات الحديث عن غزوة حنين، وقد كانت على الرسول والمؤمنين معًا: ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾.

وذكرت فى سورة الفتح مرتين: مرة على المؤمنين، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾. وكان ذلك حينما اشتد الأمر على المسلمين، حينما قبل الرسول صلح الحديبية بشروط رأوا فيها تحيفًا بهم وغلظة عليهم، وكاد الأمر يفلت من يد الرسول لولا مشورة زوجه أم سلمة. وبها أنزل الله سكينته عليهم وانقادوا لأمر الرسول.

وقد ذكرت فى هذه السورة أيضًا فى بيعة الشجرة. ﴿ **لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾.

وقد ذكرت ثالثة حينما رفض الكفار توقيع النبى على وثيقة الصلح بوصف الرسالة، وقالوا له: لو كنا نؤمن أنك رسول لما خالفناك، وقبل النبى أن يشطب وصف الرسالة

ويكتفى بمحمد بن عبد الله، وقد تأثر المؤمنون بذلك، وهذا حيث يقول الله فى سورة الفتح: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾.

«إن الله معنا» ـ معية الله ومعناها:

بقى فى الآية بعد ذلك الكلام على معية الله لخلقه، وقد جاءت فى القرآن على أنواع: جاءت معية الله للملائكة وذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾.

وجاءت معيته للمتقين والمحسنين والصابرين من عباده وذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

وجاءت معيته لموسى فيما يحكيه الله عنه: ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾.

وجاءت معيته لموسى وهارون، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾.

وجاءت معيته للناس جميعًا، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾. ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾.

وهذه المعية الأخيرة معية علم وإحاطة بشئون العباد، يحصيها، وينبئهم بها، ويحاسبهم عليها، وهى معية عامة شاملة، وتشترك المعيات الأخرى السابقة فى أنها معية تأييد ونصر، ومعونة وحفظ، وهى مع هذا تتفاوت، فمعيته للمتقين المحسنين معية معللة بصفتى التقوى والإحسان، ومعناها: أن كل من يجتنب ما يجب تركه، ويحسن فعل ما يجب فعله، فهو فى معية الله وحفظه وكلاءته.

أما معيته للملائكة، ولموسى وهارون، ومعيته لمحمد وصاحبه، فهى معية غير معللة

بوصف زائد على ذواتهم، فهو مع الملائكة، ومع موسى وهارون، ومع محمد وصاحبه بالنظر للاصطفاء فى الرسالة.

ويوجد فرق بعد هذا فى أسلوب المعية لكل من هذه الجهات، فمعية الله لموسى ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ذكرت بوصف الربوبية، ومعية الله لمحمد وصاحبه ذكرت بالاسم الجامع لصفات الجلال والجمال. كما ذكرت مطلقة غير مقيدة بالهداية، فتشمل الهداية والنصر، وقيدت فى معيته لموسى بالهداية.

ومعية الله لمحمد وصاحبه لم ترتب من الله على خوف محمد، بخلاف معيته لموسى وهارون حيث رتبت من الله على خوفهما إذ قال: ﴿ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ فجاءت تعليلا لنهيهما عن الخوف، ولم تذكر معية الله لمحمد بناء على خوف علمه الله منه، نعم ذكرت إثر علم الرسول بحزن صاحبه، ونهيه عنه ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ والمعية - وإن لم تكن عبارتها صادرة من الله - غير أنها أيدت من الله، وأقر الرسول عليها، أو أن الرسول قالها بناء على إيمانه السابق بها عن طريق الوحى.

والخلاصة أن معية الله لمحمد وصاحبه أسمى من معيته لموسى وهارون، وإذا كان أبو بكر قد حزن لما وقع فيه - ونهاه الرسول عن ذلك - فله أسوة بنبيين كريمين وهما موسى وهارون حيث خافا من أمر متوقع: وبهذا كان نهيهما عن الخوف، وكان نهى أبى بكر عن الحزن، والحزن تألم النفس من أمر واقع، والخوف تألم النفس من أمر متوقع، والنهى عن الحزن يستدعى النهى عن الخوف، فلذا اختلفت صيغة النهى.

دلالة الآية على فضل أبى بكر:

وقد دلت الآية على سمو مكانة أبى بكر من وجوه:

أولها: أنه هو الصاحب الوحيد الذى نزل الوحى بعقد صحبته للرسول.

ثانيها: أنه لم يخرج أحد من خطاب التوبيخ السابق، سوى أبى بكر، وفى ذلك ما روى عن على - رضى الله عنه - أخذاً من هذا: «إن الله ذم الناس كلهم ومدح أبا بكر». وعن الشعبى أنه قال: والذى لا رب غيره لقد عوتب أصحاب محمد فى نصرته إلا أبا بكر، فإنه لما قال: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ .... ﴾ إلى آخره، أخرج أبا بكر.

ثالثها: أن الله جعله مع النبى أحد اثنين دون تفاوت، وفى الرواية: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟

رابعها: تقرير الله لمحمد في نهيه صاحبه عن الحزن، وفى معية الله لهما معًا، وحكايته إياه فى كتابه الخالد: ﴿ **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾.

وقد كان أبو بكر - أول من آمن من الرجال - بعد الرسول ثانى اثنين فى الإيمان، ودعا عقب إيمانه طلحة والزبير وعثمان بن عفان وجماعة آخرين من الصحابة، دعاهم إلى الإيمان فآمنوا على يديه، وكان بذلك بعد الرسول، ثانى اثنين فى الدعوة إلى الله.

وكان أبو بكر فى مجالس النبى - ﷺ - يقف فى خدمته وفى أقرب مكان منه، وبذلك كان مع الرسول ثانى اثنين فى المجلس.

ولما مرض الرسول - ﷺ - أمر أبا بكر أن يصلى بالناس، فكان مع الرسول ثانى اثنين فى إقامة الصلاة.

ولما توفى الرسول تولى أبو بكر إدارة شئون المسلمين فكان مع الرسول ثانى اثنين فى ولاية المسلمين.

ولما مات أبو بكر دفن بجانب الرسول فكان للرسول ثانى اثنين فى القبر.

أظن أن أحدًا لا يستطيع بعد هذا أن يزعم لغير أبى بكر مكانة أبى بكر. ولكن النزعات السياسية أو العصبية تأبى إلا أن تثير الشبهات وتتناول المقامات، ولقد كان المسلمون فى غنى عن كل هذا لو طهرت نفوسهم بآداب الإسلام، واستقبلوا كتاب الله بما يجب أن يستقبلوه به من معرفة ما يتوقف عليه عزهم ويحفظهم من التفرق والانحلال.

تقرير واجب المسلمين حين الدعوة العامة للجهاد:

بعد أن أنكر الله على المؤمنين التثاقل فى تلبية الدعوة إلى الجهاد، وبعد أن هددهم بسوء المصير إن لم ينفروا ويسارعوا، وبعد أن طالعهم بسنته مع نبيه وأن نصره إياه لا يتوقف عليهم. بعد ذلك، عاد فأمرهم بالواجب الدينى حين الدعوة إلى الجهاد، وذلك قوله تعالى: ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن**

كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ والخفاف جمع خفيف، والثقال جمع ثقيل، والخفة والثقل فى الأشخاص تكون بالنظر إلى الأجسام، وبالنظر إلى صفاتها، من صحة ومرض، وشباب وكبر، ونشاط وكسل، ويكونان بالنظر إلى الأحوال الخارجة كالقلة والكثرة، والفقر والغنى، ووجود الشواغل وعدمها.

والآية تقرر أنه يجب على المؤمنين النفير العام حين الدعوة إليه على أية حال كانوا، ولا يباح لأحد أن يتخلف إلا فى حالة العجز التام، وهو كما تدل عليه الآية: **﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾**. على أن هذا الثالث مقيد بما إذا لم يجد من يحمله. وبذلك كانت الآية محكمة لا نسخ فيها، ولا تعارض بينها وبين قوله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾**. فإن هذا إما أن يكون للنفرة فى تعلم العلم وأحكام الدين، أو فى غير حالة الدعوة العامة للجهاد.

وقد أرشدت الآية إلى أن الجهاد يكون بالأموال والأنفس، فمن قدر عليهما وجبا عليه، ومن قدر على أحدهما وجب عليه ما قدر عليه. وقد كان المؤمنون كذلك فى عهد الرسول - ﷺ -. وفى عهد التنظيم الحربى يجب معونة إدارة الجيش، لاتخاذ العدة اللازمة وتدريب العدد المناسب.

هذا هو الواجب، وقد بين الله فائدته بقوله: **﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** تعلو كلمتكم، ويعظم سلطانكم، ويحفظ كيانكم، وتنالون به الخير فى الدنيا وفى الآخرة.

أما الدنيا، فلا حياة للأمم فيها ولا عز ولا سيادة إلا بالقوة الحربية. والقعود عن القتال، والتقصير فى إعداد عدته يغرى الأعداء بالقاعدين والمقصرين.

وأما فى الآخرة فإن سعادتها متوقعة على نصرة الحق، وإقامة العدل، وتنفيذ أحكام الله وشرائعه، ولا شك أن ذلك كله متوقف على استقلال الأمة، وقدرتها على حفظ كيانها، ورد تسلط الأعداء عليها **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾**.

ثم ذيل الله الآية بما يدل على أن هذا المبدأ مما يدرك الناس خيريته بعقولهم وعلمهم لشئون الحياة والاجتماع **﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**.

كلمة فى معنى «سبيل الله»:

كلمة «سبيل الله» وردت كثيراً فى القرآن الكريم، وهى فى الأصل بمعنى الطريق المعبد، تستعمل فى الخير، وتستعمل فى الشر، ومنه سبيل المجرمين. وتضاف إلى الله، وإلى المؤمنين فيقال: سبيل الله، وسبيل المؤمنين وهى حينئذ تلتقى بمعناها مع كلمة «الصراط المستقيم» وكلاهما بمعنى ما رسم الله لعباده من الإيمان بالحق والدعوة إليه، وعمل الخير والحث عليه. فإعلاء كلمة الله، ونشر دعوة الإسلام: من سبيل الله. ودفع الأعداء إذا هددوا أمتنا، أو أغاروا على أرضنا، أو نهبوا أموالنا، أو صادرونا فى تجارتنا، أو صدونا عن استعمال حقوقنا مع الناس: من سبيل الله. وإقامة العدل فى الأحكام، ورد الأمانات إلى أهلها، والطاعة فى حدود ما أمر الله: من سبيل الله.

والعمل على مصالح الأمة بإنشاء دور العلم والمستشفيات ودور الصناعة التى تتوقف عليها حياة الأمة ورقيها، وتحقق اكتفاءها بنفسها، وتدفع حاجتها إلى غيرها: من سبيل الله.

وحفظ أموالها وعدم التهاون فيها: من سبيل الله.

وعلى العموم فسبيل الله عبارة عن تأييد الحق وإحلال الخير والصلاح محل الشر والفساد، ووضع العدل والرحمة موضع الظلم والقسوة. وقد قيد القرآن القتال الذى أمر به فى القرآن الكريم بأنه فى سبيل الله، فلا يختص بناء على ما سبق بالقتال لأجل الشرك، وإنما يعم القتال للبغى والظلم والفساد، إلى غير ذلك مما هو أثر فى واقع أمره للشرك وعدم الإيمان، وإن قال الظالمون المفسدون إنهم مؤمنون.

وكما حث القرآن على اتباع سبيل الله وعلى الدعوة إليه والقتال لأجله، توعد بالعذاب الشديد من صد عنه: ﴿ **فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** (٤٤) **الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ** ﴾.

ويصرح كثيراً بأن الصد عن سبيل الله شأن المشركين، وأنهم ينفقون أموالهم فى سبيل الصد عنه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** ﴾. ومن ورثة هؤلاء وبقاياهم هؤلاء الجماعات التى تتكتل وتنفق من مالها لبث الدعاية ضد الحق، وللحيلولة بين أهل الحق والدعوة إليه، ولإفساد النظام على أهل النظام.

ويصرح أيضًا بأن شأن الأحبار والرهبان، وأنهم يجمعون عن طريقه أموال الناس ويأكلونها بالباطل، ويحذر المؤمنين أن يكونوا أمثالهم: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾.

ويشير القرآن الكريم فى كثير من آياته إلى أن من بواعث الصد عن سبيل الله إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، وكأنهم يرون أن سبيل الله إذا قامت ضعفت دنياهم ودالت دولتهم: ﴿ **وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ ومن ورثة هؤلاء الذين يقبضون على السلطان ويخشون من سلطان الحق.

وإلى أن بواعثه أيضًا التفلسف الكاذب، الذى كثيرًا ما خطف أبصار أبنائنا فراحوا به يكفرون بالله وبسبيل الله. راحوا يكفرون بشرع الله وأحكامه فى الطلاق، فى تعدد الزوجات، فى الميراث، فى الحدود، فى الربا، فى كل ما فرضه الله فى كتابه لخير عباده، ولم ينل حظًا عند المفتونين بحضارتهم الزائفة: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾.

هذا، ولا نعرف لكلمة «سبيل الله» فى القرآن الكريم معنى غير البر العام، والخير الشامل، حتى آية مصارف الزكاة، ومن الغريب أن أكثر الناس مع وضوح إرادة العموم فيها حملوها على خصوص منقطع الحج أو منقطع الغزاة، ولا نرى لهذا التخصيص من باعث سوى اعتبارات لا تنهض دليلا على التخصيص.

جولة فى بقية السورة:

بعد الدعوة السابقة إلى الجهاد بالنفس والأموال، والنفير العام خفافًا وثقالاً تتبعت السورة شئون المنافقين، وأزاحت الستار عن أصنافهم وأوصافهم، وفضحت أساليب نفاقهم وألوان فتنهم وتخذيلهم للمؤمنين، وتركتهم السورة - بعد هذا الكشف والإيضاح لموقفهم وصفاتهم - تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين.

فمن صفاتهم: الفرار من مواطن الجد والجهاد، واللجوء إلى الاستئذان والاعتذارات الواهية بل المكذوبة، مؤكدين لها بالأيمان الفاجرة ـ كما فعلوا عند الدعوة إلى تبوك ـ وفى ذلك نقرأ بعد الآيات السالفة: ﴿ **لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾.

ويعاتب الله رسوله على إذنه لهم قبل التثبت من أعذارهم عتابًا لا يخلو من لطف المحب بحبيبه فيقدم العفو قبل الملام: ﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ** ﴾.

وتتابع الآيات فضحها لمواقف المخذلين مبينة أن خلو الجيش منهم خير ونعمة، ووجودهم فيه بلاء وفتنة: ﴿ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ** ﴾.

وتجرى السورة فى كشف نفاق أولئك القوم شوطًا بعيدًا عدة أرباع منها، بينت فيها موقفهم من الجهاد، وموقفهم من شعائر الإسلام: ﴿ **وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ** ﴾ وموقفهم من المسلمين فى حالة القوة والشوكة: ﴿ **وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ** ﴾.

وموقفهم من الرسول، وإشاعة التهم الباطلة وأقاويل السوء عنه: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ** ﴾.

وهنا تبين السورة الجهات التى يجب أن تصرف إليها وفيها الزكاة، وهذه الجهات تشتمل على أفراد مستحقين، ومصالح عامة، وقد عبرت آية الصدقات عن الأفراد بحرف «اللام» وعن المصالح بحرف «فى»: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾[١].

---

(١) راجع فى مصارف الزكاة كتابنا «الإسلام عقيدة وشريعة» فصل «الزكاة».

ومن التهم الباطلة التي آذوا بها النبي المعصوم ودفعها القرآن عنه: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ (أي يسمع لكل ما يقال له) ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ وربطت السورة بعضهم ببعض برباط السوء والمنكر وعزلتهم بهذا الرباط عن جماعة المسلمين المؤمنين: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.

وفي مقابل هذا ترسم صورة مضادة للمؤمنين: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾.

ثم تأمر النبي أن يجاهد الفريقين جميعًا: الكافرين الذين صرحوا بالكفر وأعلنوه، والمنافقين الخبثاء الذين يقولون آمنا وما هم بمؤمنين:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

وتعود السورة إلى تتبع المنافقين، وتظل في ذلك حتى تحذر الرسول أن يشركهم معه في قتال: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾.

وظلت السورة تقذف هؤلاء بالحمم: ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴾. ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾.

وتظل الآيات تتتابع حتى تنتهي إلى كشف نواياهم الخبيثة في مسجدهم الذي أقاموه - بالتعاون مع أبي عامر الفاسق - مناوأة للمؤمنين، والذي عرف باسم «مسجد الضرار». وقد نزلت في شأنه آيات أربع من السورة:

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ولم يكد النبي يتلقى عن الوحى هذه الآيات حتى دعا جماعة من أصحابه، وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وحرقوه» ولم يلبثوا إلا قليلا حتى عادوا بعد أن وصلوا بهدمه وتحريقه إلى الأرض، وتفرق عنه منشئوه المنافقون شذر مذر[1] .

التعاقد بين الله والمؤمنين:

بعد هذا تنتقل السورة بالحديث إلى المؤمنين: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والآية الأولى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ تصور وعد الله للمؤمنين بصورة عقد بين بائع وهم المؤمنون، ومشتر وهو الله سبحانه، على مبيع هو أنفس المؤمنين وأموالهم، وثمن هو الجنة. وتبين أن استحقاق البائع للثمن لا يتوقف إلا على الدخول فى معمعة القتال، وسواء بعد ذلك قتل وغلب، أو قُتل وغُلب، ومعناه أن استحقاق المؤمنين للجنة لا يتوقف على موتهم في سبيل الله، وإنما هم يستحقونها بالقتال وإن لم يُقتلوا ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ .

---

(١) راجع موضوع «المنشأة الفاسقة» فى كتابنا: من توجيهات الإسلام.

ثم بعد أن يصور الوعد الكريم هكذا يذكر جملة من مؤكدات الوفاء بالثمن «وعداً» والله لا يخلف وعده «عليه» كتبه على نفسه «حقًا» ثابتًا لا يعتريه محو، وهو بعد هذا فى الوثائق الإلهية قديمها وحديثها ﴿ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ ثم بعد ذلك كله، من الله ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ثم يوجه إلى البائعين، وهم المؤمنون، خطاب التكريم يزف إليهم البشرى بربح الصفقة، والفوز بنعيمها المقيم ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

ونظراً لما تضمنه هذا التعاقد من مكانة العلو السامية التى يشغلها هؤلاء المؤمنون، والمؤمنون فيهم وفيهم، استدعت الحكمة - وضعًا للأمور فى نصابها، وبيانًا لهم على وجه الحقيقة - أن يكشف عنهم، وأن يبرزهم بأوصافهم التى تهيئهم لتلك المكانة، وتجعلهم المثل الأعلى للمؤمن الكامل، فتقول. ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾.

﴿ التَّائِبُونَ ﴾ الذين يطهرون قلوبهم بالتوبة من الشرك والنفاق والمعصية، ﴿ الْعَابِدُونَ ﴾ الذين يملئون قلوبهم بخشية الله والخضوع له ﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ الذين يرطبون ألسنتهم بالثناء على الله ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ الذين يرتحلون بأنفسهم لتعرف أسرار الله فى كونه، والنظر فى آياته ﴿ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ الذين يقيمون الصلاة الخاشعة يؤدون بها حق الله، وبذلك كملوا أنفسهم فى ظاهرها وباطنها، ثم عرفوا حق عباد الله عليهم فكملوهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكانوا بعد ذلك وفى كل هذا واقفين عند حدود الله، محافظين عليها، ملتزمين لها ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ لا يقصدون سمعة ولا رياء وإنما يبتغون فضلا من الله ورضوانا.

وقد كان من حدود الله، التى رسمها فى هذه السورة وفى غيرها، مقاطعة المؤمنين للمشركين كيفما كانوا: فأعلمتهم الآيات أن هذه المقاطعة ليست خاصة بالأحياء منهم، وإنما هى تشمل من مات منهم على الكفر والعناد، ومقاطعة هؤلاء هى عدم الاستغفار لهم، فكان من كمال الإيمان ومن حدوده ألا يستغفر النبى والذين آمنوا معه للمشركين ولو كانوا أولى قربى، من بعد ما تبين لهم - بموتهم على الكفر - أنهم أصحاب الجحيم. ولما كان الله قد أمر المؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم عليه السلام، وقد استغفر إبراهيم لأبيه، بين لهم أنه لا يصح استنادهم على ذلك فى استغفارهم لأولى قرباهم فقال: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾.

ثم أزال عنهم خوف العقاب على ما سبق منهم من الاستغفار لأقاربهم المشركين قبل هذا البيان بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ والمعنى أن الله لا يصف قوما بالضلال على فعل شىء ما إلا بعد أن يبين لهم حرمته، بيانًا شافيًا، لا شبهة فيه.

ثم قررت الآيات توبة الله على النبى والذين اتبعوه فى ساعة العسرة والشدة فى غزوة تبوك: عسرة الماء، وعسرة الزاد، وعسرة الدواب، وعسرة الحر، وعسرة الصحراء، بل عسرة المشاهد القاسية التى مرت بالمؤمنين فى مراحل الجهاد، كالتى حصلت فى غزوات أحد، وحنين، والأحزاب ثم تُلحق الآيات بالنبى ومن معه فى التوبة عليهم، ثلاثة من أصحاب رسول الله تخلفوا عن غزوة تبوك، وصدقوا الله ورسوله فلم ينتحلوا أعذاراً، فأرجأ الله أمرهم عن أمر المتخلفين من المنتحلين والمعتذرين، وأدبهم الرسول بالمقاطعة خمسين يومًا حفظًا لهم من المعاودة، واختباراً لهم فى صدق الإيمان: ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

ولما كانت هذه العاقبة الطيبة، عاقبة التوبة عليهم، تنزل من السماء، إنما حصلوا عليها، وأكرموا بها جزاء صدقهم وتقواهم، وجه الله لعباده المؤمنين جميعًا هذا النداء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ لينالوا بالصدق والتقوى مثل هذه العاقبة التى حصل عليها هؤلاء من توبة الله ورضوانه. ثم تختم الآيات ببيان أنه ما كان ينبغى لأهل المدينة ـ وهى العاصمة الإسلامية التى هاجر إليها الرسول، وبايعه أهلها على النصرة والمنعة ـ أن يتخلفوا عنه فيما يدعوهم إليه من وسائل العزة والكرامة، وذلك فضلا عما أعد لهم عند الله من الجزاء العظيم فى مقابلة ما يصيبهم فى أنفسهم أو أموالهم، أو يقومون به ضد الأعداء ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا ﴾ (ينزلوا مكانًا) ﴿ يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾ (قتلا أو أسرًا أو غنيمة) ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

فإذا كان ما يصيبهم فى سبيل الله من مشاق، وما يغيظون به الكفار، وما ينفقونه من مال، قل أو كثر، مدخراً لهم جزاؤه عند الله، وقد أخذ به على نفسه العهد والميثاق، فكيف تخدعهم زخارف هذه الدنيا ويتخلفون عن رسول الله؟ ويؤثرون حياتهم على حياته وقد كان لهم نوراً ورحمة! هداهم به للإيمان، وأتم عليهم ببركته النعمة. وقد كان كما وصفه ربه فى ختام السورة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وبعد، فنختم هذه الجولة فى كتاب الله، بالدعاء الذى علمنا إياه رسول الله ـ ﷺ ـ «اللهم إنى عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى، ونور بصرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى وغمى»، اللهم آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . . .

محمود شلتوت

المحتـــويات